مدخل إلى الثقافة الإسلامية

تقديم
د. محمد سليم العوا

تحرير الكتاب
د. مصطفى أبو صوي

PASSIA
الجمعية الفلسطينية الأكاديمية
للشؤون الدولية – القدس

مدخل إلى
الثقافة الإسلامية

تقديم

د. محمد سليم العوا

PASSIA

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية - القدس

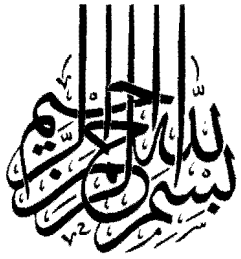

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية في القدس PASSIA، مؤسسة أكاديمية أهلية عربية مستقلة لا تسعى للربح أو التجارة أو المنفعة المالية، وغير مرتبطة بأية جهة حكومية أو حزبية أو تنظيمية أو طائفية، وتهدف إلى تقديم المسألة الفلسطينية في مضمونها الوطني وإطارها القومي العربي وأبعادها الدولية والإنسانية وتعمل على توظيف جهودها الأكاديمية وعلاقاتها الدولية لتعريف وتوثيق القضايا الفلسطينية.

إن ما ورد في هذا الكتاب من آراء وأفكار، يعبر عن اجتهاد ووجهة نظر المؤلفين، ولا يعكس أو يمثل بالضرورة موقف أو رأي الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية PASSIA، أو العاملين فيها أو الجهة الداعمة للمشروع.

وقد تم إعداد هذا البحث بإشراف ومراجعة وتحرير الأخ الدكتور مصطفى أبو صوي، مدير مركز الأبحاث الإسلامية في جامعة القدس، كما تكرم الأخ والصديق الكريم الدكتور محمد سليم العوا الأمين العام للاتحاد العالمي لعلماء المسلمين ورئيس جمعية مصر للثقافة والحوار بمراجعة الأبحاث والإضافة إليها وكتابة مقدمة هذا الكتاب وذلك لإغناء المكتبة الإسلامية ومساعدة للباحثين والجامعيين والطلبة في برامج دراستهم وتطوير آفاق المعرفة، ويأتي هذا الكتاب لإبراز بعض مناحي الفكر الإسلامي المعاصر في فلسطين كما يعرض له نخبة من العلماء والمفكرين في مجتمعنا.

ويأتي نشر هذا الكتاب ضمن برنامج وحدة الدراسات الدينية في الجمعية

Introduction to Islamic Culture
(First Edition, May 2008)

ISBN 9950-305-17-9

صورة الغلاف: أحد الأسقف المحيطة بقبة الصخرة من الداخل
جميع الحقوق © محفوظة للجمعية
(الطبعة الأولى أيار (مايو) ٢٠٠٨)

مطبوعات PASSIA
ص.ب: ١٩٥٤٥- القدس

مقدمه ٥
د. محمد سليم العوا

تمهيد ١٩
د. مصطفى أبو صوي

البحث الأول: السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ٢١
د. محمد مطلق عساف

البحث الثاني: العقيدة في الإسلام ٣٥
د. حافظ محمد الجعبري

البحث الثالث: وحدة علوم القرآن ٥٣
د. إسماعيل نواهضه

البحث الرابع: مفهوم السنة والحديث ٦٩
د. موسى البسيط

البحث الخامس: علم أصول الفقه ٧٩
د. عروه صبري

البحث السادس: تاريخ التشريع والفقه الإسلامي ٩٧
د. شفيق عياش

البحث السابع: الأخلاق في الإسلام ١١١
د. أحمد فواقه

الفصل الثامن: المرأة في الإسلام ١٢٣
د. مريم صالح

البحث التاسع: الإسلام وأهل الكتاب ١٣٧
د. مصطفى أبو صوي

البحث العاشر: اللغة العربية والحضارة الإسلامية ١٤٩
د. محمود أبو كته الدراويش

البحث الحادي عشر: الإسلام والعلم ١٦٣
د. محمود أبو سمره
د. عماد البرغوثي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وعلى سائر إخوانه من النبيين والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد،

فيسعدني أن أقدم هذا الكتاب الجامع لعدد من مباحث الثقافة الإسلامية ذات الأهمية المقدرة في تكوين المبادئ الأولى الأساسية، للفكرة الإسلامية، في نفس الشاب أو الفتاة.

وقد قرأت فصول الكتاب كلها، ووقفت على ما بُذل فيها من جهد يستحق التحية والتقدير. ورأيت، من ناحية أخرى، أن المؤلفين الكرام قد اهتموا بعرض الفكرة الأصلية في كل موضوع من الموضوعات التي تناولها. وغلب على ظني أن هذا المنهج مقصود لذاته في مثل هذا الكتاب الذي يقول محرره في تقديمه له إنه: «يخرج إلى النور في زمن يتم فيه إعادة اكتشاف ثقافة الذات في ظل عولمة ثقافة الاستهلاك والقيم المادية» وهو يأمل ـ أملا متحققًا بإذن الله ـ في أن يشارك الكتاب «في تصويب الرؤية الإسلامية وتعزيزها».

ومساهمة في هذا الاتجاه قدرت أن مقدمتي، التي تفضل بطلبها مني الصديق العزيز الدكتور مهدي عبد الهادي، أحد المرابطين المخلصين في أرض بيت المقدس، يحسن أن تكون إضافة فكرية إلى موضوعات الكتاب بدلا من أن تكون ـ كالتقليد الغالب ـ مجرد عرض له وتنويه به.

وقد يبدو من بعض ما تتضمنه هذه المقدمة أنني أشير إلى آراء لم يعرض لها الباحثون الفضلاء، وهذا هو المقصود بعينه، أهدف به إلى توسيع نطاق الرؤية الفكرية، وإلى إثراء المناقشة العلمية لموضوعات الكتاب مقتديًا في ذلك بالمحرر الجليل الذي أضاف إلى عدد من الهوامش وجهة نظر مغايرة لتسليط «الضوء على التعددية داخل التصور الإسلامي، فنتعلم أنه لا بأس في بيان الرأي المخالف، ولهذا إيحاءات سياسية مرغوبة». وأنا أوافق الدكتور مصطفى أبو صوي كل الموافقة على هذه العبارة الصادقة.

* * * * *

يعنيني في مسألة السيرة أن يتذكر قارئ الفصل الذي يعرضها أنها ـ دائمًا ـ مصدرٌ غنيٌ للمعرفة الإسلامية، يستجلي فيه الباحثون مسيرة الإسلام في عهد النبوة، ويتعرفون على معالم شخصية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، ويقفون على سلوك أصحابه، رضي الله عنهم، في التعلم منه، وطاعته، والثقة بما يقول ويفعل، وفي مناقشتهم إياه ومراجعتهم له، إذا رأوا فيما يأمرهم به أو ينهاهم عنه محلاً للمراجعة أو المناقشة. ويرون كيف يكون استمساك النبي، صلوات الله وسلامه عليه، بما أوحي إليه، فلا يتقدم عنه ولا يتأخر، ولا يأبه لقول أحد ـ كائنًا من كان ـ وإنما يدلُّ أصحابه، برفق يليق به، على أن الأمر مرجعه إلى الله وحده. وكيف كان يقبل النصيحة والمشورة من

أصحابه عندما يكون الأمر رأيًا رآه هو، أو رآه بعض أصحابه وقبله الرسول منه، فإذا اقترح عليه ـ عندئذ ـ أن ثمة ما هو أرفق بالناس، أو أدنى لتحقيق مصلحة المسلمين العامة فإنه يعدل عن الرأي الذي رآه، أو قَبِلَهُ، أولا، ويأمرُ بخلافه، لا يصده عن ذلك ما يصد بعض الناس ـ في عصرنا ـ ومنهم حكام كبار، وذوو جاه وسلطان، عن الحق والرجوع إليه خشية أن يقول الناس إن أحدهم نزل على رأي أصحابه أو رجع عن قوله إلى قول هو أحسن منه أثرًا وأعدل نتيجة!

والذي يستعيد السيرة، ويحيا في صحبة أحداثها، يرى كيف تنزّل القرآن مرتبطًا بالحياة الإسلامية الأولى، وكيف كان تشريعه رفقًا بالناس ورفعًا للإصر والحرج عنهم، وكيف كان الوحي يبشر المؤمنين فلا يقنطوا، ويعدهم فيصدّقُوا، ويفضح المنافقين فينكشف أمرهم، ويثبت فؤاد رسول الله ومن معه فلا تذهب بأحد من أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المخاوف ولا تتلاعب به الأهواء، ولا يعرف الشيطان إلى قلوبهم سبيلاً: [كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً] [الفرقان:٣٢]. والتثبيت هنا له، ولمن تبعه من المؤمنين عند نزول الوحي، ولمن آمن به واتبعه إلى يوم القيامة. فإنك تقرأ الآية من التنزيل فتجد في نفسك لها من الأثر ما يخيل إليك معه أنها الآن أنزلت، وفي شأنك الذي تعانيه نطقت(!) ويردك لفظها إلى الله ردًا جميلاً. وقد صدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال، حين تلا أبو بكر، رضي الله عنه، قول الله تعالى: [وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ] [آل عمران: ١٤٤] قال عمر ـ وقد كان أنكر أن يقال إن رسول الله قد مات ـ «فوالله كأنها ما أنزلت إلا الساعة»! وليس فيمن يعيشون مع القرآن، ويرجعون إليه كلما حزبهم أمر، من لم يصادف مثل هذه الحال العمرية!

لذلك كان العيش في ظلال السيرة كالعيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غدوه ورواحه، وسائر أحواله.

والسيرة على وجه الإجمال محفورة في ذاكرة الأمة المسلمة، لكنها تقتضي ـ في كل جيل ـ تطوافًا تفصيليًا بأهم معالمها يوقف المتابع للشأن النبوي ـ بل للشأن الإسلامي ـ على بعض دقائق الأمور ومهماتها. وينبه المؤمنين إلى كيفيات من التعامل الراقي مع الأشخاص والأحداث قلّ من يهتم من الناس بإحيائها والدعوة إليها.

وفي هذا العود إلى بعض تفاصيل السيرة، من وقت إلى آخر، تذكير ضروري بما اعترى طريق الدعوة الإسلامية في العهد النبوي من عقبات، وبما أنعم الله به على رسوله والمؤمنين من انتصارات، يطمئنُّ به قلب المؤمن في المحنة والمنحة، والاختبار والنعمة، والعسر واليسر، والرخاء والشدة.

ولو لم يكن للقراءة التفصيلية للسيرة النبوية غير هذه الفائدة لكانت كافية في بعث الهمة إلى تجديد النظر في وقائع السيرة، وتجديد الكتابة عنها، في كل عصر من عصور الإسلام. فكيف والكتابة في السيرة، والإحاطة بها، من أهم السبل التي تعين المسلم على التأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم امتثالاً لقول الله تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً] [الأحزاب:٢١]؛ وتجعله يعقل فضل طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم المأمور بها في مثل قوله تعالى: [وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ] [التغابن:١٢] وقوله تعالى على لسان نبيه: [قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ] [آل عمران: ٣١].[1]

* * * * *

والذي يهم المسلم من مباحث العقيدة هو تقرير أسسها الإسلامية الصحيحة التي جاءت في الحديث الصحيح الجامع، المتفق عليه عن أبي هريرة، قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَوْمًا بَارِزاً لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ رَجُلٌ فقال يا رَسُولَ اللَّهِ ما الإيمَانُ قال أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ قال يا رَسُولَ اللَّهِ ما الإِسْلاَمُ قال الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شيئا وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قال يا رَسُولَ اللَّهِ ما الإِحْسَانُ قال أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لا تَرَاهُ فَإِنه يَرَاكَ قال يا رَسُولَ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ قال ما الْمَسْئُولُ عنها بِأَعْلَمَ من السَّائِلِ وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عن أَشْرَاطِهَا إذا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّهَا فَذَاكَ من أَشْرَاطِهَا وإذا كانت الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رؤوس الناس فَذَاكَ من أَشْرَاطِهَا وإذا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبُهْمِ في الْبُنْيَانِ فَذَاكَ من أَشْرَاطِهَا في خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إلا اللَّهُ ثُمَّ تَلا صلى الله عليه وسلم [إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحَامِ وما تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ] قال ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ فقال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فلم يَرَوْا شيئا فقال رسول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم هذا جِبْرِيلُ جاء لِيُعَلِّمَ الناس دِينَهُمْ».[2]

بين العقيدة الإسلامية وعقائد أهل الأديان الأخرى إذ لا فائدة يحققها هذا البحث في كتاب عام عن الصحافة الإسلامية غير متخصص في بحوث العقائد والمقارنة بينها. والمقارنة بين العقائد تفيد العلماء المتخصصين الراسخين في العلم لكنها قد تبلبل أذهان الناشئة والشداة.

ومن المسائل التي يوردها العلماء في باب العقيدة مسألة الإيمان بوجود الجن. وحاصل ما يجب على المسلم معرفته في هذا الأمر هو أن القرآن الكريم قد نص على وجودهم كما نص على وجود الشياطين. وأن القرآن قرر أن نفرًا منهم استمعوا إلى الوحي يقرؤه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: [إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا] [الجن:١]. وأن الإنسان لا يستطيع بحالٍ من الأحوال أن يرى الجن أو الشياطين لقول الله تعالى: [إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ] [الأعراف:٢٧]. وكل كلام مخالف لهذه التقريرات القرآنية لا دليل عليه والصحيح هو ما نقلهَ مؤلف فصل (العقيدة في الإسلام) عن الإمام ابن حزم الظاهري من أن: «من ادعى أنه يراهم أو رآهم فهو كاذب إلا أن يكون نبيًا من الأنبياء فذلك معجزة لهم ولاَ سبيل إلى وجود خبر يصح برؤية جنيٍّ بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم».

وأفحش في الكذب من زعم رؤية الجن زعم أنهم يدخلون جسد الإنسان، ويسيرونه كما يشاؤون، ويسيطرون منه على الحقير والخطير من أموره. ثم زعم بعض الناس أنهم قادرون على إخراج الجن من جسد الإنسان، أو أنهم عندما يضربون من دخله الجني يصيبه من الألم ما يحمله على الخروج من الجسد الذي كان فيه معلنًا الإسلام والتوبة، ثم يتوجه بعد ذلك ليهدي سائر قومه من الجن في البلد الذي جاء منه!! ومهما نُقل لك من مثل هذه الأقوال عن علماء أعلام، من المعاصرين أو السابقين، فاحمله على كل محمل إلا محمل الصدق والجد.

إن الجن، والشياطين لا سلطان لهم على الإنسان إلا بالوسوسة له. قال تعالى: [وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ] [الأنعام:١٢١]، فالوحي، وهو هنا الوسوسة، من الشيطان. والجدال من الإنسان الذي أوحى الشيطان إليه. والنهي عن طاعته هو - أي هذا الإنسان المجادل - لا عن طاعة من أوحى إليه من الشياطين. ولا سلطان لهؤلاء الشياطين إلا على من اتبعهم من الغاوين وهم هؤلاء الأولياء الذين يستجيبون لما يوحي الشيطان به. قال تعالى: [إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ] [الحجر:٤٢]. هذا هو القدر الذي يجب على المسلم الإيمان به. وما فوق ذلك يجب التوقف عن الخوض فيه لأنه لا دليل عليه ولا سبيل إلى معرفة صوابه من خطئه، أو حقه من باطله.

ويرد في بحوث العقيدة كلام عن رئاسة الدولة الإسلامية (الإمامة/الخلافة) وشروط هذه الرئاسة، ووظائف متوليها، وكيفية توليته وعزله. وهذا كله من تأثر المناظرات القديمة بين علماء السنة وعلماء الشيعة الإمامية. فالشيعة الإمامية هم الذي يدخلون الإمامة في أصول الإيمان لما يترتب على ذلك من القول بالوصية، وترتيب الموصى لهم، وعصمة الأئمة، إلى آخر المسائل المتعلقة بذلك. لكن أهل السنة يعتبرون مسألة رئاسة الدولة من مسائل الفقه لا من مسائل العقائد. والأفضل ألا نشغل حيزاً من بحوث العقيدة بهذه المسألة، لئلا يختلط أمرها على القراء غير المتخصصين فيحسبوا أنها من أصول العقائد في مذاهب أهل السنة وهو غير صحيح.

* * * * *

ويجب أن نراعي في بحث العقيدة أن إطلاق الضلال على الفرق القديمة والحديثة محل نظر. فإن الضلال يقع في الأفعال والأقوال وهي مما يأتيه الإنسان الفرد ولا يجوز تعميم القول فيه على جماعة كبيرة من الناس، لاسيما الذين لم يعد بين ظهرانينا منهم أحد، فنصف الجميع بالضلال ونحوه. والفرق التي يدعي أصحابها نبوة بعد نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ليست من فرق الإسلام، ولا هي ممن سماهم أبو الحسن الأشعري (المصلين) فلا أرى جائزاً إدراجهم في سلك الفرق الإسلامية، ولو كان المقصود بيان الفرق التي غلب خطؤها على صوابها، لأن ذلك كله يبقى في إطار ما وصفه الأشعري في عنوان كتابه العظيم بأنه: (مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين) وقرر قبل تفصيل القول فيه أن الإسلام جامع بينهم واسمه منطبق عليهم جميعًا.[٣]

* * * * *

[٣] تجب الإشارة في هذا الموضع إلى أن إدراج (الإباضية) ضمن فرق الخوارج غير صحيح. والصحيح هو ما جاء في بحث العقيدة من أنهم ليسوا منهم. وكتبهم وفتاوى علمائهم تدل على أنهم مذهب إسلامي مستقل لا تصح نسبتهم إلى فرق الخوارج ومذاهبهم.

في الفصل الخاص بوحدة علوم القرآن الكريم كان بيان كاتبه الفاضل للحقيقة العلمية المنسية التي مفادها أن حديث عمر بن الخطاب المتفق عليه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه»[4] لا شأن له بالقراءات السبعة المتداولة بين القراء. ومن المؤسف أن هذه الحقيقة العلمية غابت عن مؤسسة إسلامية متخصصة في نشر القرآن وعلومه فقدمت للتسجيلات التي توزعها في العالم الإسلامي بحديث الأحرف السبعة على الرغم من أنها تقوم بتسجيل القرآن الكريم وتوزيعه بالقراءات العشر المتواترة لا بالقراءات السبع وحدها(!) وقد خاطبت في ذلك صاحب المؤسسة ـ وهو من كرام طلاب العلم ـ فرد الأمر إلى أحد كبار علماء القراءات المشهورين في العالم العربي (!)

وموضوع النسخ في القرآن الكريم من الموضوعات بالغة الأهمية، وهو يحتمل آراء أخرى غير التي أوردها الباحث الكريم تحت هذا العنوان وإن كان ما أورده يعبر عن الرأي السائد بين علماء التفسير والأصول.

* * * * *

تمنيت وأنا أقرأ البحث المعنون (مفهوم السنة والحديث) أن أجد فيه إشارة إلى وجوه تصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وما روي عنه من أقوال وأفعال. ذلك أن المتفق عليه عند العلماء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان نبيًا مرسلاً، ورئيسًا للدولة الإسلامية، وقائدًا لجيشها في الغزوات، وقاضيًا بين الناس في الخصومات، ومفتيًا لمن يتوجهون إليه بالسؤال في المشكلات. وتصرف الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل باعتبار كل واحد من هذه المناصب على حدته يختلف حكمه عن تصرفه باعتبار منصب سواه. فقوله بالفتيا لا ينزل منزلة قوله بالإمامة، وحكمه القضائي لا يعامل معاملة تبليغه للوحي الرباني.

وقد ألف العلماء في هذا المعنى من قديم، ومن أشهر الكتب المختصرة فيه كتاب الإمام القرافي المالكي (الإحكام في الفرق بين الفتاوى والأحكام وتصرفات القاضي والإمام) وما كتبه الشيخ شاه ولي الله الدهلوي في كتابه (حجة الله البالغة) عن أقسام السنة، وقد تعددت كتابات المعاصرين في هذا الموضوع فكتب فيه العلماء الأجلاء: محمود شلتوت، ومحمد مصطفى شلبي، ومحمد الطاهر بن عاشور، وعلي الخفيف، وعبد الجليل عيسى، ويوسف القرضاوي.[5]

وقد سبق هؤلاء جميعًا الإمام النووي عندما بوّب على حديث تأبير النخل بعنوان: (باب: وجوب امتثال ما قاله شرعًا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي) وأيّد هذه القاعدة، التي جعلها من عناوين شرحه لصحيح مسلم، بما نقله من أن العلماء قالوا: «إن رأي النبي صلى الله عليه وسلم في أمور المعايش وظنه كغيره».[6]

والتفرقة بين السنة التشريعية والسنة غير التشريعية مسألة بالغة الأهمية من حيث العلم والعمل جميعًا كما هو مبينٌ في كتب العلماء الذين أشرنا إليهم وبحوثهم.

ومن المسائل المتعلقة ببحوث السنة أن أصح الأقوال عند العلماء هو عدم الاعتماد على الحديث الضعيف في استنباط الأحكام. وأن استنباط الأحكام من الأحاديث الضعيفة لا يجوز ولو نص المستشهد بالحديث على ضعفه. نعم، قال كثير من العلماء إنه يجوز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال، ولكنهم قيدوا ذلك بما لم يكن شديد الضعف. ومع ذلك فالرأي الصحيح أن فضائل الأعمال يلحقها حكم شرعي بالوجوب أو الندب وهما لا يثبتان بالحديث الضعيف أصلاً. وفي الحديث الصحيح، دائمًا، غُنية وكفاية عن اللجوء إلى الحديث الضعيف. ومع أنني لم أتتبع جميع أحاديث الكتاب إلا أنه من الضروري التنبيه على حديث «من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوته سوء الخلق» فقد قال العجلوني في كشف الخفا (٢٦٥١) إنه حديث منكر. والواجب أن ينظر المرء في كتب الحديث المعتمدة ليقف على درجة ما يمر به من أحاديث في مؤلفات العلماء، فإذا لم يكن مؤهلا لهذا البحث بنفسه وجب عليه أن يسأل العلماء عن مدى صحة تلك الأحاديث لئلا يقع ـ إن ذكرها لأحد ـ في حومة نسبة كلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو لم يقله؛ ولئلا يكلف نفسه مشقة عمل لم يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم الأمر به أو الحض عليه.

* * * * *

ودرس أصول الفقه تتم الفائدة منه عندما يتصل بعلم الدارس فهم علمين آخرين هما علم المقاصد، وعلم القواعد. وإذا كان التقدم في التصنيف والتأليف، وتراكم المعارف الفقهية والأصولية واللغوية قد جعل كل واحد من هذين

«إنما تحصل درجة الاجتهاد لمن اتصف بوصفين: الحذق فيما فهم مقاصد الشريعة على مبلغ وسعه، والتغلغل فهمه فيها» (أي فهمه للمقاصد).[٧] وقال: «إن الاجتهاد.... إن تعلق بالمعاني من المصالح والمفاسد مجردة عن اقتضاء النصوص لها، أو مسلمة من صاحب الاجتهاد في النصوص فلا يلزم في ذلك العلم بالعربية، وإنما يلزم العلم بمقاصد الشرع من الشريعة جملة وتفصيلا خاصة»[٨](صاحب الاجتهاد هو الفقيه المؤهل له).

والقواعد الفقهية هي: «أصول فقهية كلية في نصوص موجزة دستورية تتضمن أحكامًا تشريعية عامة في الحوادث التي تدخل تحت موضوعها»[٩] ومعنى (دستورية) أن كل قاعدة فيها تنطبق في مواضع لا تحصى من الوقائع التي يُدْخِلُها المجتهد تحت موضوع القاعدة.

وهذه القواعد تصوير بارع دقيق للمبادئ الفقهية العامة، وجمع لأحكام الفروع التي لا يمكن لفقيه أن يحيط بها، بينما الإحاطة بهذه القواعد أمر يسير لمن اهتم بها. ولذلك قال الإمام القرافي: «وهذه القواعد مهمة في الفقه عظيمة النفع وبقدر الإحاطة بها يعظم قدر الفقيه ويشرف ويظهر رونق الفقه ويعرف وتتضح مناهج الفتاوى وتكشف. فبها تنافس العلماء وتفاضل الفضلاء وبرز القارح على الجذع وحاز قصب السبق من فيها برع. ومن جعل يخرج الفروع بالمناسبات الجزئية دون القواعد الكلية تناقضت عليه الفروع واختلفت، وتزلزلت خواطره فيها واضطربت، وضاقت نفسه لذلك وقنطت، واحتاج إلى حفظ الجزئيات التي لا تتناهى، وانتهى العمر ولم تقض نفسه من طلب مناها. ومن ضبط الفقه بقواعده استغنى عن حفظ أكثر الجزئيات لاندراجها في الكليات واتحد عنده ما تناقض عند غيره وتناسب. وأجاب الشاسع البعيد وتقارب، وحصل طلبته في أقرب الأزمان وانشرح صدره لما أشرق فيه من البيان فبين المقامين شأو بعيد وبين المنزلتين تفاوت شديد».[١٠]

وعلم الأصول نفسه ضروري لمنْ رام الاجتهاد في معرفة أحكام الشرع. وليس صحيحًا ما ادعاه العلماء من أن باب الاجتهاد قد أغلق بل إن بابه لا يزال «مفتوحًا لمن تأهل له، وشريعة الله التي جاءت أول الأمر لمحاربة التقليد والمقلدين، واستنهضت الهمم وأيقظت العقل من غفوة الجاهلية، وأمرت بالنظر والتأمل في آيات الله في الكون لا يعقل أنها تُقر هذا الحجر على العقول وتمنع من الاجتهاد.... وأصول الفقه لا يستغني عنه طالب الفقه سواء أكان متخصصًا في دراسته أم لم يكن متخصصًا فيها. بل لا يستغني عنه دارس القانون بجميع فروعه، وبخاصة عندما ينتقل إلى مرحلة تطبيقه، لأن القوانين متنوعة النصوص، ففيها الأوامر والنواهي، ومنها العام والخاص والمطلق والمقيد، كما أن فيها واضح الدلالة على مراد المشرع وما يكتنفه الإبهام... وهي ألفاظ تختلف في كيفية دلالتها على المراد منها، فقد تدل بعبارتها وقد تدل بإشارتها، كما أن لها منطوقًا ومفهومًا موافقًا أو مخالفًا. فإذا لم يكن مطبقُ القانون ملمًا بقواعد الاجتهاد وطرق أخذ الأحكام من النصوص ـ وهي من صميم أصول الفقه ولا يوجد لها نظير في علوم القانون ـ فكيف يستطيع تقييد المطلق وتخصيص العام، أو الجمع بين النصوص المتعارضة أو الترجيح بينها، وكيف يميز بين المنطوق والمفهوم؟ ثم ماذا يفعل عندما يحتاج إلى إعمال القياس لضرورة اقتضته؟ ثم كيف يفهم النص الاستثنائي المغاير في حكمه للقاعدة الأصلية؟ هل يقتصر به على موضعه؟ أم يتوسع فيه فيعدي حكمه إلى غير هذا الموضع؟

إن كل هذا مبين أجلى بيان في علم أصول الفقه. فإذا لم يكن شارح القانون أو مطبقه ملمًا بقواعد هذا العلم فإنه لا يأمن على نفسه الزلل أو السير على غير هدىً».[١١]

* * * * *

والدعوة إلى الاجتهاد، والتأكيد على ضرورته، وما نهتم به من رصد مواضعه وموضوعاته المعاصرة لا تنافي، بحال من الأحوال، ضرورة العلم بالموروث الفقهي الإسلامي، ولا ضرورة العلم ـ بل والتعلم ـ على وفق مذهب من المذاهب المعتبرة قبل البدء في التعرف على آراء المذاهب الأخرى واجتهادات أئمتها.

ذلك أن العلم بمجمل التراث الفقهي الإسلامي هو الذي ينير أمام طالب العلم، والعالم، طريق المعرفة الإسلامية، ويوقفه على تصرف

---

[٧] الموافقات، ط الشيخ عبد الله دراز، ج٤ ص ١٠٥.
[٨] المصدر نفسه، ص ١٦٢.
[٩] أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا، المدخل الفقهي العام، دار القلم، دمشق ١٩٩٨، ج٢ ص ٩٦٥.
[١٠] القرافي، الفروق، دار الكتب العلمية،بيروت، ١٩٩٨م،ج١ ص٨
[١١] أستاذنا العلامة الشيخ محمد مصطفى شلبي، أصول الفقه الإسلامي، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٤، ص ٥٧-٦٠، بتصرف قليل جدًا.

العلماء والفقهاء عبر القرون في فهم النصوص وإعمالها. والإسلام ليس قوالب جامدة ولا ألفاظًا محنطة وإنما هو سلوك بشري قام على تطبيقات عملية لمصادر التشريع، لاسيما منها القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الأمة أو اتفاق أكثرها، ولا يمكن لأحدٍ أن يجمع لنفسه تصورًا صحيحًا أو مقبولا للفقه الإسلامي دون أن يقف وقوفًا جيدًا على فقهنا الموروث.

والتعلم على وفق مذهب معين من المذاهب المعتبرة هو السبيل الوحيد لضبط العقل الفقهي، وتنظيم فكر دارس الفقه تنظيمًا يمكنه من وضع كل جزء من الأجزاء في محله الصحيح علمًا به وعملا، وإنزاله منزلته المطابقة لدليله إيجابًا أو تحريمًا أو ندبًا أو كراهة أو إباحة. والذين يدعون إلى هجر المذاهب الفقهية وإلى إهمال مناهجها في البحث، وإلى البدء من جديد في النظر إلى ما قاله السابقون من الأئمة والعلماء، ويقول قائلهم: «هم رجال ونحن رجال»؛ هؤلاء يغردون خارج السرب الفكري والفقهي الإسلامي الذي لا يتناغم معه إلا من عرف لغته وأحاط بتعبيره المتكرر، بين العلماء جميعًا، عن مسائل العلم ومشكلاته ومعضلاته. لذلك فإن من واجب علماء العصر أن يستمسكوا بالتعلم والتعليم على هذه الطريقة التي وصفتُ. غاية ما في الأمر أن الرجوع إلى الكتب المؤسِّسَةِ في المذاهب أنفع لطلاب العلم وأفضل للعلماء من الرجوع إلى مدونات العصور المتأخرة وملغزات المتون والحواشي التي لا يكاد لفظها يفهم - لمن لم يمرن عليه مرانًا كافيًا - إلا بعد عنت ولأيٍ غير مرغوبين في التعلم والتعليم.

* * * * *

وقضية المرأة وموقف الإسلام منها من أهم القضايا التي يهاجم بسببها الفكر الإسلامي والفقه الإسلامي، والتراث والتاريخ جميعًا. وأحب أن أقف في هذا الخصوص عند عدد من المواضع التي يحسن بالفقيه، وبطالب العلم الإسلامي، أن يكون على بينة من موقف الإسلام منها تمكنه من الدفاع عن دينه ومن إدراك مزاياه ومحاسنه.

فهناك مسألة الخطاب القرآني. «ففي القرآن الكريم واللغة العربية عمومًا نوعان من الخطاب: أحدهما خطابٌ للإناث وحدهن، والثاني خطاب للذكور والإناث معًا. فليس في اللغة العربية خطاب للذكور وحدهم. وأكثر ما يطالعنا في القرآن الكريم هو هذا الخطاب المشترك. فقوله عز وجل مثلا: [آمنوا بالله ورسوله] [الحديد:٧]، ليس موجهاً للرجال وحدهم، كما لا يخفى على أحد!

قال الإمام الخطابي معلقًا على حديث «إنما النساء شقائق الرجال»: إن الخطاب إذا ورد بلفظ الذكور كان خطابًا للنساء [كذلك]، إلا مواضع الخصوص التي قامت أدلة التخصيص فيها.

وقال الإمام ابن القيم: وقد استقر في عرف الشارع، أن الأحكام المذكورة بصيغة المذكَّرين إذا أُطلقت ولم تقترن بالمؤنث، فإنها تتناول الرجال والنساء.

وقال الإمام ابن حجر العسقلاني: والنساء شقائق الرجال في الأحكام إلا ما خُصّ كما نقل قول الكَرماني: حكم الرجل والمرأة واحد في الأحكام الشرعية. وهو مثل ما قاله الإمام ابن رشد: إن الأصل أن حكم الرجال والنساء واحد، إلا أن يثبت في ذلك فارق شرعي.

ومن قبل قال الإمام ابن حزم: ولا خلاف بين أحد من العرب ولا من حاملي لغتهم، أولهم عن آخرهم، في أن الرجال والنساء، وأن الذكور والإناث، إذا اجتمعوا خوطبوا أو أخبر عنهم، أن الخطاب والخبر يردان بلفظ الخطاب والخبر عن الذكور إذا انفردوا، ولا فرق؛ وأن هذا أمر مطرد أبدًا على حالة واحدة. فصح بذلك أنه ليس لخطاب الذكور - خاصة - لفظ مجرد في اللغة العربية غير اللفظ الجامع لهم وللإناث، إلا أن يأتي بيان زائد بأن المراد الذكور دون الإناث. فلما صح ذلك لم يَجُزْ أن يُخَصَّ بشيء من ذلك الرجال دون النساء، إلا بنص جليٍّ أو إجماع. وقد سأل عمرو بن العاص رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الناس أحب إليك. فقال عائشة!، قال: ومن الرجال؟ قال أبوها!، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس باللغة التي بعث بها، فحمل اللفظ على عمومه في دخول النساء مع الرجال». »[١٢]

«بل إن مما يتفرَّد به لسان العرب، أنه يقرر حقيقة التساوي الأصلي بين الرجل والمرأة، فيُطلق على كلٍّ منهما لفظًا واحدًا هو: الزوج، فالرجل زوج المرأة وهي زوجه أيضًا: هذه هي اللغة العالية وبها جاء القرآن [كما ورد في المصباح المنير وتاج العروس]. ولو أن لفظة الزوجة قد استُعملت فيما بعد وأجيزت. كذلك يقال: عروس لكل من الرجل والمرأة!.... بل إن لفظة الرجل نفسها، إنما ترد في كتاب الله وحديث رسوله صلى الله عليه وسلم بمعنى الإنسان، أي الذكر والأنثى، ولا تعني الذكر إلا إذا وجدت قرينة تدل على ذلك، كأن تأتي لفظة النساء مع لفظة الرجال في نفس السياق. وإلا فهي تتناول الجنسين معًا، كما في قوله تعالى: [ما جعل الله لرجل من

للدكتورة إلهام منصور رأي وجيه وطريف، تُعرب فيه عن اعتزازها باللغة العربية بصفتها امرأة، «لكون اللغة العربية هي الوحيدة [بين لمغات التي تعرفها] التي تسمي الكائن البشري بلفظ يحمل صيغة المثنى، وهو «إنسان» أي الجمع بين «إنْسَيْن» [اثنين]، وهو اعتراف اعٍ أو غير واعٍ بأن هذا الكائن البشري هو اثنان مختلفان... ذكر وأنثى. وهذا يعني أن العربية تُقر بكيانية المرأة كذات». »[١٣]

هناك مسألة القوامة الواردة في قول الله تعالى: [الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ] النساء:٣٤] التي يزعم بعض الناس أن الآية الواردة فيها، والآية التي فيها قول الله تعالى [وللرجال عليهن درجة] [البقرة:٢٢٨] لتي يستدلون بها أيضا، على تفضيل الرجال على النساء.

الاستدلالان غير صحيحين فآية القوامة واردة في سياق بعض أحكام الزواج، وهو سياق مبدوء بالآية رقم (٢٠) من سورة النساء ومستمر إلى الآية رقم (٣٥) التي ترسم طريق الإصلاح بين الزوجين عند خوف الشقاق بينهما.

والقوامة على الغير هي التكفل بما ينصلح به حاله وشأنه[١٤] والقيام على الشيء هو المحافظة عليه وإصلاحه[١٥] فمعنى «القوامة» في الآية الكريمة هو قيام الرجال بحقوق النساء التي على الأزواج. وقد يصح أن يقال إن معناها قيامهم ولو لم يكونوا أزواجاً بحقوق النساء كقيام الأب والأخ وغيرهما بحقوق من يليهم من النساء من الأم والأخوات وأمثالهن.

فلا يصح الاستدلال بهذه الآية الكريمة أيضاً، ولا بمعنى القوامة فيها عدم المساواة بين الرجال والنساء، إذ القوامة خاصة بالعلاقة الزوجية، أو بالعلاقة العائلية، وليست عامة في كل شأن من شؤون الحياة. ومعناها أداء حقوقهن، وليس معناها منعهن أو الحجر عليهن فيما لا تمنع منه نصوص القرآن وصحيح السنة.

وقول الله تبارك وتعالى: [وللرجال عليهن درجة] يذهب جمهور المفسرين فيه إلى أن: معنى الدرجة يساوي معنى القوامة التي ورد ذكرها في الآية الثانية التي يحتجون بها (الآية ٣٤ من سورة النساء) وهو معنى لا علاقة له بالتفضيل أو الانتقاص.

والنظر في سياق الآيات التي وردت هذه الجملة في أثنائها لا يبعد أن يرجح كون «الدرجة» هي الحق في إعادة الحياة الزوجية إلى أصلها بعد أن فسخها الرجل بالطلاق. أو كون «الدرجة» هي الحق في الطلاق نفسه بعد الرجعة، بدليل حديث الآية التالية لها عن عدد مرات الطلاق وما يجوز بعد الثانية وهو إما: [إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان] [البقرة:٢٢٩]. وعدم جواز استرداد المهر كله أو بعضه، وجواز الخلع (وهو الطلاق - أو الفسخ - بطلب من المرأة نظير مالٍ؛ وفيه لا يحق للرجل مراجعة مطلقته بإرادته المنفردة). فالدرجة الواردة في الآية الكريمة هي - في هذا السياق - حق متعلق بفسخ عقد الزواج (بالتطليق) بإرادة أحد طرفيه - وهو أمر لا يجوز في سائر العقود - أو في العودة إلى الحياة الزوجية بإرادة الفاسخ نفسه وحده (المطلِّق) على خلاف سائر العقود كذلك. وقد نقل ابن الجوزي هذا الرأي في زاد المسير في علم التفسير عن بعض السلف[١٦]، ونقله القرطبي في تفسيره عن الإمام الماوردي الشافعي[١٧]، ونقل في الموضع نفسه عن عبد الله بن عباس أنه قال: «الدرجة إشارة إلى حضِّ الرجال على حسن العشرة والتوسعة على النساء في المال والخلق».

ثم نقل قول ابن عطية (من علماء المالكية وأئمة التفسير الأندلسيين): «وهذا قول حسن بارع».

ونقل ابن عطية في تفسيره عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وهو أحد أتباع التابعين الذين يكثر النقل عنهم في تفسيره) قوله إن: «الدرجة ملك العصمة وأن الطلاق بيده»[١٨]. ومن ذلك يتبين أن هذه الجملة لا شأن لها بقضية المساواة بين النساء والرجال.

ومما يتصل بمسألة المساواة بين المرأة والرجل ما تذكره كتب التراث كلها، ويردده الباحثون المحدثون في جملتهم من أن شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل. والواقع أن التطبيق العملي لهذه القاعدة يدل على عدم صحة هذا الرأي. والذي يدل عليه هذا

---

[١٣] المصدر نفسه، ص ١٣-١٦، والمراجع المشار إليها فيه.
[١٤] تاج العروس ج٩ ص٣٩.
[١٥] لسان العرب طبعة دار المعارف، ص٣٧٨١.
[١٦] ج١ ص ٢٦١.
[١٧] القرطبي ج٣ ص١٢٥.
[١٨] المحرر الوجيز لابن عطية ج٢ ص ١٩٧

التطبيق أن اعتبار شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل ـ كما ورد في بعض الأحاديث الصحيحة ـ هو من قبيل المجاز لا من قبيل الحقيقة.

فالواقع العملي في جميع المحاكم الإسلامية، منذ عرفت الدنيا قضاءً يتبع الشريعة، أن القاضي إذا قدمت عليه امرأتان تشهدا يسألهما: أيتكما الشاهدة وأيتكما المذكِّرة؟ فتجيب كل منهما بذكر دورها: شاهدة أو مذكرة

عندئذ يطلب القاضي من الشاهدة أن تتقدم لتقف موقف الشاهد، ومن المذكِّرة أن تكون وراءها بحيث يراها القاضي ولا تراها الشاهدة ويأمر المذكِّرة أن تشير بيدها إذا أرادت أن تقول شيئًا.

ثم يسمع القاضي شهادة الشاهدة كاملة. فإن كانت المذكرة قد أشارت في أثناء الشهادة إلى القاضي فإنه يسألها عما تريد قوله، فإن وجده مؤثرًا في الشهادة أثبته في محضر جلسته وسأل الشاهدة عن صحته، فإن أقرت بها فقد اتفق قولهما ولا مشكلة، وإن جادلت أو استمسكت بقولها المخالف كان القاضي هو المرجع بين القولين والفاصل بين كلمتي المرأتين.

فنحن أمام شاهدة واحدة. قد لا تخالفها المذكِّرة في شيء فتكون شهادتها قائمة بلا معقب. وقد تخالفها فتتذكر الشاهدة فيكون الأمر كذلك. لكن المرأة الشاهدة هنا لها مزية ليست للشاهد الرجل: أن تأتي معها بمن يذكرها ما نسيته من وقائع، ويقبل ذلك منهما ويقضى بموجبه، بينما الرجل الناسي ترد شهادته ولا تقبل!

فهذه كرامة أعطاها الفقه الإسلامي للمرأة ولم يعطها للرجل.

وأقول (الفقه): لأن النص القرآني (الآية ٢٨٢ من سورة البقرة) وارد في الشهادة المعدة سلفًا، أي الشهادة على الحقوق التي تثبت في وثائق، لا في الشهادة على الوقائع الطارئة التي لا يمكن إعداد الشهود عليها سلفًا؛ فالأصل في هذه أن يشهد فيها من حضر.

واستصحاب الفقهاء حكم الشهادة على التصرفات ونقلهم إياه إلى الشهادة على الوقائع اجتهاد يحقق مزية للمرأة ليست مقررة للرجل. وليس اجتهادًا ينتقص من مكانتها أو مكانها الاجتماعي أو القضائي.[١٩]

وقديمًا نقلت عن ابن تيمية قوله: «القرآن لم يذكر الشاهدين، والرجل والمرأتين في طرق الحكم التي يحكم بها الحاكم. إنما ذكر النوعين في البينات والطرق التي يحفظ بها الإنسان حقه... وما تحفظ به الحقوق شيء، وما يحكم به الحاكم [=القاضي] شيء. فإن طرق الحكم أوسع من الشاهدين والشاهد والمرأتين»[٢٠].

وفي الفقه مسائل تقبل فيها شهادة المرأة وحدها أوردها ابن قيم الجوزية في كتابه الطرق الحكمية تفصيلاً.[٢١]

ومسألة ميراث المرأة من المسائل التي يطنطن بها المعترضون على الشريعة الإسلامية. والعارفون بأحكام هذه الشريعة يعلمون تمام العلم أن قانون الميراث فيها عدل كله، وحكمه كله، وصواب كله، لا ظلم فيه لرجل ولا لامرأة.

ومن البحوث الحديثة في هذا الباب دراسة تَوَفَّر على إنجازها صديقنا الدكتور صلاح الدين سلطان، الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، عنوانها: (امتياز المرأة على الرجل في الميراث والنفقة)[٢٢]، حقق فيها أربع حالات فقط ترث فيها المرأة نصف ما يرث الرجل، ونحو عشرين حالة يتساوى ميراث المرأة فيها مع ميراث الرجل، وأكثر من عشر حالات ترث فيها المرأة أكثر من الرجل. فللمهتم بهذه المسألة أن يرجع إلى هذه الدراسة المحقَّقة المدقَّقة ليقف منها على حقيقة أحكام الإسلام في شأن ميراث المرأة.

ومن المسائل التي يكثر التشنيع بها على الفقه الإسلامي مسألة عدم المساواة بين المرأة والرجل في دية القتل الخطأ. فالذي عليه جمهور الفقهاء، وأخذت به المذاهب الباقية كلها أن دية المرأة على النصف من دية الرجل. وقد ناقش العلامة الدكتور يوسف القرضاوي هذه المسألة في بحث متقن له عنوانه: «دية المرأة في الشريعة الإسلامية ـ نظرات في ضوء النصوص والمقاصد»[٢٣] فانتهى إلى أن القرآن والسنة والإجماع والقياس كلها تخلو من دليل صحيح صريح على صحة هذا القول الذي أخذت به المذاهب المتبوعة. وبَيَّنَ الشيخ القرضاوي أن هذا الرأي هو مقتضى دليل المصلحة التي يتوخاها الشرع في أحكامه جميعًا، وهو الذي يتفق مع الحكمة

---

[١٩] محمد سليم العوا، الفقه الإسلامي في طريق التجديد، سفير الدولية للنشر، ط ٣ ٢٠٠٧، ص ١٥٢.

[٢٠] نقله عنه ابن قيم الجوزية، الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، ط المكتب الإسلامي ببيروت ٢٠٠٢، بعناية صالح الشامي، ص ١٧٣، [illegible]

الإسلامية، إلى أن المسألة لم تكن ملحة في تلك العصور على العقل المسلم لندرة وقوعها؛ بخلاف الحال في عصرنا الذي كثرت فيه أسباب القتل الخطأ للرجال والنساء على السواء. وأشار فضيلة الشيخ القرضاوي في مطلع بحثه المذكور إلى كتاب من تأليف الأستاذ مصطفى عيد الصياصنة حول هذا الموضوع ومدح جهد كاتبه ووصف عمله بأنه علمي موثق وخصوصاً فيما يتعلق بالناحية الحديثية والأثرية.[٢٤]

ومن أظهر صور المساواة بين الرجال والنساء أن يتساووا في التمتع بالحقوق العامة وفي أداء الواجبات العامة، وهي المساواة التي حاصلها أن يكون للمرأة الدور الذي تؤهلها له مكناتها العقلية والشخصية في حياة مجتمعها شأنها في ذلك شأن الرجل سواءً بسواء.

والموقف الفقهي التقليدي في مسألة الدور السياسي للمرأة يحسم القضية بأن المرأة لا شأن لها بالسياسة. وأن غاية ما يطلب منها أن تقوم به ـ إن استطاعت في نظر أصحاب هذا الرأي ـ هو أن تصون بيتها وتربي أولادها. ولا يزال بعض أنصار هذا الموقف يكتبون ويتحدثون مؤيدين له.

وبعض هؤلاء يستدلون بالحديث غير الصحيح الذي فيه «شاوروهن وخالفوهن» وهو حديث لا تصح نسبته إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، ولا يجوز أن تستمد منه حجة.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلّم يستشير زوجاته في الأمور العامة ويأخذ بقولهن أو رأيهن، فكيف يقول هذا الكلام ثم يكون أول من يخالفه؟ وكل قرّاء السيرة يعرفون أن التي أشارت عليه في شأن امتناع أصحابه عن الحلق والذبح في عمرة الحديبية، بعد الصلح، كانت زوجه أم سلمة رضي الله عنها، وأن الله تبارك وتعالى درأ بمشورتها غضبه وغضب نبيه على الصحابة رضوان الله عليهم.

والحق أن المرأة، من حيث تمتعها بحقوقها وحرياتها العامة، ومشاركتها في العمل السياسي العام، كالرجل سواءً بسواء. وأنه لا تعارض بين قيامها بواجبها السياسي وبين قيامها بواجباتها الأخرى إلا بقدر ما يقع مثل هذا التعارض بين واجبات الرجل السياسية وواجباته الأخرى كذلك. وهو تعارض يزال ـ حين يقع ـ بصورة فردية في كل حالة على حدة، وليس من بين وسائل إزالته أو رفعه وضع قواعد مانعة للمرأة من العمل العام، أو قبول هذه القواعد حين يضعها الآخرون.

وإذا كان كثير من الآراء الاجتهادية الجديدة لم يوضع موضع التطبيق العملي الذي يشهد لأصحابها ومؤيديها أنهم يقولون ما يفعلون، فإن قيام المرأة بدورها السياسي، ودورها في الحياة العامة، قد وجد طريقه إلى التطبيق من قبل الحركة الإسلامية بوجه خاص في كل بلد مارست فيه هذه الحركة العمل السياسي العلني، لاسيما الترشيح للمجالس النيابية والتصويت في انتخاباتها، وفي انتخابات النقابات المهنية العامة حتى إن بعض المراقبين يرجعون قدراً كبيراً من نجاح ممثلي الحركة الإسلامية في الانتخابات التي يخوضونها إلى كفاءة قيام المرأة بدورها السياسي ـ ناخبة على الأقل ـ في تلك الانتخابات النيابية والنقابية.

والمعترضون على ولاية المرأة للمناصب السياسية يحتجون بحديث الرسول صلى الله عليه وسلّم «لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»[٢٥].

وهذا الحديث لا حجة فيه لأن الأمر الذي يشير إليه هو أمر الولاية العامة التي ليس فوقها ولاية، وهي الخلافة أو الرئاسة العامة للدولة الإسلامية الواحدة التي تضم العالم الإسلامي كله.

وهي دولة لم تعد موجودة الآن، ولا يتوقع أن توجد في المستقبل البشري المنظور.

واختصاصات «ولي الأمر» فيها وشروط ولايته بشمولها وسعتها واتصالها بجميع المجالات بما فيها الإمامة في الصلاة وقيادة الجيوش والاجتهاد الفقهي المطلق ورئاسة القضاء، لم تعد متوافرة في أحد من الحكام اليوم. ولو ادعاها لنفسه أحد لكان الإسلاميون هم أول من يعترض عليه ويأبى التسليم بها له.

فالحكام اليوم جزء من مؤسسة. والحكم نفسه مؤسسة من مؤسسات عدة تتوزع بينها السلطات والصلاحيات التي كان يجمعها في يده الحاكم الفرد، أياً كان اسم حكمه ولقب سلطانه.

---

[٢٤] أشار محقق هذا الكتاب إلى بحث الشيخ القرضاوي المذكور في الحاشية رقم (٨٤) من حواشي البحث الثامن المعنون (المرأة في الإسلام).

[٢٥] رواه البخاري وغيره عن أبي بكرة، البخاري رقم (٤٤٢٥) و(٧٠٩٩).

ولا بأس من حيث الأهلية والكفاءة أن تتولى المرأة بعض هذه السلطات ـ ولو كانت رئاسة الدولة ـ لأن أياً من تلك السلطات ـ بما فيها الرئاسة نفسها ـ لا تمثل «الأمر» الذي يدل الحديث على عدم فلاح من يولونه لامرأة.

ولأن «الأمر» في الحديث بمعنى الولاية العامة فقد أباح بعض الأئمة للنساء بعض الولايات الخطيرة فهي تلي القضاء عند أبي حنيفة فيما تجوز فيه شهادتها، وقال الطبري تلي القضاء والإمارة، وهي رواية عن الإمام مالك أيضاً[٢٦].

لذلك فإنني لا أرى مانعاً شرعياً من ولاية المرأة أي منصب تؤهله لها كفاءتها وقدرتها وثقة الناس ـ الناخبين ـ فيها إذا كان من مناصب الانتخاب، أو ثقة المسؤولين عن التعيين إذا كان مما يعين له القائم به.

* * * * *

وعلاقة المسلمين بأهل الكتاب يشار إليها في جمهرة الكتابات الإسلامية قديمًا وحديثًا بأنها علاقة الذمة أي العهد والضمان اللذار تمنحهما الدولة الإسلامية لأهل الكتاب المقيمين فيها إقامة دائمة (مواطنيها) أو مؤقتة ممن يزورنها لمدة محدودة لأي سبب كار (المستأمنين).

والذمة في اللغة هي العهد والأمان والضمان. قال أبو البقاء الكفوي في كلياته (وسمي العقد مع غير المسلمين بها لأن نقضه يجلب المذمة)! وقد كتبت كثيراً، وقلت، إنها عقد يعتريه ما يعتري العقود من أسباب التعديل والانقضاء، وليست وضعاً دائماً لا يتغير [النظام الإسلامي ووضع غير المسلمين، محمد سليم العوّا، الأقباط والإسلام، دار الشروق ١٩٨٧، ص٢٧]

وهي في مصطلح الفقهاء عقد مؤبد يتضمن إقرار غير المسلمين على دينهم، وتمتعهم بأمان الجماعة الوطنية الإسلامية وضمانها، بشرط بذلهم الجزية، وقبولهم أحكام دار الإسلام في غير شؤونهم الدينية (عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين، بيروت ١٩٦٧ ص ٢٢، والقرضاوي: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، القاهرة ١٩٧٧ ص ٦).

وعقد الذمة ليس اختراعاً إسلامياً، وإنما هو عقد وجده الإسلام شائعاً بين الناس، فأكسبه مشروعية بإقراره إياه، وأضاف إليه تحصيناً جديداً بأن حوّل الذمة من ذمة العاقد أو المجير إلى ذمة الله ورسوله والمؤمنين، أي ذمة الدولة الإسلامية نفسها، وبأن جعل العقد مؤبداً لا يقبل الفسخ حماية لأهل غير الإسلام، من الأديان، من ظلم ظالم أو جور جائر من حكام المسلمين.

والجزية لم تكن ملازمة لهذا العقد في كل حال ـ كما يصرح بذلك تعريفه ـ بل لقد أسقطها الصحابة والتابعون عمن قبل من غير أهل الإسلام مشاركة المسلمين في الدفاع عن الوطن، لأنها بدل عن الجهاد [كما يقرر الإمام ابن حجر في شرحه للبخاري، فتح الباري ج ٦ ص ٣٨ وينسب ذلك ـ وهو صحيح صائب ـ إلى جمهور الفقهاء]. ولذلك أسقطها سراقة بن عمرو عن أهل أرمينية سنة ٢٢ هجرية، وأسقطها حبيب بن مسلمة الفهري عن أهل أنطاكية، وأسقطها أصحاب أبي عبيدة بن الجراح ـ بإقراره ومن معه من الصحابة ـ عن أهل مدينة على الحدود التركية السورية اليوم عرفوا باسم ـ الجراجمة ـ وصالح المسلمون أهل النوبة، على عهد عبد الله بن أبي سرح، على هدايا يتبادلها الفريقان في كل عام،

وصالحوا أهل قبرص في عهد معاوية على خراج وحياد بين المسلمين والروم (والخراج هنا ضرائب تفرض على من يدخل من تجار الفريقين بتجارته إلى ديار الآخر، أي إنها في التعبير المعاصر رسوم جمركية).

وغير المسلمين من المواطنين ـ اليوم ومنذ أكثر من قرن ـ في الدول الإسلامية يؤدون واجب الجندية، ويسهمون بدمائهم في حماية الأوطان، فهم لا تجب عليهم جزية أصلاً في النظر الفقهي الصحيح.

والعقد الذي سمِّيَ (عقد الذمة) قد أصابه بعض ما يصيب العقود فينهيها ويذهب بآثارها. فقد انتهى عقد الذمة الأول بذهاب الدولة التي أبرمته، فالدولة الإسلامية القائمة اليوم، في أي قطر، ليست خلفاً للدولة الإسلامية الأولى التي أبرمت عقد الذمة. فتلك قد زالت من الوجود بالاستعمار الذي ذهب بسلطانها، وملك ديارها، وبدل شرائعها القانونية، وأدخل على ثقافتها ومكونات هوية كثيرين من أبنائها ما لم يكن منها.

وقد قاوم أبناء الوطن كلهم ـ مسلمين ومسيحيين ـ هذا الاستعمار في صوره كافة،كما يقاومون اليوم محاولات الهيمنة والاستتباع في صورها كافة، ونشأت من هذه المقاومة الناجحة دول اليوم، الدول القومية، التي تقدم السيادة فيها على نحو جديد من العقد الاجتماعي

* * * * *

والمسلمون لا يعيشون في العالم وحدهم. بل هم في اتصال دائم مع غيرهم منذ بعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم الناس هذا، بل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها

ومن أهم المسائل التي واجهت الباحثين في ـ موضوع العلاقة بين الدول الإسلامية وغيرها من دول العالم ـ مسألة تقسيم العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب، أو إلى ثلاثة دور ـ عند بعض الفقهاء ـ بإضافة دار العهد إلى داري الإسلام والحرب.

وقد استثار هذا التقسيم الفقهي حميَّة بعض الباحثين الغيورين حتى كتب يقول: «إن الرؤية الفقهية القديمة للعالم قاصرة عن الإحاطة بتعدديته وغناه. أما الإحيائية المعاصرة (أي الصحوة الإسلامية) فإنها معادية له، ولذلك تعجز عن فهمه والتعامل معه على أساس ذلك الفهم».[٢٧]

والواقع أن بعض الدعاة يرددون ـ بلا تبصر ـ المفاهيم الفقهية التي تصادفهم في كتب أسلافنا العظماء دون أن يتبينوا أن لهذه المفاهيم أصولا تاريخية تعود إليها، وظروفاً موضوعية سببت نشأتها، وسوّغت وجودها، وأدت في ظلها وظيفتها.

وهؤلاء يغفلون غالباً عن حقيقة علمية مؤداها أن الاجتهاد النظري في مثل هذه المسائل يتبع الحاجة العملية أكثر مما يتبع الدليل النقلي. وأنه لذلك متغير بتغير الظروف والأوضاع. ولا يؤدي التمسك بقول قديم فيه ـ لم يعد مناسباً للظرف الجديد ـ إلا إلى إهدار المصالح وتضييعها. خلافاً لما هو واجب على المجتهد وعلى الأمة من جلبها والمحافظة عليها.

ومن هذه المفاهيم مفهوم تقسيم العالم إلى دارين: دار الإسلام ودار الحرب. وهو مفهوم يقوم على تميز المسلمين وتحيزهم في أراضيهم، الذي يقابله تميز غير المسلمين وتحيزهم ـ هم الآخرون ـ في أراضيهم. وعلى أن العلاقة بين الموضعين ليست إلا علاقة عداء مستحكم وحرب مستمرة حتى سميت دار غير المسلمين بدار الحرب.

وقد نشأ هذا المفهوم في الفقه الإسلامي لمقابلة مفهوم آخر لتقسيم العالم هو المفهوم الروماني الذي كان يقسم العالم إلى ثلاثة أقسام: العالم الروماني، والعالم اللاتيني، وعالم الآخرين. فأما الرومان فهم سادة الدنيا، وأما اللاتين فأبناء عمومتهم، وأما الآخرون فعبيد الرومان واللاتين تستباح في سبيل السيطرة عليهم حرمات الإنسان والمال والزمان والمكان جميعاً. وهو تقسيم عرقي عنصري يقوم على وهم التميز الجنسي ويؤدي إلى ارتكاب أشد الأعمال إجراماً ووحشية ضد غير الرومان واللاتين.

فصاغ الفقهاء المسلمون في مقابلته مفهوم دار الإسلام ودار الحرب، وهو مفهوم يستمد من حقيقتين: العقيدة والشريعة السائدة، والظرف الواقعي. وتترتب عليه أحكام فقهية ليس من بينها حكم واحد يجيز العدوان أو يبيح ما حرمته نصوص الشريعة.

وهو تقسيم لا يعلي من شأن عنصر أو جنس على حساب سائر العناصر والأجناس، لأن الذين صاغوه وطوروه كان نصب أعينهم قول الله تعالى: [يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله اتقاكم]. [الحجرات:١٣]. وكان حاديهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى»[٢٨].

وقد أدى المفهوم الإسلامي دوره في العصر الذي تكوّن فيه، وفي مراحل تاريخية لاحقة، أداءً يدركه المطلعون على مدونات الفقه الإسلامي وكتب القانون الدولي والعلاقات الدولية في الإسلام، وهي الكتب التي تعرف باسم «كتب السِيَر». ولكنه في بدايته واستمرار تطوره كان مفهوماً فقهياً اجتهادياً، ولم يكن مفهوماً مستمداً من نص قرآني أو نبوي، أو مبنياً عليهما.

---

[٢٧] صديقنا الأستاذ دكتور رضوان السيد، ظهور دار الإسلام وزوالها، دراسة في الاجتهاد السياسي والفقهي، قدمها إلى مؤتمر العلاقات الدولية في الإسلام، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة في ١٩٩٧/١١/٣٠، ص ١٢-١٣.

[٢٨] حديث صحيح، رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة وعن عقبة بن عامر، المسند ج ٣٨ ص ٤٧٤ الحديث رقم ٢٣٤٨٩، طبعة الشيخ شعيب الأرناؤوط.

فهل يجب على الفقه الإسلامي ـ في كل العصور ـ الاحتفاظ بهذا التقسيم والعودة إليه كلما طرأت مسألة أو مشكلة من مسائل العلاقات الدولية أو مشكلاتها ؟ أم الواجب على فقهاء كل عصر أن يصوغوا لمواجهة تلك العلاقات الحلول الفقهية المناسبة لعصرهم والتي تحقق فيه المصلحة وتدفع المفسدة؟

وإذا كان التقدم المذهل في وسائل الاتصال والانتقال قد حوّل العالم المسكون كله إلى قرية صغيرة فهل يسوغ أن تظل نظرة المسلمين إلى العالم محكومة بذلك المفهوم الذي كان مناسباً للظروف التي نشأ فيها ولم يعد كذلك بعد زوالها ؟

وإذا كان التنظيم الدولي الحديث قد أحال العالم كله إلى مثل ما كان يسميه بعض الفقهاء «دار العهد» فهل يجوز للفقيه أن يستبقى التقسيم الثنائي أو الثلاثي وما يترتب عليه عند الفقهاء من أحكام؟

إن الرأي الذي يرجحه الفقه المعاصر أن الاجتهاد القديم القائل بمثل ذلك التقسيم قد انقضى زمنه. وأن الفقه المعاصر يجب أن يتوجه صوب واقع العلاقات الدولية المعاصرة ويجتهد في بيان الجائز فيها والممنوع، مما يحقق المصلحة أو يهدرها، على نحو ما فعل الفقهاء في عصور المواجهة الأولى بين الإسلام وبين العالم القديم.

وليس لهذا الرأي أثر في مسألة استمرار الجهاد ووجوب إقامته إلى يوم القيامة. فإن موضع الجهاد وموضوعه غير موضع العلاقات السلمية وموضوعها. ولكل منهما أحكامه الشرعية، ونصوصه الحاكمة لأصوله، في القرآن الكريم والسنة النبوية. ولم يكن شيء من ذلك سنداً للاجتهاد في مسألة تقسيم العالم إلى دارين أو ثلاثة، وإنما كان مبنى ذلك الاجتهاد هو المصلحة وحدها.

ولذلك نقول إن واجب فقه العصر أن يبيمم وجهه شطر تلك العلة نفسها: المصلحة الراجحة للمسلمين؛ ويقيم بناء اجتهاده في العلاقات الدولية على أساسها. ولا يجوز أن يبقى الفقه المعاصر أسيراً لاجتهاد قديم لم يعد محققاً للغاية التي استهدفها أصحابه، ولم تعد الأسباب التي سوّغته قائمة.

وفي رأينا أن العالم كله الآن دار واحدة هي دار عهد وموادعة. وأن أحكام الإسلام تنطبق على المسلمين أينما كانوا، سواء أكانوا في دار يغلب الإسلام على أهلها أم كانوا أقلية أو أفراداً في دار غالبية أهلها غير مسلمين.

ولا يجوز لأحد أن يقبل، أو يعمل، بالفتوى التي تذهب إلى انحسار بعض أحكام الإسلام العملية عن الأفراد، ما داموا يعيشون في دار لا يغلب عليها الإسلام. لأن هذا القول هدم للدين كله بتسويغ إهمال بعضه. وقد عاب الله تعالى في محكم كتابه على اليهود أنهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. ولا يجوز لأحد أن يستحل أموال غير المسلمين في دارهم بزعم أنها دار حرب. ومن كان هذا رأيه فلا يحل له العيش فيها لأن ما أدّى إلى الحرام حرام. والمسلم مسئول عن الوفاء بعهده، وقد دخل تلك الدار مُشترطاً عليه أن لا يخالف قوانينها ونظمها فإما أن يعمل بعهده ويفي به، وإما أن يغادرها. وليس له أن يحل فيها الحرام أو يحرم الحلال.

وقد رأيت في بعض بلاد الغرب شباباً من المسلمين يستبيحون أن يحتالوا لاستخدام وسائل المواصلات العامة، ووسائل الاتصال من هواتف وغيرها، ومواقف السيارات ذات الأجر، وأمثالها من الخدمات، دون أن يدفعوا مقابلاً لذلك كله.

بل علمت أن بعض اللاجئين إلى بعض تلك البلاد، بزعم أنهم مضطهدون سياسياً في بلاد الإسلام التي جاؤوا منها، يتخذون عناوين عدة ويسجلون أنفسهم لدى السلطات المحلية التي يتبع كلا منها عنوان من تلك العناوين. ويحصلون على المعونات المخصصة للاجئين مرات عدة، مستغلين في ذلك تصديق تلك السلطات لكل من يتقدم إليها باعتباره لاجئاً سياسياً.

وهذا كله ـ وأضرابه ـ من أكل المال بالباطل المنهي عنه شرعاً.

ولا يحله شيء.

وفاعله آثم إثماً صريحاً لا تأويل له.

والزعم بأن هذا ـ وأمثاله ـ مما يبيحه كون الدار التي يقيمون فيها دار حرب زعم ظاهر الفساد لا تقوم به حجة عند الله ولا عند الناس.

وإذا كان العدول عن تقسيم العالم إلى دار الإسلام ودار الحرب هو مقتضى اجتهاد جديد، فإن تحريم هذه الأفعال الشنيعة إعمال مباشر للنصوص الصريحة الناهية عن كسب المال من حرام والآمرة بأن يكون الكسب من حلال طيب والإنفاق كذلك؛ ولا يغير شيئاً من ذلك قول قائل أو فتوى مفت مقلد بلا بصيرة.[٢٩]

لمتنوعة تجعل من الإسلام وعاء صالحًا لمختلف الثقافات، متقبلا لعطاء الحضارات كلها؛ وتجعل فكر مفكريه وفقه وفقهائه غير جامد على صورة لا تتغير ولا مستمسك بنمط يقلد ولا يطور.

وإذا كانت الكتب في الثقافة الإسلامية كثيرة فإن مزية هذا الكتاب هو أنه تأليف مشترك في موضوعات عدة ينطلق البحث في كل واحد منها من منظور الثقافة الإسلامية ابتداءً ويتوقف عند هذا المنظور انتهاءً.

ولا شك عندي أن القارئ لهذا الكتاب سوف يجد فيه من الزاد والمتعة مثلما وجدت. وإذا أثارت فصول الكتاب أسئلة جديدة في ذهن القارئ فقد أدت ما قُصد بها أحسن الأداء، فإن الخدمة الكبرى التي يؤديها العمل الثقافي لمن وجّه إليهم هي أن يبعث في النفس الأسئلة لا أن يزودها بالإجابات(!)

وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا الكتاب خيراً، وأن ينفع به، وأن يكتبه لهم في ميزان الصالحات يوم لا ينفع مال ولا بنون.

والحمد لله رب العالمين،

محمد سليم العوّا

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ »[1]

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا »[2]

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ؛ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا »[3]

أما بعد،

فقد «اكتمل» العمل في كتاب الثقافة الإسلامية، والذي جاء نتيجة جهود كوكبة من أساتذة الجامعات الفلسطينية، استكتب كل واحد منهم في موضوع من موضوعات الكتاب الإثني عشر، بدلا من الإنفراد بالكتابة أو الاقتصار على عدد قليل من المؤلفين، ولكل منهج حسناته. ويضاف هذا الكتاب إلى ما سبقه في هذا الموضوع، آملين أن يكون قد أضاف شيئا جديدا إلى الخطاب الإسلامي المعاصر، ولكنه يظل واحدا من الآلاف المؤلفة، وكما أنه جاء بعد تجارب الغير، فإن الغير سيكتب من بعده ليحسن ويصوب ويجدد، ومن هنا نقول: أن هذا الكتاب قد كتب ليكتب غيره!

وقد كان من منهج تحرير الكتاب أن تم بيان بعض الآراء الإضافية في الهوامش لإثراء النقاش من جهة، ولبيان المواقف المخالفة من جهة أخرى، فقد تعددت الأفهام في بعض المسائل، وكان لا بد من إظهار الرأي المخالف، ولعل هذا يسلط الضوء على التعددية داخل التصور الإسلامي، فنتعلم أنه لا بأس في بيان الرأي المخالف، ولهذا إيحاءات سياسية مرغوبة.

كما وألحق بكل فصل من الفصول مجموعة من الأسئلة للتقويم، ومجموعة من المصادر الإضافية لتوجيه الطالب/ة إلى ينابيع الثقافة الإسلامية وأمّات الكتب.

---

[1] سورة آل عمران آيه ١٠٢

[2] سورة النساء آيه ١

[3] سورة الأحزاب آيه ٧٠-٧١

وتشتمل الدراسات في هذا الكتاب على السيرة النبوية، والعقيدة الإسلامية، وعلوم القرآن، والسنة والحديث، وأصول الفقه، والتشريع والفقه، والنظام الإقتصادي، والنظام الأخلاقي، والإسلام والعلم، والمرأة في الإسلام، والإسلام وغير المسلمين، واللغة العربية والإسلام.

إن من أهداف هذا الكتاب بيان الرؤية الإسلامية للكون والإنسان والحياة، مع الإدراك المسبق بأن هنالك مواضيع لم يتطرق إليها، وكذلك الجمع بين الأصالة والتجديد في الطرح، وإظهار الجوانب العملية التطبيقية لهذه الرؤية، حتى إذا ما تحمل القراء مسؤوليتهم تجاه رسالة الإسلام العالمية، ليكونوا شهداء على الناس، كان ذلك عن بينة.

وكذلك فإن هذا الكتاب يخرج إلى النور في زمن يتم فيه إعادة اكتشاف ثقافة الذات في ظل عولمة ثقافة الإستهلاك والقيم المادية، فلعله يسهم في سد حاجة المجتمع المسلم إلى مثله من المصادر، ويكون بهذا قد شارك في تصويب وتعزيز الرؤية الإسلامية.

إن هذا الكتاب، كغيره من أعمال البشر، لا بد أن يعاني من النقص والخطأ، فالكمال لله جل جلاله، وحيثما أصاب المؤلفون فالفضل لله تعالى، فله الحمد وله الشكر، وصلى الله على نبيه محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

د. مصطفى أبو صوي
بيت المقدس

السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي

د. محمد مطلق عساف*

المنهج العلمي والعمل التاريخي في رواية السيرة النبوية

إن أحداث السيرة النبوية هي أول ما تم تدوينه من وقائع التاريخ الإسلامي، وهي السبب في اكتشاف المنهج العلمي الدقيق لرصد الوقائع وتمييز الصحيح منها عن غيره، وذلك لأن سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هي المفتاح الأول لفهم كتاب الله عز وجل، وهي النموذج الأسمى لكيفية تطبيقه والعمل به، فكان أن وجد المسلمون أنفسهم أمام واجب شرعي يحملهم على تدوين سيرة النبي صلى الله عليه وسلم تدويناً صحيحاً ويفرض عليهم بذل الجهد في سبيل الوصول إلى القواعد العلمية لضبط الروايات والأخبار وذلك شعوراً منهم بالحاجة الماسة إلى حفظ مصادر الإسلام من أن يصيبها أي دخيل أو أن يتسلل إليها أي خلط أو افتراء. وقد أصبحت هذه القواعد العلمية فيما بعد منهجاً لخدمة التاريخ عموماً وميزاناً لتمييز حقائقه عن الأباطيل التي قد تعلق به.

فأول ما تحقق في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم هو الدقة التاريخية، بمعنى أن التاريخ الصحيح المحض يصدقها ويشهد لها، حيث اعتمد كتاب السيرة في تأريخها وتدوينها على المنهج الذي يسمى اليوم بالمذهب الموضوعي في كتابة التاريخ، فكانوا يثبتون ما هو ثابت من أحداث السيرة بمنهج علمي يتمثل في قواعد مصطلح الحديث المتعلقة بكل من السند والمتن، وفي قواعد الجرح والتعديل المتعلقة بالرواة وتراجمهم وأحوالهم والتثبت من عدالتهم وحسن تحملهم للخبر الذي يروونه. وعلى الرغم من أن هذه المهمة تعد من أشق الأمور إلا أن مئات من المحدثين وكتاب السيرة قد تفرغوا لها وطافوا لأجلها البلاد ورحلوا بين الأقطار باحثين دارسين لأحوال الرواة، وقد اجتمع من هذا المجهود العلمي العظيم علم مستقل من العلوم الإسلامية أطلق عليه فيما بعد علم (أسماء الرجال) فتيسر لمن أتى بعدهم أن يقفوا على أحوال مئات الألوف من الحفاظ والعلماء والرواة وغيرهم[1].

لقد كان كتاب السيرة يرون أن الحادثة التاريخية التي يتم الوصول إلى معرفتها وفق هذه القواعد العلمية الدقيقة تعبر عن حقيقة يجب أن تنقل كما هي لا كما يحب الكاتب أن يراها وضمن هذه النظرة الموضوعية وهذه القواعد المنهجية أوصلت إلينا سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصح الطرق العلمية وأقواها ثبوتاً، مما لا يترك مجالاً للشك في وقائعها البارزة وأحداثها الكبرى، فهي أصح سيرة لتاريخ نبي مرسل أو عظيم مصلح[2].

غير أنه لا ينبغي أن نعتبر دراسة السيرة النبوية من جملة الدراسة التاريخية فحسب، إذ ينحصر العمل التاريخي في نقلها إلينا محفوظة مضبوطة من حيث الإسناد واتصاله ومن حيث الرجال وتراجمهم، وبعد ذلك يأتي عمل علمي آخر لا علاقة له بالتاريخ، وهو استنباط النتائج والأحكام من تلك الأخبار التي تم قبولها، فليس الغرض من دراسة السيرة النبوية هو مجرد الوقوف على الوقائع التاريخية، وإنما الغرض هو تطبيق الحقائق التي تصورها المسلم متجسدة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم والتي تم استنباطها وفق منهج علمي يقوم على قواعد أصولية ولغوية وفقهية كالدلالات والقياس الاستقرائي ومقاصد التشريع الإسلامي وغير ذلك.

وقد استنبطت وفقاً لهذه القواعد أحكام ودروس وعبر كثيرة من أحداث السيرة النبوية منها ما يتعلق بالعقيدة ومنها ما يتعلق بالأخلاق ومنها ما يتعلق بالتشريع، وكلها جاءت منفصلة عن العمل التاريخي وبعيدة عن معنى التدوين ومضمونه.

كتابة السيرة النبوية ومصادرها وتطور دراستها

إن المصدر الأول من مصادر السيرة النبوية هو القرآن الكريم، وهو المعتمد الأول في معرفة المراحل الإجمالية لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم والملامح العامة لحياته، وقد ذكر القرآن الكريم الكثير من وقائع السيرة وتعرض لنشأة النبي صلى الله عليه وسلم فذكر لنا يتمه وتحنثه وفقره:

---

* رئيس دائرة القرآن والدراسات الإسلامية/ جامعة القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] البوطي، فقه السيرة، ص ٢٠.

[2] السباعي، السيرة النبوية، ص ١٥

قال تعالى: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى)[٣]

كما تعرض لأخلاقه الكريمة العالية (وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[٤] وبين لنا سيرته بعد النبوة من هبوط الوحي الإلهي عليه وتبليغه إياه والعروج به إلى السماء وعداوة الأعداء له وهجرته وغزواته التي خاضها فتحدث عن معركة بدر وأحد والخندق وصلح الحديبية وفتح مكة وغزوة حنين وغيرها[٥].

وإذا كان القرآن الكريم قد تعرض لتلك الوقائع إجمالاً دون أن يتعرض لتفاصيلها فإن المصدر الثاني من مصادر السيرة وهو السنة النبوية الصحيحة قد فصل في تلك الوقائع بشكل يعطينا الفكرة الشاملة عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد روت لنا كتب السنة النبوية أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وأحواله بالسند المتصل إلى الصحابة رضوان الله عليهم وهم الذين رباهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على استقامة الأخلاق وصدق الحديث وقوة الإيمان، فكل ما رووه لنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالسند المتصل يجب أن نقبله كحقيقة تاريخية ونطبق ما نستنبطه منه من أحكام شرعية[٦].

لقد كان الصحابة رضي الله عنهم يهتمون بنقل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ومغازيه شفاهاً وقد اختص بعضهم بتتبع دقائق السيرة وتفاصيلها ثم تناقل التابعون هذه الأخبار ودونوها ولعل أول من اختص بالعناية التامة بالسيرة النبوية واهتم بكتابتها عموماً هو عروة بن الزبير بن العوام وإبان بن عثمان بن عفان ثم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري.

وقد جاء في الطبقة التي تلي هؤلاء من اعتنى بكل ما كتبوه وكان في مقدمة المصنفين في السيرة محمد بن إسحاق بن يسار ويعد كتابه (المغازي) من أوثق ما كتب في السيرة النبوية حتى ذلك العهد، ولكنه لم يصل إلينا بذاته وإنما حفظ مضمونه بما رواه عنه ابن هشام في سيرته عن طريق شيخه البكائي الذي كان من أشهر تلامذة ابن إسحاق[٧].

ومن كتب التاريخ الإسلامي العام التي تبدأ بالسيرة النبوية أو تفرد لها قسماً خاصاً: طبقات ابن سعد وتاريخ الطبري، ثم تطور التأليف في السيرة النبوية فوجدت كتب الدلائل التي أفردت للكلام عن المعجزات ومنها (دلائل النبوة) لابن قتيبة، كما وجدت كتب الشمائل التي تقتصر على ذكر أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم وعاداته وفضائله ومنها كتاب (الشمائل المحمدية) للترمذي[٨].

خصائص السيرة النبوية ومزاياها:

١. **الوضوح:** فوقائع السيرة النبوية واضحة كل الوضوح، وكتب السيرة تذكر أدق التفاصيل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم منذ زواج أبيه بأمه إلى وفاته عليه الصلاة والسلام، فتذكر الشيء الكثير عن ولادته وطفولته وشبابه وبعثته ودعوته وكذلك عن أكله ولباسه وشكله وتعبده ومعاملته لأسرته ولأصحابه[٩].

لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يبلغوا عنه كل ما يكون منه، فكان أصحابه وزوجاته يتحدثون بكل ما يصدر عنه من قول أو عمل بكل وضوح مما جعل سيرته كالمرآة الصافية التي يرى فيها كل إنسان صورته ليصلح اعوجاجه ويحسن أخلاقه بحسب ما يراه في تلك المرآة الصافية[١٠].

٢. **الواقعية:** فسيرة النبي صلى الله عليه وسلم هي سيرة عملية وممكنة التطبيق، فما كان عليه الصلاة والسلام يأمر بشيء إلا فعله ثم ارتفع بأصحابه إلى تطبيق ما دعا إليه، كما أن سيرته هي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة فلم تخرجه عن إنسانيته ليظل القدوة النموذجية لكل إنسان يريد أن يعيش سعيداً في نفسه وأسرته، حيث يجد صورة للمثل الأعلى في كل شأن من شؤون الحياة الفاضلة كي يجعل منها دستوراً يتمسك به ويسير عليه[١١].

٣. **الشمول:** فسيرة النبي صلى الله عليه وسلم شاملة لجميع النواحي الإنسانية في المجتمع مما يجعله القدوة لجميع الناس، وهذه السيرة الجامعة تجد فيها كل طائفة من طوائف البشر المثل الأعلى الذي تقتدي به والأسوة التي تتأسى بها.

٤. **العالمية:** فسيرة النبي صلى الله عليه وسلم تعطينا الدليل القاطع على صدق رسالته ونبوته وعلى أن رسالته لكل الأمم ولا نجاة لأحد إلا باتباعها.

---

[٣] سورة الضحى آية ٦-٨.
[٤] سورة القلم آية ٤.
[٥] حوى، الأساس في السنة وفقهها، ص ٢٧
[٦] السباعي، السيرة النبوية، ص٢٧
[٧] البوطي، فقه السيرة، ص ٢١

إلا لأنه نبي أراد الله منه أن يبلغ رسالته لكل الأمم[12].

أهم الأحداث من ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى البعثة

أولاً: ولادته صلى الله عليه وسلم: ولد عليه الصلاة والسلام في دار أبي طالب بشعب بني هاشم في مكة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول في عام الفيل[13].

وقد أشار القرآن الكريم إلى أنه صلى الله عليه وسلم نشأ يتيماً بقوله تعالى: (ألم يجدك يتيماً فآوى)[14] فقد مات أبوه عبد الله وأمه حامل به لشهرين، ولما أصبح له من العمر ٦ سنوات ماتت أمه آمنة فذاق صلى الله عليه وسلم في صغره مرارة الحرمان من عطف الأبوين وحنانهما، وقد كفله بعد ذلك جده عبد المطلب ورق له رقة لم تعهد له في ولده، ولكن لم يلبث عبد المطلب أن توفي ورسول الله ابن ٨ سنوات، فكفله بعد ذلك عمه أبو طالب حتى نشأ واشتد ساعده، وكان أبو طالب مقلاً من المال فبارك الله له في قليله، وكان صلى الله عليه وسلم في مدة كفالة عمه مثال القناعة فيما يسره الله تعالى له [15].

ومن حكم نشأة النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً أن لا يتوهم أحد أن لأبيه وجده مدخلاً في دعوته وكذلك أن لا تميل به نفسه إلى مجد المال والزعامة، فتلتبس على الناس قداسة النبوة بجاه الدنيا[16].

ثانياً: رضاعه صلى الله عليه وسلم: كان من عادة العرب أن يلتمسوا المراضع لمواليدهم في البوادي ليكون أنجب للولد، فاسترضع له جده عبد المطلب امرأة من بني سعد يقال لها حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية واسم زوجها أبو كبشه، وقد أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم السنوات الأربع الأولى من طفولته في صحراء بني سعد فنشأ قوي الجسم فصيح اللسان ودرت البركات على منازل مرضعته حليمة، فاخضر الزرع الذي كان قد يبس وامتلأ الضرع الذي كان قد جف[17] وهذا يدل على في البادية ويستمتع بجوها الطلق الذي يؤدي إلى صحة البدن وصفاء النفس وذكاء العقل[18].

ثالثاً: عمله صلى الله عليه وسلم في الرعي: كان صلى الله عليه وسلم في أوائل شبابه يرعى لأهل مكة أغنامهم بقراريط يأخذها أجراً على ذلك، وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن نفسه وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم فقال صلى الله عليه وسلم:

(ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، فقال له أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[19].

ونستفيد من ذلك أنه ينبغي للداعية أن يعتمد في معيشته على جهده الشخصي، فخير مال الإنسان ما اكتسبه مقابل ما يقدمه من خدمة للمجتمع، أما إذا كان كسبه من عطايا الناس وصدقاتهم فقد ارتضى لنفسه المهانة، وبالتالي فهو لا يستطيع محاربة الشر والفساد.

كما أن رعي الغنم يتيح لصاحبه الهدوء والصبر والتواضع والشجاعة والرحمة والتربية النفسية والتطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق[20].

رابعاً: حفظ الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: حفظه الله في صغره من كل أعمال الجاهلية التي جاء شرعه الشريف بضدها، وبغضت له الأصنام بغضاً شديداً وحرم الخمر على نفسه مع شيوعها في قومه شيوعاً عظيماً، ولم يشارك أقرانه من شباب مكة في لهوهم أو عبثهم أو قمارهم أو فحش قولهم، فقد كان معصوماً عن كل ما لا يتفق مع ما هيأه الله تعالى له من تتميم مكارم الأخلاق والدعوة إلى شريعة الإسلام، ونستفيد من ذلك أن استقامة الداعية في شبابه أدعى إلى نجاحه في دعوته، إذ لا يجد في الناس من يذكره بماض ملوث أو خلق غير مستقيم، بل يظل رافع الرأس أبداً لا يجد الأعداء سبيلاً للتشهير به أو الاستخفاف بشأنه[21].

---

[12] السباعي، السيرة النبوية، ص٢١
[13] محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٣٣
[14] سورة الضحى آية ٦
[15] الخضري، نور اليقين، ص ١١
[16] البوطي، فقه السيرة، ص ٦٢
[17] الخضري، نور اليقين ص ١٠
[18] الصلابي، السيرة النبوية ص ٦١
[19] أخرجه البخاري في كتابه الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط، حديث رقم (٢٢٦٢)
[20] الذهبي، السيرة النبوية، ص ٢٦
[21] الغزالي، فقه السيرة، ص ٧٢

خامساً: رجاحة عقله واشتراكه في بناء الكعبة: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ٣٥ سنة قامت قريش بإعادة بناء الكعبة حين تضعضعت، وعندما وصلوا موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يضعه حتى كادت تنشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا الخصام ٤ ليال ثم ارتضوا أن يحكم بينهم أول داخل من باب بني شيبه، فكان هذا الداخل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا بحكمه ولما أخبروه الخبر قال: (هلموا ثوباً) فأتوه به فوضع الركن فيه بيديه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوا جميعاً فرفعوه ووضعه صلى الله عليه وسلم بيده[٢٢].

ومن هنا نلاحظ أن صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وأمانته ومكارم أخلاقه هي التي جنبت قريشاً كارثة القتال فقد ارتضاه الجميع لأنه الصادق الأمين على البيت والأرواح والدماء ولأنه صاحب المنزلة السامية عند رجال قريش على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم، وقد أكرمه الله تعالى بهذه القدرة على حل المشكلات بأقرب الطرق وأكملها[٢٣].

سادساً: اختلاؤه في غار حراء: حبب إليه صلى الله عليه وسلم العزلة والخلاء والتعبد لربه قبيل البعثة فكان يخلو في غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد يفكر في آلاء الله وعظيم قدرته، واستمر على ذلك حتى جاءه الوحي ونزل عليه القرآن وهو في إحدى خلواته تلك[٢٤].

وللخلوة فوائد كثيرة منها محاسبة النفس وتهذيبها وإبعادها عن الكبر والحسد والعجب والرياء، ومنها التأمل والتفكير في مظاهر عظمة الله وفي اليوم الآخر مما يؤدي إلى تربية محبة الله تعالى في القلب والابتعاد عن شواغل الدنيا وشهواتها. ولذلك لا بد من أن تكون للداعية أوقات يخلو فيها بنفسه بين الفترة والأخرى تصفو فيها نفسه وتتصل روحه بالله عز وجل، وقد شرع الإسلام الخلوة في نوافل مستحبة كالتهجد وقيام الليل والاعتكاف، وأحق الناس بالحرص على هذه السنن هم الدعاة إلى الله و شريعته[٢٥].

سابعاً: بدء الوحي: لما تم للنبي صلى الله عليه وسلم ٤٠ سنة نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي في يوم الاثنين لسبع عشر خلت من رمضان، وقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

(أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ! قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقارئ! فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)، فرجع بها صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة وقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر)[٢٦].

مراحل الدعوة حتى إقامة الدولة الإسلامية

بدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتكليف من ربه عز وجل بخطوات متتالية سار معه الصحابة رضي الله عنهم وفقها حتى تمكنوا من إقامة الدولة الإسلامية، فقد نزل القرآن الكريم على قلب النبي صلى الله عليه وسلم ليربي جيلاً وينشئ أمة ويقيم دولة، كانت هذه المهمة واضحة في نفس النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مكة لا يملك حولاً ولا قوة[٢٧].

وتتلخص مراحل الدعوة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم من البعثة وحتى إقامة الدولة الإسلامية بالخطوات الآتية:

١. مرحلة الدعوة سراً وبشكل فردي.
٢. مرحلة الدعوة جهراً وبشكل جماعي.
٣. مرحلة الأخذ بكل الأسباب لإقامة الدولة.

وسنتحدث عن كل مرحلة من هذه المراحل وعن أبرز ما تم فيها من أعمال:

مرحلة الدعوة سراً وبشكل فردي

بعد نزول قوله تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ) عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث على خديجة فآمنت ابتداء لمجرد العرض، وبنزول قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ)[٢٨] أيقن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أصبح نبياً، أمامه عمل عظيم يستدعي الإعذار والإنذار وحمل الرسالة ودعوة الناس وتوجيههم إلى طريق الخير. وبهذا التكليف الرباني بدأ الرسول صلى الله عليه وسلم يبلغ الدعوة سراً حيث استمرت هذه المرحلة لمدة ٣ سنوات كان يدعو خلالها إلى عبادة الله

---

[٢٢] محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ص ٤٤.
[٢٣] المباركفوري، الرحيق المختوم، ص٥٧. والذهبي، السيرة النبوية، ص٣٢
[٢٤] كيلاني، عين اليقين، ص١١.

منهم عندما يدخل هذا الذين ينسلخ من كل ولاء للمجتمع الجاهلي ويسلم بالقيادة كاملة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يتلقى ولا يأخذ أي شيء إلا من الرسول عليه الصلاة والسلام ولذلك يمكن أن يطلق على هذه المرحلة أنها مرحلة التلقي والأخذ لأنهم كانوا لا يقلدون ولا يتبعون إلا ما يأتيهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد كان أبو بكر رضي الله عنه أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم من الرجال الأحرار والأشراف وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه أول من آمن من الصبيان وكان زيد بن حارثة رضي الله عنه أول من آمن بالدعوة من الموالي، وقد سارعت إلى الإسلام بنات الرسول صلى الله عليه وسلم، وبذلك أصبح بيت النبي عليه الصلاة والسلام أول أسرة مؤمنة بالله تعالى منقادة لشرعه، وعندما تحرك أبو بكر الصديق في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق منهم عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم أجمعين، وبعد إسلام هذه الدفعة جاء إسلام أبي عبيدة بن الجراح والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون وعائشة وأسماء بنات أبي بكر وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود وجعفر بن أبي طالب وعمار بن ياسر وصهيب بن سنان وبلال بن رباح الحبشي وغيرهم رضي الله عنهم جميعاً[30].

وقد اختار لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم ليلتقي بهم فيها متخفياً ولم يكن تكتم النبي عليه الصلاة والسلام في هذه المرحلة بسبب الخوف ولكنه أراد أن يعلم الدعاة من بعده ويرشدهم إلى مشروعية الأخذ بالأسباب الظاهرة التي تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها، فعلى الداعية إذا وجد جماعته في خطر أن يهيئ لهم مكاناً يأمنون فيه من عدوان المبطلين وذلك لضمان استمرار الدعوة وانتشارها، كما ينبغي أن لا يجهر بدعوته إلا بعد أن يؤمن بها عدد يضحون في سبيلها بالغالي والرخيص[31].

وهذا الحرص الشديد من الرسول صلى الله عليه وسلم على السرية في هذه المرحلة يدل بشكل قاطع على أنه عليه الصلاة والسلام كان انقياداً مطلقاً دون تردد بالإضافة إلى التأثر الوجداني العميق بالوحي والإيمان، فكانت الأحكام التي يتلقونها ترتبط بقلوبهم وجوارحهم، وأورثهم ذلك محبة الله تعالى والخوف منه ورجاء ما عنده وحسن الظن به[32].

مرحلة الدعوة جهراً وبشكل جماعي

أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجهر بدعوته وأن ينذر عشيرته فقال له:
(وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ، وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[33]

وقال تعالى: (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)[34].

وعندئذ بدأت الدعوة الجهرية الجماعية وفي نفس الوقت بقيت الدعوة الفردية مستمرة وبقيت السرية قائمة بالنسبة لمن أسلم حديثاً وبالنسبة لبعض الأمور والأعمال التي تحتاج إلى السرية. روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله عز وجل (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) فقال:

(يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ويا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي، لا أغني عنك من الله شيئا)[35].

والحكمة من خصوصية الأمر بإنذار الأقربين أولاً أن الحجة إذا قامت عليهم تعدت إلى غيرهم وأن الدرجة الثانية من درجات المسؤولية بعد مسؤولية الشخص عن نفسه هي مسؤوليته عن أهله وأقاربه[36]. ثم أصبح الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بعد ذلك كل من يلتقي به من الناس على اختلاف قبائلهم وبلدانهم وكانت النتيجة هي الصد والإعراض والإيذاء والاتهامات الباطلة.

وسنذكر في هذه المرحلة أهم أساليب المشركين في محاربة الدعوة:

---

[29] محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص ٥٤
[30] ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١/ ص ٢٤٥.
[31] البوطي، فقه السيرة، ص ٩٥. والسباعي، السيرة النبوية، ص ٤٩.
[32] الصلابي، السيرة النبوية، ص ١١٤.
[33] سورة الشعراء اية ٢١٤ - ٢١٥.
[34] سورة الحجر اية ٩٤
[35] أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب (وأنذر عشيرتك الأقربين) حديث ٤٧٧٠.
[36] البوطي، فقه السيرة، ص ١٠١. وحوى، الأساس في السنة، ج ١/ ص ٢٣٨.

١. **الإيذاء والتعذيب (سياسة الترهيب)**: لاقى رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين أنواعاً كثيرة من الأذى، وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة سموا لكثرة أذاهم بالمستهزئين وأشدهم أبو جهل الذي عزم على أن يرضخ رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم بحجر ولكنه عندما دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه وقال لرجال قريش: لما دنوت منه عرض لي فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط همّ بي أن يأكلني، وقال رسول الله:صلى الله عليه وسلم (لو دنا منّي لاختطفته الملائكة عضواً عضواً)[٣٧].

وكان أبو لهب من أشد الناس عداوة له صلى الله عليه وسلم وكذلك كانت امرأته أم جميل تضع الشوك في طريقه وتسعى للإفساد بينه وبين الناس بالنميمة، وقد تعرض الصحابة رضي الله عنهم أيضاً للأذى والتعذيب وتحملوا من البلاء العظيم ما تنوء به الجبال، فلقد أوذي أبو بكر رضي الله عنه وحُثِّيَ على رأسه التراب وضرب في المسجد الحرام بالنعال، كما أوذي بلال وعمار بن ياسر وأبوه وأمه وخباب بن الأرت وعبد الله بن مسعود وغيرهم[٣٨].

إن هذا الإيذاء والتعذيب يدل على عبودية الداعية لله عز وجل وهو الذي يمحص المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، وبالتالي فإن المسلمين يقتربون من النصر بمقدار ما يجدونه في طريقهم من العذاب وبمقدار ما يتساقط منهم من الشهداء، فعليهم أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الإيذاء والابتلاء[٣٩]. وكذا الأمر بالنسبة للزج في غياهب السجون، والتضييق على الدعاة في أرزاقهم، والمنع من حرية الحركة والسفر!

٢. **المفاوضات والعروض المادية (سياسة الترغيب)**: سعى المشركون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مفاوضات طويلة يرغبونه فيها بالملك والمال والجاه، فأرسلوا إليه عتبة بن ربيعة حتى جلس إليه صلى الله عليه وسلم فقال: (يا محمد إنك فينا حيث قد علمت من الشرف في العشيرة والمكانة في النسب، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها، فإن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:فرغت؟ قال: نعم، فقرأ صلى الله عليه وسلم: (حم، تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا)[٤٠] إلى أن بلغ (فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ)[٤١] فقال له عتبة حسبك، ثم عاد إلى أصحابه، فقالوا: ما وراءك يا أبا الوليد، فقال (ورائي أني سمعت كلاماً والله ما سمعت مثله قط والله ما هو بالسحر ولا بالشعر ولا بالكهانة، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم)[٤٢].

وقد استمع الصحابة رضي الله عنهم إلى رفض نبيهم صلى الله عليه وسلم لكل العروض المغرية، فكان ذلك درساً تربوياً تعلموا منه الثبات على المبدأ ووضع كل المغريات تحت أقدامهم، وكما تعلموا أن الغاية لا تبرر الوسيلة، فما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرضى بالزعامة كوسيلة يتخذها لتحقيق دعوة الإسلام فيما بعد، وعلى الداعية أن يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ويثبت أمام إغراء المال والجاه والزعامة، فهذه أمور لها خطورة واضحة على الدعاة إن لم يقتدوا برسول الله صلى الله عليه وسلم[٤٣].

٣. **الحصار الاقتصادي والاجتماعي (سياسة المقاطعة)**: بدأ حصار بني هاشم في الشعب في السنة السابعة للبعثة حيث تعاقدت قريش على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم ولا يكلموهم حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا في ذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق، أن لا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً ولا تأخذهم بهم رأفة، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، ودخل بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنهم وكافرهم إلى شعب أبي طالب واشتد الحصار عليهم حتى اضطروا إلى أكل الأوراق والجلود، وكانت تسمع أصوات الصبية والنساء من الجوع، ثم قيض الله لنقض الصحيفة أناساً من أشراف قريش فأبطلوا الصحيفة، ولما أرادوا تمزيقها وجدوا الأرضة أكلتها إلا قولهم (باسمك اللهم) وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخبر عمه بذلك فكانت معجزة[٤٤].

ونلاحظ من خلال هذا الحصار أن مشركي بني هاشم وبني المطلب تضامنوا مع النبي عليه الصلاة والسلام وحموه كأثر من أعراف الجاهلية، وهذا من الأسباب التي يهيئها الله تعالى لحماية

---

[٣٧] أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين، باب قوله (إن الإنسان ليطغى) حديث ٢٧٩٧.
[٣٨] الصلابي، السيرة النبوية، ج ١/ ص ١٩٢.
[٣٩] البوطي، فقه السيرة، ص ١٠٨.
[٤٠] سورة فصلت الآيات ١-٣

نوياً من عوامل انتشار الدعوة الإسلامية لأنه أثار سخط العرب على كفار مكة لقسوتهم على بني هاشم وبني المطلب، كما أن شيوع هذا الخبر في كل القبائل العربية من خلال موسم الحج كان بمثابة الدعاية الخادمة للدعوة حيث لفتت الأنظار إلى هذه الدعوة التي يتحمل أصحابها الجوع والعطش والعزلة لكل هذا الوقت.

مرحلة الأخذ بكل الأسباب لإقامة الدولة

أركان الدولة هي الأرض والشعب والسلطة الحاكمة، وقد يكون شعب الدولة الإسلامية الأولى من أولئك الصحابة الذين دخلوا في الإسلام في مراحل الدعوة السرية والجهرية فتكونت بذلك نواة المجتمع الإسلامي وكان ذلك العدد من الأفراد متحاباً مترابطاً واعياً للأفكار التي يدعوا إليها مرتبطاً بروابط العقيدة ومشاعر الإيمان.

كما وجدت القيادة القادرة على تنظيم أمور تلك الجماعة وإدارة شؤونها بسن القوانين والأنظمة وإصدار الأوامر والنواهي، وبقيت الحاجة إلى الركن الثالث من أركان الدولة وهو قطعة من الأرض تستقر عليها تلك الجماعة وتكون لها السيادة الكاملة عليها.

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى جاهداً لإيجاد أرض يقيم عليها الدولة الإسلامية ولم يتوصل عليه الصلاة والسلام لذلك إلا بعد دراسة مستفيضة لأحوال البلاد والعباد فبعد أن أيقن أن مكة لا تصلح أن تكون الإقليم الأول للدولة الإسلامية بدأ بدراسة أحوال الحبشة وأرسل إليها مجموعة من المسلمين لدراسة حالتها ميدانياً وعلى الطبيعة وذلك من أجل معرفة فيما إذا كانت تصلح أن تكون موطناً للدعوة الإسلامية أم لا، والذي يدل على ذلك أن الذين هاجروا إلى الحبشة كانت لهم منعة في قومهم ولم يكونوا من المستضعفين كالعبيد والفقراء بل كانوا من أشراف قومهم وكانوا ذوي رأي وتجربة، ومنهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام ومصعب بن عمير وعبد الله بن عوف وعثمان بن مظعون وجعفر بن أبي طالب[٤٦]. ومن أهداف هجرة المسلمين إلى الحبشة أيضاً الفرار بالدين خشية الافتتان لما اشتد عليهم العذاب والأذى[٤٧]. ومنها نشر الدعوة خارج مكة والبحث عن قاعدة تحمي العقيدة وتكفل لها الحرية وتخلصها من التجميد الذي انتهت إليه في مكة[٤٨].

زمانه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة الذي لا بد أن يكون ملماً بما يجري حوله مطلعاً على سياسة الحكومات وأوضاع الأمم. وقد أمن المهاجرون بأرض الحبشة وقال لهم النجاشي: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، امكثوا في أرضي ما شئتم وأمر لهم بطعام وكسوة.

إلا أن نفوذ البطاركة الواسع والصراع الذي كان سائداً بين أفراد العائلة المالكة في الحبشة حول الحكم والملك جعل البلاد غير مستقرة ولا تصلح لأن تكون موطناً للدولة الإسلامية[٤٩].

ولذلك بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يبحث عن موطن آخر يقيم عليه الدولة فارتاد صلى الله عليه وسلم الطائف بنفسه يلتمس النصرة من ثقيف ويرجو أن يقبلوا منه ما جاءهم به من عند الله عز وجل ولكنهم لم يستجيبوا له، ورشقه صبيانهم بالحجارة حتى إن رجلي رسول الله صلى الله عليه وسلم لتدميان وزيد بن حارثة يقيه بنفسه، ومع ذلك فقد كانت رحمة النبي صلى الله عليه وسلم وشفقته عليهم هي الغالبة، فعن عائشة رضي الله عنها أنها سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا)[٥٠].

وبعد رجوعه صلى الله عليه وسلم من الطائف استمر في عرض نفسه على القبائل، وكان يتحرك في مواسم الحج وفي المواسم التجارية التي تتحرك فيها القبائل فيشرح لهم الإسلام ويطلب منهم الإيواء والنصرة.

وقد عرض نفسه صلى الله عليه وسلم على بني مرة وبني فزارة وبني سليم وبني

---

[٤٥] البوطي، فقه سيرة السيرة، ص١٢١. وحوى، الأساس في السنة، ج١/ص٢٦٤.
[٤٦] أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، ص١٣٤.
[٤٧] محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، ص٥٥.
[٤٨] سيد قطب، في ظلال القرآن، ج١/ص١٣٦.
[٤٩] أبو فارس، النظام السياسي في الإسلام، ص ١٣٦.
[٥٠] أخرجه الإمام البخاري في كتاب بدء الخلق، باب (إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء) حديث رقم ٣٢٣١.

نصر وكندة وغسان وثعلبة وقيس وبني عبس وبني الحارث بن كعب وغيرهم، وكان يقول لهم: (من رجل يحملني إلى قومه فيمنعني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي) وكان أبو جهل وأبو لهب وراءه يقولون للناس: لا تسمعوا منه فإنه كاذب.

ثم اتخذ عليه الصلاة والسلام أساليب أخرى في عرض نفسه على القبائل للرد على مكائد أبي جهل وأبي لهب منها أنه كان يذهب إلى القبائل في منازلهم فقد أتى صلى الله عليه وسلم بني حنيفة وبني عامر وكلباً في منازلهم[٥١].

ومن الأساليب الأخرى مقابلة القبائل في الليل حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من المشركين، وقد نجح هذا الأسلوب في إبطال مفعول الدعاية المضادة التي كانت تتبعها قريش، حيث اتصل عليه الصلاة والسلام بنفر من الخزرج ليلاً، وكان هذا بداية للانتصار، إذ كانت بعد ذلك بيعة العقبة الأولى ليلاً، وفي الليل أيضاً كانت بيعة العقبة الثانية[٥٢].

وبذلك فقد اهتدى الرسول صلى الله عليه وسلم بعد طول بحث إلى موطن الدولة وإقليمها وهو يثرب، وبذلك يكون قد توافر الركن الثالث من أركان الدولة وهو الإقليم والأرض بعد بيعة العقبة الثانية التي سميت بيعة الحرب لأنها تشعر بخطورة المسؤولية التي ترتبت على كواهل أهل المدينة حيث ستكون بلدهم نواة الدولة الإسلامية ومنها سيقدم النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته على مرحلة جديدة هي مرحلة استخدام القوة والقتال في سبيل الله عز وجل، ولذلك بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأزواجهم وأبناءهم.

ومن هنا جاءت حادثة الهجرة عام ٦٢٢م كأهم أحداث السيرة النبوية، والتي أرست دعائم الدولة الإسلامية في المدينة المنورة.

بعض المعارك الجهادية في التاريخ الإسلامي

حرص النبي صلى الله عليه وسلم من أول يوم أقام فيه الدولة الإسلامية في المدينة على إنشاء جيش قوي يستوعب كل قضايا عصره من حيث التدريب والتخطيط والتسليح والتنفيذ وغير ذلك وقد بدأ الإذن بالقتال في السنة الأولى للهجرة، قال تعالى: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ)[٥٣]

ثم فرض على المسلمين قتال من قاتلهم بقوله تعالى: (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ)[٥٤] ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة بقوله تعالى: (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً)[٥٥] ونزلت الآيات التي تحرض على الإقدام في قتال الأعداء ومنها قوله تعالى: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)[٥٦].

وكان أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم هو لواء حمزة بن عبد المطلب في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، وكان عليه الصلاة والسلام يقود الغزوات ويرسل السرايا لينقل الأمة من نصر إلى نصر ومن معركة إلى معركة، ففي عشر سنوات من الزمن قاد عليه الصلاة والسلام ٢٧ غزوة وأرسل ما يقدر بـ ٣٨ سرية[٥٧]. وهذا التاريخ الذي كتب حروفه رجال أمتنا الإسلامية بدمائهم ورسخوه بتضحيتهم وجهادهم ينبغي علينا أن نعتز به ونحافظ عليه ونحفظه بأحداثه ووقائعه ليكون حافزاً لنا على الجهاد والاجتهاد واستنباط الدروس والعظات، والاستفادة منها في رفع شأن المسلمين وتحسين واقعهم وإصلاح ما فسد من حياتهم[٥٨].

ولذلك فقد كان السلف الصالح من هذه الأمة يحرصون على تحفيظ أبنائهم سرايا الرسول صلى الله عليه وسلم ومغازيه كما يحفظونهم سور القرآن الكريم[٥٩].

وقد استمرت المعارك والفتوحات الإسلامية في التاريخ الإسلامي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم سواء في عهد الخلفاء الراشدين أو في عهد الدولة الأموية والعباسية أو في عهد صلاح الدين الأيوبي وغيره، ونحن في هذا المحور من محاور الثقافة الإسلامية لا نستطيع البحث في جميع تلك المعارك ولا حتى في أشهرها، ولذلك سنقتصر على بحث ثلاث غزوات من الغزوات التي حدثت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وهي غزوة بدر وغزوة الأحزاب وغزوة تبوك.

غزوة بدر الكبرى

حدثت غزوة بدر الكبرى في ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة وكان لها أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي فقد تركت بصماتها على كل معارك الإسلام وقد أنزل الله عز وجل فيها

---

[٥١] ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٣/ ص ١٤٠.
[٥٢] ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/ ص ٤٤.
[٥٣] سورة الحج اية ٣٩.
[٥٤] سورة البقرة اية ١٩٠
[٥٥] سورة التوبة:آية ٣٦.

قافلة قريش العائدة من الشام إلى مكة ليأخذوها لقاء ما أخذت ريش من أموال المؤمنين المهاجرين، فكان لا بد من معاملتهم المثل وعرقلة طرقهم التجارية لإضعافهم اقتصادياً مما يؤدي لى الضعف عسكرياً. أرسل النبي صلى الله عليه وسلم اثنين من صحابه هما: بسبس بن عمرو وعدي بن أبي الزغباء ليستطلعا خبار أبي سفيان قائد القافلة[٦١] فأتيا ماء بدر فسألا عن أبي سفيان فأخبرا عن مكانه الذي هو فيه وبناء على ذلك قدرا مكان للقاء مع القافلة وزمانه، فقالا: (يا رسول الله نزل ماء كذا يوم كذا وننزل نحن ماء كذا يوم كذا وينزل هو ماء كذا يوم كذا وننزل نحن ماء كذا حتى نلتقي نحن وهو على الماء)[٦٢]

ولما بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، بادر إلى تحويل مسار القافلة إلى طريق الساحل وأرسل في الوقت نفسه عمرو بن ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها، فجاءهم وقد حول رحله وجدع أنف بعيره وشق قميصه من الأمام ومن الخلف ودخل مكة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث[٦٣]، وقد اشتاط زعماء قريش غضباً لهذا الخبر فسعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية، وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة طلب منهم العودة إلى مكة فكان رأي أبي جهل وأغلب زعماء قريش مواصلة المسير نحو بدر من أجل تأمين سلامة طريق التجارة القرشية وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها[٦٤].

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم نجاة القافلة وإصرار زعماء مكة على القتال استشار أصحابه في الأمر، فأشار عليه أبو بكر وعمر والمقداد وغيرهم من قادة المهاجرين بالمضي في القتال، ولكنه استمر يقول: أشيروا علي أيها الناس، فأدرك سعد بن معاذ أنه يريد رأي الأنصار فقام وقال: لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة فامض لما أردت فنحن معك فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا أنظر إلى مصارع القوم)[٦٦].

ثم نظم النبي صلى الله عليه وسلم جنده وقام ومعه أبو بكر باستكشاف أحوال جيش المشركين كما أرسل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى ماء بدر لمعرفة الأخبار عن جيش قريش، وبعد أن جمع عليه الصلاة والسلام معلومات دقيقة عن جيش قريش سار مسرعاً ومعه أصحابه إلى بدر فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة فقال: يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغور ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماءً ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو وبنوا الحوض وردموا الآبار[٦٧].

كما تم اختيار موقع مشرف على أرض المعركة، واقترح سعد بن معاذ بناء عريش يكون مقراً لقيادة النبي صلى الله عليه وسلم يراقب منها المعركة ويدعو ويبتهل إلى الله تعالى بالنصر فبنى المسلمون العريش على تل مشرف على ساحة القتال، ورتب رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين في صفوف لم تعهدها العرب في قتالها من قبل وأخذ يشجعهم ويرفع معنوياتهم.

واندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية فخرج من المشركين عتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة وطلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أعادهم وأخرج لهم ثلاثة من أقاربه هم: عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب، فبارز حمزة شيبة وقتله وبارز علي الوليد وقتله وبارز عبيدة عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكر حمزة وعلي على عتبة فقتلاه وحملا عبيدة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن ما لبث أن أسلم الروح شهيداً.

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة غضبوا

---

[٦٠] سورة آل عمران آيه ١٢٣

[٦١] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/ ص ٢٤

[٦٢] ابن القيم، زاد المعاد، ج ٣/ ص ١٧٣.

[٦٣] ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/ ص ٢٢١.

[٦٤] محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول، ص ١٠١.

[٦٥] ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢/ ص ١٤.

[٦٦] أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٥/ ٢٥٩، حديث رقم ٣٦٩٨.

[٦٧] ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/ ص ٢٣٣.

وهجموا على المسلمين، وقد كانت خطة النبي أن يتصدى المسلمون في البداية لهجمات العدو، وبعد أن أنهكت قدرة العدو على القتال أمر عليه الصلاة والسلام جيش المسلمين بالقتال الهجومي، وأيدهم الله بالملائكة بشرى لهم وأنزل نصره عليهم، فقتل في هذه المعركة سبعون من المشركين كما أسر سبعون، وقضى في هذه المعركة الفاصلة أربعة عشر شهيداً من المسلمين، وكان هذا النصر للمؤمنين من الله تعالى، فالنصر لا يكون إلا من عند الله عز وجل، قال تعالى: (وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)[٦٨].

وكان من نتائج غزوة بدر أن قويت شوكة المسلمين وهابهم أعداؤهم وارتفعت معنويات المسلمين المستضعفين الذين كانوا لا يزالون في مكة، وارتفع نجم الإسلام في المدينة[٦٩].

أما بالنسبة للمشركين فقد كان خبر الهزيمة عليهم كالصاعقة وترك في نفوسهم كمداً وحزناً وألماً، فهذا أبو لهب لم يلبث أن أصيب بعلة فمات، وما من بيت في مكة إلا وفيه مناحة.

وبالنسبة لليهود في المدينة فقد غاظهم انتصار المسلمين في بدر فأظهروا عداوتهم وصمموا على نقض العهد الذي عاهدوا عليه النبي صلى الله عليه وسلم عندما قدم المدينة، ولم يمض على غزوة بدر فترة لا تبلغ شهراً حتى نقض يهود بني قينقاع العهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يكن بد من حربهم وإجلائهم عن المدينة[٧٠].

غزوة الأحزاب

تسمى هذه الغزوة أيضاً بغزوة الخندق، وقد كانت من الغزوات الهامة في التاريخ الإسلامي، وتحدث عنها القرآن الكريم مذكراً المؤمنين بنعم الله عليهم فقال عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)[٧١]

كما مدح المؤمنين على مواقفهم النبيلة في مواجهة جيوش الأحزاب بإيمان صادق ووفاء بعهد الله تعالى فقال سبحانه:

(وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٣) مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا)[٧٢]

وقد ذهب جمهور أهل المغازي والسير إلى أن غزوة الأحزاب كانت في السنة الخامسة للهجرة[٧٣] وسببها أن يهود بني النضير بعد أن أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى خيبر بسبب نقضهم للعهد خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فأخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين وتوجهوا إلى القبائل العربية لتحريضها على حرب المسلمين فوافقت قريش وغطفان وتابعتهم قبائل أخرى حيث جمعوا عشرة آلاف مقاتل، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بخروجهم استشار أصحابه رضي الله عنهم فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق حول المدينة لصد عدوان الأحزاب، فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم وذهب مع بعض أصحابه لتحديد مكان الخندق حيث وفقهم الله عز وجل إلى اختيار المكان الذي تتوافر فيه الحماية للجيش، ثم عمل عليه الصلاة والسلام بنفسه مع الصحابة في حفر الخندق، ولما وصلت الأحزاب راعها ما رأت من أمر الخندق إذ لا عهد للعرب بمثله[٧٤].

وكان المسلمون يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة المنورة، فيقع المسلمون حينئذ بين نارين، اليهود من خلفهم والأحزاب من أمامهم، وبالفعل فقد نجح اليهودي حيي بن أخطب زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم يهود بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين[٧٥].

وعندئذ زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين واشتد الكرب وتأزم الموقف، وانسحب المنافقون من الجيش وازدادت محنة المسلمين في الخندق لتتحقق سنة الله القاضية بأنه لا نصر إلا بعد شدة وكلما اقترب النصر زاد البلاء[٧٦]. وقد كفى الله المؤمنين القتال فهزم جموع الأحزاب بوسيلتين هما:

١. رجل من المشركين اسمه نعيم بن مسعود جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه قد أسلم وأن قومه لا يعلمون بإسلامه وأنه صديق لبني قريظة يأتمنونه ويثقون به، وقال للرسول صلى الله عليه وسلم: مرني بما شئت، فقال له عليه الصلاة

---

[٦٨] سورة الأنفال آية ١٠.
[٦٩] حوى، الأساس في التفسير، ج ١/ ص ٤٤٣.
[٧٠] ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢/ ص ٢٥٨.
[٧١] سورة الأحزاب اية ٩.
[٧٢] سورة الأحزاب اية ٢٢- ٢٣.
[٧٣] ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٣/ ص ٢١٦.

إنما لتضرب الرماة لتشتيتها للمسلمين لكنا لعودتها إلى صلحهم، وهكذا تألب بعضهم على بعض واختفت الثقة من بينهم وأصبح كل فريق يتهم الآخر بالغدر والخيانة.

٢. أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة في ليلة شاتية باردة فجعلت تكفئ قدورهم وتمزق خيامهم فامتلأت نفوسهم بالرعب ورحلوا في تلك الليلة، وذلك بعد أن كان النبي صلى الله عليه وسلم قد أكثر من التضرع والاستعانة بالله والدعاء على الأحزاب بقوله: (اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[٧٨].

وقد كان من نتائج انتصار المسلمين في غزوة الأحزاب أن تغير الموقف الجهادي العام لصالح المسلمين، فانقلبوا من موقع الدفاع إلى موقع الهجوم وأصبحوا هم الذين يقومون بالغزوات والفتوحات ابتداء، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك حيث قال بعد غزوة الأحزاب: (الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم)[٧٩]

وبعد أن كشفت هذه الغزوة حقد يهود بني قريظة على المسلمين وتربص الدوائر بهم كان لا بد من محاسبة أولئك اليهود على نقضهم للعهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحلك الظروف وأقساها، ولذلك فقد أمر الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم بقتال بني قريظة بعد عودته من الخندق فأمر عليه الصلاة والسلام أصحابه بالتوجه إليهم وأوصاهم بأن (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)[٨٠].

وحاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني قريظة في حصونهم حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب فنزلوا على حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيهم، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ فحكم رضي الله عنه أن يقتل مقاتلهم وتسبى ذريتهم وتقسم أموالهم، فأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (قضيت بحكم الله)[٨١].

كانت غزوة تبوك في زمان عسرة من الناس وجدب من البلاد وقلة من المال وشدة من الحرارة ولذلك تسمى أيضاً (غزوة العسرة) وعندما تحدث عنها القرآن الكريم في سورة التوبة ميزها عن غيرها فسماها ساعة العسرة، قال تعالى:

(لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ)[٨٢]

وسبب الغزوة أن الروم خافوا من قوة المسلمين المتزايدة فأخذوا يجمعون جموعهم بين الشام والحجاز لغزو المسلمين وكان ذلك في رجب سنة تسع من الهجرة فلما علم النبي صلى الله عليه وسلم بجموعهم أراد أن يغزوهم قبل أن يغزوه، وذلك استجابة طبيعية لفريضة الجهاد، فكان أن استقر أمره على وجوب قتال المشركين كافة بمن فيهم أهل الكتاب الذين وقفوا في طريق الدعوة[٨٣].

وقد استنفر النبي صلى الله عليه وسلم الناس للخروج وطالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شباباً وشيوخاً وأغنياء وفقراء بقوله تعالى:

(انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ)[٨٤].

واستطاع عليه الصلاة والسلام أن يحشد ثلاثين ألف مجاهد من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، وأعلن عن هدفه وقصده على غير عادته ليستعد المسلمون لبعد المسافة وكثرة العدو وشدة الحر[٨٥].

استعد المسلمون للنفير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وضربوا أروع الأمثلة التي تدل على إخلاصهم وقوة إيمانهم، فسارعت النساء للتبرع بما لديهن من حلي، وسارع الرجال إلى بذل ما يستطيعون من مال، فقام عثمان بن عفان وتبرع بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله وتصدق عمر بنصف ماله وجاء

---

[٧٧] ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤/ ص ١١٣.
[٧٨] أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، حديث رقم (٤١١٤).
[٧٩] أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، حديث رقم ٤١١٠.
[٨٠] أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب، حديث رقم ٤١١.
[٨١] أخرجه البخاري في كتاب المغازي، باب مرجع النبي صلى الله عليه وسلم من الأحزاب، حديث رقم ٤١٢١.
[٨٢] سورة التوبة آية ١١٧.
[٨٣] ابن كثير، البداية والنهاية، ج٥/ص٣.
[٨٤] سورة التوبة آية ٤١.
[٨٥] أبو فارس، الصراع مع الصليبيين، ص٩٧.

أبو بكر بكل ماله[٨٦]، أما المنافقون فأخذوا يختلقون الأعذار الكاذبة ليأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في عدم الخروج وأخذوا يثبطون عزائم المسلمين بتخويفهم من قتال الروم قائلين لهم:لا تنفروا في الحر، فأنزل الله تعالى فيهم:

(فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)[٨٧]

وبذلك ميزت غزوة تبوك بين المؤمنين والمنافقين ولم يعد هناك مجال للتستر على المنافقين أو مجاملتهم، بل أصبح الكشف عن نفاقهم وإيقافهم عند حدهم واجباً شرعياً[٨٨].

سار المسلمون حتى وصلوا تبوك في أقصى شمال الجزيرة العربية، وعلم الروم وحلفاؤهم بمسير المسلمين فآثروا الإنسحاب إلى الداخل واجتازوا الأردن وفلسطين واستقروا في حمص وبالرغم من أن الجيش الإسلامي مكث عشرين ليلة في تبوك، لم تفكر القيادة الرومانية مطلقاً في قتال المسلمين، أما حكام المدن في أطراف الشام فقد آثروا الصلح ودفع الجزية فأرسل ملك إيلة (العقبة) للنبي صلى الله عليه وسلم هدية وهي بغلة بيضاء ويرد وصالحه على دفع الجزية مقابل مصالحتهم والعيش معهم بأمان واطمئنان[٨٩].

وقد كان لغزوة تبوك نتائج وآثار عظيمة منها إسقاط هيبة الروم في نفوس العرب جميعاً وإظهار قوة الدولة الإسلامية وهيبتها وعقد المعاهدات التي أمّن النبي صلى الله عليه وسلم من خلالها حدود الدولة الشمالية مما سهل مهمة الفتح الإسلامي في عهد الخلفاء الراشدين[٩٠]. ومن نتائج هذه الغزوة أيضاً توحيد الجزيرة العربية تحت حكم الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أدركت معظم القبائل العربية بعد هذه الغزوة مدى قوة الدولة الإسلامية وأعلن بعض قادتها الإسلام وسمي العام التاسع للهجرة بعام الوفود نظراً لكثرة وفود القبائل التي قدمت إلى المدينة لتعلن إسلامها بعد عودة النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك، كما كانت هذه الغزوة مقدمة لفتح بلاد الشام وانتصار المسلمين على الروم[٩١].

أسئلة للدراسة والتحليل:

١. شذّ البعض فأرادوا أن يعتزلوا الناس ويتخذوا الكهوف والجبال موطناً لهم بإسم الخلوة، فكيف نبين أن ذلك مخالف لهديه صلى الله عليه وسلم وخلوته في غار حراء، ومتى تكون الخلوة مشروعة ومتى تكون غير مشروعة؟
٢. هل يجب على من يريد العمل لإقامة الدولة الإسلامية أن يسير على نفس الخطوات المتتالية التي سار عليها النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته حتى تمكنوا من إقامة الدولة الإسلامية، وكيف يمكن أن يتم العمل لذلك في هذه الأيام؟
٣. وضح كيف أن الشورى هي أساس الحكم في الإسلام من خلال تحليل أمثلة الشورى في غزوتي بدر والأحزاب
٤. ما الفرق بين الثقافة والمدنية وكيف نفرق بين ما يجوز أخذه وما لا يجوز أخذه من حضارات الآخرين مستدلين على ذلك بأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بفكرة سلمان الفارسي بحفر الخندق يوم غزوة الأحزاب؟
٥. وضح أهمية الجهاد بالمال من خلال الأمثلة التي ضربها الصحابة رضي الله عنهم عند استعدادهم لغزوة تبوك

المصادر والمراجع:

١. أحمد، د. مهدي رزق الله، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.
٢. البخاري، الإمام محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، ط١، ١٤١١هـ -١٩٩١م
٣. البوطي، د. محمد سعيد رمضان، فقه السيرة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٨، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
٤. ابن حنبل، الإمام أحمد، المسند، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت-لبنان، ط١، ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
٥. حوى، سعيد، الأساس في السنة وفقهها -السيرة النبوية، دار السلام، ط١.

---

[٨٦] الواقدي، المغازي، ج٣، ص٣٩١.
[٨٧] سورة التوبة اية ٨١- ٨٢
[٨٨] أحمد، السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٦١٩

١٠. السباعي، د. مصطفى، السيرة النبوية -دروس وعبر، المكتب الإسلامي، ط٩، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
١١. ابن سعد، محمد بن سعد الزهري، الطبقات الكبرى، دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر، ١٣٧٦هـ-١٩٥٧م.
١٢. قطب، الإمام الشهيد سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، ط٩، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
١٣. الشجاع، د.عبد الرحمن، دراسات في عهد النبوة والخلافة الراشدة، دار الفكر المعاصر، صنعاء- اليمن، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
١٤. الصلابي، د. علي محمد، السيرة النبوية -عرض وقائع وتحليل أحداث، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر-القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
١٥. العمري، د. أكرم، المجتمع المدني في عهد النبوة، ط١، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
١٦. الغزالي، الشيخ محمد، فقه السيرة، دار القلم -دمشق، ط٤، ١٩٨٩م.
١٧. أبو فارس، د. محمد عبد القادر، الصراع مع الصليبيين، دار البشير- طنطا، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م.
١٨. أبو فارس، د. محمد عبد القادر، غزوة بدر الكبرى، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ط١، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.
١٩. أبو فارس، د. محمد عبد القادر، النظام السياسي في الإسلام، دار الفرقان، عمان -الأردن، ط٣، ١٤٠٩هـ-١٩٨٦م.
٢٠. ابن القيم، الإمام الحافظ ابن قيم الجوزية، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، نشر مؤسسة الرسالة -بيروت ومكتبة المنار-الكويت ط١، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٢١. ابن كثير، البداية والنهاية، بعناية وتوثيق عبد الرحمن اللاذقي ومحمد غازي بيضون، دار المعرفة -لبنان، ط٤، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٢٢. كيلاني، محمد سيد، عين اليقين في سيرة سيد المرسلين، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت - لبنان، ط٢، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.
٢٣. المباركفوري، صفي الدين، الرحيق المختوم، مكتبة الإيمان -المنصورة-أمام جامعة الأزهر، ط١، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
٢٤. محمد بن عبد الوهاب، مختصر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، لجنة التضامن الخيرية، جمعية إحياء التراث الإسلامي -الكويت، مطبعة الإسراء، القدس - صور باهر.
٢٥. معطي، د. علي، التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، مؤسسة المعارف، بيروت- لبنان، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
٢٦. ابن هشام، أبو محمد بن عبد الملك، السيرة النبوية، تحقيق وضبط: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، ط٢، ١٣٧٥هـ-١٩٥٥م.
٢٧. الواقدي، محمد عمر، المغازي، تحقيق: د. مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

مراجع مقترحة للقراءة الإضافية

١. أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، التجاني عبد القادر حامد، دار البشير، عمان ط١، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.
٢. الاكتفاء بما تضمنه من مغازي الرسول والثلاثة الخلفاء، تأليف أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، عالم الكتب، ط١، ١٤١٧هـ-١٩٩٧م. تحقيق: د.محمد كمال الدين عزالدين علي
٣. بناء المجتمع الإسلامي في عصر النبوة، محمد توفيق رمضان، ط١، دمشق، ١٩٨٩م.
٤. تأملات في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، د. محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، ط١، ١٤٠٨ه-١٩٨٧م.
٥. التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، د. عبد العزيز الحميدي، دار الدعوة، ط١، ١٩٩٧م.
٦. تاريخ الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تحقيق محمد إبراهيم، دار سويدان، ١٩٦٤م.
٧. تاريخ دولة الإسلام الأولى، فايد حمّاد عاشور وسليمان أبو عزب، دار قطري بن الفجاءة الدوحة -قطر، ط١، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.
٨. تاريخ صدر الإسلام، عبد الرحمن شجاع، دار الفكر المعاصر، صنعاء.
٩. حديث القرآن عن غزوات الرسول، د. محمد بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي، ط١.
١٠. خاتم النبيين، الشيخ محمد أبو زهرة، طبع على نفقة خليفة بن حمد آل ثاني.
١١. الدرر في اختصار المغازي والسير، يوسف بن عبد البر، مصر، ١٤١٢هـ-١٩٩٤م.
١٢. سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي، مصر ١٩٧٤م.
١٣. عيون الأثر في فنون المغازي والسير، ابن سيد الناس، دار الجيل، ط٢، ١٩٧٤م.
١٤. القول المبين في سيرة سيد المرسلين، د. محمد الطيب النجار، دار اللواء، ١٩٨١م.
١٥. المغازي النبوية، الإمام محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، حققه وقدم له د. سهيل زكار، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

محمد مطلق محمد عساف

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذ مساعد

تاريخ الولادة: ١٩٧٠/١٢/١٤

المؤهلات العلمية:

- شهادة الدكتوراه في الفقه وأصوله من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية عام ٢٠٠٠
- شهادة الماجستير الفقه وأصوله من كلية الدراسات العليا في الجامعة الأردنية عام ١٩٩٦
- شهادة البكالوريوس في الفقه والتشريع من كلية الشريعة في الجامعة الأردنية عام ١٩٩٣
- شهادة الدراسة الثانوية العامة من مدرسة عرابة عام ١٩٨٩

السيره العملية

١. عضو المجلس الأكاديمي في جامعة القدس من عام ٢٠٠٠- ٢٠٠٢
٢. عضو مجلس كلية القرآن والدراسات الإسلامية من عام ٢٠٠٠ - ٢٠٠٢
٣. عضو مجلس كليتي القرآن والدعوة من عام ٢٠٠٢ وحتى الآن
٤. الإشراف على رسائل الماجستير
٥. رئيس دائرة القرآن والدراسات الإسلامية من عام ٢٠٠٢-٢٠٠٦
٦. عضو لجنة التعديلات على الأنظمة والخطط الأكاديمية في الجامعة عام ٢٠٠٠-٢٠٠١
٧. مقرر لجنة التخصصات الفرعية في كليتي القرآن والدعوة، وممثل الكليتين في عضوية لجنة التخصصات الفرعية في الجامعة لعام ٢٠٠٤-٢٠٠٥

الإنتاج العلمي

١. رسالة الدكتوراه بعنوان (أحكام المصادرة- دراسة مقارنة بين الفقه الإسلامي والقانون الوضعي) حيث تم طباعتها على شكل كتاب بعنوان (المصادرات العقوبات المالية في الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية).
٢. رسالة الماجستير بعنوان (القصد وأثره في تحديد درجة المسؤولية الجنائية)
٣. مشارك في تأليف كتاب (فقه العقوبات).عام ٢٠٠٠
٤. مشارك في تأليف كتاب (الثقافة الإسلامية) عام ٢٠٠٠
٥. مشارك في تأليف كتاب (فقه المعاملات) عام ١٩٩٩

العقيدة في الإسلام

د. حافظ محمد الجعبري*

المقدمة

ليس الإسلام بدعة دينية مخترعة بحيث لم تسبقه ديانات سماوية موحى بها إلى رسل سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بل توالت الرسالات والرسل منذ آدم عليه السلام ووصولا إلى خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم (قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ)[1].

ولأن البشرية كانت في أمسّ الحاجة إلى دين عام ونبي عالمي وذلك لما أصابها من الوثنية والشرك حتى عند أتباع الديانات السماوية السابقة -النصرانية واليهودية- مع ما بَشَّرَت به هذه الديانات من النبي الخاتم من خلال نصوصها المقدسة، بُعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة بالدين الخاتم، وبما بعث به الأنبياء السابقون من دعوة الناس إلى التوحيد وإخلاص العبودية لله تعالى. وهذه الحقيقة يغفلها أهل الملل السابقة -عن قصد أو عن غير قصد- وليس ذلك مهماً بقدر النتيجة التي انتهوا إليها، وهي: إغفال الدين كله أو إهماله فضلاً عن التنكر للإسلام عقيدة وشريعة بل والتجهيز والإعداد الكامل للكيد له، قال تعالى:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[2] وقال: (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ)[3]

وقد تم نور الله تعالى برسالة الإسلام التي تتضمن اعتقاديات وعمليات؛ فالاعتقاديات تتضمن اعتقاد وجوب وجود الله ووحدانيته، والتصديق الجازم بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والاعتقاد بالقدر خيره وشره، وتسمى هذه أيضاً بالأحكام الأصلية.

والعمليات هي ما يتعلق بكيفية العمل وتسمى فرعية أو الأحكام الفقهية.

والعقيدة هي التصور الأهم في الدين لابتناء علم الشرائع عليها ولأنها لا تتصور إلاّ بيقين ولا عبرة بالظن فيها، ولا تؤخذ من مصادر سوى النصوص القرآنية من الكتاب المنزل والأخبار النبوية من الحديث الثابت الصحيح، فالعقيدة هي التصديق الجازم المطابق للواقع عن دليل يقيني[4].

المبحث الأول
العقيدة في الله (وجود الله ووحدانيته)

١- وجود الله

إن المعرفة بوجود الله تعالى أمر فطري، يشعر به كل إنسان في قرارة نفسه، وينتهي إليه العقل الصريح عن طريق النظر في الكون والإنسان. لذلك لم يأت نبي من الأنبياء ليقول لقومه للكون إله، أو للإنسان إله، وإنما جاء الأنبياء جميعاً ليقول كل نبي لقومه: يا قوم اعبدوا الله.

وإن ظاهرة الإلحاد المعاصرة بدعة فكرية لم تكن من قبل في معهود الناس، إلاّ أنها نشأت في أوروبا في القرون الأخيرة في مقابل الدين النصراني المحرف، ودرءاً للطغيان الكنسي الذي مارسه رجال الدين على أرواح وعقول وأموال الناس (مثل بيع صكوك الغفران)، وكان لكثير من المفكرين اليهود الأوروبيين في العصر الحديث دور في الترويج لتيار الإلحاد، ومنهم ماركس الذي اعتبر، ومعه انجلز، أن الدين أفيون الشعوب!

والأدلة العقلية على وجود الله في هذا الكون من الكثرة بحيث لا تدع لذي عقل سليم أو لباحث منصف مجالا أن لا يقبلها، فمن تفكر في مخلوقات الله وجد الأدلة الساطعة على وجود الله[5].

---

* أستاذ مشارك في العقيدة الإسلامية جامعة الخليل (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] سورة الاحقاف اية ٩

[2] سورة الصف آيه ٨

[3] سورة التوبة آيه ٣٢.

[4] انظر كتاب لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية: للشيخ محمد بن أحمد السفاريني، ج١، ص٤، ٥.

[5] أي عرف أنه واجب الوجود.

فوجوده تعالى مما اشترك في الاتفاق عليه الكُلُّ، قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ)[٦].

وقال تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ)[٧]

والناس فيما مضى كانوا يعرفون الله -معرفة وجود- لكنهم كانوا يشركون به غيره، ظناً منهم أن الشركاء شفعاء عند الله. وقد خاب ظنهم، وبطلت حجتهم بعد أن علقوا شركهم على مشيئة الله تعالى. و المشركون لا ينكرون ما هم عليه من عبادة الآلهة والأصنام، ولكن هذا الشرك عندهم هو للتقرب من الله، فهم القائلون على ما يحكيه القرآن عنهم: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى)[٨] (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ)[٩].

٢- وحدانية الله

عقيدة المسلمين في الله أنه واحد لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. وهو ما يعبر عنه المسلمون: بتوحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ومعنى توحيد الربوبية: هو الإقرار أو الاعتراف والعلم بأن للكون كله إلهاً واحداً خالقاً متصرفاً هو رب العالمين: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)[١٠]

ومعنى توحيد الإلوهية: هو التوجه إلى الله وحده بالطاعة التامة، والإخلاص في العبادة. قال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ)[١١]

ومعنى توحيد الأسماء والصفات، هو: إثبات ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسماء والصفات، من غير تحريف أو تكييف أو تمثيل أو تعطيل[١٢]، ودعوة الله تعالى بما ثبت له منها، قال تعالى: (وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[١٣]. أي أثبتوها له، وأثنوا عليه بها، واسألوه بها. وهي كثيرة منها: الله، الرحمن، الرحيم، الملك، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر... إلى آخر ما سمى به نفسه، وسماه به رسوله. ومن الصفات: الحياة، والكلام، والبصر، والسمع، والإرادة، والعلم، والقدرة... إلى آخر صفاته تعالى مما هو موقوف على إذن الشارع الحكيم وليس للعقل مجال فيه[١٤].

والدليل على وحدانية الله تعالى: من العقل انتهاؤه إلى أن هذا الكون بما فيه من إبداع وإتقان وإحكام وعناية وحسن تقويم، وما فيه من ترابط بين أجزائه، وتناسق بين سننه، لا يمكن أن يرجع إلى آلهة متعددة. وإن العقل يمنع تعدد الآلهة لإمكان اختلافهم: فعلى فرض وجود إلهين اثنين فإن العقل يُجوِّز اتفاقهما، ويُجوِّز اختلافهما، فعند اختلافهما كأن يُريد أحدهما فعل شيء ولا يريد الآخر فعله، فمرادُ من مِنَ الإلهين يَنْفُذ؟ إن الذي يَنْفُذُ مراده هو الإله، والثاني ليس بإله، لعجزه عن تنفيذ مراده. ولا يمكن اجتماع الإرادتين وتنفيذ مراد الإلهين، لاجتماع الضدين (الفعل وعدم الفعل)، ويستحيل عجزهما لأن الإله لا يكون عاجزاً. فثبت الإله الواحد عقلاً وهو القادر، والثاني ليس بإله لعجزه[١٥].

ولو كان هنالك أكثر من إله بإرادات مختلفة لحصل تنازع رهيب مدمر، قال تعالى:

(لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)[١٦]

وإن الله الواحد في الفكر الإسلامي، لا يشبه شيئاً من خلقه، ولا يشبهه شيء، قال تعالى: (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَأُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)[١٧]

---

[٦] سورة الزخرف اية٨٧

[٧] سورة لقمان آية ٢٥.

[٨] سورة الزمر آيه ٣

[٩] سورة يونس آيه ١٨

[١٠] سورة محمد آية ١٩.

[١١] سورة الأنعام آية:١٦٢-١٦٣.

[١٢] التحريف: لفظي بزيادة في مبنى الكلمة أو نقصان مثل استوى: باستولى. وفي المعنى وهو التأويل، كتأويل اليد بالقدرة. التكييف: اعتقاد صفاته تعالى على كيفية معينة أو يسأل عنها بكيف. التمثيل: تشبيه الخالق بالخلق أو العكس. التعطيل: نفي الصفات أو بعضها.

[١٣] سورة الأعراف آية ١٨٠

كما يقول اليهود والنصارى فيه من صفات التشبيه والتجسيم، والتثليث والحلول، والصاحبة والولد، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ)[18]

المبحث الثاني
العقيدة في الملائكة

ومن العقائد الإيمانية في الإسلام الإيمان بالملائكة؛ وهم مخلوقات نورانية خلقها الله قبل خلق الإنسان، وهم عباد الرحمن يعملون بأمره من غير معصية، فإيمانهم مطلق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[19]

والملائكة أصناف، وبعضهم أفضل من بعض، ولهم وظائف مختلفة في أسباب تدبير الكون والإنسان؛ فمنهم الروح «جبريل» ملك الوحي، ومنهم «ميكائيل» الموكل بالأرزاق، ومنهم «إسرافيل» الموكل بالنفخ في الصور، ومنهم سدنة الجنة، والموكلون بالنار، ومنهم ملك الموت الموكل بقبض الأرواح، وحملة العرش في الدنيا والآخرة، ومنهم جند الله يؤيدون عباده المؤمنين، ويثبتونهم في الحياة وبعد الممات، ومنهم العابدون الساجدون، والمسبحون، ومنهم الموكلون بإحصاء الأعمال، والموكلون بحفظ الإنسان، والعناية به ومنهم غير هؤلاء، قال تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ)[20]

والملائكة، على اختلاف أصنافهم ووظائفهم، لا يشبهون الناس في طبائعهم وغرائزهم، فهم لا يأكلون ولا يشربون ولا يتزوجون ولا يتناسلون، فلهم عالمهم الخاص الذي لا يعلم حقيقته إلاّ الله، ولا نعلم نحن إلاّ بقدر ما أعلمنا الله ورسوله[21]. والمثال

وهنا نجد الفرق الكبير بين العقيدة الإسلامية في الملائكة، وعقيدة أهل الكتاب من حيث أن الملائكة لها مقامات عند ربها، وهي مكلفة بطاعته، منزهة عما يعتري البشر من شهوات وحاجات، بينما هم أبناء الله عند اليهود والنصارى يتزوجون، وينجبون، ويأكلون، ويشربون، ويتطهرون، ويكونون مع الناس في كل مكان رأي العين، شأنهم شأن سائر البشر. قال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ)[22]

المبحث الثالث
العقيدة في الكتب المنزلة

ومن عقائد الإسلام الإيمان بالكتب والصحف المنزلة على الأنبياء، والتي نص عليها القرآن الكريم هي: رسالة موسى عليه السلام المسماة «التوراة»، ورسالة داود عليه السلام المسماة «الزبور»، ورسالة عيسى عليه السلام المسماة «الإنجيل»، وصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

وإن هذه الرسالات الإلهية كلها هدى للناس ونور، وهي واحدة في أصولها وعقائدها، دعت إلى إخلاص العبادة لله وحده، وإلى الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره من عند الله، لكنها تختلف في بعض مظاهر العبادة، وفروع التشريع تبعاً لأحوال المكان والزمان، وحاجة الناس إلى ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم.

والمسلمون يؤمنون بالتوراة التي أنزلها الله على موسى، في طور سيناء، وهي التي كتبها الله في الألواح، وأنزلها جملة واحدة، وليست التوراة هي الكتاب المقدس عند اليهود اليوم، الذي يشتمل على تعاليم موسى التشريعية، وتاريخ قضاة وملوك بني إسرائيل، وأحوال أنبيائهم، فهذه أسفار تاريخية تحكي سيرة موسى عليه السلام، وليس فيها من كلام الله سوى النزر اليسير، كما هو في جملة الوصايا العشر وليس فيها كلها.

---

[18] سورة الإخلاص: آية ١٤.
[19] سورة التحريم آيه ٦
[20] سورة الأنعام آيه ٦١
[21] انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ١٢٧/٤. وانظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٢٣٢/٦. وانظر كتاب: الإيمان بالملائكة، بقلم عبد الله سراج الدين، ط١، ١٩٧٢م، ص٣١٣.
[22] سورة هود آيه ٦٩-٧٠
[23] سورة الزخرف اية١٩.

ولا يعترف المسلمون بسائر كتب اليهود المقدسة، «كالتلمود» وغيره، فهي من وضع فقهاء اليهود، وليست من عند الله تعالى.

وكذلك يؤمن المسلمون «بالإنجيل» الذي أنزله الله على «عيسى» جملة واحدة، وليس الإنجيل هو الكتاب المقدس عند النصارى اليوم، الذي يشتمل على سيرة «عيسى» -بداية ونهاية- مع بعض التشريعات التي تنسب إلى عيسى والمسماة «وصية الجبل».

ولا يعترف المسلمون بسائر كتب النصارى المقدسة؛ كرسائل «بولس» وغيرها، فهي من وضع الرهبان، وليست من عند الله تعالى.

والأناجيل الأربعة تم اختيارها من مجموعة أكبر من الأناجيل عام ٣٢٥م في مجمع نيقية، وهي تشكل جزءاً من الذي بين يدي النصارى اليوم، وهو الكتاب المقدس، ويسمونه «كتاب الحياة»، وفيه: العهد القديم، والعهد الجديد، وهو ليس كلام الله، ولا وحيه الذي نزل به الروح الأمين جبريل، ليكون ميثاقاً أخذه الله على موسى وعيسى عليهما السلام.

ولم يبق سوى القرآن الكريم الذي أنزله الله بواسطة جبريل عليه السلام على قلب محمد، ليكون الكتاب الخاتم المحفوظ بحفظ الله له من التغيير والتبديل، أو التلبيس والتدليس، وذلك بفضل المنهج الذي تمت به كتابة الوحي، فور نزوله بواسطة كتبة الوحي، وحُفَّاظ القرآن، وتلقاه المسلمون للعمل بما فيه فور نزوله وتلقيه، فضلاً عن أن القرآن كانت له دولة تحميه وتحافظ عليه، وتقوم على أساس منه وتدعو الناس إليه. وعلاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة توضحها الآية التالية:

(وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)[٢٤]

المبحث الرابع
العقيدة في الأنبياء والرسل

ومن العقائد الإيمانية في الإسلام، الإيمان بالنبيين والمرسلين، ومن هؤلاء خمسة وعشرون نبياً ورسولاً ورد ذكرهم في القرآن بالإسم، ثمانية عشر منهم في قوله تعالى: (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ، وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ)[٢٥]

والآخرون هم: إدريس وهود وصالح وشعيب وذو الكفل وآدم ومحمد عليهم الصلاة والسلام أجمعين.

وحقيقة الأنبياء أنهم بشر، اصطفاهم الله ليكونوا حملة رسالاته إلى الناس، ومنهم رسل الله إلى «الجن» أيضاً، بمعنى أنهم وسطاء في التبليغ عن الله إلى أممهم خاصة، ومحمد صلى الله عليه وسلم إلى سائر الأمم. والأنبياء ليسوا وسطاء بين الخلق وخالقهم في إيصال العبادة إليه، فهي لا تحتاج إلى واسطة[٢٦].

وإن عقيدتنا في الأنبياء أنهم بشر، لكنهم في أعلى مراتب البشرية، وهم ليسوا ملائكة، ولا آلهة، ولا أبناء آلهة، ولا تجسدت فيهم روح الله، ولا ربوبيته، ولا أسماؤه وصفاته، وليس لهم حق القداسة كما أطْرت النصارى عيسى بن مريم، أوْ أطرت اليهود العزير. فهم بشر يعتريهم ما يعتري غيرهم من الناس، من موت ومرض، وتعب وجوع وعطش، وحاجات عضوية وغرائز وشهوات. غير أنهم معصومون عن الذنوب والخطايا الكبيرة قبل النبوة وبعدها، ويجوز في حقهم فعل خلاف الأولى فيعاتبهم الله تعالى.

وهم موصوفون بصفات تلازمهم، كالحرية والذكورة، وجميع الصفات الطاهرة، وترفعهم عن كل ما يخل بشرف النسب والمروءة، والأفعال القبيحة، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين ينسبون للأنبياء ما تأباه العقول وتنفر منه الطباع، ومثال على هذا نسبة غشيان المحارم إلى لوط عليه السلام في سفر التكوين وهو أول أسفار العهد القديم (الإصحاح التاسع عشر: ٣٠-٣٨).

والنبوة لا تكتسب اكتسابا، ولا تتأتى برياضة النفس، وصفائها، وإلزامها بغير ما يلزمها من المشاق في الطاعات، والانعزال في الخلوات، وترك الشهوات، بحيث يصل إليها من يقدر عليها، فيتخيل الملائكة، وتجري على يديه بعض خوارق العادات، ويفيض على صفحة قلبه كلام الله كما يقول بعض الفلاسفة. إن النبوة اصطفاء واختيار، قال تعالى:

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)[٢٧]

ولا تكون النبوة في بيت من البيوت لا تخرج عنه -كما يزعم

ومن العقائد بهذا الخصوص، الإيمان بمعجزات الأنبياء السابقين، تأييداً ونصراً لهم، كمعجزة العصا، ومعجزة اليد لموسى عليه السلام. ومعجزة إحياء الموتى بإذن الله، ومعجزة إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله لعيسى عليه السلام. ومعجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ومنها المعجزة الباهرة القاهرة الخالدة إلى يوم الدين «القرآن»، وكلها معجزات حقيقية واقعية مبرأة من لوازم التخييل والإيهام الناتج عن فن السحر كفعل سحرة فرعون:

(قَالَ أَلْقُوْاْ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)[28]

وأما العلاقة بالأنبياء فهي علاقة اتباع واقتداء، فهم القدوة والأسوة الحسنة، قال تعالى: (أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ)[29] و (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[30]

المبحث الخامس
العقيدة في اليوم الآخر

ومن العقائد الإيمانية في الإسلام، الإيمان بالبعث والنشر والحشر، والعرض على الله تعالى في يوم الموقف، والشفاعة العظمى، والحساب بأنواعه وكيفياته، والصحف والكتب والموازين، وحوض نبينا محمد صلى الله عليه وسلم [31] والصراط المستقيم والجنة وما أعد الله فيها للأبرار، والنار وما أعد الله فيها للكفار.

أسماء كثيرة لهذا اليوم فيها أوصاف ما يكون فيه من شدة أو رحمة أو سلام أو خلود أو غير ذلك[33].

إن الإيمان بهذا اليوم ضروري للنفس الإنسانية في كل أحوالها، فهو يُعينها على فعل الخير، ويصدها عن فعل الشر، وذلك يكون بعون العقل على تمييز الخير من الشر، فكل عمل له ثقله مهما بلغ من الصغر، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)[34].

ومن العقائد أيضاً، الإيمان بالغيب مما كان: من العرش (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى)[35] والكرسي (. . .وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)[36]، واللوح (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ)[37]، والقلم (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)[38].

وكذلك الإيمان بوجود الروح، فالروح حق، وهو أمر الله أودعه في أبدان خلقه إن شاء أبقاه فظهرت آثاره من إرادة وحركة، وإن شاء سلبه فانعدمت آثاره، ولكن لا سبيل إلى معرفة ماهية الروح، قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)[39]

وسؤال الملكين حق: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ)[40]

---

[28] سورة الأعراف آيه ١١٦

[29] سورة الأنعام اية ٩٠

[30] سورة الأحزاب آيه ٢١

[31] ثبت في الحديث أن لكل نبي من الأنبياء حوضاً يرده المؤمنون من أمته.
عن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة) قال أبو عيسى الترمذي «هذا حديث غريب»، وقد روى الأشعث بن عبد الملك هذا الحديث عن الحسن عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا ولم يذكر فيه عن سمرة وهو أصح

[32] سورة آل عمران آيه ١١٤

[33] انظر كتاب: العقيدة الإسلامية وأسسها: لعبد الرحمن حبنكة الميداني، ص٣٢٦.

[34] سورة الزلزلة آية: ٧-٨.

[35] سورة طه آيه ٥

[36] سورة البقرة آيه ٢٥٥

[37] سورة البروج آيه ٢١-٢٢

[38] سورة القلم آيه ١

[39] سورة الإسراء آيه ٨٥

[40] سورة إبراهيم آية ٢٧.

ومن أمور العقيدة عذاب القبر ونعيمه، وردت فيه الأدلة من الكتاب والسنة[41]. وكذلك البعث والنشر والحشر، وهي بمعنى متقارب وهو: إعادة الروح إلى الأبدان، وخروجها من القبور، وسوقها إلى الوقوف في يوم عظيم يعرض فيه الناس على رب العالمين.

والشفاعة في أن يأذن الله ببدء الحساب لجميع الأمم، مما تواتر الخبر به لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك المقام المحمود الذي وعده إياه ربه.

والحساب حق بكيفياته وأحواله حسب أعمال الخلائق، فمنه: اليسير ومنه العسير، ومن الناس من يدخل الجنة من غير حساب، ومنهم من يحاسبه ربه بينه وبينه، ومنه العتاب واللوم، ومتولي ذلك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين. قال تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)[42]

والصراط تَرِدُه الخلائق كلها، وهو فوق جهنم، فيجتازه المؤمنون بإيمانهم، وحسب أعمالهم في حياتهم الدنيا، ويقع الكافرون والمنافقون في جهنم، وبحسب كفرهم ونفاقهم تكون منازلهم فيها، فإن من استقام على الصراط المستقيم أي الطريق القويم في الدنيا، خفَّ على صراط الآخرة ونجا، ومن مال عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعثر في أول قدم من الصراط وسقط وهوى.

والجنة حق للأبرار، والنار حق للكفار، ورؤية الله حق للمؤمنين في الجنة يرونه عياناً، ويحجب عنه الكافرون والمنافقون، كما أخبر بقوله: (كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)[43].

المبحث السادس
العقيدة في القضاء والقدر

ومن عقائد الإسلام، الإيمان بالقضاء والقدر، ومعناه كما ذكر العلماء: علم الله المحيط بكل شيء منذ الأزل، وإيجاده ما يكون إلى يوم القيامة على وفق علمه تعالى، وليس في علمه تعالى جبر للإنسان، بل الإنسان حرّ في اختياره الخير أو الشر، وهو يُجزى على ما يفعله باختياره من خير، ويُجازى على ما يفعله باختياره من شر.

وأنا أرى أن العلماء لم يُمسكوا عن الحديث في القدر، ولم يقفوا عند هذا المعنى، بل تعدوه حتى بحثوا ثلاث مسائل، ظنوها ضرورية لفهم عقيدة القدر وهي:

- ما نوع العلاقة بين علم الله وفعل العبد؟
- هل الإنسان مسيرٌ أو مُخيَّر؟
- كيف يهدي الله من يشاء ويضلُّ من يشاء؟
- وماذا يترتب على هذه المسائل من ثواب وعقاب؟!

وأجيب عن كل مسألة بما يخصها، لكن على وجه مختصر:

أما المسألة الأولى: فلا دخل لعلم الله تعالى بفعل العبد، وليس في علم الله لما يكون في الوجود، جبرٌ إلهي للإنسان، فالإنسان هو الفاعل المختار بإرادته الحرة، كما أنه لا دخل لعلم صانع المركبة بفعل قائدها، أحسن في القيادة أو أساء. ولا دخل لمهندس البناء في فعل البنّاء، أحسن في البناء أو أساء، فإذا صُدمت المركبة أو هُدمت البناية أيكون الصانع في المصنع أو المهندس في المكتب مسؤولاً عن فعل الفاعل باختياره، وكامل حريته وإرادته؟! الجواب حتماً: لا، ولا. ولله المثل الأعلى: فلا دخل لعلمه الشامل المحيط بالمعلومات كلها في الماضي والحاضر والمستقبل في فعل العبد.

وأما المسألة الثانية: فمرتبطة بما قبلها، حيث قلنا: إن الإنسان حر فيما يختار، وليس مجبوراً كما يقول الجبرية: إنه كالريشة في مهب الرياح، فمن منا يشعر فيما يعمل أنه كالريشة في مهب الرياح؟ أو الواقع أننا نشعر أننا مزودون بالعقل القادر على التمييز بين الخير والشر، والإرادة القادرة على تخصيص أحد الأمرين المقدورَيْن على الأمر الآخر؟

وعلى هذا يكون الإنسان حراً فيما يفعل، ومخيراً بين سبيليْ الإيمان أو الكفر، إما شاكراً وإما كفوراً.

والمسألة الثالثة: نبين فيها أن الهداية، هدايتان لا هداية واحدة؛ الأولى: هداية بيان وإرشاد، بمعنى دلالة الخلق إلى معرفة الخير والشر قال تعالى: (وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ)[44]، وقال: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً)[45]. وهذه دلالة عامة لكل الناس لا يُستثنى منها أحد سوى من به عارض من عوارض الأهلية المعتبرة شرعاً، كالجنون، والصغر، والسفه... إلى آخر ذلك، وهذا النوع من الهداية لا يستطيع أحد أن يحتج به على الله فيدعي أنه لم ينلها. وإلاّ لزم أن لا يكون له عقل، أو أن الله لم يرسل إليه رسولاً يهديه.

---

[41] فمن أدلة القرآن الكريم: (النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ) غافر: ٤٦
وفي الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات وأعوذ بك من عذاب القبر) رواه البخاري

المعصية في أن يحتجوا على الله في هذه المنّة منه لعباده المؤمنين المتقين، في وقت اختار فيه الضالون سبل الضلالة بمحض اختيارهم. وليس لمن يشرك بالله تعالى أن يوفقه الله ويعينه على شركه، وليس له أن يحتج على الله بمشيئة الله، فيقول: لو شاء الله ما أشركت به شيئاً. فهل اطلع هذا وأمثاله على مشيئة الله تعالى وعلمه حتى يحققوا مشيئته وإرادته، ويوافقوا علمه؟ حتماً الجواب: لا، ولا فهذا من قولهم الباطل.

وبعد: فهذه مسائل ابتعد فيها أصحابها عن عقيدة القضاء والقدر -خيره وشره- من عند الله، وهي في الحقيقة عقيدة ميسرة لكل من يتذكر، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾[٤٧]، مفتوحة لكل من يتدبر، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٤٨].

وفي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[٤٩]، مفتاح فهم هذه العقيدة، فالله خالق كل شيء، وكل شيء من الأشياء فيه خاصية أن يستعمل في الخير أو أن يستعمل في الشر، بحسب استعماله، أي بحسب من يستعمله، ولا يقال: إن الله خلق الخير، أو إن الله خلق الشر، بل يقال: خلق الشيء، لأنه ليس في الخلق خير محض أو شر محض، فإذا أصاب الإنسان خير الشيء، دخل عليه السرور فشكر، فكان خيراً له. وإذا أصاب الإنسان شر الشيء، دخل عليه الضر فصبر، فكان خيراً له. فعن صهيب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجبت من قضاء الله للمؤمن إن أمر المؤمن كله خير وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له)[٥٠]، أي للمؤمن بهذا القدر في الأشياء كلها من عند الله تعالى، وهو في الحالين مأجور غير موزور.

هذه -والله أعلم- عقيدة الإيمان بالقدر خيره وشره من عند الله.

ومنهم المؤمن والكافر:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[٥٢]

﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[٥٣]

وأن الإقرار بوجودهم والاعتقاد بهم واجب، فهم مخلوقات حقيقية الوجود، خلقهم الله من مارج من نار، ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خلقت الملائكة من نور، وخلقت الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم)[٥٤].

وهم أرواح قائمة في أجسام لطيفة نارية قادرة على التشكل بصور مختلفة، وهم يأكلون ويشربون ويتناكحون ويتناسلون وينامون ويموتون كما هو الحال في عالم الإنس. ومن صفاتهم أيضاً أن لهم قدرات كبيرة ومهارات صناعية كما ورد في القرآن مع سيدنا سليمان عليه السلام[٥٥].

وعلماء المسلمين مختلفون في رؤيتهم، يقول ابن حزم: «من ادعى أنه يراهم أو رآهم فهو كاذب إلا أن يكون نبياً من الأنبياء فذلك معجزة لهم، ولا سبيل إلى وجود خبر يصح برؤية جني بعد موت رسول الله»[٥٦].

علاقة الجن مع الإنس

الناس اليوم يعتقدون في الجن أكثر من اعتقادهم بسائر الأركان، وينسبون إليهم أعمالاً، ويتقربون إليهم أكثر من تقربهم إلى الله ورسوله، ومن الناس من يدعي أن له صلة بهم

---

[٤٦] سورة محمد آية ١٧.
[٤٧] سورة القمر آية ١٧.
[٤٨] سورة محمد آية ٢٤.
[٤٩] سورة الزمر آية ٦٢.
[٥٠] مسند الإمام أحمد
[٥١] الجن من الكونيات كالملائكة. انظر كتاب: كبرى اليقينيات الكونية، لمحمد سعيد رمضان البوطي، ص٢٦. وتسمى روحانيات، انظر: مجموعة رسائل الشهيد حسن البنا، ص٤٢٤، دار الشهاب، القاهرة.
[٥٢] سورة الجن آيه ١-٢
[٥٣] سورة الجن آيه ١٤-١٥
[٥٤] فتح الباري شرح صحيح البخاري، ٦/٢٣٢.
[٥٥] سورة النمل الآيات ١٧، ٣٨، ٣٩. وفي سورة ص الآيات ٣٦-٣٨
[٥٦] انظر كتاب: الفصل في الملل والأهواء والنحل: لابن حزم، ٥/٨٢.

فيطلعونهم على علم الغيب الذي استأثر الله تعالى به، أو أطلعه على بعض أنبيائه ومن الناس من يلجأ إليهم لأغراض متعددة، قال تعالى:

(وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا)[٥٧]

والحق في هذا الموضوع هو ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية أن الجن مع الإنس على أحوال ثلاثة:

الحال الأول: أن من الإنس من يأمر الجن بما أمر الله تعالى به من عبادة الله وطاعة نبيه.

الحال الثاني: أن من الإنس من يستعمل الجن في أمور مباحة كأن يأمرهم بما يجب عليهم، وينهاهم عما حُرِّمَ عليهم.

الحال الثالث: أن من الإنس من يستعمل الجن في أمور نهى الله عنها كمن يستعملهم في الشرك، أو في العدوان على الآخرين بإفساد العلاقات الإجتماعية، وغير ذلك مما يتحقق فيه الظلم فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان.

والواجب على المسلم أن يستعمل فيهم ما يستعمله في الإنس من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله كما شرع الله ورسوله[٥٨].

موقف الشيطان من الإنسان

الشيطان عدو للإنسان المسلم يوقعه في طرق ملتوية، ويستعمله في سبل متفرقة منها:

١. **التزيين:** (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ)[٥٩].

٢. **والتخويف:** (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[٦٠]

٣. **الحزن:** (إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ)[٦١]

٤. **بث العداوة بين الناس:** (إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)[٦٢]

٥. **وعد الإنسان بالفقر:** (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ)[٦٣]

٦. الوسوسة كما هو في سورة الناس.

الأسباب التي تُعين المسلم في التغلب على الشيطان

أرشد الشارع الحكيم إلى جملة من الأسباب التي تعين المسلم في التغلب على الشيطان والتخلص من شره ومن هذه الأسباب:

١. **التعوذ بالله من شره:** (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ)[٦٤].

٢. التسمية بالله، فإنه لا يضر مع اسم الله شيء، ومن وجوه التسمية: التسمية على الطعام وعند الجماع، وعند إغلاق الباب وإطفاء المصباح ونحو ذلك.

٣. قراءة آية الكرسي.

٤. الإكثار من ذكر الله.

ولا يفوتنا أن ننبه إلى حرمة التوجه إلى فريق من الناس يزعمون أن لهم صلة بالجان يستعملونهم في الشرور، أو إلى فريق يخادعون الناس ففي ذلك تشويه للدين يعطي صورة سيئة وقبيحة عن أهل الإسلام فضلاً عن أنه يكون من الأعمال الشركية التي لا يغفر معها ذنب للقائمين عليها ومن يتوجهون إليهم من الجهال والمغفلين.

نظرة فاحصة في العقيدة الإسلامية

العقيدة الإسلامية تصور خاص لقضايا الألوهية، والكون، والحياة، والإنسان، يقوم على أساس أن للكون إلهاً واحداً، وأن كل ما في الوجود مرتبط به، وصادر عنه، قال تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[٦٥]. فمن أمره: الملائكة، والكتب، والرسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره. وهذا هو جماع العقيدة الإسلامية.

---

[٥٧] سورة الجن آيه ٦

[٥٨] انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ٣٩٤٢/١٩.

[٥٩] سورة النمل اية ٢٤.

[٦٠] سورة آل عمران اية ١٧٥.

[٦١] سورة المجادلة آية ١٠.

وأشمل من هذه العقيدة:

ففي القول بوجود الله وخلقه للكون وتدبيره له، ما يطمئن إليه العقل في تفسيره للوجود، وفي القول بوجود الله وكماله المطلق، ما يطمئن إليه الشعور ويستقر به الوجدان. وحينما يؤمن الإنسان بالله على نحو ما يصفه القرآن ويصل بينه وبين نفسه على نحو ما يصل القرآن بين الإنسان والله، فقد استكمل إدراكه العقلي للوجود، وقراره النفسي فيه، وعرف مكانه من الكون، وبدا أمامه المثل الذي يسعى إليه بأخلاقه وأعماله.

وليس أشمل من عقيدة تنتظم الناس جميعاً في الإيمان والخضوع لرب واحد هو ربهم، وفي الإيمان بالنبوات على هذا النحو إقرارٌ للحقيقة الواقعة، ووحدة دينية بين الإنسانية جميعاً في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وإقرار لمقام الله بالتقديس لا يشركه فيه نبي أو ملَك. وفي نفس الوساطة بين الله والإنسان تحرير لفكره وإرادته.

وفي عقيدة الخلود والجزاء الأخروي دفع إلى الخير وردع عن الشر إلى جانب الأوامر والنواهي الإلهية المباشرة.

وفي عقيدة القضاء والقدر ما يحفظ توازن النفس، ويمنع جزعها عندما يضيع مسعى الإنسان لأسباب قاهرة، وفيها ما يدفع الإنسان إلى العمل إلى جانب كونها مقتضى العلم الشامل، والإرادة المطلقة، والقدرة النافذة لله في الكون. فأي عقيدة غير العقيدة الإسلامية يمكن أن تأتي بعدها لتكون أوفى وأشمل منها، ولتتجنب القصور والنقص كما تجنبت أغلاط الفلاسفة وأوهام المتدينين وخرافاتهم فيما انحرفوا به عن رسالات السماء؟

إن العقيدة الجديدة - لو فرضت- لن تجد في عقيدة الإسلام في الله نقصاً تتحاشاه، ولا قصوراً تستوفيه بما تضيفه إلى الله من كمالات لم يوصف بها في القرآن، فكل ما وجدناه قبل الإسلام أو معه، أو بعده من العقائد، فهو إما تحديد وتشبيه لله، أو تنزيه له عن كل وصف حتى كاد أن يلحق بالعدم، أو هو تحديد لكمال قدرته ورحمته وربوبيته بأعمال معينة أو بطوائف معينة، أو هو خلط بينه وبين البشر بما ينزه عنه كماله.

وكل زيادة يمكن أن تزاد في تقدير الأنبياء فهي نقص في جنب تقرير مدى سلطان الله في الكون وعلى أعمال الإنسان على اختلاف ما بينهما، بغير ما تقرره عقيدة القضاء والقدر في الإسلام، إما إنكار لحرية الإنسان وفي ذلك مصادمة للبديهة وطعن في حكمة الله وعدالته، وإما تخفيف من سلطان الله على الكون بكل ما فيه ومن فيه، والخطأ كل الخطأ في هذا وذاك حيث سلمت منه عقيدة الإسلام[٦٧].

تحقيق الاعتقاد

وتحقيق الاعتقاد إنما يكون بتحقيق التوحيد الذي هو معرفة وجود ذاته تعالى بصفات الكمال، فيما لم يزل ولا يزال، دون معرفة حقيقة ذاته وصفاته لاستحالة ذلك عقلاً، أي أن العقل يحيل معرفة كنه ذاته تعالى.

وحقيقة التوحيد هو انجذاب الروح إلى الله محبة وإخلاصاً فلا يكون في القلب شيء لغيره، ولا حُبَ لما حرَّم ولا كره لما أحلَّ، وذلك هو حقيقة قولنا: لا إله إلا الله.

وكذلك انجذاب الروح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محبة وإخلاصاً فلا يكون شيء من التلقي عن غيره، ولا إرادة لما حرَّم ولا كراهة لما أمر لأنه لا ينطق عن الهوى إنما هو وحي من عند الله، فإنه صلى الله عليه وسلم وحده طريق التلقي عن ربه تعالى ووحده الطريق الموصل إلى الله وذلك هو حقيقة الشطر الثاني من الشهادتين: محمد رسول الله.

وإنما سُمِّيَ علم الاعتقاد بالتوحيد لأنه أشهر مسائله وأشرفها ولكون علم التوحيد أصل العلوم وسبيل النجاة وسُلِّم المعرفة هذه. وبه يكون المسلم العاقل مبايناً أهل الشرك والشك والفرقة والتقليد.

فإن التوحيد النافع مطلقاً لا يوجد إلا بترك الشرك مطلقاً والمؤمن قد يعرض له ما يقدح في توحيده من شرك ظاهر جليّ أو شرك باطن خفيّ، وقد لا يكون مع المؤمنين الذين وصفهم الله في سورة المؤمنين وأثنى عليهم بأنهم بربهم لا يشركون (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ)[٦٨].

لذلك نشرع في بيان ما يقدح في حقيقة التوحيد من مسائل الشرك مما اشتهر بين الناس، ويتعين عليهم الخلاص منها، وهي كثيرة جداً[٦٩].

---

[٦٦] صفحه ٣٥-٣٦، المطبوع في القاهرة سنة ١٩٧٦م.

[٦٧] انظر كتاب: عقيدة ختم النبوة وأصولها، للدكتور عثمان عبد المنعم عيش، ص٣٥، وما بعدها، طبعة القاهرة، ١٩٧٦م.

[٦٨] سورة المؤمنون، آية ٥٩.

[٦٩] يرجع في هذا الموضوع إلى الكتاب القيّم: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تأليف الشيخ سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

فمن الشرك لبس الحلقة والخيط وتعليق التمائم والودع ونحو ذلك لدفع الأمراض والعين، فهذا من الشرك لأن فاعله إنما أراد أن يرد قدر الله وأن يدفع المكتوب عليه من الأذى من غير الله الذي هو دافعه. قال صلى الله عليه وسلم: «من تعلق تميمة فقد أشرك»[٧٠].

ومن الشرك الرقى التي تُسمى العزائم من دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة بغير الله بأسماء الملائكة والأنبياء والجن أما الرقى بالقرآن وأسماء الله وصفاته ودعائه والاستعاذة به وحده لا شريك له فليست شركاً. شرط أن يكون بكلام الله وباللسان العربي المفهوم وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى وغير هذا من الشرك لأن فاعله إنما يعتصم بعبيد الله ولا عاصم إلا الله.

ومن الشرك التبرك بالأحجار والأشجار من قبور ومقامات يطلبون منها البركة ويعكفون عندها ويزورونها يعتقدون أنها تدفع خيراً وتجلب نفعاً، وهذه الزيارة شركية، أما إذا زاروها يعتقدون أنها تقرب الاستجابة من عند الله لهم فهي زيارة بدعية وضلالة أيضاً.

ومن الشرك أن يُذبح لغير اسم الله وحده، كمن يذبح للصنم أو للصليب أو للأنبياء أو لأصحاب المقامات على سبيل القربة والتعظيم لغير الله.

ومن الشرك النذر لغير الله كالنذر للأصنام والقبور، وهو عبادة غير الله تعالى.

ومن الشرك الاستعاذة والاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله وذلك في كشف الضُرّ أو تحويله أو طلب النصر ممن لا يملك فإنه شرك لأن ذلك كله من خصائص الله فلا يطلب منها غيره.

والسحر من الشرك، والساحر مشرك لأنه لا يتأتى السحر بدون الشرك، والكهانة من الشرك، والكاهن مشرك لأنه يدعي علم الغيب، ويدعي الكشف وقد استأثر الله تعالى به.

ومن الشرك الرياء، ويسمى الشرك الخفي لأن صاحبه يظهر أن عمله لله ويخفي في قلبه أنه لغيره والحامل له على ذلك هو حب الرياسة والجاه عند الناس لا طلب ثواب الآخرة.

ومن الشرك الطاعة الخاصة للعلماء والأمراء في تحريم الحلال أو تحليل الحرام فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول صلى الله عليه وسلم فهو مشرك لأن كمال المتابعة لرسول الله هو شطر الشهادة الثاني فمن شهد أن لا إله إلا الله ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول أو طاعة غيره فقد كذب في شهادته. ولا يكون من أهل الإيمان.

ومن الشرك الحلف بغير الله من المخلوقات كالحلف بالشرف وبالأب والأم والكعبة، لأنه من باب أن يجعل الإنسان لله نداً يشركه معه في التعظيم والتقديس.

ونختم بالاستشفاع بالنبي صلى الله عليه وسلم، بمعنى استجلاب دعائه، فهذا إنما كان في حال حياته، أما بعد وفاته عليه السلام فلم ينقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم ولا عن غيرهم أنهم أنزلوا حاجاتهم بالنبي بعد وفاته حتى في أدق الأوقات وأصعبها.

والاستشفاع إنما يكون بكل حيّ صالح يُرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يستشفع به بأن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة.

وأما الميت فالمشروع أن يدعى له على جنازته وعلى قبره بالتثبيت وأن يدعى له بعد موته فإن هذا هو المشروع في حقه وأما دعاؤه فلم يشرع لأنه دعاء ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر لا في حقه ولا في حق نفسه. فمن تعدى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل.

البدعة والابتداع

وإن مما يقدحُ في تحقيق الاعتقاد البدعة والابتداع.

والبدعة طريقة في الدين مخترعة، أو رأي على غير أصل من كتاب أو سنة أو إجماع أو قياس معتبر.

فما يُحْدِثُهُ الناس في الدين مما ليس منه مردود غير مقبول وهو عين البدعة (فإن كل مُحْدَثَة بدعة وكل بدعة ضلالة)[٧١] ولو كان ذلك الإحداث حسناً أو كان فيه مبالغة في التعبد لله تعالى؛ كالتزام عبادات معينة بكيفيات وهيئات معينة أو قصد أماكن مخصوصة للعبادة لم يُخصصها الشارع الحكيم أو كترك المطلوبات الشرعية تديناً بضد ما شرع الله.

ولا يخفى أن المطلوب شرعاً لا بدَّ له من نية حسنة وإخلاص لله تعالى وأن يؤدى وفق ما شرع الله وليس ضد ما شرع الله.

ولا يخفى أيضاً أن من البدع بدعاً تقع في أمور العقيدة ومسائل الإيمان وقد تُخرج المسلم من الملة أو لا يقبل الله معها عمل سواء وافق السنة أو خالفها.

والبدع من حيث تصورها يعلم العاقل ذمَّها لأنها اتباع للهوى والمبتدع معاند للشرع ومُشاقٌّ له، وكأنه يستدرك على الله ورسوله فيكون قد نَزَّل نفسه منزلة المضاهي لهما، هذا فضلاً عما ورد من آيات وأحاديث صحيحة منقولة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما جاء عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وما أتى من كلام أهل الزهد[٧٢] المشهورين عند الناس في ذم البدع وسوء منقلب أهلها.

وليس أدلَّ على ذلك من بعض ما ورد في البدع من الأوصاف

وليس الإثم الواقع عليه على رتبة واحدة بل هو على مراتب مختلفة ومن جهات متعددة يغلب على الظن معها التفاوت في عظم الإثم وعدمه.

وإن مما يجب أن يُعلم أن البدعة كلها ضلالة وأن كل بدعة قبيحة وسيئة ولا يوجد بدعة حسنة أو فيها هدى. وأن المراد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة»[٧٤] هو العمل بما ثبت من السنة أو المبادرة إلى إحياء سنة، وهذا مطابق لقوله صلى الله عليه وسلم: «من أحيا سنة من سنتي قد أميتت بعدي فإن له من الأجر مثل من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئا.»[٧٥].

وإن التحسين والتقبيح مختص بالشرع ولا مدخل للعقل فيه حتى يُحَسِّن أو يُقَبِّح، وهو مذهب جماعة أهل السنة الراسخين في العلم. أما من يحسن أو يقبح وهو ليس براسخ في العلم لعدم معرفة بكلام العرب أو لعدم علمه بأصول الفقه أو بأصول الاعتقاد فهو المبتدع الزائغ عن الصراط المستقيم الداخل في طرق البدع والابتداع وهي كثيرة منها:

١. قَصْرُ النظر على دليل ما وعدم النظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية المعارضة له.
٢. الاعتماد على الأحاديث الواهية الضعيفة أو الموضوعة أو التي لا يقبلها أهل الحديث.
٣. رد الأحاديث الصحيحة التي جرت غير موافقة لأغراضهم ومذاهبهم ويَدَّعون أنها مخالفة للمعقول.
٤. تفسير كلام الله على غير مراده تعالى، وتأويله على غير أصل وتدبره على غير قواعد التدبر الأمثل.
٥. الانحراف عن الأصول الواضحات إلى اتباع المتشابهات، وتحريف الأدلة عن مواضعها.
٦. التغالي في تعظيم الشيوخ، والتكالب على نصر المذهب والتهالك في محبة أصحاب البدع.
٧. الاستناد على الأحلام في أخذ الأحكام الأصولية والفرعية.

وبعد:
فهذه خلاصة في تحقيق الاعتقاد عند السلف الصالح رضي الله

نماذج من الفرق الضالة في عقائدها قديماً وحديثاً:

اجتمعت في التاريخ الإسلامي عدة عوامل، وجملة أسباب تكونت منها فرق كثيرة ذات عقائد باطلة ومناهج ضالة خالفت فيها عقيدة السلف الصالح رضي الله عنهم ومنهجهم المستقيم. ونقسم هذه الفرق إلى فرق قديمة وفرق حديثة.

أولا: الفرق القديمة

منها:

١. **فرقة المعتزلة:** لاعتزالهم مجلس الإمام الحسن البصري وقولهم بأن العباد يخلقون أعمالهم، وينفون رؤية الله تعالى في الآخرة، ويقولون بوجوب الثواب والعقاب على الله، والصلاح والأصلح كذلك، ويثبتون المنزلة بين المنزلتين لمرتكب الكبيرة، ويثبتون عدل الله بالوعد والوعيد، وينفون صفات الباري عز وجل وهم أكثر من عشرين فرقة يضلل بعضهم بعضاً ويكفر بعضهم بعضاً.

٢. **غلاة الشيعة:** وهم من تشيع للإمام علي رضي الله عنه من غير الزيدية والجعافرة والاثني عشرية، وهم أكثر من ثماني عشرة فرقة يكفر بعضها بعضاً كالسبئية، والدروز والنصيرية.

أما الزيدية فهم أغلب سكان اليمن، ينتسبون للسيد الشريف زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

والإثنا عشرية الذين قالوا بإتباع الاثني عشر إماماً وهم علي والحسن والحسين، وعلي بن الحسين، والباقر، وجعفر الصادق، وموسى الكاظم، وعلي الرضا، ومحمد الجواد، وعلي الهادي، وحسن العسكري، ومحمد بن الحسن العسكري.

٣. **الخوارج:** وهم الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وفارقوه بسبب التحكيم، وناصبوه العداء، وهم أكثر من سبع فرق، غير أن فرقة الإباضية التي عدّها العلماء منهم ليست في الحقيقة منهم، فهؤلاء أتباع عبد الله بن أباض، وفقههم منسوب للإمام جابر رضي الله عنه، وهم موجودون في عُمان وزنجبار وشمال أفريقيا.

---

[٧٣] وذلك لأن الابتداع هوى في قلبه يصعب أن يخرج عنه.
[٧٤] الحديث رواه مسلم برقم ١٦٩١.
[٧٥] الحديث رواه الترمذي برقم ٢٦٠١.

٤. **المرجئة:** لقبوا بذلك لأنهم يرجئون العمل عن النية والاعتقاد، أي يؤخرونه، ويقولون: لا يضر مع الإيمان معصية ولا ينفع مع الكفر طاعة، فالمهم أن يكون الإنسان مؤمناً بقلبه ولا عليه لو سرق أو شرب الخمر أو فعل المعاصي.

ومن الفرق القديمة الضالة: الجبرية والمشبهة وغيرهم.

ثانياً: الفرق الحديثة

في ظل ظروف خاصة نشأت في التاريخ الإسلامي المعاصر فرق وطوائف تستروا بفكرة باطلة وهي أن القرآن له ظاهر وباطن. فالظاهر ما يفهم من النص العربي، والباطن ما يفهمونه هم ويتوهمونه بآرائهم. فأولوا التكاليف الشرعية كلها فضلاً عن تأويلهم أمور الإلوهية وأمور الآخرة وغيرها. ومن هذه الفرق:

١- فرقة البهائية

بدأت في مدينة شيراز إحدى مدن إيران في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة (١٢٦٠هـ). مؤسسها هو علي محمد الشيرازي. ادعى أنه باب العلم بالحقيقة الإلوهية وسمى نفسه (الباب). هاجر إلى مدينة أصفهان وقتل فيها، خلفه (البهاء) وهو حسين علي نوري بن عباس وإليه تنسب فرقة البهائية، مات ودفن في مدينة حيفا في فلسطين. خلفه ابنه عباس عبد البهاء وهو الذي نظم جماعة البهائيين تحت شعار الإصلاح الديني والاجتماعي وباسم الأخوة الإنسانية[٧٦].

٢- فرقة القاديانية

مؤسس هذه الفرقة هو ميرزا غلام أحمد القادياني (١٨٣٩-١٩٠٨)، من مدينة قاديان، إحدى قرى البنجاب. ادعى أنه المهدي المنتظر وأنه نبي مرسل ينزل عليه الوحي وأن محمداً وعيسى حلاّ فيه وأنه بمنزلة هارون من موسى. أسقط الجهاد في سبيل الله، وأوجب طاعة ولي الأمر الحاكم ولو كان مستعمراً كافراً. انشقت بعد موته فرقة القاديانية فتفرع منها فرع (الأحمدية) أو ما تسمى جماعة لاهور، والفرق بينهما أن هذه تنفي نبوة ميرزا -ولكنهم يقولون بنبوة ميرزا نبوة ظل![٧٧].

وهذه الفرق أنشأها الاستعمار أو نشأت في ظله، وغذّاها مادياً ومعنوياً، وخدمته أكبر خدمة في تفريق وحدة المسلمين وتمكين عدوهم من بسط نفوذه على أرضهم، وهي فرق خارجة عن الإسلام لعدم قيامها على ظاهر شرع الله ولا على قاعدة عقلية مقبولة.

نماذج من القرآن في العقيدة الإسلامية

١. آيات العقيدة في أسماء الله الحسنى (الإلاهيات).

٢. آيات العقيدة في النبوة والأنبياء والرسالة والرسل، (النبوات).

٣. آيات العقيدة في ما يكون بعد الموت والدار الآخرة (السمعيات).

١- أسماء الله الحسنى

وقال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[٧٨]. وقال تعالى: (قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)[٧٩]. وقال تعالى: (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)[٨٠].

الشرح

أسماء الله الحسنى أعلام وأوصاف، فالوصف فيها لا ينافي العلمية وهذا بخلاف أوصاف العباد، وأسماؤه تعالى موقوفة على السمع من الشارع الحكيم فليس مأذوناً لنا أن نسميه أو نصفه بغير أسمائه وصفاته التي أذن بها الله ورسوله، وكلها حسنى ليس فيها اسم إلا وهو حسن.

قوله تعالى: (فادعوه بها): يقتضي عدها وإحصاء ألفاظها وفهم معانيها ومدلولاتها، ويكون دعاؤه بها على مرتبتين: (إحداهما) دعاء ثناء وعبادة، (والثانية) دعاء طلب ومسألة، كقولنا اللهم إنك أنت الرحمن الرحيم، فارحمنا يا ألله، فهذا الدعاء ثناء على الله بقولنا: اللهم أنت الرحمن الرحيم، وفيه طلب بقولنا: فارحمنا، وهكذا بقية أسمائه تعالى. قوله تعالى: (وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ)[٨١].

الإلحاد في أسمائه تعالى العدول بها وبحقائقها ومعانيها عن الحق الثابت لها، وهو أنواع:

- أحدها: أن تسمى الأصنام بها كتسميتهم اللات والعزى من الله والعزيز.
- الثاني: تسميته بما لا يليق بجلاله كتسمية النصارى له الأب.
- الثالث: وصفه بالنقائص كقول اليهود: إنه فقير، وإن يده مغلولة، غُلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا.
- الرابع: تعطيل أسمائه عن معانيها وجحد حقائقها كقول بعض

---

[٧٦] من كتاب: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، لمحمد البهي.
[٧٧] من كتاب: القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام، لأبي الحسن الندوي.
[٧٨] سورة الأعراف آية ١٨٠.

المعنى الإجمالي

نثبت لله تعالى ما أثبته لنفسه، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه، من غير إلحاد في الأسماء ولا في الآيات، فإنه سبحانه ذمَّ الملحدين وبين أنهم لا يخفون عليه، وأنهم سيجزون ما كانوا يعملون.

- ما يستفاد من الآية: إن الناظر في أسماء الله تعالى وصفاته يستطيع أن يستنبط منها قواعد وأصولاً هامة يجب الرجوع إليها في هذا الاعتقاد:
- القاعدة الأولى: يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى وما دلت عليه من الصفات وما ينشأ عنها من الأفعال، مثال ذلك اسم الله «القدير» معناه الذي إن شاء فعل وإن شاء ترك ولم يفعل، وصفة القدرة معناها صفة قائمة به تعالى يستطيع بها أن يفعل أو أن لا يفعل. فنؤمن بأن قدرته نشأت عنها جميع الكائنات، وهكذا بقية الأسماء الحسنى.
- القاعدة الثانية: يجب الإيمان بأن صفات الله تنقسم إلى قسمين:

صفات لازمة لذاته تعالى أزلاً وأبداً لا تنفك عنها ولا تتعلق بها مشيئته وقدرته وذلك مثل صفات: الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والعزة والكبرياء والجلال.

صفات فعلية تتعلق بها مشيئته وقدرته، وهذه نوعها قديم وأفرادها حادثة، وذلك مثل صفات: الاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والرزق، والإحياء والإماتة، والحب والكره.

- القاعدة الثالثة: إثبات جميع ما ورد به الكتاب والسنة من الأسماء والصفات من غير تأويل ولا تعطيل، وبلا تشبيه وتمثيل، وبدون تكييف.
- القاعدة الرابعة: إثبات تفرده تعالى بكل اسم هو له، وبكل صفة من صفاته، وأنه ليس له شريك أو مثيل في شيء منها قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ،

جميعاً. فالمعتزلة[85] ينفون جميع الصفات ويثبتون الأسماء، أما الأشعرية[86] فإنهم يثبتون سبع صفات وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والكلام والسمع والبصر، وينفون ما عداها من الصفات التي صح بها الخبر، ويؤولونها.

٢- اختصاص النبوة بأشرف أفراد النوع الإنساني.

قال تعالى: (وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)[87].

وقال تعالى: (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ، إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ)[88].

وقال تعالى: (اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)[89].

الشرح

لما كانت العقول البشرية قاصرة عن إدراك ما يصلح النفس مما لا يصلحها، وكانت النفوس مركبة، فيها جملة من الشهوات من غرائز، وحاجات عضوية، أرسل الله تعالى من أفراد النوع الإنساني رسلاً ليعينوا العقول في ضبط الشهوات بحيث يميز الإنسان بين الخير والشر، كيلا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل.

وإن النبوة اختصاص من الله واصطفاء لمن يشاء من خلقه من الرجال الأحرار الأقوياء القادرين على الاجتهاد بالدعوة المنزهين عن جميع الرذائل من الجبن والبخل وسائر الأخلاق الذميمة المبرئين من اللؤم والدناءة والسالمين من العيوب المنفرة للطبع والأمور المخلة بالمروءة وكل ما يخل بحكمة الرسالة. وقد ذهب فريق من الفلاسفة إلى جواز أن تكون النبوة مكتسبة وليست فضلاً من الله ونعمه يمُنُّ بها على من يشاء من خلقه. فهم يزعمون أن من لازم الخلوة، وداوم على العبادة، وراقب الله

---

[82] سورة الإخلاص آية ١-٤.

[83] سورة الشورى آية ١١.

[84] أتباع جهم بن صفوان، انظر كتاب: تاريخ الفرق الإسلامية، تأليف علي مصطفى الغزالي، ص٢٥.

[85] أتباع واصل بن عطاء، المرجع السابق ص٢٥.

[86] أتباع أبو الحسن الأشعري، وقد ثبت أنه رجع إلى اعتقاد السلف في إثبات سائر الأسماء والصفات من غير تأويل. انظر: مقالات الإسلاميين له.

[87] سورة الأنعام آية ١٢٤.

[88] سورة صٓ آية ٤٥-٤٦.

[89] سورة الحج آية ٧٥.

في كل أقواله وأفعاله وأخلى نفسه من كل ما يشغلها عن الله من حلال أو حرام، فإن قلبه يتهيأ للتحلي بالنبوة، ولا يكون التحلي بالنبوة إلا بعد مرحلة التخلي عن كل شيء سوى الله. وإن عوامل التحلي والتخلي هي:

تهذيب النفس، وتنقية البدن، وتصفية الأخلاق بكل ما هو من الأوصاف الجميلة. وتعهد النفس بالجد والاجتهاد، واقتحام أشق الطاعات، وإلزام النفس بالشدائد وتعهدها بالصعاب. الإقبال على تناول الحلال، ومجانبة الحرام والكبر والعجب. عندئذ يمكن أن يجتمع في النفس ثلاث خواص تقود إلى النبوة وهي:

١. الخاصة الأولى: إطلاع النفس على بعض المغيبات عن طريق اتصالها بالروحانيات العالية.
٢. الخاصة الثانية: تجري على يديه بعض خوارق العادات، على خلاف معهود البشر.
٣. الخاصة الثالثة، مشاهدة الملائكة على صور يتخيلها بحيث يسمع منها كلام الله تعالى[٩٠].

ما يستفاد من الآيات

إن الناظر في النبوة والرسالة والأنبياء والرسل يجدهم صفوة الخلق وفي أعلى مراتب البشر، وفي أشرف نسب، وأشرف الناس، من كمال عقل، وحدة وذكاء، وسرعة فطنة، وقوة رأي.

ولو كانت مكتسبة لكان في الزمن الواحد والمكان الواحد أكثر من نبي ورسول، ولخلت بعض الأزمنة والأمكنة عن الأنبياء لاحتمال أن يكتسبها أكثر من واحد، أو أن لا يكتسبها أحد. لبلادة حسّ أو فتور في العمل أحياناً.

ولو كانت مكتسبة لما ختمت بنبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد مضى على موته ألف وأربعمائة ونيف وعشرون عاماً ولم يكتسبها أحد من بعده، فلا نبي بعده وقد أرسله الله إلى الناس جميعاً.

وفي الآيات رد على من زعم من بعض الصوفية أن الولاية لله خير من النبوة لأن الولي يأخذ عن الله بغير واسطة والنبي أو الرسول يأخذ عن الله بواسطة ملك الوحي، وهو قول باطل يفتح أبواباً للشياطين التي لا حصر لها: (وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ)[٩١].

٣- المعاد الجسماني

قال تعالى: (قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ)[٩٢].

وقال تعالى: (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ، بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)[٩٣].

وقال تعالى: (وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ)[٩٤].

الشرح

المراد بالمعاد الجسماني بعث الموتى والنشر والحشر أي أن الله يبعث جميع العباد ويخرجهم من قبورهم ويسوقهم إلى محشرهم لفصل القضاء. والمعاد الجسماني حق دل عليه القرآن ولم يمنعه العقل، وأنكره الملاحدة والدهريون الذين ورد قولهم في قوله تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)[٩٥]، وفي قولهم هذا تكذيب للنصوص القطعية والعقول السليمة.

وممن أنكر المعاد الجسماني فريق من الفلاسفة وحجتهم في ذلك أن الميت يعدم ويمتنع إعادة المعدوم بعينه، وحجتهم باطلة أمام قدرة الله الصالحة لإيجاد المعدوم بقوله كن فيكون، وهذا هو مذهب المسلمين من أهل السنة والجماعة لأن من زعم عدم إعادة المعدوم ألزم بالنشأة الأولى، فإن المعاد بعد الموت مثل المبدأ عند الحياة، بل الإعادة أهون وأيسر كما قال تعالى: (وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)[٩٦].

وفي الآية الثانية يبين الحق سبحانه أنه قادر على أن يسوي بنان الإنسان على الشكل المرسوم في الحياة الدنيا قبل أن يموت، وقد تأكد من الناحية العلمية أن الناس مختلفون في الأشكال المرسومة على أناملهم، وليس في الإنسان بنان واحد يتفق مع الآخر في الشكل، وهي آية من الآيات، مما يؤكد أن الذي أتقن هذا في الأولى قادر على إعادته على ما هو عليه في الآخرة وفي ذلك خصوص بعد عموم.

وفي الآية الثالثة حديث عن نفخة البعث[٩٧] والنشور حيث يقوم الناس من قبورهم ينظرون ما الله فاعل بهم يوم الحساب بعد العرض عليه، وشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم عند ربه حتى يأذن ببدء الحساب، وما يكون في ذلك اليوم من صحف ودواوين وموازين وما يكون فيه من مرور على الصراط، ووقوف على

---

[٩٠] انظر في ذلك كتاب: لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية، لمحمد بن أحمد السفاريني، ج٢ تحت باب النبوات فصل شروط النبوة، ٢٦٥-٢٦٩.

[٩١] سورة الأنعام آية ١٢١.

[٩٢] سورة يّس آية ٧٩.

[٩٣] سورة القيامة آية ٣-٤.

[٩٤] سورة يّس آية ٥١.

إن الناظر في الآيات يدرك أن مسائل ما بعد الموت لا يمكن للعقل أن يخوض فيها فطريق العلم بها هو السمع والتلقي من القرآن والسنة مما ليس للعقل فيه مجال، كسؤال الملكين وعذاب القبر ونعيمه وأحواله وهل هو واقع على النفس والبدن أو غير ذلك؟

وإن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا وإن نار الآخرة مخالفة لنار الدنيا وسر المسألة أن ما بعد الموت ليس من جنس المعهود في هذا العالم فليس في الآخرة مما في الأولى إلا الأسماء فقط وقد أسبل الله الغطاء على ما يكون بعد الموت ليكون الإيمان به، وهو غيب، سبباً لسعادة الناس الذين يؤمنون بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله وبالآخرة هم يوقنون.

الإمامة ومتعلقاتها

نصب الإمام -الخليفة- فرض لازم، وواجب جازم، ثبتت فرضيته بالتواتر والإجماع، وبالعقل. ووجوبه شرعاً وعقلاً لأمس الحاجة إليه في إقامة حدود الله، وسدّ الثغور، وتجهيز الجيوش للجهاد في سبيل الله. وهو ضروري أيضاً للأمر بالمعروف بين الناس، والنهي عن المنكر، ونصر المظلوم من ظالمه، وقهر الكفار وذلّهم وهو أيضاً يعمل على أخذ مال الفيء والزكاة وغيرها وصرفها في مصارفها المعينة لها شرعاً في مصلحة أهل الإسلام.

وكل ذلك واجب في الإسلام وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ونصّ علماء الأمة على أن نصبه فرض كفاية إذ في نصبه جلب منافع لا تحصى ودفع مضار كثيرة، والمشاهد أن فرض انتظام الناس بدون إمام محال عادة.

ويثبت نصب الإمام أو الخليفة بالنص كما عهد أبو بكر الصديق بالخلافة إلى عمر الفاروق رضي الله عنهما، ويثبت نصبه أيضاً بإجماع أهل الحل والعقد من المسلمين وبمشاورة أهل البيعة واتفاقهم على واحد منهم كما فعل عمر بن الخطاب حيث جعل أمر الإمامة بين أهل البيعة حتى وقع اتفاقهم على عثمان بن عفان رضي الله عنهم.

ويمكن أن ينصب الإمام بغلبة السيف (القوة) شرط أن يكون مسلماً حراً عدلاً ومن أهل الخبرة والدراية في الحكم والسياسة. عندئذ تجب طاعته فيما أمر إن كان طاعة ولا تجب طاعته في المعصية بل تحرم إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[٩٩].

الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[١٠٠].

وإن الذي مرّ معنا تصوره بالنسبة إلى الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر هو الركن الأساسي الذي بدأ الإسلام به في تكوين وبناء الشخصية الإسلامية وفي نشأة المجتمع المسلم المثالي في جميع مناحي الحياة بما يحفظ للأمة هويتها وشخصيتها ووحدة كيانها واستقلالها.

أولاً: ويمكن ملاحظة أثر العقيدة الإسلامية في الفرد في دينه وعقله وماله ونفسه وعرضه:

١- أثرها في الدين:

أ. العقيدة في الله الواحد تحرر الإنسان من العبودية لغيره ومن الولاء لغيره، فلا يشرك به غيره، قال تعالى: (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي)[١٠١]. فالوحدانية مصدر سعادة الإنسان، والشرك بالله مصدر شقائه، قال عليه السلام: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ تَعِسَ وَانْتَكَسَ»[١٠٢].

ب. العقيدة في الله الواحد تحرر الإنسان من البدع والابتداع ومن الأوهام والخرافات، فلا يستقيم قول وعمل ونية الإنسان ما لم يكن ذلك كله موافقاً لدين الله تعالى ومشروعاً بشرعه[١٠٣].

٢- أثرها في العقل:

أ. العقيدة في الله وفي اليوم الآخر تعين العقل في ضبط شهوة النفس وما زين لها من النساء والبنين والمال والأنعام وغيرها، فتدفع العقل إلى اختيار فعل الخير على الشر خوفاً من الله واليوم الآخر (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ)[١٠٤].

ب. العقيدة في القدر خيره وشره تقنع العقل في السراء والضراء فإذا أصابه خير الشيء شكر الله تعالى، وإذا أصابه شر الشيء صبر على بلوائه وليس ذلك الخير إلا للمؤمن العاقل.

---

[٩٨] مكان يقف عنده أهل الجنة قبل أن يدخلوها، ينزع الله ما في صدورهم من غل وحقد وحسد. قال تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ) (الحجر٤٧)، وقال تعالى: (وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ) (الأعراف٤٣).

[٩٩] انظر في ذلك كتاب لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية للشيخ محمد بن أحمد السفاريني، ص٤١٩-٤٢٦، بتصرف كبير.

[١٠٠] سورة البقرة آية ٢٥٦.

[١٠١] سورة الزمر آية ١٤.

[١٠٢] رواه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري، في كتاب الجهاد والسير، باب: الحراسة في الغزو في سبيل الله.

[١٠٣] انظر كتاب: الاعتصام: للإمام الشاطبي، ج١، ص٨٤، طبعة دار المعرفة.

[١٠٤] سورة الزلزلة آية ٧-٨.

٣- أثرها في المال:

أ. العقيدة الإسلامية تحدد للفرد طرق الكسب المشروعة، ومناهج الصرف المشروعة، فيبتعد عن المحرمات من السرقة والغش والاحتيال والربا والقمار وكل ما حرمه الله، ويقبل على صرف ماله في الصدقات والزكاة والكفارات والنذور والوقف ونحو ذلك.

ب. العقيدة الإسلامية تنمي في النفس روح القناعة والاستغناء، بكل ما قسم الله له من الخير والرزق، فهو يعلم بأن المال مال الله وأن الناس مستخلفون فيه فلا يطمع في ميراث من لا حق له أن يرثه، ولا يحجر على ميراث وارث عن مورثه.

٤- أثرها في النفس:

أ. العقيدة الإسلامية تطهر النفس من الرذائل والفجور فتبعدها عن الغل والحقد والحسد والجبن وتبعدها عن الجريمة والفسق والفجور.

ب. العقيدة الإسلامية تقنع النفس ببدايتها ونهايتها والغاية من وجودها فهي من عند الله، والله خالقها، وستنتهي إليه، وغايتها من الحياة تقرير منهج الله في أرضه وبين عباده. قال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا)[١٠٥].

٥- أثرها في العرض:

أ. العقيدة الإسلامية تحفظ على الناس أعراضهم من اللغو فيها، ومن الزنا وسائر الفواحش الجنسية.

ب. العقيدة الإسلامية تستر على من ارتكب فاحشة في العرض وتأخذ على الذين يحبون أن تشيع الفواحش بين المؤمنين باللوم والتثريب والعذاب الأليم يوم القيامة. قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ)[١٠٦].

ثانياً: يمكن ملاحظة أثر العقيدة الإسلامية في المجتمع في ما يلي:

أولا: العقيدة الإسلامية تنشئ مجتمعاً لا مثيل له من حيث ارتباط جميع أفراده برباط واحد هو رباط العقيدة الواحدة وعدم التنكر لما عداه من الروابط كالقوم والوطن واللغة والتاريخ والمصلحة إذا كانت تابعة لآصرة العقيدة التي اختارها الإنسان لنفسه بنفسه ولم يجبره أحد عليها، فتنشأ بين أفراده مشاعر متجانسة، لا مكان فيها للطبقية ولا تفاضل بين معتنقيها إلاّ بالتقوى والعمل الصالح.

ثانياً: العقيدة الإسلامية توحد الدار، فتكون دار الأمة دار الإسلام، وما عداها دار حرب وكفر أو دار عهد ودعوة، ويكون أمان دار الإسلام بأمان أبنائها ودفاعهم عنها.

ثالثاً: العقيدة الإسلامية تنشئ مجتمعاً نظيفاً من ناحيتين:

الناحية الأولى: بتقرير الأخلاق الإسلامية التي هي أثر توجيهات الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

الناحية الثانية: بخلو المجتمع ونظافته من البدع والمعاصي والضلالات والأوهام.

رابعاً: العقيدة الإسلامية تقيم حركة حضارية لا مثيل لها فهي نتاج علاقة الإنسان بالله ورسوله واليوم الآخر.

خامساً: العقيدة الإسلامية تقيم حركة علمية لا مثيل لها من حيث ضخامة الثروة العلمية وقيامها في ظل العقيدة وليس على أساس العداء معها.

سادساً: العقيدة الإسلامية تقيم حركة جهادية لا مثيل لها من حيث أسباب الجهاد وحقيقته ونتائجه.

وحاصل ذلك كله أنه متى صحت أركان الإيمان في النفس والمجتمع استقامت الأساسيات الكبرى عندهم وكانوا أطوع للاستقامة على الحق وأقدر على التحكم في الحياة بما ينفعهم ويصلح شأنهم في معاشهم ومعادهم فإن العقيدة الإسلامية نبع التربية الإسلامية[١٠٧].

٤. قارن بين العقيدة الإسلامية وعقيدة أهل الكتاب

٥. قد يكون سلطان الجهل أو العادة في نفوس كثير من الناس أكبر من سلطان الله تعالى. إشرح!

٦. قال الله تعالى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ)[١٠٨]. في ضوء هذه الآية بيّن كيف يكون الإنسان موحداً لله ومتبعاً لرسوله صلى الله عليه وسلم؟

المصادر:

١. شرح العقيدة الطحاوية، لعلي بن علي بن أبي العز الحنفي.

٢. لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، لمحمد بن أحمد السفاريني.

٣. العقيدة الإسلامية وأسسها، لعبد الرحمن حسن الميداني.

٤. عقيدة ختم النبوة وأصولها، لعثمان عبد المنعم عيش.

٥. الإيمان، لشيخ الإسلام ابن تيمية.

٦. مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، طبعة دار الشروق.

٧. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني.

٨. الإيمان بالملائكة، لعبد الله سراج الدين، ط١، ١٩٧٢.

٩. محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة.

١٠. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب.

١١. الاعتصام، للشاطبي، طبعة دار المعرفة.

١٢. العقيدة نبع التربية، د. أحمد الناصر الحمد.

١٣. كبرى اليقينيات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي.

١٤. الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي.

١٥. الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، لمحمد البهي.

١٦. القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والإسلام، أبو الحسن الندوي.

١٧. مقالات الإسلاميين: أبو الحسن الأشعري.

لائحة مراجع مقترحة:

١. كتاب الدين، لمحمد عبد الله دراز.

٢. الإيمان: حقيقته وأركانه ونواقضه، لمحمد نعيم ياسين.

٣. العقائد الإسلامية، لسيد سابق.

٤. أثر العقيدة في بناء الجيل، لعبد الله عزام.

٥. عقيدة المسلم، أبو بكر الجزائري.

---

[١٠٨] سورة يوسف اية ١٠٦.

حافظ محمد حيدر الجعبري

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذ مشارك

تاريخ ومكان الميلاد: ١٩٥٢/٩/١٤

المؤهلات العلمية

- حصل على شهادة الدكتوراه في العقيدة الإسلامية عام ١٩٨٢ من كلية الشريعة في جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية
- حصل على شهادة الماجستير عام ١٩٨٠ من كلية الشريعة في جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية
- حصل على شهادة البكالوريوس عام ١٩٧٦ من كلية الشريعة في الجامعة الأردنية، الأردن

السيرة العملية

١. أستاذ مشارك في جامعة الخليل من عام ٢٠٠٤-٢٠٠٥
٢. أستاذ مساعد في جامعة الخليل من عام ١٩٩١-٢٠٠٤
٣. عميد كلية الشريعة في جامعة الخليل من عام ١٩٩٦-١٩٩٩
٤. أستاذ مساعد في جامعة أم القرى في المملكة العربية السعودية من عام ١٩٨٢-١٩٩١
٥. محاضر في كلية الشريعة في جامعة الخليل عام ١٩٧٩
٦. إمام ومدرس المسجد الإبراهيمي من عام ١٩٧٦-١٩٧٧
٧. المشاركة في عدة لجان في جامعة أم القرى - جامعة الخليل ومنها رئيس لجنة الدراسات العليا في القضاء الشرعي مدة سنتين ٩٨/٩٩.
٨. بالإضافة أنه أشرف على العديد من رسائل الماجستير

الإنتاج العلمي:

١. مجمل اعتقاد أهل الفرقة الناجية ٢٠٠٥.
٢. المنتقى من الاعتصام للإمام الشاطبي٢٠٠٤.
٣. المدخل إلى دراسة الأديان السماوية والفلسفات الوضعية القديمة والحديثة ٢٠٠٤.
٤. مشاركته في بحث حول «المبادئ الأساسية للدعوة السلفية التصحيحية في الجزيرة العربية وأثرها في حياة النجديين ومن حولهم»، والحركة الإسلامية «دراسة موضوعية لحركة البعث الإسلامي» في مجلة جامعة الخليل ١٩٩٩، ٢٠٠٣
٥. مشاركته في بحث حول «إسلامية القدس» في جامعة النجاح في نابلس عام ٢٠٠٠
٦. مشاركته في بحث حول «أبناء إبراهيم والحق التاريخي لليهود في فلسطين» في جامعة القدس المفتوحة عام ٢٠٠٠

مقدمة علوم القرآن

د. إسماعيل نواهضة*

تمهيد

القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة، أنزله الله تعالى على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، فقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتلقاه من جبريل عليه السلام ويبلغه إلى الصحابة رضي الله عنهم وهم من العرب الخلص، فكانوا يفهمونه بسليقتهم، وإذا التبس عليهم فهم آية من الآيات القرآنية رجعوا بها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وسألوه عنها، فكان يجيبهم على أسئلتهم، كما ورد في الحديث الشريف الذي رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ)[1] شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون! ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)؟[2]

وختم الله تعالى بهذا القرآن الكتب السماوية التي أنزلها على رسله، كما ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم الأنبياء والرسل، وامتاز القرآن عن سائر الكتب السماوية السابقة بأن تولى الله بنفسه حفظه وصيانته فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، قال الله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[3]. وقال تعالى: (لا وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)[4]

وقد جاء القرآن الكريم وافياً بجميع مطالب الإنسانية، حيث عالج مشكلاتها في شتى مرافق الحياة الروحية والعقلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية علاجاً حكيماً يتناسب مع الفطرة، لأنه من لدن حكيم خبير. وقد أتم الرسول صلى الله عليه وسلم تبليغه إلى أصحابه ومن ثم إلى الناس جميعاً.

نشأة علوم القرآن وتطورها

استمر الصحابة رضي الله عنهم يتناقلون معاني القرآن الكريم وتفسير بعض آياته على تفاوت فيما بينهم، لتفاوت قدرتهم على الفهم، وتفاوت ملازمتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتناقل عنهم ذلك تلاميذهم من التابعين. وما روى عن الصحابة والتابعين يتناول علم التفسير، وعلم غريب القرآن، وعلم الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، إلى غير ذلك مما له صلة بالقرآن الكريم. ويطلق على هذه العلوم (علوم القرآن). ولقد ظلت علوم القرآن تروى بالتلقين والمشافهة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم على عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهم.

وفي خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه بدأ اختلاط العرب بالأعاجم، فاقتضت الدواعي جمع المسلمين على مصحف واحد فتم ذلك، واجتمعوا على مصحف إمام حيث نسخ منه عدة مصاحف للأمصار، وأمر الخليفة عثمان، وباتفاق مع الصحابة، بحرق كل ما عداها دفعاً للخلاف والفتنة. ويمكن القول أن الممهدين لعلم التفسير هم الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبيّ بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. وكلهم من الصحابة رضي الله عنهم ومما تجدر الإشارة إليه أن ما روى عنهم لا يتضمن تفسيراً كاملاً للقرآن، وإنما يقتصر على معاني بعض الآيات، بتفسير غامضها وتوضيح مجملها.

ثم جاء دور التابعين حيث اشتهر منهم جماعة أخذوا عن الصحابة واجتهدوا في تفسير بعض الآيات وعلى رأسهم مجاهد بن جبر المكي، وعطاء بن يسار، وسعيد بن جبير، والحسن البصري، وزيد بن أسلم وعنه أخذ ابنه عبد الرحمن وغيرهم. وهؤلاء جميعاً هم الواضعون لما نسميه علم التفسير، وعلم أسباب النزول وعلم المكي والمدني وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن.

---

* الأستاذ المساعد في التفسير وعلوم القرآن/ بكلية القرآن والدراسات الإسلامية- جامعة القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] سورة الأنعام آية ٨٢

[2] سورة لقمان آية ١٣

[3] سورة الحجر آية ٩

[4] سورة فصلت آية ٤١- ٤٢

وفي القرن الثاني الهجري جاء عصر التدوين فألفت كتب في أنواع علوم القرآن وفي مقدمتها التفسير باعتباره مصدر العلوم القرآنية لما فيه من التعرض لها في كثير من المناسبات عند شرح الكتاب العزيز.

أول من كتب في التفسير

يعتبر شعبة بن الحجاج وسفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح أول من كتبوا في التفسير، وكانت تفاسيرهم جامعة لأقوال الصحابة والتابعين. وهم من علماء القرن الثاني الهجري. ثم تلاهم ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ ويعتبر تفسيره من أجل التفاسير وأعظمها. وإلى جانب هذا التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم نشأ التفسير بالرأي حيث فسر القرآن الكريم كله.

أما علوم القرآن الأخرى ففي مقدمة المؤلفين فيها علي بن المديني شيخ البخاري، إذ ألف في أسباب النزول، وأبو عبيد القاسم بن سلام إذ كتب في الناسخ والمنسوخ. وكلاهما من علماء القرن الثالث الهجري. ثم تتابع العلماء في التأليف. ويرى بعض الباحثين أن اصطلاح (علوم القرآن) بالمعنى الجامع الشامل لم يبدأ ظهوره إلا بكتاب (البرهان في علوم القرآن) لمؤلفه علي بن إبراهيم بن سعيد المشهور بالجوفي والمتوفى سنة ٤٣٠هـ، ويقع هذا الكتاب في ثلاثين مجلداً. ثم تتابع العلماء من بعده حتى عصرنا الحاضر يكتبون ويؤلفون في هذا الفن خدمة للقرآن الكريم، ومن أهمهم وأشهرهم ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ الذي ألف كتابه (فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن)، ثم بدر الدين الزركشي المتوفى سنة ٨٢٤هـ ألف كتابه (البرهان في علوم القرآن)، ثم جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ألف كتابه المشهور (الإتقان في علوم القرآن).

ولم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في هذا العصر أقل من العلوم الأخرى، فقد أقبل كثير من العلماء على تصنيف الكتب حول القرآن وتاريخه وعلومه، واتجهوا اتجاهاً جديداً في معالجة الموضوعات القرآنية بأسلوب العصر أمثال مصطفى صادق الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن)، والشيخ محمد العظيم الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن)، بالإضافة إلى مؤلفات أخرى لا يتسع المجال إلى ذكرها.

تعريف القرآن لغة واصطلاحاً

القرآن لغة: قرأ تأتي بمعنى الجمع والضم. والقراءة ضم الحروف والكلمات بعضها إلى بعض في الترتيل، والقرآن، في الأصل كالقراءة، مصدر قرأ قراءة وقرآنا. قال تعالى: «إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ»[٥] أي قراءته. والقرآن مصدر على وزن فعلان بالضم كالغفران والشكران.

القرآن اصطلاحاً: هو كلام الله تعالى المعجز بلفظه ومعناه، المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المتحدى بأقصر سورة منه.

الفرق بين القرآن والحديث النبوي والحديث القدسي

يفرق العلماء بين القرآن الكريم والحديث النبوي بأن القرآن، لفظه ومعناه، من عند الله، أما الحديث النبوي فمعناه من عند الله تعالى ولفظه من النبي صلى الله عليه وسلم على الرأي الصحيح. والفرق بين القرآن والحديث القدسي، وإن كان لكل منهما لفظه ومعناه من عند الله على الصحيح، هو أن الحديث القدسي لم يقصد بلفظه التحدي والإعجاز ولم يتعبد بتلاوته. فالقول في تعريف القرآن بأنه كلام الله المعجز يميزه عن جميع الحديث النبوي وضمنه الحديث القدسي.

والجدير بالذكر أن القرآن يطلق على مجموع القرآن المكتوب في المصحف ويطلق على بعضه أي على كل آية من آياته، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن تقول: إنه يقرأ القرآن. قال تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)[٦]

أسماء القرآن

للقرآن الكريم أسماء كثيرة أوصلها البعض إلى نيف وتسعين اسما، اعتماداً على إطلاقات وصفات وردت في بعض الآيات كلفظ (كريم) في قوله تعالى: (إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ)[٧]، ولفظ مبارك في قوله تعالى (وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ)[٨] لكن المشهور من أسمائه على الترتيب:- القرآن - الفرقان - الكتاب - الذكر - التنزيل.

تنزلات القرآن

إن القرآن الكريم هو دستور الحياة الدنيوية، شرعه الله تعالى لصالحها، وكان لا بد من واسطة تقوم بإبلاغ هذا الدستور، حتى يؤتي ثماره، وكان من الممكن أن يتلقى الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن عن ربه مرة واحدة، ودون واسطة، كما تلقى موسى عليه السلام ألواح التوراة، وكان من الممكن أن ينزل القرآن الكريم من الله تعالى على جبريل عليه السلام لينزل به على محمد صلى الله عليه وسلم دون مراحل لهذا الإنزال. لكن الثابت أن للقرآن الكريم تنزلات ثلاثة هي:

وحكمة هذا النزول تعود إلى الحكمة من وجود اللوح نفسه، فإنه السجل الجامع لما كان وما سيكون إلى يوم القيامة.

الثاني: نزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا، والدليل على ذلك قوله تعالى: (إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)[10]. وقد جاءت الأخبار الصحيحة مبينة مكان هذا النزول وأنه في بيت العزة من السماء الدنيا، كما تدل الروايات ومنها على سبيل المثال ما أخرجه الحاكم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهم قال: (أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وكان بمواقع النجوم، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه في إثر بعض).

الثالث:

أ. النزول تفخيم شأن القرآن الكريم، وشأن من أنزل عليه، فإن في تعدد النزول تأكيداً للثقة فيه ومبالغة في نفي الشك عنه.

ب. نزول جبريل عليه السلام به على النبي صلى الله عليه وسلم منجماً في نيف وعشرين سنة.

والدليل على ذلك قوله تعالى: (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ)[11]

والذي يجب الجزم والقطع به: أن جبريل عليه عليه السلام نزل بألفاظ القرآن الكريم جميعها من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس، وتلك الألفاظ هي كلام الله وحده لا دخل لجبريل ولا لمحمد - عليهما السلام - في إنشائها ولا في ترتيبها، فالألفاظ التي نقرؤها ونكتبها هي من عند الله تعالى.

وليس لجبريل عليه السلام في هذا القرآن سوى إيصاله وحكايته للرسول صلى الله عليه وسلم كما أنه ليس للرسول صلى الله عليه وسلم سوى وعيه وحفظه وتبليغه، ثم بيانه وتفسيره، ثم تطبيقه وتنفيذه.

كيفية أخذ - الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن من جبريل؟

ورد في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا رسول الله.. كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد حياته، فتكون المدة التي نزل فيها القرآن الكريم نحو ثلاث وعشرين سنة، ثلاث عشرة منها بمكة وعشر بالمدينة.

تنجيم القرآن الكريم

نزل القرآن الكريم مفرقاً حسب الوقائع والحوادث ومقتضيات الأحوال، ويسمي العلماء الجزء الذي نزل دفعة واحدة نجماً، كأنهم ينزهون القرآن عن لفظ التقطيع والتفريق، ويشبهون أجزاءه بالنجوم، من حيث أن كل نجم له استقلاله، في الوقت الذي هو فيه جزء من مجرة. قال الإمام السيوطي: الذي استقرأ من الأحاديث الصحيحة وغيرها أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة خمس آيات وعشر آيات وأكثر وأقل، وقد صح نزول العشر آيات في قصة الإفك جملة، وصح نزول (غير أولي الضرر) وحدها وهي بعض آية. وهذا التنجيم خاص بالقرآن الكريم من بين سائر الكتب السماوية.

حكمة التنجيم

لتنجيم القرآن الكريم - أي لنزوله مفرقاً على دفعات - أحكام كثيرة بعضها يتصل بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم وبعضها يتصل بالأمة، وبعضها يتصل بالنص القرآني نفسه أهمها:

١. تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم والدليل على ذلك قوله تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)[12]

٢. تيسير حفظ القرآن الكريم على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أمته. والدليل على ذلك قوله تعالى: (وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا)[13]

٣. التدرج بالأمة في تخليهم عن الرذائل، وتحليهم بالفضائل، والترقي بهم في التشريعات، فلو أنهم أمروا بكل الواجبات ونهوا عن جميع المنكرات دفعة واحدة لصعب عليهم.

٤. مسايرة الحوادث والطوارئ في تجددها وتنوعها فكلما جد جديد نزل من القرآن ما يناسبه، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه.

---

[9] سورة البروج آية ٢١، ٢٢.
[10] سورة القدر: آية ١
[11] سورة الشعراء آية ١٩٣ - ١٩٥.
[12] سورة الفرقان آية ٣٢- ٣٣.
[13] سورة الإسراء آيه ١٠٦

٥. تثبيت قلوب المؤمنين وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين، بسبب ما كان يقصه القرآن الكريم عليهم من قصص الأنبياء والمرسلين، وأخبار الأمم السابقة، وبيان سنة الله فيهم.

٦. الإشارة إلى مصدر القرآن وأنه كلام الله وحده وأنه تنزيل من حكيم حميد، فإن القرآن - رغم نزوله مفرقاً - مترابط أقوى ترابط كأنه عقد تم نظمه بدقة وإحكام تفوق قوى البشر. قال تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[١٤]

ولو كان هذا القرآن من كلام البشر، وقيل في مناسبات متعددة ووقائع متتالية وأحداث متعاقبة، لوقع فيه التفكك والانفصام والتعارض وعدم الانسجام. قال تعالى: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا)[١٥]

٧. التحدي والإعجاز، ولما عجب المشركون من نزول القرآن منجماً، بيّن الله لهم الحق في ذلك، فإن تحديهم به مفرقاً مع عجزهم عن الإتيان بمثله أدخل في الإعجاز، وأبلغ في الحجة من أن ينزل جملة ويقال لهم: جيئوا بمثله.

أول ما نزل من القرآن الكريم وآخر ما نزل منه

أصح الآراء في هذا الموضوع، أن أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق هو صدر سورة العلق (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ) والدليل على ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغير هما عن عائشة - رضي الله عنها - قالت:

(أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يأتي حراء فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة - رضي الله عنها - فتزوده لمثلها حتى فاجأه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فيه فقال: اقرأ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: (اقرأ باسم ربك الذي خلق) إلى قوله (علم الإنسان ما لم يعلم) فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره)... الحديث.

التحنث: التعبد، وأصله ترك الحنث، أي الذنب، وغطني: أي ضمني ضماً شديداً، حتى كان لي غطيط، وهو صوت من حبست أنفاسه بما يشبه الخنق، والجهد: - بفتح الجيم - يطلق على المشقة وعلى الوسع والطاقة، وبضمها: يطلق على الوسع والطاقة لا غيره.

وأصح الآراء في آخر ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق قوله تعالى: (وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ)[١٦] لما رواه النسائي وغيره عن ابن عباس وسعيد بن جبير: آخر شيء نزل من القرآن: (وَاتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...) الآية. فقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم عاش بعد نزولها تسع ليال ثم مات.

وقيل: إن آخر ما نزل هو قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)[١٧]، لما أخرجه البخاري عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت آية الربا.

وقيل: إن آخر ما نزل قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ)[١٨] لما روى عن سعيد بن المسيب: «أنه بلغه أنّ أحدث القرآن عهداً بالعرش آية الدين».

ويمكن الجمع بين هذه الآراء الثلاثة لأنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها في سياق واحد في المصحف، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ما نزل والكل صحيح.

أسباب النزول

إن ترتيب القرآن في المصحف، ليس هو حسب ترتيبه في النزول، وإن آياته وسوره إنما نزلت مفرقة حسب الوقائع والأحوال والمناسبات. ولا يعني هذا أن يلتمس الباحث لكل آية سبباً، فإن القرآن الكريم نزل على قسمين: قسم نزل ابتداءً بعقائد الإيمان وواجبات الإسلام، وشرائع الله تعالى في حياة الفرد وحياة الجماعة، وقسم نزل عقب حادثة أو سؤال. ولذا يعرف سبب النزول بالآتي: هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال.

مثال الحادثة

ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس قال: (وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)[١٩]

قالوا: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد الصفا، فهتف:

---

[١٤] سورة هود آية ١

[١٥] سورة النساء: آية ٨٢.

[١٦] سورة البقرة آية ٢٨١

أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . . . .)[20]

مثال السؤال

أن يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء فيتنزل القرآن ببيان الحكم فيه، كالذي كان من خولة بنت ثعلبة عندما ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت، فذهبت تشتكي من ذلك، عن عائشة قالت: (تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سنّي وانقطع ولدي ظاهر مني، اللهم إني أشكو إليك، قالت: فما برحت حتى نزل جبريل بهؤلاء الآيات: (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا . . . . .) الآيات من سورة المجادلة وهو أوس بن الصامت. أخرجه ابن ماجة وابن أبي حاتم، والحاكم، وصححه، وابن مردويه، والبيهقي.

فائدة معرفة سبب النزول

إن معرفة سبب النزول تعين على فهم الآيات القرآنية فهماً صحيحاً، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب، كما تعين على تيسير الحفظ وتثبيت المعنى، فإن ربط الأحكام بالحوادث والأشخاص والأمكنة والأزمنة تقرر المعلومات وتركزها، كما تفيدنا وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم. وهناك من الآيات ما يصعب فهم المراد منه، ويقع الخطأ في تفسيره، إذا لم يعلم سبب نزوله، ومن ذلك قوله تعالى: (وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)[21]

ظاهر اللفظ أن للإنسان أن يصلي إلى أية جهة يشاء، ولا يجب استقبال الكعبة لا في سفر ولا حضر، لكن إذا علم أن الآية خاصة بنافلة السفر، أو فيمن صلى باجتهاد وبان خطؤه، علم أن الظاهر غير مراد، فعن ابن عمر رضي الله عنهم أن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجهت.

طريق معرفة سبب النزول

طريق معرفة سبب النزول، هو النقل الصحيح عن الصحابة الذين عاصروا النزول، ووقفوا على الوقائع والملابسات، ولا مجال للعقل فيه، إلا بالترجيح بين الروايات أو الجمع فيما

المكي والمدني

تعريف المكي والمدني

للعلماء في تعريف كل من المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة:

الأول: وهو أدقها وأشهرها، أن الفرق بينهما بالزمن، فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وتحدد الهجرة بوصول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، وعلى ذلك فما نزل بمكة عام الفتح، أو عام حجة الوداع، أو بسفر من الأسفار بعد الهجرة هو من قبيل المدني.

الثاني: أن الفرق بينهما بالمكان، فالمكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة، والمدني ما نزل بالمدينة. ويدخل في مكة ضواحيها، كمنى وعرفات والحديبية. ويدخل في المدينة ضواحيها كبدر وأحد.

ويضعف هذا الاصطلاح لزوم الواسطة، إذ يلزم عليه أن ما نزل بسفر من الأسفار بعيداً عن مكة وضواحيها، وبعيداً عن المدينة وضواحيها لا يطلق عليه مكي ولا مدني.

الثالث: أن الفرق بينهما بأسلوب القرآن، فالمكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة؛ وهذا الاصطلاح تلزمه الواسطة أيضاً بصورة أكثر، فالآيات العامة التي ليست خطاباً لأهل مكة وحدهم، ولا لأهل المدينة وحدهم لا تحصى.

مميزات وضوابط المكي والمدني

وضع العلماء مميزات وضوابط للسور المكية والمدنية تسهل على المشتغل بعلوم القرآن أن يفرق بينهما. أما عن المميزات وهي غالبية فقد قالوا:

يمتاز المكي:

١. بالعناية بإثبات الوحدانية والرسالة والبعث والجزاء.

٢. بسرد أنباء الرسل وما لحقهم من الأذى، وأنباء أممهم وما نزل بهم من العقاب تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، ووعيداً للمكذبين.

٣. بمعالجة عادات المشركين القبيحة كالقتل ووأد البنات واستباحة الأعراض وأكل مال اليتيم.

٤. وبالإيجاز في الخطاب وقصر الآيات وقصر السور.

---

[20] سورة المسد آيه ١

[21] سورة البقرة آيه ١١٥

ويمتاز المدني:

١. بتفصيل أحكام الشريعة العملية في العبادات والمعاملات والحدود.

٢. بكشف حال المنافقين وهتك أستارهم وإنذارهم بالعذاب الشديد.

٣. بمجادلة أهل الكتاب في عقائدهم الفاسدة وإرشادهم إلى سماحة الإسلام.

٤. بالدعوة إلى الجهاد وبيان أحكامه.

٥. بالإطناب وطول الآيات وطول السور.

ضوابط المكي هي:

١. كل سورة فيها سجدة فهي مكية،

٢. كل سورة فيها لفظ (كلا) فهي مكية

٣. كل سورة في أولها حروف التهجي فهي مكية سوى البقرة وآل عمران، فإنهما مدنيتان بالإجماع وفي سورة الرعد خلاف.

٤. كل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم السابقة وقصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة.

ضوابط المدني هي:

١. كل سورة فيها حدود وفرائض فهي مدنية.

٢. كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان أحكامه فهي مدنية.

٣. كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت.

تلك ضوابط المكي والمدني بالوصف، أما ضوابطه بالاسم فأحسن ما قيل فيها ما نقله السيوطي عن أبي الحسن الحصار في كتابه «الناسخ والمنسوخ» حيث قال: المدني باتفاق عشرون سورة، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة، وما عدا ذلك مكي باتفاق.

السور المدنية هي: البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم، النصر.

وأن السور المختلف فيها اثنتا عشرة سورة هي: الفاتحة، الرعد، الرحمن، الصف، التغابن، التطفيف، القدر، البينة، الزلزلة، الإخلاص، الفلق، الناس.

وأن ما سوى ذلك مكي، وهو اثنتان وثمانون سورة، فيكون مجموع سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة.

معرفة المكي والمدني

اعتمد العلماء في معرفة المكي والمدني على منهجين أساسيين: المنهج السماعي النقلي، والمنهج القياسي الاجتهادي.

ويقصد بالمنهج السماعي النقلي: ما يستند إلى الرواية الصحيحة عن الصحابة الذين عاصروا الوحي، وشاهدوا نزوله، أو عن التابعين الذين تلقوا عن الصحابة وسمعوا منهم كيفية النزول ومواقعه وأحداثه.

أما المنهج القياسي الاجتهادي: فهو الذي يستند إلى خصائص المكي وخصائص المدني.

والنقل والعقل هما طريق المعرفة السليمة والتحقيق العلمي.

فوائد العلم بالمكي والمدني

للعلم بالمكي والمدني فوائد أهمها: الاستعانة به في تفسير القرآن الكريم، والاستفادة منه في أسلوب الدعوة إلى الله تعالى، والوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية.

جمع القرآن الكريم

جمع القرآن كلمة قد يراد بها جمعه في الصدور وحفظه واستظهاره، فعطف الكتابة عليه عطف مغاير، وقد يراد به جمعه في الصحف وكتابته وضم بعضه إلى بعض في سطور، فعطف الكتابة عليه عطف تفسير.

وسأعرض - بإيجاز - لحفظ القرآن الكريم وكتابته في ثلاثة عصور هي: عصر النبي صلى الله عليه وسلم، وعصر أبي بكر، وعصر عثمان رضي الله عنهم.

جمعه في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً في قوم أميين، وكانت معجزته عقلية غير حسية وهي القرآن الكريم، فلم يكن بدأ من اعتمادها أولاً وبالذات على الذاكرة والحفظ، لذلك حرص الرسول صلى الله عليه وسلم على تلقيه أولاً بأول من جبريل بل حرص على أن يتعجل أخذه منه مخافة أن يتفلت منه شيء حتى طمأنه الله تعالى، وضمن له جمعه في صدره، حيث قال تعالى: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ، إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ، فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)[٢٢]

ولم يكن ينفصم الوحي عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى يسارع إلى أصحابه، يقرأ عليهم ما أنزل، ويبلغهم ما أوحى إليه، ثم يتدارس معهم في مجالسهم ويتلو معهم ما سبق نزوله من القرآن. وقد ثبت أن حفظة القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا جمعاً غفيراً، فإن الاعتماد على الحفظ في النقل من خصائص هذه الأمة.

قال ابن الجزري شيخ القرّاء في عصره: (إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على خط المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة).

الجلود، ثم يتركون ما يكتبون في بيته صلى الله عليه وسلم، وكلما نزل عليه شيء دعا بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذا في السورة التي يذكر فيها كذا. وكان جبريل يعارض رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقرآن كل سنة في ليالي رمضان. وكان الصحابة يعرضون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لديهم من القرآن حفظاً وكتابة كذلك.

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم محفوظ في الصدور، ومكتوب في الصحف على نحو ما سبق، مفرق الآيات والسور، أو مرتب الآيات فقط، وكل سورة في صحيفة على حدة، بالأحرف السبعة الواردة.

لم يجمع القرآن في مصحف عام لعدة أسباب من أهمها:

١. لأن الوحي كان يتنزل تباعاً فيحفظه القراء ويكتبه الكتبة، فلم تدع الحاجة إلى تدوينه في مصحف واحد، وكان صلى الله عليه وسلم يترقب نزول الوحي من حين لآخر.

٢. وقد يكون منه الناسخ لشيء نزل من قبل، ولو جمع القرآن كله بين دفتي مصحف واحد لأدى هذا إلى التغيير كلما نزل شيء من الوحي.

دواعي كتابة القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه

ادعى النبوة رجل يقال له مسيلمة الكذاب، وتبعه قومه، وقوي أمره بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه أبو بكر الصديق خالد بن الوليد في جمع من الصحابة، فحاربوه أشد محاربة إلى أن خذله الله وقتله، وفي غضون ذلك قتل عدد كبير من الصحابة، قيل: سبعمائة، وقيل: أكثر، وفيهم نحو سبعين من القراء الذين مهروا في القرآن وحفظه، وتصدروا لتعليمه، وعلى رأسهم سالم مولى أبي حذيفة، أحد الأربعة الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأخذ القرآن عنهم في قوله: (خذوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب) متفق عليه

ففزع عمر بن الخطاب لمقتل سالم وأصحابه، وخشي أن يذهب القرآن، وصادف أن سأل عمر عن آية من كتاب الله، فقيل له: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، قال: إنا لله، وأسرع إلى أبي بكر يقول له: إن القتل قد استحر (أي اشتد) يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء بالمواطن، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن.

واستشعر أبو بكر أن هذا الأمر بدعة، فقال لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عمر: هذا والله لما اقتنع أبو بكر وعزم على التنفيذ قال له عمر: أما إذا عزمت على هذا فأرسل إلى زيد بن ثابت فادعه يجمعه معنا. قال زيد بن ثابت: فأرسلا إليّ، فأتيتهما، فقال لي أبو بكر:

(إنك شاب عاقل لا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي، وإن هذا دعاني إلى أمر، فإن تك معه تبعتكما، وإن توافقني لا أفعل، فقال عمر: إنا نريد أن نجمع القرآن في شيء فاجمعه معنا، فنفر زيد، فقال أبو بكر لعمر: كلمه. وما عليكما لو فعلتما، فكلمه فأقنعه، واتفقوا على العمل. يقول زيد: فوالله لو كانوا كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليّ مما أمرني به من جمع القرآن. ووكلت مهمة جمع القرآن لزيد وعمر رضي الله عنهم، ورسم لهما أبو بكر خطة العمل، خطة دقيقة محكمة، تضمن لكتاب الله قدسيته وسلامته من التغيير والتبديل. قال لهما:

١. لا تعتمدا على حفظكما ولا على كتابتكما في جمع القرآن وأخذه من المسلمين، فأنتما قاضيان والقاضي لا يحكم بناء على علمه.

٢. ولا تقبلا شيئاً من مجرد الحفظ، بل من المكتوب الموافق للمحفوظ.

٣. ولا تقبلا من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان على أن ذلك المكتوب هو مما كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لهما: اقعدا على باب المسجد، فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه. فقام عمر في الناس فقال: من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأت به. وقد قاما بتنفيذ هذه المهمة بدقة وحسب التوجيهات المذكورة أعلاه.

وتمت كتابة القرآن، مرتب الآيات والسور، مقتصراً على ما لم تنسخ تلاوته، مشتملاً على الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن. ثم ضمت الصحف وربطت بخيط، وحفظت عند أبي بكر حتى توفاه الله، فانتقلت إلى عمر طيلة حياته، ثم عند ابنته حفصة لأنها كانت وصية عمر، فاستمر ما كان عنده عندها.

والجدير بالذكر أن أبا بكر فعل ذلك بطريق الاجتهاد السائغ الناشئ عن النصح لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم، على أن القرآن كان مأذوناً بكتابته فعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تكتبوا عني شيئا غير القرآن فمن كتب عني شيئا غير القرآن فليمحه)[٢٣]، وكل ما فعله أبو بكر أنه جمع المتفرق وضم بعضه إلى بعض. وكان هذا العمل مفخرة لأبي بكر.

[٢٣] مسند الإمام أحمد

جمع القرآن في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه:

الدوافع والدواعي إليه:

في سنة خمس وعشرين من الهجرة، وبعد أن ولي عثمان بن عفان الخلافة، اتسعت الفتوحات الإسلامية، وتفرّق القرّاء في الأمصار، وأخذ أهل كل مصر عمن وصل إليهم من القراء قراءته، ووجوه القراءة التي يقرأون بها مختلفة باختلاف الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن الكريم، فكانوا إذا ضمهم مجلس أو موطن من مواطن الغزو عجب البعض من وجوه هذا الاختلاف، وبلغ عثمان أن المعلم بالمدينة يعلم قراءة الرجل، والمعلم الآخر يعلم قراءة رجل آخر، وجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى وصل الخلاف إلى المعلمين، حتى كفر بعضهم بعضاً، عندها أحس عثمان بالخطر على القرآن، فخطب في الناس، فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً!

وفي هذه الأثناء تجمع جيش من العراق، وفيه حذيفة بن اليمان، وجيش من الشام، وتوجهوا لغزو أرمينية وأذربيجان. وفي مسجد من المساجد جلس الجنود يتدارسون القرآن، فسمع حذيفة ابن اليمان رجلاً يقرأ وآخرون يخطئونه فيما يقرأ، يقول أهل الكوفة: قراءة ابن مسعود، ويقول أهل البصرة: قراءة أبي موسى، ويقول أهل الشام: قراءة أبيّ بن كعب، هذا يقول: قراءتي خير من قراءتك، وذاك يقول: بل قراءتي هي الصواب وقراءتك باطلة، وتنازعوا واختلفوا حتى كادت الفتنة تقع بينهم، فغضب حذيفة، واحمرت عيناه، ثم قام، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين، وما انتهت المعارك بالنصر، وعادت الجيوش، حتى توجه حذيفة إلى المدينة ولم يدخل بيته حتى دخل على عثمان، فقال: يا أمير المؤمنين، أدرك الناس! قال: وما ذاك؟ قال: غزوت أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبيّ بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً، فتعاظم ذلك في نفس عثمان، واستشار الصحابة، فاستقر رأيهم وأجمعوا على نسخ الصحف الأولى التي كانت عند أبي بكر، وجمع الناس عليها بالقراءات الثابتة على حرف واحد، فأرسل عثمان إلى حفصة يطلب منها الصحف، فأرسلت إليه بتلك الصحف، ثم أرسل إلى زيد بن ثابت الأنصاري، وإلى عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام القرشيين، فأمرهم بنسخها في المصاحف، وأن يكتب ما اختلفوا فيه مع زيد الأنصاري بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم، والمقصود أن معظم القرآن نزل بلغة قريش.

وهذا يدل على أن ما صنعه عثمان كان بإجماع الصحابة، وهكذا كتبت مصاحف على حرف واحد من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ليجتمع الناس على قراءة واحدة، وقام عثمان برد الصحف إلى حفصة، وبعث إلى كل أفق بمصحف من المصاحف، واحتبس بالمدينة واحداً هو مصحفه الذي يسمى (الإمام)، وتسميته بذلك لما جاء في بعض الروايات من قول عثمان: (اجتمعوا يا أصحاب محمد فاكتبوا للناس إماماً)، وأمر أن يحرق ما عدا ذلك من صحيفة أو مصحف، وقد تلقت الأمة الإسلامية ذلك بالطاعة والاستحسان، وتركت القراءة بالأحرف الستة الأخرى، على اعتبار أن القراءة بالأحرف السبعة ليست واجبة وإنما هي على التخيير والرخصة، كما هو معلوم من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر.

ومما يجب التنبيه إليه أن الأحرف السبعة غير القراءات السبعة التي مازال المسلمون يقرأون بها كما سيأتي بيانه.

دستور العمل الذي حدده عثمان بن عفان والصحابة في جمع القرآن.

من أبرز مبادئه:

١. عدم كتابة شيء إلا بعد التحقق من أنه قرآن.

٢. عدم كتابة شيء إلا بعد العلم بأنه استقر في العرضة الأخيرة.

٣. عدم كتابة شيء إلا بعد التأكد من أنه لم ينسخ.

٤. عدم كتابة شيء إلا بعد عرضه على جمع من الصحابة.

٥. معظم القرآن بلغة قريش، لأنه نزل بلغتهم أي معظمه.

٦. عدم كتابة القراءات غير المتواترة.

وبهذا العمل العظيم قطع عثمان دابر الفتنة، وحسم مادة الخلاف، وحصّن القرآن الكريم من أن يتطرق إليه شيء من الزيادة والتحريف على مر العصور وتعاقب الأزمان. تحقيقاً لقوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)[٢٤]

عدد المصاحف التي نسختها اللجنة

سارت اللجنة في عملها بأمانة وإخلاص وهمة عالية، حيث قامت بنسخ خمسة مصاحف أو ستة أو سبعة ثم عرضت هذه المصاحف على مهرة القرآن، ولما اطمأن عثمان إليها قام بتوزيعها على الأمصار، فمن قال: إنها خمسة - وهو المشهور - عدها (المصحف الكوفي، والمصحف البصري، والمصحف الشامي، والمصحف المدني العام، والمصحف الخاص الذي حبسه عثمان لنفسه، وهو المسمى بالمصحف الإمام). ومن قال: إنها ستة زاد المصحف المكي، ومن قال: إنها سبعة زاد على الستة مصحف البحرين ومصحف اليمن، وجعل بالمدينة مصحفاً واحداً. وقيل غير ذلك. وهذه المصاحف التي كتبت في عهد عثمان يوجد منها على الأقل مصحف واحد اليوم، وهو الموجود في طشقند.

والقراءات اختلاف في اللهجات، وكيفية النطق، وطرق الأداء فقط، من إدغام وإظهار، وتفخيم وترقيق، وإمالة وإشباع، ومد وقصر، وتشديد وتخفيف وتليين وغير ذلك، نزل بها جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم فأقرأها الرسول صحابته ومن ثم أخذوا يقرؤون الناس عليها.

وقد وضع العلماء ضوابط للقراءة الصحيحة تتمثل بالآتي:

١. كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية ولو تقديراً

٢. ووافقت أحد أوجه اللغة العربية

٣. وصح إسنادها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها سواء كانت واردة عن القراء السبعة، أو غيرهم. وكل قراءة اختل منها ركن من هذه الأركان الثلاثة، فهي شاذة ولو كانت لأحد القراء السبعة ولا تصح القراءة بها.

القرّاء السبعة الذين اشتهروا في الآفاق هم: (أبو عمرو، ونافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عمرو، وابن كثير).

فوائد الاختلاف في القراءات الصحيحة.

لاختلاف القراءات الصحيحة فوائد منها:

١. التيسير والتسهيل على الأمة، فإن الأمة العربية كانت قبائل وشعوباً مختلفة في اللهجات وطريقة الأداء، فلو أمرت كلها بقراءة واحدة لشق ذلك على غير الناطقين بتلك اللهجة.

٢. الدلالة على صيانة كتاب الله وحفظه من التبديل والتحريف مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة

٣. إعجاز القرآن في إيجازه، حيث تدل كل قراءة على حكم شرعي دون تكرر اللفظ كقراءة (وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ)[٢٥] بالنصب والخفض في (أرجلكم) ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل: (فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ) وقراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح: (وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ) فنستفيد الحكمين من غير تطويل، وهذا من معاني الإعجاز في الإيجاز بالقرآن.

الحديث يدل على هذه التوسعة، أي أنزل القرآن موسعاً فيه على القارئ، بحيث يجوز له أن يقرأه على أي حرف من الأحرف السبعة.

وهذا لا يعني أن كل كلمة من كلمات القرآن، تقرأ على سبعة أوجه وأحرف، ولو كان هذا مراداً لقال: (أنزل هذا القرآن سبعة أحرف) إنما يعني أن وجوه الاختلاف لا تتجاوز سبعة أوجه. والعدد سبعة في الحديث مراد لذاته، فهو حصر حقيقي ولم يرد به التكثير، وهذا يعني أن وجوه الاختلاف والتغاير لا تزيد على سبعة أوجه، مهما تعددت وتنوعت القراءات في الكلمة الواحدة. قال ابن تيمية -رحمه الله-: لا نزاع بين العلماء المعتبرين، أن الأحرف السبعة التي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن أنزل عليها ليست قراءات القراء السبعة المشهورة.

الناسخ والمنسوخ

أهمية العلم به

العلم بالنسخ ضروري لفهم القرآن الكريم، ومعرفة الناسخ والمنسوخ في القرآن أمر لا بد منه لحسن تفسيره ومعرفة أحكامه، وعدم الخطأ فيها، فقد يتبنى البعض حكماً استخرجه من آية، وهو لا يعلم أن هذا الحكم منسوخ. قال:ردّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على رجل يتحدث عن تفسير القرآن في المسجد، فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال:نعم قال: أنت أبو من؟ قال: أنا أبو عبد الله قال: لا، أنت أبو (اعرفوني) لقد هلكت وأهلكت، لا تقص في مسجدنا.

معنى النسخ في اللغة: الرفع والإزالة والتبديل. ومعناه في الاصطلاح: المنسوخ، رفع حكم شرعي بدليل شرعي متأخر عنه، أي أن الله يرفع الحكم الشرعي، الذي تقرره آية من كتاب الله، ويزيله ويلغيه، وقد يكون هذا بعوَض وبَدل، وقد لا يكون له عوض وبدل، ويحل محله حكماً شرعياً آخر. والحكم المرفوع يسمى المنسوخ، والحكم البديل يسمى الناسخ، والذي يرفع الأحكام وينسخها هو الله، والمراد بقولهم (رفع حكم شرعي) الحكم المنسوخ، والمراد بقولهم (بدليل شرعي) الحكم الناسخ.

الدليل على وقوع النسخ في القرآن

من الآيات التي تشير إلى وقوع النسخ في القرآن قوله تعالى: (مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[٢٦] وهذه الآية صريحة في النسخ، تقرر

[٢٥] سورة المائدة آيه ٦

[٢٦] سورة البقرة آيه ١٠٦

أن الله إذا نسخ آية ورفع حكمها، أو نسأها وأخرها، وأبقى حكمها، فإنه يأتي بحكم خير من الحكم المنسوخ، ويكون خيراً للعباد في التعبد، سواء كان أخف من المنسوخ، أو أثقل منه، أو مساوياً له، أو يأتي الله بحكم مثل الحكم الأول.

ونلاحظ أن الأفعال الثلاثة في الآية مسندة إلى الله: (ننسخ، ننسها، نأت) أي أن الله هو الذي ينسخ ما شاء من أحكام آياته، ويبقي ما شاء منها، وإذا نسخ بعضها، فهو الذي يأتي بالدليل الناسخ.

شروط النسخ

وضع العلماء شروطاً لا بد منها لتحقيق النسخ في القرآن من أهمها:

١. أن يكون المنسوخ حكماً شرعياً ثابتاً بالقرآن أو بالسنة.
٢. أن يكون الناسخ دليلاً شرعياً، ثابتاً بالقرآن الكريم.
٣. أن يكون الناسخ متراخياً عن المنسوخ.
٤. أن يكون بين النصين القرآنيين - المنسوخ والناسخ - تعارض حقيقي بحيث لا يمكن الجمع بينهما، في أي صورة من صور الجمع والتوفيق، كالعموم والخصوص.
٥. أن يكون المنسوخ مطلقاً غير متعلق بوقت معلوم، فإذا كان في الآية ما يدل على توقيتها، لا يعد انتهاء وقتها نسخاً. فقوله تعالى: (فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ)[٢٧] ليس منسوخاً بآيات القتال، لأنه محدد بوقت معين، فالعفو والصفح مستمران إلى أن يأتي الله بأمره، وهو الأمر بالقتال، وعندما أمر الله بالقتال انتهى الأمر بالعفو والصفح.
٦. أن لا يكون المنسوخ خبراً، لأنه لا نسخ في الأخبار.

تنبيه

رفض الإمام السيوطي في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» مبالغة البعض في القول بالنسخ والإكثار منه، وعدّ معظم الآيات التي قيل بنسخها أنها محكمة، ولم يثبت عنده النسخ إلا في عشرين آية فقط، على خلاف في نسخ بعضها، ولا يصح دعوى النسخ في غيرها.

وقد يكون المنسوخ في القرآن، وقد يكون في السنة، وقد يكون الناسخ في القرآن، وقد يكون في السنة. والنسخ الوحيد الذي ثبت في القرآن، هو نسخ الحكم، أي أن الله ينسخ أحكام بعض الآيات بآيات أخرى لاحقة، ويبقي ألفاظ الآيات المنسوخة أحكامها في القرآن، يتلوها المؤمنون، ويتدبرونها، ويتذوقون معانيها.

الحكمة من النسخ

الله عليم حكيم، والحكمة تبدو في كل أفعاله وأحكامه سبحانه وتعالى، والحكمة تعني الصحة والصواب والمصلحة. فالله لا يشرع تشريعاً إلا بمقتضى حكمته، وإلا لمصلحة الأمة، ولهذا كان النسخ في أحكام الشريعة مظهراً من مظاهر حكمة الله، وكان لتحقيق المصلحة للعباد، وتقديم الخير لهم. ومن حكمة النسخ التيسير على المسلمين والمؤمنين ورفع الحرج عنهم، وابتلائهم واختبارهم لإظهار فضلهم، وتربية الأمة بالتدرج في التشريع، كالتدرج في تحريم الخمر.

المحكم والمتشابه

ورد في القرآن الكريم ثلاث آيات:

أولها تدل على أن القرآن محكم كله، هي قوله تعالى: (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ)[٢٨]، والقرآن كله بهذا المعنى محكم، أي نظمت آياته نظماً لا يطرأ عليه شيء يخل بفصاحته وبلاغته، وذلك هو الإحكام من جهة اللفظ والصياغة، وهو بعد ذلك محكم كله من جهة المعاني لا يلحقه تناقض، ولا يوصف خبر منه بكذب، بل كل تشريع فيه منطوٍ على مصلحة وحكمة.

ثانيها: تدل على أن القرآن متشابه كله، هي قوله تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ)[٢٩]، فالقرآن كله متشابه، في كونه أحسن الحديث، وفي كونه مثاني، مكرر المواعظ والوعد والوعيد، يزداد بتكرار تلاوته حلاوة.

ثالثها: تدل على أن القرآن بعضه محكم، وبعضه متشابه، هي قوله تعالى: (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ)[٣٠] وهذه الآية تدل على أن بعض القرآن محكم، وبعضه متشابه، فهي موضوع البحث، وهي التي خاض فيها العلماء. من الواضح أن المحكم والمتشابه في هذه الآية متقابلان، وفي المقصود من كل منهما اختلف العلماء، أذكر بعضاً منها:

١. **المحكم**: ما عرف المراد منه، ولو بالتأويل **والمتشابه**: ما استأثر الله تعالى بعلمه، كقيام الساعة، وخروج الدجال، والحروف المقطعة في أوائل السور. وهذا قول جمهور أهل السنة، فإنهم يمسكون عن الكلام في هذه الأمور، ويقفون عند الإيمان بأنها من عند الله، والوقوف عند اللفظ، ثم تسليم المعنى، وتفويضه لله، فيقولون: الله أعلم بمراده.

---

[٢٧] سورة البقرة آية ١٠٩

التأويل، ويقفون عند قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله) من الآية الكريمة. (هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُوا الْأَلْبَابِ)[31] ويبتدئون بقوله: (والراسخون في العلم يقولون آمنا به) الخ جملة مستأنفة.

أما **الفريق الثاني** - وعلى رأسه مجاهد، وابن عباس، وأبو الحسن الأشعري، والمعتزلة، واختاره النووي - فإنهم يفتحون باب التأويل، ويرون أنه يمكن الإطلاع على علمه، ويعطفون (والراسخون في العلم) على لفظ الجلالة، ويجعلون جملة (يقولون) حالا.

ولكل من الفريقين أدلته التي يعضد بها رأيه. وفي هذا الموضوع يعجبني قول الراغب:

إن جميع المتشابه على ثلاثة أضرب:

١. ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه، كوقت الساعة.

٢. وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته، كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغلقة.

٣. وضرب متردد بين الأمرين، يختص بمعرفته بعض الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم لابن عباس: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل). ومن هذا التقسيم نعلم أن الوقوف على قوله (وما يعلم تأويله إلا الله) ووصله بقوله (والراسخون في العلم) جائزان، وأن لكل منهما وجهاً.

التفسير والمفسرون

التفسير في اللغة: التبيين والكشف والتوضيح.

التفسير في الاصطلاح: علم يبحث فيه عن أحوال القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية.

الفرق بين التفسير والتأويل:

التفسير والتأويل مترادفان، في أشهر المعاني اللغوية. وفي الاصطلاح:

كَثِيرًا)[32] قال: الحكمة: المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخة، ومحكمه ومتشابهة، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله.

قال الأصبهاني: أشرف صناعة يتعاطاها الإنسان تفسير القرآن.

وصناعة التفسير قد حازت الشرف من جهات ثلاثة، من جهة الموضوع فلأن موضوعه كلام الله تعالى، الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، ومن جهة غرضه فلأن الغرض منه هو الاعتصام بالعروة الوثقى، والوصول إلى السعادة الحقيقية، التي لا تفنى، ومن جهة شدة الحاجة إليه، فلأن كل كمال ديني أو دنيوي، عاجلي أو آجلي، مفتقر إلى العلوم الشرعية، والمعارف الدينية، وهي متوقفة على العلم بكتاب الله.

ولسنا نجاوز الحقيقة إذا قلنا: إن من مهمة الرسالة المحمدية في الدرجة الأولى تفسير القرآن وبيانه للأمة مصداقاً لقوله تعالى (وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ).[33]

تفسير النبي صلى الله عليه وسلم

ذهب ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معاني القرآن، استناداً إلى الآية السابقة، إذ لو لم يبين كل معانيه، كان مقصراً في البيان الذي كلف به. وجمهور العلماء يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم فسّر بعض الآيات دون البعض، فمن القرآن ما استأثر الله بعلمه، ومنه ما يتبادر فهمه، ولا يعذر أحد بجهله، فليس الرسول في حاجة إلى تفسيره. لكن السنة النبوية بينت كثيراً من المجمل، كتحديدها لمواقيت الصلاة، وعدد ركعاتها، وكيفيتها، وتحديدها لمقادير الزكاة وأنواعها وأوقاتها، وتبيينها مناسك الحج، إلى غير ذلك من الفروع. ووضحت كثيراً من المشكل، كتفسيره صلى الله عليه وسلم الخيط الأبيض والخيط الأسود من الفجر، وخصصت بعض العام، كتخصيصه صلى الله عليه وسلم الظلم بالشرك، في قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ)[34] وقيدت بعض المطلق، كتقييدها اليد باليمين، من قوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا)[35] وقد أفردت بعض كتب الحديث باباً للتفسير جمعت تحته كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[31] سورة آل عمران آيه ٧
[32] سورة البقرة آيه ٢٦٩
[33] سورة النحل آيه ٤٤
[34] سورة الأنعام آيه ٨٢
[35] سورة المائدة آيه ٣٨

تفسير الصحابة رضي الله عنهم

لا شك أن القرآن الكريم كان هدف الصحابة الأول، يحفظونه ويفهمونه، ويتلقفون ما يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشأنه، ويهتدون بهديه وينشرون نوره. ولا شك أنهم كانوا أعلم الناس بالظروف والملابسات التي أحاطت بنزول القرآن، والتي تعين على فهم آياته ووقائعه. ولا شك أنهم كانوا أعلم من غيرهم بأوضاع لغة العرب وأسرارها. لكنهم رضي الله عنهم لم يكونوا في درجة واحدة من قوة الفهم وسعة الإدراك والقدرة على التعبير فاشتهر بالتفسير منهم عدد قليل -ذكرهم السيوطي في الإتقان- وهم الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. وأكثر هؤلاء العشرة لم يرو عنهم في التفسير إلا الشيء القليل، إما لتقدم وفاتهم، أو لانشغالهم بمهامهم. والمكثرون في التفسير أربعة: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وأبي بن كعب.

القيمة العلمية لتفسير الصحابة

المقصود بهذا البحث ما صح إسناده إلى الصحابة من التفسير، أما الذي تضاربت فيه الروايات، وضعفت فيه الأسانيد، وطعن في طريق وصوله، فلا خلاف في أنه لا يعتمد عليه ولا يؤخذ به. ثم ما صح عن الصحابة في التفسير، إما أن يكون في أسباب النزول، وفي أمور لا مجال للرأي والاجتهاد فيها كأمور الآخرة، وإما أن يكون للرأي فيه مجال.

فالأول له حكم الحديث المرفوع، وعلى المفسر أن يأخذ به، ولا يحيد عنه.

وأما الثاني: أي ما كان للرأي فيه مجال فهو من قبيل الوقوف على الصحابي، هذا لا يجب الأخذ به، لأن الصحابي في هذه الحالة مجتهد، والمجتهد يخطئ ويصيب. لكن إذا أجمع الصحابة على شيء فيجب الأخذ به.

نعم، تطمئن نفس المفسر إلى ما روي عن الصحابة من هذا القبيل أكثر مما يسند إلى غيرهم، لظن سماعهم له من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم أعلم الناس بكتاب الله، فهم أهل اللسان، وهم الذين حصلت لهم بركة الصحبة وفضلها، وهم الذين شاهدوا قرائن نزول الآيات وأحوالها. فإذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة.

تفسير التابعين رضي الله عنهم

تلقى التابعون دروس التفسير من أعلام الصحابة واعتمدوا على أقوالهم في فهم القرآن الكريم، كما اعتمدوا على قدرتهم

القيمة العلمية لتفسير التابعين

من المعلوم أن عدالة التابعين غير منصوص عليها، كما نص على عدالة الصحابة، فتفسيرهم لا يجب الأخذ به، وإن كان مأخوذاً عن الصحابة. أما إذا أجمعوا على أمر فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

تطور التفسير في عصور التدوين

يمكن تقسيم المراحل التي مر بها التفسير في هذه الأزمنة المتطاولة إلى أربع مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة تدوين التفسير على أنه باب من الحديث، وقد ابتدأت هذه المرحلة بابتداء التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تدويناً مرتباً على أبواب.

المرحلة الثانية: مرحلة استقلال التفسير عن الحديث، ووضع تفسير لآيات القرآن مرتباً على ترتيب المصحف، مع المحافظة على الإسناد.

المرحلة الثالثة: مرحلة حذف الأسانيد، وكثرة الدخيل والعليل، وقد ألفت كتب كثيرة في التفسير بالمأثور، لكنهم اختصروا الأسانيد، بل نقلوا أقوال السلف من غير أن ينسبوها إلى قائليها، فكثر الوضع في التفسير، وانتشرت الإسرائيليات انتشاراً أضاعت الثقة فيه.

المرحلة الرابعة: مرحلة التفسير بالرأي، وقد انتشر هذا النوع من التفسير بانتشار العلوم والمعارف، واختلاف الآراء، وكثرة المذاهب.

فقد دونت علوم اللغة، ودون النحو والصرف، واتسع نطاق المذاهب والآراء الفقهية، والكلامية، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة، فتأثر التفسير بكل ذلك. بل خضع التفسير لاستعداد المفسر، ونوع نبوغه العلمي، واتجاهه المذهبي حتى كاد كل تفسير أن يقتصر على الفن الذي برع فيه مؤلفه.

فالنحوي مثلا- كالزجاج والواحدي وأبي حيان - يبذل قصارى جهده في الإعراب ويستطرد إلى فروع النحو وخلافياته حتى يطغى فنه على التفسير.

وصاحب العلوم العقلية - كالفخر الرازي - جعل عنايته في تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، وشبههم والرد عليهم، والانسياق الكثير في الأمور الكونية، حتى قيل عن كتابه -مفاتيح الغيب - فيه كل شيء إلا التفسير.

والفقيه - كالقرطبي - يلتمس من الآية أدنى مناسبة ليدخل في الفروع

فابن القيم أفرد كتاباً في أقسام القرآن، سماه التبيان في أقسام القرآن.

وأبو عبيدة أفرد كتاباً في مجاز القرآن، والراغب الأصفهاني ألف كتاباً في مفردات القرآن، وأبو جعفر النحاس ألف كتاباً في الناسخ والمنسوخ من القرآن. وكثير غير هؤلاء عنوا بناحية خاصة من نواحي القرآن الكثيرة النافعة فبرزوا وأسهبوا، وأصبحت بحوثهم مراجع في موضوعاتهم.

أنواع التفسير:

من خلال ما تقدم يتبين لنا أن التفسير نوعان: هما التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي.

التفسير بالمأثور: هو الذي يعتمد على صحيح المنقول بالمراتب الآتية: تفسير القرآن بالقرآن، أو بالسنة لأنها جاءت مبينة لكتاب الله، أو بما روي عن الصحابة لأنهم أعلم الناس بكتاب الله، أو بما قاله كبار التابعين، لأنهم تلقوا ذلك غالباً عن الصحابة.

وحكمه: يجب إتباعه والأخذ به لأنه طريق المعرفة الصحيحة شريطة التثبت من الآثار والروايات الواردة في بيان معنى الآية، وعدم الاجتهاد في بيان معنى من غير أصل، والتوقف عما لا طائل تحته ولا فائدة في معرفته ما لم يرد فيه نقل صحيح كالإسرائيليات، وهي الأخبار والروايات الواردة عن أهل الكتاب. ومن أشهر الكتب المؤلفة فيه جامع البيان في تفسير القرآن لمحمد بن جرير الطبري.

التفسير بالرأي: هو الذي يعتمد فيه المفسر في بيان معنى الآية على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد عن الهوى، وحكمه: جواز الأخذ به شريطة صحة الاعتقاد وعدم تجاوز التفسير بالمأثور، والإلمام بأصول العلوم المتصلة بالقرآن، واللغة العربية وفروعها، ودقة الفهم. علماً أن تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد من غير أصل حرام ولا يجوز الأخذ به. لقوله تعالى: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ)[36]، ولقوله صلى الله عليه وسلم: (من قال في القرآن برأيه - أو بما لا يعلم - فليتبوأ مقعده من النار)[37]. والكتب العلمية كثيرة منها: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي.

التفسير العلمي

كما جاء القرآن الكريم دعوة صريحة للإيمان الصحيح، ومكارم الأخلاق، جاء دعوة صريحة للعلم والنظر والتفكر، حكمه: اختلف العلماء في موضوع التفسير العلمي بين مؤيد ومعارض، والذي أراه: أن التفسير العلمي ضرورة تتطلبه ظروف العصر الحاضر، شريطة أن يتهيأ لذلك ذوو الاختصاص والخبرة، وشريطة أن لا يكون التفسير حسب نظريات وهمية متداعية، أو نظريات متغيرة، بل لابد أن يكون حسب الحقائق العلمية الثابتة. الخ، آخذين بعين الاعتبار أن القرآن الكريم كتاب هداية وإعجاز وليس كتاب طب أو هندسة أو كيمياء..... الخ.

برمجة القرآن الكريم وفهرسته من خلال الحاسب الآلي

إن نظام البرمجة بصورة عامة يعني إدخال المعلومات المراد برمجتها في الحاسب الآلي (الكمبيوتر)، وكان في البداية مقتصراً على الدراسات والبرامج الإحصائية والمالية والاجتماعية، ثم انتقل هذا البرنامج إلى الدراسات القرآنية، وهذا الأمر يعد خطوة هامة ورائدة تفتح آفاقاً علمية وتعليمية واسعة، تخدم في جملتها القرآن الكريم، وتعد بحق وسيلة جديدة لحفظ كتاب الله، ونشره وتعليمه، والدعوة إليه. وهذا دليل واضح على أن الإسلام لديه القدرة على استيعاب منجزات الحضارة الحديثة، بل هو الذي يوجهها ويقيمها على أسس سليمة ثابتة من العقيدة والشريعة.

ومعنى برمجة القرآن ها هنا: تسخير الحاسب الآلي لخدمة القرآن الكريم بدءاً بمعرفة ألفاظه وآياته وموضوعاته، وانتهاءً بالإسهام في نشر عقيدته وتشريعاته. وحكم هذا العمل جائز ومندوب شرعاً لما يحققه من خطوات عملية في مجال المحافظة على القرآن الكريم.

ترجمة القرآن الكريم

معنى الترجمة: هي نقل الكلام من لغة إلى أخرى، والترجمان: بضم التاء وفتحها: المفسر الذي ينقل الكلام من لغة إلى أخرى. وتطلق الترجمة على تفسير الكلام بلغته التي جاء بها. وعلى هذا فإن ترجمة القرآن تعني تفسيره وبيان معانيه ومراميه ومقاصده بلغة غير لغته.

أقسام الترجمة: هناك نوعان من الترجمة لا ثالث لهما وهما:

الترجمة الحرفية: وتراعى فيها المحاكاة الأصلية في النظم والترتيب، فالمترجم ترجمة حرفية يقصد إلى كل كلمة في الأصل، ففيهما ثم يستبدل بها كلمة تساويها في اللغة الأخرى، مع وضعها موضعها وإحلالها محلها، وإن أدّى ذلك إلى خفاء المعنى المراد من الأصل.

---

[36] سورة الإسراء، آية ٣٦

[37] أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، وحسنه الترمذي

[38] سورة العلق ١-٥

الترجمة التفسيرية: وهو ترجمة معاني القرآن، أو ترجمة تفسير ألفاظه بعد فهمها وإدراك أبعادها ومقاصدها والمراد منها.

خلاصة القول: إن الترجمة الحرفية غير ممكنة بل مستحيلة في القرآن الكريم، فمن المتعذر أن يبدل حرف أو كلمة بما يساويه من اللغة الأخرى، إذ أنه يخرج بالقرآن عن كونه قرآنا، فضلاً عن أنه يذهب بإعجازه وفصاحته، ورصانة نظمه، هذا بالإضافة إلى أنه يذهب معانيه ومدلولا ته الأصلية والتبعية.

أما الترجمة التفسيرية فهي ممكنة وجائزة بل قد تكون واجبة إذا كانت هي السبيل الوحيد لتبليغ القرآن الكريم، لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن الترجمة التفسيرية لا تعدو كونها ترجمة لمعاني القرآن أو ترجمة تفسيره، فهي لا تعد قرآناً بحال، وليست معجزة، ولا يتعبد بتلاوتها ولا يقرأ بها في الصلاة.

الأسئلة:

١. نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه -رضي الله عنهم - ابتداءً عن كتابة أي شيء غير القرآن الكريم. ماذا تفهم من ذلك مع بيان وجه الحكمة في هذا النهي؟
٢. إذا لم يكن لديك دليل نقلي على معرفة المكي والمدني، فكيف تستطيع معرفة أن هذه الآية أو السورة مكية أو مدنية؟
٣. توهم بعض المغرضين بظاهر حديث للرسول صلى الله عليه وسلم يفيد أن الذين حفظوا القرآن الكريم أربعة من الصحابة فقط. فكيف تزيل هذا التوهم؟
٤. الترجمة الحرفية لا تعد قرآناً بحال، كما أنها لا تنسب إلى الله تعالى، ولها مخاطر كثيرة. بماذا تفسر ذلك؟
٥. استخرج من آية المتشابه في سورة آل عمران خمس دلالات.
٦. ارجع إلى كتاب التفسير في صحيح البخاري، واستخرج خمس آيات فسرها الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم؟

المراجع والمصادر:

١. الإتقان في علوم القرآن. تأليف جلال الدين السيوطي. الطبعة الثالثة. مطبعة الحلبي وأولاده بمصر.
٢. مناهل العرفان في علوم القرآن. عبد العظيم الزر قاني. ط: الثالثة. مطبعة الحلبي وشركاه بمصر.
٣. اللآلئ الحسان في علوم القرآن. تأليف د. موسى شاهين لاشين ط: الأولى. مطبعة دار التأليف بمصر.
٤. مباحث في علوم القرآن. د. صبحي الصالح: ط: العاشرة. دار العلم للملايين. بيروت
٥. إتقان البرهان في علوم القرآن. د. فضل حسن عباس ط: الأولى. مطبعة دار الفرقان بعمان.
٦. مباحث في علوم القرآن. مناع القطان. ط: الحادية عشرة. مطبعة المدني بمصر.
٧. علوم القرآن. منشورات جامعة القدس المفتوحة. ط: الأولى ١٩٩٣.

المؤهلات العلمية

- تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي في بلدة اليامون وحصل على الشهادة الإعدادية عام ١٩٦٣م وفي عام١٩٦٤م توجه إلى مدينة نابلس، درس سنة واحدة في المدرسة الإسلامية الثانوية، حيث أرسلته إدارة المدرسة في بعثة دراسية إلى الأزهر الشريف للدراسة في معهد البعوث الإسلامية العلم الشرعي، فحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٦٦م بتفوق، التحق بعدها بكلية أصول الدين/ جامعة الأزهر، وحصل على الشهادة الجامعية (الليسانس) في التفسير والحديث عام ١٩٧٠م بتقدير جيد جداً.
- وفي عام ١٩٧٩م حصل على درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين/ جامعة الأزهر بتقدير: جيد جداً. موضوع الرسالة: (سيد قطب ومنهجه في التفسير)
- وفي عام ١٩٨٣م حصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن من كلية أصول الدين/جامعة الأزهر بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف الأولى. موضوع الرسالة: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، دراسة وتحقيق لسورتي الفاتحة والبقرة) حيث أرسل من قبل جامعة القدس في منحة دراسية للحصول على ذلك.

السيرة العملية

١. عمل في سلك التربية والتعليم مدرساً في محافظة جنين من عام ١٩٧٠م - ١٩٧٥م.
٢. عمل مديراً لثانوية جنين الشرعية التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية الأردنية من عام ١٩٧٥م - ١٩٨٠م.
٣. عمل محاضراً ورئيس قسم القرآن الكريم وعلومه في كلية الدعوة وأصول الدين/ جامعة القدس من عام ١٩٨٠- ١٩٨٥م.
٤. تسلم عمادة كلية الدعوة وأصول الدين ورئاسة القسم فيها من عام ١٩٨٥ - ١٩٩٠م.
٥. تفرغ للتدريس في الكلية المذكورة من عام ١٩٩٠ - ١٩٩٦م.
٦. ساهم بتأسيس كلية القرآن والدراسات الإسلامية التابعة لجامعة القدس
٧. في عام ١٩٩٦م. حيث تسلم عمادتها منذ تلك الفترة وحتى عام ٢٠٠١م. ثم تفرغ للتدريس فيها إلى الآن.

المؤتمرات

شارك في عدة مؤتمرات علمية عقدت في بعض البلاد العربية منها:

١. مؤتمر مجلس التعليم العالي عقد في عمان عام ١٩٨٦م.
٢. مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية المنعقد في القاهرة عام ١٩٨٧م.
٣. مؤتمر رابطة الجامعات الإسلامية المنعقد في جامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية عام ١٩٩٩م.
٤. عدة مؤتمرات علمية محلية عقدت في الجامعات الفلسطينية في فترات مختلفة.

الانتاج العلمي

كتب عشرات المقالات في مجلتي «هدى الإسلام» ومجلة «الإسراء» والصحف المحلية والعربية كما أعد عدة أبحاث في مواضيع مختلفة.

النشاطات اللامنهجية والمشاركة في عضوية هيئات ومؤسسات دينية وثقافية من أبرزها:

١. الخطابة في المسجد الأقصى المبارك منذ عام ١٩٨٤م وحتى الآن.
٢. النائب الأول لرئيس هيئة العلماء والدعاة في فلسطين.
٣. عضو الهيئة الإسلامية العليا في فلسطين.
٤. عضو مجلس الأوقاف والشؤون الإسلامية في القدس.
٥. عضو مجلس الفتوى الأعلى في فلسطين.
٦. عضو في هيئة التحرير لمجلة الإسراء.

الإشراف على الرسائل العلمية ومناقشتها

أشرف على عدة رسائل علمية لطلبة من جامعة القدس في مجال تخصصه، كما شارك في مناقشة رسائل علمية فيها وفي غيرها من الجامعات الفلسطينية

د. موسى البسيط*

السنّة في اللغة

تدور مادة (سَنّ) في اللغة على معان عديدة منها، جريان الشيء واضطراده، يقال: سنّ الحديد سنًا، وسنّ الإبل، إذا أحسن رعايتها وسنّ المنطق، حسّنه، وتطلق السنّة على الوجه[1].

وكذلك تطلق على سنّة النبي صلى الله عليه وسلم وهي مصدر هام من مصادر الثّقافة الإسلامية وتدخل في تكوين السلوك وصياغة نمط الحياة تحمل هذه المعاني اللغوية لما فيها من جريان الأحكام واضطرادها، وصقل الحياة الإنسانية بها، فيكون وجه المجتمع السائر على هديها ناضراً بخيرها وبركتها.

وفي السنّة معنى الاعتياد والتكرار، كما أن فيها معنى التقويم و إمرار الشيء على الشيء بقصد إحداده وصقله، وسنّة رسول الله تحمل جميع هذه المعاني.[2]

السنّة في الاصطلاح

والسنّة فيما اصطلح عليه العلماء: «ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلقية، من مبدأ بعثته حتى وفاته، ويدخل فيها ما يضاف إلى الصحابي أو التابعي باعتبارهم شهود عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرب الناس إلى عصره».

ولعل من الجدير التفريق بين مصطلح (السنة) ومصطلح آخر هو (الحديث)، فهل يفيدان المفهوم ذاته، أم يتغايران؟

بين الحديث والسنّة

إن الحديث أعم من السنّة إذ يزيد عليها في تناوله كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم حتى لو كان منسوخا ليس عليه العمل، ويتناول صفات النبي صلى الله عليه وسلم الخَلقية من حيث لونه وشعره وطوله، وصفاته الجبلّية من حيث صحته ومرضه وما يميل إليه من طعام وما لا يرغب فيه، والمقصود عند روايتها ورصدها الوقوف على عصر النبوة ومعرفة النبي صلى الله عليه وسلم بصورة واضحة جلية.

السنّة منهج قويم

إن الطريقة العملية التطبيقية من سنن الأقوال والأفعال والأخلاق المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم تسمى (السنّة)، واعتبرت طريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتي تمثلت في الصحابة من بعده، هي الطريقة المثلى التي يُلتزم بها، أما مخالفتها فتسوق إلى مصطلح آخر هو (البدعة)، فيقال: فلان على (السنة) إن التزم بها، و (فلان على البدعة) إذا خالفها.

إن كل سنّة حديث، وليس كل حديث سنّة، والسنّة هي غاية الحديث وثمرته، ومن السنة ما يفيد الوجوب أو الحرمة، ومنها ما يفيد الندب أو الكراهة، و منها ما يفيد الإباحة، وهذا عند المحدثين، ويستعمل الفقهاء (السنّة) فيقصدون بها، ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير افتراض ولا وجوب.

إن علماء الحديث بحثوا في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أسوة و قدوة، فنقلوا كل ما يتصل به من سيرة وخلق و شمائل وأخبار وأقوال وأفعال سواء أثبتَ ذلك حكما شرعيا أم لا.

وعلماء الأصول بحثوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المشرّع الذي يضع القواعد للمجتهدين من بعده، ويبين لهم دستور الحياة، فعُنوا بأقواله وأفعاله وتقريراته التي تَثبت بها الأحكام[3].

وإذا كانت (الثقافة الإسلامية) هي: «المعرفة المكتسبة التي تنطوي على جانب معياري، وتتجلى في سلوك الإنسان المسلم

---

* محاضر في جامعة القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] معجم مقاييس اللغه لابن فارس (٣/ ٦٠) وانظر لسان العرب لابن منظور مادة - سنن-

[2] همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين، كتاب الأمة (ص٢٨، ٢٧).

[3] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي مصطفى السباعي ص ٦٧ (المكتب الإسلامي).

في تعامله في الحياة الاجتماعية مع الوجود »[4] فإن السنة النبوية تدخل في تكوين هذه المعرفة.

إن السنّة بما تضمنته من أقوال وأفعال وتقريرات وصفات للنبي صلى الله عليه وسلم ترسم المنهاج التفصيلي للحياة الإسلامية، حياة الفرد المسلم، والأسرة المسلمة، والجماعة المسلمة في الدولة المسلمة[5].

مكانة السنة ومنزلتها من القران

تأتي السنة مع القرآن في مرتبة واحدة من حيث الاحتجاج بهما على الأحكام الشرعية، ويمتاز القرآن عن السنّة ويفضُل عنها بأن لفظه من عند الله ومتعبد بتلاوته، ومعجز للبشر، وهذا التفضيل لا يُنقص من مرتبة الاحتجاج بالسنة، فالسنة الصحيحة مثل القرآن من وجهين:

أحدهما: أن كليهما من عند الله، قال تعالى: (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى).[6]

الثاني: استواؤهما في وجوب الطاعة بقوله تعالى: (..مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ..).[7]

وإنما افترقا في أنه لا يُكتب في المصحف غير القرآن، ولا يُتلى مع القرآن غيره مخلوطاً به.[8]

إنّ الحكم الشرعي يُطلب في القرآن أولاً، فإن لم يوجد طُلب في السنّة، وهذا في الأحكام واضحة الدلالة في القرآن كميراث الزوج من زوجته، وما لم يكن كذلك فالمعوّل على السنة النبوية[9]. وللسنة مكانتها من القرآن الكريم، ففيها البيان له، ولولا السنّة لظل في القرآن آيات يعجز البشر عن فهمها، وفي القرآن الأصول العامة للأحوال الشرعية في العبادات والمعاملات والأخلاق دون التعرض إلى تفاصيلها إلا في القليل النادر[10].

بيان السنّة للقران

وأوجه بيان السنة للقران ثلاثة هي:

(أ) سنة موافقة للقرآن

من جميع الوجوه، موافقة له من حيث الإجمال والبيان والاختصار والشرح وواردة معه مورد التأكيد له[11] مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان»[12]، مع قوله تعالى: (وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ...)[13] وقوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ)[14] وقوله: (... وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً...)[15] من حيث الدلالة على وجوب كل من الصلاة والزكاة والصوم والحج مع عدم بيان كيفيته[16].

(ب) سنّة مبيّنة لما في القرآن

إن السنّة تفصّل المجمل وتقيّد المطلق وتوضّح المشكل وتخصّص العام.

١. تفصيل المجمل: من حيث أمر القرآن بالصلاة والزكاة أمراً مجملاً، فجاءت السنّة النبوية العملية تبين كيفية الصلاة وشروطها وعدد ركعاتها، بقوله صلى الله عليه وسلم: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[17] وكذلك الأمر في الزكاة من حيث تفصيلات مقاديرها في السنّة النبوية الشريفة.

٢. تقييد المطلق: وقد يأتي القرآن ببعض الأحكام المطلقة فتأتي السنّة تقيد هذا المطلق كقوله تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا..)[18] فهذه الآية مطلقة في اليد التي تُقطع بالسرقة، فاليد تطلق ويراد بها اليد إلى الكوع، وإلى المرفق، والى الرسغ فقيدتها السنّة إلى الرسغ، حيث أمر رسول الله

---

[4] الثقافة الاسلاميه، مفهومها، مصادرها، د. عزمي طه وآخرون ص٣٧.
[5] المدخل لدراسة السنّة النبوية، يوسف القرضاوي ص٦٧ مؤسسه الرسالة
[6] سورة النجم الآيات ٣- ٤.
[7] سورة النساء آيه ٨٠
[8] الإحكام في أصول الأحكام، محمد بن علي بن حزم الظاهري (٤٧٨\٣).
[9] المدخل لدراسة السنة النبوية يوسف القرضاوي ص٧٣
[10] صلة السنة بالقرآن عليا شيخ محمد ص٣٧.
[11] حجية السنة، عبد الغني عبد الخالق ص٤٩٦
[12] البخاري في الإيمان رقم ٨، ومسلم في الإيمان رقم ١٩
[13] سورة البقرة آيه ٤٣.
[14] سورة البقرة ١٨٣.
[15] سورة آل عمران آيه ٩٧

توضيح، فتوضّحها السنّة. لقد سمع الصحابة قوله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)[21]، فأشكل على الصحابة لفظ (الظلم) في الآية، حتى خافوا وسألوا النبي صلى الله عليه وسلم قائلين: أيُنا لم يظلم؟ فأوضح لهم الأمر قائلاً: «ليس كما تقولون (لم يَلبسوا إيمانهم بظلم) أي لم يشركوا. أولم تسمعوا قول لقمان لابنه: (يا بُنَي لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)[22].

٤. تخصيص العام: وقد يكون اللفظ في القرآن عاماً، فتخصّصه السنّة النبوية، ومن تخصيص السنّة لعام القرآن في قوله تعالى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ..)[23] فظاهر الآية عام في إعطاء الميراث لكل ولد من والده لكن السنّة تخصص العام هنا فلا تورّث أولاد الأنبياء من آبائهم لقوله صلى الله عليه وسلم: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[24]. كذلك لم تورّث السنّة الولد القاتل من أبيه المقتول لقوله صلى الله عليه وسلم «لا يرث القاتل»[25].

إن القرآن الكريم يذكر القواعد الكلية والأصول العامة، ويترك للسنّة تطبيق القواعد على الأمور الفرعية، وأوجه نشاطات الناس المتجددة التي تنطبق عليها هذه القواعد الكلية[26].

(ج) سنّة دالة على حكم سكت عنه القرآن

إن السنّة أثبتت أحكاماً جديدة على طريق الاستقلال لم ترد في الكتاب، إننا نجد في الحديث ما يدل على ذلك، قال صلى الله عليه وسلم: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكة يقول:عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه. وإن ما حرم وتحريم حلية الذهب والحرير على الرجال خاصة، ولعْن الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة.

حجية السنّة وأدلتها

إن الله سبحانه وتعالى هو الحاكم وحده لا اله إلا هو قال تعالى: (إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ)[28] ومعنى كون السنّة حجة أنها دليل على حكم الله، يفيدنا العلم أو الظن، ويجب بمقتضاه العمل حيث هو حكم الله[29].

أدلة الحجية:

١. القرآن الكريم، ورد في كتاب الله كثير من الآيات الدالة على حجية السنّة منها:

- قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً)[30].

فالآية دالة على عموم طاعة الرسول في حياته وبعد وفاته. وهنا أمَر ابتداءً بطاعة الله واتباع كتابه، وطاعة رسوله والأخذ بسننه، وطاعة أولي الأمر فيما أمروا به من طاعة الله، وطاعة رسوله[31].

- وقوله تعالى: (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا)[32]

فكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من أصول شرعية وقواعد عامة أو فروع دقيقة لازم الأخذ به.

---

[19] سنن الدارقطني، الحدود والديات ٣\٢٠٤ (٣٦٣)
[20] البخاري، الحدود، رقم ٦٧٨٩
[21] سورة الأنعام اية ٨٢
[22] البخاري، أحاديث الأنبياء رقم ٣٣٦٠
[23] سورة النساء اية ١١
[24] البخاري في الفرائض رقم ٦٧٢٦، ومسلم في الجهاد والسير رقم ١٣٧٩.
[25] الترمذي، فرائض رقم ٢١١٠، وابو داود ٤٥٦٤، وابن ماجه ٢٧٣٥.
[26] دراسات في السنّة النبوية، صديق عبد العظيم ص٥٤.
[27] ابو داود في السنن رقم ٤٦٠٤.
[28] سورة يوسف آية ٦٧
[29] حجية السنة، عبد الغني عبد الخالق ٢٤٣.
[30] سورة النساء آية ٥٩
[31] تفسير القرآن العظيم، لابن كثير ٢\٣٢٦.
[32] سورة الحشر آية ٧

- وقوله تعالى: (مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا)[33] فطاعة الرسول من طاعة الله تعالى.
- وفي التثقيف للمسلم نجد التوجيه القرآني إلى وجوب الاقتداء برسول الله في كل شي، في العقيدة والخلق والعبادة والمعاملة؛ فهو أسوة حسنة قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا)[34]
- وقال تعالى في معرض الامتنان على المؤمنين: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ)[35] (فالكتاب) القرآن، و(الحكمة) السنّة. ومن قبيل التأكيد على وجوب طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ووجوب الالتزام بما جاء به، يُقسم الله تعالى على نفي الإيمان عمن يرفضون حكم الرسول ويتلكؤون في تنفيذ السنّة قال تعالى: (فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا)[36] «يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة أنه لا يؤمن أحدٌ حتى يحكّم الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنا وظاهراً، فيسلّموا بذلك تسليماً كليا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة»[37].

٢. حديث رسول الله، إن المسلم يعتقد اعتقاداً جازماً بان رسول الله صلى الله عليه وسلم معصوم من الكذب ومما يخل بالتبليغ، لذا فإننا نستدل بخبره البلاغي على حجية سنته كما نستدل على حجية السنّة بالقرآن.

ومن الأحاديث الدالة دلالة قاطعة على حجية السنّة:

- حديث مالك بن أنس بلغه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تركت فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسكتم به، كتاب الله وسنة نبيه»[38].
- وحديث العرباض بن سارية وفيه «... أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن عبدٌ حبشي، فإنه من يعش منكم ير اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين عضوا عليها بالنواجذ[39]»
- وحديث «ألا إني أُوتيت الكتاب ومثله معه ...»[40] ومنه يتضح بأن رسول الله أوتى مع القرآن بيانه وحيا من عند الله تعالى يبين الكتاب؛ يعمّ ويخصّ ويزيد عليه ويشرح ما في الكتاب، فيكون في وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن[41].
- ومن الأحاديث الدالة على حجية السنة حديث معاذ حين بعثه النبي صلى الله عليه وسلم إلي اليمن فقال له: «كيف تقضي إذا عرض لك قضاء»؟ قال: اقضي بكتاب الله. قال: «إن لم يكن في كتاب الله»؟ قال: فبسنة رسول الله قال: «فان لم يكن في سنة رسول الله»؟ فقال اجتهد رأيي ولا آلو، قال: فضرب صدري فقال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله»[42]

٣. أدلة حجية السنة، تعذّر العمل بالقرآن وحده، إذْ لا يمكن لعقل بشر لم ينزل عليه وحيٌ أن يستقل بفهم الشريعة وتفاصيلها وجمْع أحكامها من القرآن وحده، فقد أمر الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بقوله تعالى: (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) فلو اكتفينا بما في القرآن في ذلك لما وجدنا تفصيلا لهذين الركنين العظيمين[43].

٤. دليل الإجماع، إننا باستعراضنا مواقف العلماء والأئمة نجدهم مجمعين على التمسك بالسنة والاهتداء بهديها لأنها أصل من أصول الإسلام، وعليها مدار فهم الكتاب وثبوت أغلب الأحكام، فعلى حجية السنة انعقد إجماعهم[44].

قال الشافعي: (أجمع الناس على أن من استبانت له سنة رسول الله لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس)[45]. وما

---

[33] سورة النساء آية ٨٠

[34] سورة الأحزاب آية ٢١.

[35] سورة آل عمران آية ١٦٤

[36] سورة النساء آية ٦٥

[37] تفسير القرآن العظيم ١\ ٣٢٩.

[38] مالك في الموطأ في القدر، باب النهي عن القول بالقدر رقم ٣، والحاكم في المستدرك، كتاب العلم ١\٩٣.

[39] الترمذي في العلم (٢٦٧٨). وابو داود في السنة (٤٦٠٧).

[40] تفسير القرآن العظيم ١\ ٣٢٩

[41] الجامع لأحكام القرآن، محمد أحمد القرطبي (١\٤٣ بتصرف).

المنهجية العلمية في حفظ السنّة

عوامل حفظ الحديث

لقد حفظ الصحابة سنّة الرسول صلى الله عليه وسلم وساعد على ذلك عوامل شتى من أهمها قوة الدافع الديني لدى الصحابة، ويقينهم بأنْ لا سعادة لهم إلا بالإسلام، وكذلك مكانة الحديث النبوي حيث دخل في تكوين الصحابة الفكري وسلوكهم العملي والخلقي.

ولقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الصحابة سيخلفونه، فسلك منهجاً في تعليمهم -وهم أصحاب القريحة القوية والحفظ الواسع- فما كان يسرد الحديث سرداً متتابعاً، بل يتأنى في إلقائه ولم يكن يطيل الأحاديث بل كان كلامه قصداً، وكان له أسلوب بليغ قوي يأخذ بالألباب ويزيد من ترسيخ حديثه صلى الله عليه وسلم في الصدور.

الكتابة

ومن أعظم عوامل الحفظ للحديث والسنن (الكتابة)، والمتتبع للأحاديث والآثار يجزم بحصول الكتابة للحديث وإذن الرسول بها، وإليك بعضا من هذه الأحاديث.

- روى البخاري عن أبي هريرة قال: «ما من أصحاب رسول الله أحد أكثر حديثا عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو فإنه كان يكتب ولا أكتب»[٤٧].

وقد أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بالكتابة فقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»[٤٨]

ثم نقل الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صُحُفاً كتبوها عنه منها:

- الصحيفة الصادقة التي كتبها عبد الله بن عمرو بن العاص، وانتقلت إلى حفيده عمرو بن شعيب[٤٩]

- كما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم كتباً إلى أمرائه وعماله وإلى الملوك والعظماء وأمراء العرب[٥١].

مراحل الكتابة

إن تقييد الحديث مر بمرحلتين اثنتين هما:

- مرحلة جمع الحديث في صحف خاصة لمن يكتب من الصحابة وهذا كان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- ومرحلة الكتابة التي تُقصد مرجعا يُعتمد عليها ويتداولها الناس، وهذه بدأت في القرن الثاني الهجري، زمن الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز الذي أحسّ بالحاجة لحفظ كنوز السنّة، فكتب إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من الحديث عن رسول الله فاكتبه، فإني خفت دروس العلم وذهاب العلماء»[٥٢]

النهي عن الكتابة عارض

أما نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحابة عن الكتاب بقوله: «لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه»[٥٣] فما كان هذا النهي إلا طارئا عارضاً، لان الكتابة لا يُنهي عنها لذاتها فليست هي من القضايا التعبدية، ولابد من علّة يدور عليها إذنه صلى الله عليه وسلم بالكتابة أو منعه منها. والعلة هي، خوف انكباب الصحابة على الانشغال بالسنّة وترك القرآن، أو خشية الخلْط في الكتابة بينهما[٥٤].

قوانين الرواية

ولحفظ السنّة النبوية المشرفة وضع الصحابة قوانين للتثبت من صحة النقل، والتحرز من الوهم ومن أهم هذه القوانين:

- تقليل الرواية عن رسول الله خشية أن تزل أقدام المكثرين بسبب الخطأ والنسيان.

---

[٤٦] رفع الملام عن الأئمة الإعلام ابن تيمية (٢٢-٢٣).
[٤٧] البخاري في العلم (رقم ١١٣)، الترمذي (٥\٤٠).
[٤٨] أبو داود (٣\٣١٨)، ومسند احمد (٢\٢٠٥).
[٤٩] أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣\٢٣٣).
[٥٠] الترمذي (٢\٢٨٠) شرح تحفة الاحوذي.
[٥١] أبو داود (٣\٣١٨)، ومسند احمد (٢\٢٠٥).
[٥٢] البخاري في كتاب العلم باب كيف يقبض العلم رقم (٣٤).
[٥٣] مسلم في الزهد رقم (٧٢) ص٢٢٩٨.
[٥٤] منهج النقد في علوم الحديث (ص٤٣).

- التثبت في الرواية عند أخذها وعند أدائها، وقد نقل ذلك عن كبار الصحابة، بل إن الصحابة وضعوا منهجاً عظيماً في نقد الروايات بعرضها على نصوص وقواعد الدين، فوجدنا كلا من عمر رضي الله عنه وعائشة ينتقدون بعض الروايات بعد عرضها على القرآن الكريم ومقارنة بعضها ببعض[55]

- لقد قاوم علماء الصحابة ومن بعدهم من العلماء الوضع في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بوسائل كثيرة حكيمة منها:

- العناية بإسناد الحديث وذلك بفحص أحوال الرواة، فبعد أن كانوا يقبلون الحديث من راويه من غير توقف، صاروا يستوقفون الرواة ويسألون عن الرجال.

- التوثق من الأحاديث بالرجوع إلى الصحابة والتابعين، وقد حث علماء الصحابة الناس على الاحتياط في حمل الحديث عن الرواة وألا يأخذوا إلا حديث من يوثق به دينا وورعاً وحفظاً وضبطاً[56] حتى نشأ علم الجرح والتعديل فتكلم من الصحابة عبد الله بن عباس وعباده بن الصامت وأنس بن مالك.

ولقد سن الصحابة (الرحلة في طلب الحديث) لأجل سماعه من الراوي الأصل، ثم سار على نهجهم التابعون والعلماء، وكان من منهج الصحابة ومن بعدهم من علماء السلف أن وضعوا علم مصطلح الحديث، وهو علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن، ويتوصل من خلالها إلى معرفة المقبول من المردود في الحديث، وقد تم بهذا العلم حفظ الدين الإسلامي من التحريف والتبديل، كما تجنب العالِم بقواعد علم المصطلح -الوقوع في التساهل في الرواية حتى لا يقع فيما حذر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[57].

إن مصطلح الحديث خصيصةٌ من خصائص الأمة الإسلامية لم تعرفها أمة من الأمم قبلها، قال أبو محمد بن حزم: (نقل الثقة عن الثقة مع الاتصال حتى يبلغ النبي صلى الله عليه وسلم خصّ الله به المسلمين دون سائر أهل الملل)[58]

وفي سبيل توثيق الحديث والعناية به ومقاومة الوضع في الحديث، بذل علماء الحديث كل جهدهم فقعّدوا قواعد، وأصّلوا أصولاً أصبحت علوماً هي (علوم الحديث) وعدّ منها ابن الصلاح (٦٥) علماً أو نوعاً، وزاد السيوطي أنواعاً أخرى حتى أوصلها إلى (٩٣) نوعاً.

أشهر كتب الحديث

إن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم جُمع بطريق موثوق ومنهجية علمية دقيقة. ومن كتب الحديث المهمة:

موطأ مالك

صنّفه الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩) وسماه الموطأ لأنه وطّأ به الحديث للناس أي يسّره، وعددُ أحاديثه (١٧٢٠) حديثاً. وقد انتقى مالك حديثه من مائة ألف حديث واستغرق تصنيفه أربعين عاماً، وللموطأ روايات كثيرة منها رواية يحيى بن يحيى الليثي ورواية محمد بن الحسن الشيباني.

ورتبة أحاديث الموطأ دون الصحيحين لاحتوائه على المرسل والمنقطع. وقد اهتم العلماء بموطأ مالك فشرحوه، وعرّفوا برجاله، ووصلوا مراسيله ومنقطعاته، ومن شروحه المهمة (التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد) لابن عبد البر الأندلسي[59].

المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤٤)

عدد أحاديث المسند بالمكرر أربعون ألف حديث انتقاها من سبعمائة وخمسين ألف حديث، وفيه من الحديث، الصحيح والحسن والضعيف والمنكر، وغالب أحاديثه جياد.

وقد اعتنى العلماء بالمسند تحقيقا وشرحا، وأعاد احمد الساعاتي ترتيب المسند على الموضوعات في كتاب (الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام احمد) وشرحه في كتابه (بلوغ الأماني)[60].

صحيح البخاري (ت ٢٥٦)

هو (الجامع الصحيح المسند المختصر من حديث رسول الله وسننه وأيامه) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، مكث البخاري في تصنيفه ست عشرة سنة، اقتصر فيه على الحديث الصحيح، واشترط اللقاء بين الرواة بينما اقتصر مسلم على المعاصرة مع إمكان اللقاء، وهو أرجح من صحيح مسلم.

وقد رتب البخاري أحاديث صحيحه على الموضوعات والأبواب، كما اعتنى بالفوائد الفقهية حتى شتت البخاري الحديث في مواضع عديدة من كتابه، وعدد أحاديث الصحيح بالمكرر (٧٣٩٧)، وأهم شروحه (فتح الباري بشرح صحيح البخاري) للحافظ ابن حجر[61].

---

[55] منهج النقد في علوم الحديث (٥٣ــ٥٤).
[56] الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (١\١\١٥).
[57] أخرجه مسلم في المقدمة (١\٧)

أحاديثه بالمحرر اثنا عشر ألف حديث، وتمتاز أحاديث مسلم بعدم التقطع أو التكرار، بل بجمْع المتون كلها بطرقها العديدة في موضع واحد، ومن أبرز شروحه شرح الإمام النووي[٦٢].

سنن أبي داود (ت٢٧٥)

اشتمل كتاب السنن لأبي داود على أحاديث الأحكام، وخرّج فيه الحديث الصحيح والحسن والضعيف المحتمل، فإن كان فيه وهنٌ شديد نبّه عليه، وبلغت أحاديثه (٥٢٧٤) حديثا، وقد شرحه الخطابي في معالم السنن[٦٣].

جامع الترمذي (ت٢٧٩)

للإمام محمد بن عيسى الترمذي، فيه الصحيح والحسن والضعيف والغريب والمعلل، التزم الإمام الترمذي ألا يخرج في كتابه إلا حديثاً عملٍ به فقيه، أو احتج به مُحتج، وبلغت أحاديثه (٣٩٥٦) حديثاً، وقد شرحه ابن العربي في (عارضة الأحوذي على الترمذي)[٦٤].

سنن النسائي (ت٣٠٣)

لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، واشتمل كتاب السنن على الحديث الصحيح والحسن والضعيف ولكن الضعف فيه قليل فسنن النسائي أكثر السنن حديثاً صحيحاً، وبلغت أحاديثه (٥٧٦١) حديثا، وجمع النسائي بين طريقتي البخاري ومسلم في التصنيف.

من شروحه (زهر الرُبى على المجتبى) للسيوطي[٦٥]

سنن ابن ماجه (٢٧٣)

مؤلفه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، هو سادس الكتب خرّج في سننه الصحيح والحسن والضعيف بما في ذلك المناكير والموضوعات، وهو دون بقية الكتب الخمسة في المرتبة، يبلغ عدد أحاديثه

إن السنة النبوية تعد التفسير العملي للقرآن، وهي التطبيق الواقعي للإسلام، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن مفسرا والإسلام مجسدا، ولقد أدركت عائشة رضي الله عنها هذا المعنى فعبّرت عنه حين سئلت عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت «فإن خلق نبي الله كان القرآن»[٦٧].

والمتأمل لخصائص السنّة النبوية باعتبارها المنهج العملي للإسلام يجد أن هذا المنهج يتسم بأنه (شمولي)، يشمل حياة الإنسان كلها طولا وعرضاً وعمقاً، من ميلاد الإنسان وحتى وفاته، وفي جميع مجالات حياته، ومع شموله لكينونته. وهو منهج (متوازن)، يوازن بين الروح والجسم، وبين العقل والقلب، وبين الدنيا والآخرة، وبين النظر والعمل وهو منهج وسط لأمة وسط.

كما انه منهج يتصف باليسر والسهولة والسماحة[٦٨] فمن أوصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتب الأولين انه (يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ)[٦٩]. وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته بقوله: «يسّروا ولا تعسّروا وبشّروا ولا تنفّروا»[٧٠].

إن واجب المسلمين - اليوم- نحو السنّة النبوية، أن يعرفوا أنها المنهاج النبوي المفصل بما فيه من خصائص الشمول والتكامل والتوازن والتيسير، وما يتجلى فيه من معاني الربانية الراسخة والإنسانية والأخلاق الأصلية.

وهذا يوجب عليهم أن يعرفوا كيف يُحسنون فهم هذه السنّة، وكيف يتعاملون معها فقها وسلوكاً كما تعامل معها الصحابة ومن تبعهم، بعيداً عن تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.[٧١] وحتى يتحقق ذلك فلا بد من مراعاة المبادئ الآتية:

أولاً: ضرورة أن يُستوثق من ثبوت السنّة وصحتها حسب الموازين العلمية الدقيقة والتي وضعها الأئمة الأثبات وهذه الموازين -لاشك- تؤدي إلى العلم اليقيني البرهاني.

---

[٦٢] السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي (ص٨-٤٠) وبحوث في تاريخ السنة المشرفة الصفحات (٢٤٦-٢٤٨).
[٦٣] علوم الحديث لابن الصلاح (ص٣٣)، تذكرة الحفاظ للذهبي (٥٩٢).
[٦٤] مفتاح السنن للخولي (ص٩٣)، الحديث والمحدثون محمد أبو زهو (ص٤١٧).
[٦٥] الحديث والمحدثون محمد أبو زهو (٤١٠)
[٦٦] أعلام المحدثين أبو شهبه (٢٨٠).
[٦٧] صحيح مسلم، مسافرين رقم (١٣٩).
[٦٨] المدخل لدراسة السنة النبوية (٩٥).
[٦٩] سورة الأعراف آية ١٥٧
[٧٠] صحيح البخاري في العلم رقم (٦٩).
[٧١] راجع (منهج التعامل مع السنة النبوية) مفصلاً في كتاب (المدخل لدراسة السنة النبوية) للقرضاوي من (ص١٠٥- ص٢٢٢).

ثانياً: وحين نثبت النص النبوي يجدر بنا «ان نحسن فهم الحديث وفق دلالة اللغة وفي ضوء سياق الحديث، وسبب وروده، وفي ظلال النصوص القرآنية والنبوية الأخرى، وفي إطار المبادئ العامة والمقاصد الكلية للإسلام». ولا بد مع تلقي الحديث من فقه دقيق له والتمييز بين ما كان له صفة العموم والدوام وما له صفة الخصوص والتأقيت.

ثالثا: أن يتأكد من سلامة النص من معارض أقوى منه من القرآن أو أحاديث أخرى أوفر عدداً أو أصح ثبوتا حتى نفهم المسألة فهماً دقيقاً ونتوصل إلى حكم صائب فيها، لا بد من تجميع النصوص الواردة في المسألة ولا يقتصر على النظرة الجزئية.[٧٢]

الأسئلة:

١. عرف السنة لغة واصطلاحاً، ووضح الفرق بين السنة والحديث.
٢. لماذا اختلف العلماء في إطلاق مصطلح (السنّة)؟
٣. ما أوجه بيان السنّة للقرآن مع الأدلة عليها؟
٤. هات ستة من الأحكام الشرعية الثابتة بالسنة النبوية المشرفة.
٥. اتصفت السنة في علاقتها بالقرآن بأنها، تقيّد المطلق، وتخصّص العام، وتوضّح المشكل، ومثّل على كل بمثال.
٦. مما ورد في القرآن الكريم من أدلة حجية السنة، ما يتعلق بتثقيف المسلم وصقل شخصيته على نحو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم. هات آية واحدة تثبت ذلك.
٧. وُصفت السن في الخطاب القرآني بأنها الحِكْمة. اذكر آية واحدة مع بيان سر إطلاق الحكمة على السنة المشرفة.
٨. ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُعطي مع القرآن مثل القرآن. اذكر الحديث الذي تضمن ذلك مع بيان دلالته على حجية السنة.
٩. (الكتابة) عامل من عوامل حفظ الحديث النبوي، بين مراحل كتابة الحديث.
١٠. سنّ الصحابة قوانين لرواية الحديث، اذكر اثنين منها مع بيانها.
١١. ما هي الوسائل المستعملة لمقاومة الوضع في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم؟
١٢. (علم مصطلح الحديث، علم حفظ المسلمون به دينهم) عرّف بهذا العلم مبينا غايته وثماره.
١٣. أ. بين شرط الإمام البخاري في صحيحه، وكيف رتب أحاديثه.
ب. بين الميزة التي يتميز بها كل من الصحيحين.
١٤. بين ميزات السنّة النبوية باعتبارها المنهج العملي للإسلام بخصائصه وأركانه.
١٥. للتعامل مع السنّة النبوية تعاملاً سليماً ثمة مبادئ ينبغي مراعاتها، تكلم حول هذه المبادئ.

قائمة بالمراجع المقترحة:

١. بحوث في تاريخ السنة المشرفة، أكرم العمري
٢. أصول الحديث وعلومه ومصطلحه، محمد عجاج الخطيب
٣. تبسيط علوم الحديث، محمد نجيب الطيعي
٤. التمهيد في علوم الحديث، همام سعيد
٥. حجية السنة النبوية، عبد الغني عبد الخالق
٦. دراسات في السنة النبوية، صديق عبد العظيم
٧. السنة قبل التدوين، محمد عجاج الخطيب
٨. السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي
٩. صلة السنة بالقرآن وطريقة استنباط الأحكام، محمد نجيب المطيعي
١٠. علوم الحديث ومصطلحه، صبحي الصالح
١١. فتح المغيث شرح الفية الحديث، الإمام السخاوي
١٢. الفكر المنهجي عند المحدثين، همام سعيد
١٣. قواعد الحديث في فنون مصطلح الحديث، جمال الدين القاسمي

موسى إسماعيل البسيط

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذ مشارك

تاريخ الولادة: ١٩٥٥/١٠/٣٠

المؤهلات العلمية

- شهادة الدكتوراه في السنة وعلومها من كلية الدعوة وأصول الدين جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٩٨٨
- شهادة الماجستير في التفسير والحديث من كلية التربية جامعة الملك سعود عام ١٩٨٢
- شهادة البكالوريوس في الشريعة الإسلامية من كلية الشريعة الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة عام ١٩٧٨

السيرة العملية

١. عمل محاضراً في جامعة الملك سعود بالرياض من عام (١٩٨١-١٩٩٠)

٢. أستاذ مساعد في جامعة القدس منذ عام (١٩٩١-١٩٩٨)

٣. عميد كلية الدعوة والعلوم الإسلامية بأم الفحم منذ عام (١٩٩٢-١٩٩٥) معار من جامعة القدس

٤. أستاذ مشارك في جامعة القدس منذ عام (١٩٩٨-٢٠٠٦)

٥. رئيس دائرة الدعوة وأصول الدين في كلية الدعوة وأصول الدين منذ عام (٢٠٠٣-٢٠٠٦)

٦. عضو المجلس الأكاديمي في جامعة القدس منذ عام (٢٠٠٣-٢٠٠٦)

الإنتاج العلمي

- أطروحة الماجستير:

(تحقيق كتاب بشيوخ البخاري وكتاب الألقاب في صحيح البخاري وصحيح مسلم للغساني الجياني)

- رسالة الدكتوراه

(تحقيق القسم الثالث من السنن الكبرى لإمام النسائي)

الإنتاج العلمي

١. «العرف الوردي في أخبار المهدي» للسيوطي دراسة وتحقيق

٢. «الأحاديث المسندة المرفوعة من كتاب الفتن لنعيم بن حماد» دراسة وتحقيق

٣. «العقود الدرية في الرد على الموسوعة العبرية»

٤. «الجماعة الأحمدية في ميزان الإسلام»

٥. «جزء ابن فيل البالسي» دراسة وتحقيق

بحوث ودراسات

١. السلام في الإسلام

٢. حقوق الإنسان في الإسلام

٣. نموذج الإنسان المرتكز على التوحيد

٤. هوية الإنسان المسلم

٥. منهج النورسي في القصص القرآني

٦. الغذاء والتغذية من ضوء الكتاب والسنة

٧. حكم الإسلام في الموت الرحيم ونزع أجهزة الإنعاش

د. عروة صبري*

مقدمة

يعد علم أصول الفقه من أدق العلوم الشرعية حيث إنه يمثل المنهج الذي لا بد من الالتزام به من أجل الوصول إلى الحكم الشرعي العملي، فهو يضبط عمل الفقيه ويجنبه الوقوع في الخطأ الناتج عن عدم فهمه لمقاصد النص الشرعي ودلالاته.

وفي هذا المبحث فإننا سنلقي الضوء على أهم موضوعات هذا العلم، من حيث تعريف علم أصول الفقه ونشأته والغاية المقصودة منه، وأهم المؤلفات التي ألفت فيه، ثم التعريف بأهم الموضوعات التي يحثت ضمن مباحث علم الأصول ومنها: التعريف بالحكم الشرعي وأنواعه، والمكلف وأهليته، ومصادر الأحكام الشرعية ودلالات الألفاظ والاجتهاد والفتوى والتقليد. ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفق طلبتنا الأعزاء لما يحب ويرضى وأن يعينهم في طلب العلم إنه سميع مجيب.

تعريف علم أصول الفقه

الأصول لغة جمع كلمة أصل ومعناه ما يبنى عليه الشيء سواء كان حسياً أو معنوياً، فيقال أصل البناء أي أساسه. أما في الاصطلاح فله عدة معان من أشهرها: ما يبنى عليه غيره ولا ينبني هو على غيره، وهو ما يثبت حكمه بنفسه ويبنى عليه غيره.[1]

وعرف الفقه لغة بأنه العلم بالشيء والفهم له[2]، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: (وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...)[3]

أما تعريفه في الاصطلاح: فقد وردت عدة تعريفات له من أشهرها: معرفة النفس مالها وما عليها عملاً[4].

وعرف بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية[5] ومن خلال التعريف السابق نلاحظ أن علم الفقه يختص بالأحكام الشرعية العملية كأحكام الصلاة والصيام والزكاة والمعاملات. دون الأحكام الأخرى كالأحكام الاعتقادية.

أما المقصود بالأدلة التفصيلية، فهي الأدلة الفرعية التي تستنبط منها الأحكام الشرعية العملية التي لا بد أن يكون لها دليل شرعي كالقرآن والسنة والإجماع.

وبعد بيان المعنى الاصطلاحي لكل من الأصول والفقه نلاحظ أن معنى أصول الفقه يدور حول الأساس الذي بني عليه علم الفقه. لذلك فإن علم الأصول عرف بأنه العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه[6]، وعرف بأنه العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية[7]. وكذلك عرف علم الأصول بأنه العلم بمجموع طرق الفقه على سبيل الإجمال، وكيفية الاستدلال بها وكيفية حال المستدل بها[8].

ومن خلال التعريفات السابقة نلاحظ أن علم الأصول متعلق بعلم الفقه فمن خلاله يمكن للفقيه أن يتوصل إلى الحكم الشرعي. فعلم الأصول يمثل المنهج والأسس التي لا بد للفقيه أن يلتزم بها حتى يتوصل إلى الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية بطريقة سليمة ويظهر هذا التفصيل من خلال التعريف السابق عندما

---

* محاضر في جامعة القدس- القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] الجرجاني: التعريفات ص ٢٨.

[2] ابن منظور: لسان العرب ج ١٧ص ٤١٩، ٤١٨.

[3] سورة الإسراء آية ٤٤.

[4] صدر الشريعة: شرح التوضيح ج ١ص ١٠.

[5] الجرجاني: التعريفات ص١٦٨.

[6] المصدر السابق ص٢٨.

[7] ابن بدران: المدخل لمذهب الإمام أحمد ص٥٨.

[8] الرازي:المحصول ج ١ص٩٤، ٩٥.

ذكر «كيفية الاستدلال بها» فهذه تدل على ضبط علم الأصول لفهم الفقيه للنص الشرعي ولتعامله مع الأدلة.

أما حال المستدل فالمقصود هنا الشروط التي لا بد من توافرها في الفقيه حتى يصلح لأن يكون مجتهداً قادراً على الوصول إلى الحكم الشرعي بطريقة سليمة.

موضوعات علم أصول الفقه والغاية المقصودة منه

يتناول علم أصول الفقه العديد من الموضوعات التي تحقق جملة من الأهداف يمكن تلخيصها في النقاط الآتية[٩]:

١. بيان طرق استنباط الحكم الشرعي، وذلك بدراسة الأدلة وبيان مراتب حجيتها، فهذا العلم يبين علاقة الأدلة مع بعضها وماذا نقدم في الاستدلال فهو الذي يبين حجية القرآن وتقديمه على السنة وأنه أصل الشريعة.

٢. دراسة دلالات النصوص الشرعية فيبين القطعي منها والظني ويبين كيفية التعامل مع النصوص الواضحة والنصوص الخفية كما يدرس العام والخاص والمطلق والمقيد.

٣. تطبيق القواعد التي توصل لها علماء الأصول على الأدلة التفصيلية للتوصل إلى الأحكام الشرعية. فبقواعد وبحوث أصول الفقه تفهم النصوص الشرعية ويعرف ما تدل عليه من أحكام. ومن الأمثلة على ذلك أن علماء الأصول وضعوا قاعدة (الأمر يفيد الوجوب ما لم ترد قرينة تصرف الوجوب إلى غيره) فهذه القاعدة لو طبقناها على النص الشرعي كقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَوْفُواْ بِالْعُقُودِ...)[١٠] فإننا نجد أن في الآية أمراً بالوفاء بالعقود وبما أن القاعدة السابقة نصت على أن الأمر يفيد الوجوب فيكون الحكم وجوب الوفاء بالعقد، فالأصولي يضع القاعدة ثم يكون التطبيق من الفقيه الذي يتوصل إلى الحكم الشرعي.

٤. تناول أحوال المكلفين بالأحكام الشرعية من حيث بيان معنى الحكم الشرعي وأنواعه وعلاقة المكلفين به، وبيان أهلية التكليف والعوارض التي يمكن أن تعرض لهذه الأهلية.

٥. الترجيح بين الأدلة التي يكون ظاهرها التعارض بالمرجحات المعتبرة، وبيان كيفية التعامل مع النصوص المتعارضة من الجمع والتوفيق أو الترجيح للوصول في النهاية إلى الرأي الفقهي الراجح.

٦. وضع الضوابط والقواعد التي تضبط الأدلة التبعية كالقياس والاستحسان والمصلحة المرسلة والعرف وسد الذرائع وغيرها من المصادر.

٧. وضع قواعد الاجتهاد والشروط التي لا بد من توافرها في المجتهد حتى يكون أهلاً للاجتهاد والإفتاء.

نشأة علم أصول الفقه

إن المتتبع والناظر في تاريخ الفقه الإسلامي وأصوله يجد أنهما وجدا مع وجود رسالة الإسلام، فالأحكام الشرعية التكليفية شرعت مع بداية الدعوة الإسلامية ولكنها في البداية كانت قليلة خاصة في الفترة المكية، ثم توسعت هذه الأحكام بعد الهجرة النبوية[١١]. وللتعرف على تاريخ علم أصول الفقه الإسلامي فإنه يمكن بيان ذلك من خلال النقاط الآتية:

أولاً: علم الأصول زمن النبي صلى الله عليه وسلم

كانت الأحكام الشرعية في حياة النبي صلى الله عليه وسلم تتمثل في الآيات القرآنية والسنة النبوية، وكان الصحابة -رضوان الله عليهم- إذا عرضت لهم المسائل الفقهية يتوجهون بالسؤال للنبي صلى الله عليه وسلم فيجيبهم عنها، فإن لم يكن على علم بها فإنه ينتظر نزول الوحي ليبلغه حكم الله في المسألة.

لذلك فإن الحاجة إلى بلورة علم الأصول لم تكن ملحة في هذه الفترة، وكانت الأحكام الفقهية تتمثل بالقرآن والسنة[١٢] إلا أنه يمكن القول إن المنهج الأصولي كان له وجود زمن النبي صلى الله عليه وسلم وإن لم يحمل اسم علم أصول الفقه، حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يرشد أصحابه إلى ضرورة الرجوع إلى القرآن الكريم ثم السنة النبوية في استنباط الأحكام الشرعية ثم الاجتهاد، وهذا الأمر يدخل ضمن ترتيب الأدلة في علم أصول الفقه.

فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن فقال له: بم تقضي إذا عرض عليك قضاء؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال: بسنة رسول الله، قال فإن لم يكن؟ قال: اجتهد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم.[١٣] وكذلك، فإن سكوت النبي صلى الله عليه وسلم في العديد من المسائل التي كان يسأل عنها انتظاراً لنزول الوحي يعد من المنهج الأصولي ففيه إرشاد إلى ضرورة التوقف في المسائل التي ورد فيها نص شرعي حتى يتم العلم به.

---

[٩] انظر: الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام ج١ص٩، خلاف: علم أصول الفقه ص١٣، ١٤ أبو زهرة: أصول الفقه ص٨،٩.

[١٠] سورة المائدة آية ١.

[١١] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٥، أبو زهرة: أصول الفقه ص ١١، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٣، ١٤.

على علم ودراية بمقاصد التشريع وأسباب نزول الآيات القرآنية والناسخ والمنسوخ منها، لذلك فإن علم الأصول لم يظهر في هذه الفترة بشكل مستقل، إنما كان في ذهن الصحابة وعقولهم، حيث ورد عنهم ما يدل على وجود المنهج الأصولي عندهم.

فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله، فإن وجد فيه ما يقضي به، قضى به، وإن لم يجد في كتاب الله نظر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن وجد فيها ما يقضي به قضى به، فإن أعياه ذلك جمع رؤساء الناس فاستشارهم فإذا اجتمع رأيهم على شيء قضى به، وكان عمر يفعل ذلك. وكتب عمر بن الخطاب إلى شريح قاضي الكوفة: «إذا وجدت شيئاً في كتاب الله فاقض به ولا تلتفت إلى غيره، وإن أتاك شيء ليس في كتاب الله فاقض بما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم. فإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولم يسن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بما أجمع عليه الناس، وإن أتاك ما ليس في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتكلم فيه أحد قبلك فإن شئت أن تجتهد رأيك فتقدم وإن شئت فتأخر وما أرى التأخر إلا خيراً لك»[15].

ثالثاً: علم الأصول زمن التابعين[16]

في هذه الفترة توسعت دائرة الاجتهاد بسبب كثرة الوقائع المستجدة التي تبعت حركة الفتوحات الإسلامية، وظهرت في هذه المرحلة مناهج مختلفة في الاجتهاد فكان من الفقهاء من هو مكثر من الرأي والاجتهاد والأخذ بالقياس ومنهم من هو مقل وتمثل ذلك بوجود مدرستين فقهيتين، مدرسة أهل الرأي في الكوفة، ومدرسة أهل الحديث في المدينة المنورة. إلا أن علم الأصول لم يظهر في هذه الفترة بشكل مستقل عن علم الفقه رغم وجود مناهج مختلفة في الاجتهاد عند فقهاء المدرستين.

رابعاً: ظهور علم أصول الفقه بشكل مستقل مع وجود المذاهب الأربعة[17]

يمكن القول إن علم أصول الفقه ظهر بشكل مستقل مع وجود المذاهب الفقهية الأربعة، فقد كان لكل مذهب فقهي منهج اجتهادي خاص به، وقد ورد عن أئمة المذاهب الأربعة ما يعبرون إلا أن هذا الكتاب لم يصلنا وهو غير متداول بين طلبة العلم. ولكن المشهور عند علماء الأصول أن أول من ألف في هذا العلم هو الإمام الشافعي رحمه الله الذي ألف كتاباً سماه «الرسالة» وهو كتاب مطبوع وموجود في المكتبات العامة والخاصة، ويتداوله طلبة العلم بكثرة ويتدارسونه لما له من قيمة علمية كبيرة.

أهم مؤلفات علم أصول الفقه[18]

بعد أن بدأت حركة التأليف في علم الأصول زمن الأئمة الأربعة وخاصة ما قام به الإمام الشافعي من تأليف كتاب الرسالة، ظهرت المؤلفات الأصولية بشكل واضح، حيث قام علماء كل مذهب من المذاهب الفقهية بتأليف الكتب الأصولية التي تشرح من خلالها المنهج الأصولي الذي اعتمده إمام المذهب وسار عليه تلاميذه من بعده وقد سلك علماء الأصول قديماً وحديثاً عدة طرق في التأليف الأصولي يمكن بيانها من خلال النقاط الآتية:

أولاً: طريقة المتكلمين

وقد سلك هذه الطريقة كل من علماء المالكية والشافعية والحنابلة، وسميت هذه الطريقة بهذا الاسم لأن من ألف كتب الأصول على هذه الطريقة قد تأثر بعلماء الكلام والمنطق في كيفية التأليف حيث إن طريقتهم تقوم على أساس نظري مجرد عن المسائل الفقهية التي صدرت عن أئمة المذاهب، فقد حقق علماء هذه الطريقة قواعد هذا العلم وبحوثه تحقيقاً نظرياً وأثبتوا ما أيده البرهان والدليل، ولم يجعلوا وجهتهم انطباق هذه القواعد على ما استنبطه الأئمة المجتهدون من الأحكام ولا ربطها بتلك الفروع، ومن أشهر الكتب التي ألفت على هذه الطريقة:

١. المعتمد في أصول الفقه لأبي الحسين البصري.
٢. البرهان في أصول الفقه لإمام الحرمين عبد الملك الجويني.
٣. المستصفى من علم الأصول لأبي حامد الغزالي.
٤. المحصول في علم أصول الفقه لفخر الدين الرازي.
٥. الإحكام في أصول الأحكام لسيف الدين الآمدي.

---

[15] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٥، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٥.
[16] ابن القيم: إعلام الموقعين ج١ ص٦٢،٦١.
[17] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٥، أبو زهرة: أصول الفقه ص ١١،١٢، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٥.
[18] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٦،١٧، أبو زهرة: أصول الفقه ص١٣،١٢، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٥، ١٦.
[19] انظر: خلاف: علم أصول الفقه ص ١٨، ١٩، أبو زهرة:أصول الفقه ص ١٨-٢٤، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٦-١٩.

ثانياً: طريقة الحنفية

وقد سلك هذه الطريقة علماء المذهب الحنفي حيث قامت طريقتهم على أساس النظر إلى القواعد والبحوث الأصولية التي رأوا أن أئمتهم بنوا عليها اجتهادهم وذلك من خلال النظر إلى الفروع الفقهية المنقولة عنهم، لذلك فإن هذه القواعد كانت تنسجم مع المسائل والفروع الفقهية دون وجود تعارض بينها.

ومن أشهر الكتب التي ألفت على هذه الطريقة:

١. أصول الكرخي لأبي الحسن الكرخي.
٢. تأسيس النظر للدبوسي.
٣. أصول السرخسي لأبي بكر السرخسي.
٤. ميزان الأصول في نتائج العقول لعلاء الدين السمرقندي.
٥. كشف الأسرار على المنار لحافظ الدين النسفي.

ثالثاً: طريقة الجمع بين طريقة المتكلمين وطريقة الحنفية

وقد سلك هذه الطريقة علماء من المذاهب الأربعة وهي تقوم على أساس الجمع بين الطريقتين السابقتين حيث قام علماء هذه الطريقة بتقرير القواعد الأصولية المجردة عن المسائل الفقهية مع إقامة الأدلة على صحة هذه القواعد والنظر إلى المنقول عن الأئمة من الفروع الفقهية وبيان الأصول التي قامت عليها تلك الفروع وتطبيق القواعد عليها وربطها بها.

ومن أشهر الكتب المؤلفة على هذه الطريقة:

١. شرح التلويح على التوضيح لسعد الدين التفتازاني.
٢. التقرير والتحبير لابن أمير الحاج.
٣. جمع الجوامع لإبن السبكي.
٤. تيسير التحرير لأمير بادشاه.
٥. بديع النظام الجامع بين كتابي البزدوي والإحكام للساعاتي.

رابعاً: طريقة المعاصرين في التأليف الأصولي

وتقوم هذه الطريقة على أساس عرض مفردات علم أصول الفقه بطريقة معاصرة مع بيان الآراء المختلفة لعلماء الأصول في بعض الموضوعات ومناقشة آرائهم.

ومن أشهر الكتب المؤلفة على هذه الطريقة:

١. علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف.
٢. أصول الفقه لمحمد أبي زهرة.
٣. الوجيز في أصول الفقه لعبد الكريم زيدان.
٤. المناهج الأصولية لفتحي الدريني.
٥. أصول الفقه لمحمد الخضري.

تعريف بعض مباحث علم أصول الفقه

تعد مباحث وموضوعات علم أصول الفقه كثيرة وقد سبق أن ذكرنا أهم عناوين هذه المباحث، إلا أننا في هذا المقام سنشرح وبشكل مختصر بعضاً من هذه المباحث حتى يتم التعرف أكثر على هذا العلم الجليل، حيث سنعرّف القارئ بالموضوعات الآتية:

١. الحكم الشرعي وأنواعه.
٢. المكلف وأهليته.
٣. مصادر الأحكام الشرعية (الأدلة الشرعية).
٤. الدلالات اللفظية.
٥. الاجتهاد والإفتاء والتقليد.

الحكم الشرعي وأنواعه

تعريف الحكم الشرعي: هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين بالاقتضاء أو التخيير أو الوضع[١٩]. والمقصود بخطاب الله، كلام الله المباشر وهو القرآن الكريم ويلحق به ما أوحى الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من السنة النبوية المطهرة، بالإضافة إلى سائر الأدلة الشرعية الاجتهادية التي هي كاشفة لخطاب الله ومظهرة للحكم الشرعي أما المقصود بالاقتضاء أي الطلب سواء كان طلب فعل أم تركه. أما التخيير فمعناه التسوية بين فعل الشيء وتركه دون ترجيح أحدهما على الآخر ومعنى الوضع، جعل شيء سبباً لآخر أو شرطاً له أو مانعاً منه.[٢٠]

أقسام الحكم الشرعي

بناء على تعريف الحكم الشرعي السابق فإن الحكم الشرعي ينقسم إلى قسمين:الحكم التكليفي والحكم الوضعي.

الحكم التكليفي: هو ما يقتضي طلب الفعل أو الكف عنه أو التخيير بين الفعل والترك[٢١].

كما ينقسم الحكم التكليفي إلى خمسة أقسام هي: الإيجاب والندب والتحريم والكراهة والإباحة، وبناء على ذلك فإن الأفعال التي تترتب على الأحكام الخمسة هي:

١- الواجب: هو ما طلب الشارع فعله من المكلف على سبيل الحتم والإلزام[٢٢].ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

[١٩] الشوكاني، إرشاد الفحول، ص ٦

الترجيح لا الإلزام[24]. ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ...)[25] فهذه الآية تتضمن طلباً من الشارع بكتابة الدين لتوثيقه وحفظ الحقوق، إلا أن هذا الطلب ليس على سبيل الحتم والإلزام لقوله سبحانه وتعالى في الآية التي تليها: (...فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ...)[26] ويطلق على المندوب عدة عبارات منها السنة والنافلة والمستحب والتطوع والإحسان والفضيلة والقربة والرغيبة. مع ملاحظة وجود اختلاف في المعنى الاصطلاحي للعبارات السابقة عند بعض العلماء[27].

٣- المحرم: هو ما طلب الشارع الكف عن فعله على سبيل الحتم والإلزام[28]. ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[29]. فالآية الكريمة تتضمن طلباً جازماً باجتناب الخمر، فيكون شرب الخمر محرما، وهذا ينطبق على باقي المحرمات في نفس الآية.

٤- المكروه: هو ما طلب الشارع من المكلف الكف عن فعله على سبيل الترجيح لا الإلزام.[30] ومثال ذلك: حديث السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال في الصوم رحمة لهم، فقالوا: يا رسول الله إنك تواصل فقال: إني لست كأحد منكم إني يطعمني ربي ويسقيني.[31] فالحديث الشريف السابق يتضمن طلبا بالكف

لأحدهما على الآخر[32] ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: (أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ...)[33]. فالآية تتضمن بيان إباحة حل صيد البحر وطعامه دون تكليف بالفعل أو الترك، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن علماء الحنفية قد أضافوا إلى التقسيم السابق قسمين آخرين هما:

١- الفرض: هو ما طلب الشارع فعله طلبا جازماً إذا كان دليله قطعياً في ثبوته أي آية قرآنية أو حديثاً متواتراً[34]، ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)[35] فالأمر بالصيام هنا يعد فرضاً لأنه طلب طلباً جازماً بدليل قطعي في ثبوته وهو الآية السابقة. وبناء على تعريف الفرض السابق فإنه هو الواجب عند جمهور الفقهاء إلا أن الحنفية عدوا الفرض ما كان دليله قطعياً، والواجب ما كان دليله ظنياً ومثاله قوله:صلى الله عليه وسلم «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب[36] فهذا دليل على أن قراءة الفاتحة في الصلاة واجبة لأن الحديث السابق هو ظني في ثبوته[37].

٢- المكروه تحريماً: هو ما طلب الشارع من المكلف الكف عن فعله طلباً جازماً بدليل ظني[38] ومثال ذلك: ما قاله

---

[23] سورة المائدة آية ١.
[24] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٩، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٩.
[25] سورة البقرة آية ٢٨٢.
[26] سورة البقرة آية ٢٨٣.
[27] الشوكاني: إرشاد الفحول ص ٦، ابن بدران: المدخل لمذهب الإمام أحمد ص ٦٢، المحلي: شرح المحلي على جمع الجوامع ج ١ ص ٩٠، ٩١
[28] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٤٢، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٤١.
[29] سورة المائدة آية ٩٠.
[30] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٤٥، ٤٦، زيدان: الوجيز في أصول فقه ص ٤٥، ٤٦.
[31] البخاري: صحيح البخاري كتاب الصوم باب (الوصال ومن قال ليس في الليل صيام) ج ٣ص ٤٨، مسلم: صحيح مسلم كتاب الصيام باب النهي عن الوصال في الصوم ج٣ ص١٣٤.
[32] خلاف: علم أصول الفقه ص ١١٥، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٩.
[33] سورة المائدة آية ٩٦.
[34] النسفي: كشف الأسرار ج ١ص، ٤٥، المحلي: شرح المحلي على جمع الجوامع ج ١ص ٨٩.
[35] سورة البقرة آية ١٨٣.
[36] البخاري: صحيح البخاري كتاب الصلاة باب (وجوب القراءة للإمام والمأموم) ج ١ص ١٩٢، مسلم: صحيح مسلم كتاب الصلاة باب (قراءة الفاتحة في كل ركعة) ج٢ ص٩.
[37] النسفي: كشف الأسرار ج١ ص ٤٥١، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٣١، ٣٢.
[38] خلاف: علم أصول الفقه ص ١١٥، ١١٦، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٤٦.

الحنفية من الكراهة التحريمية للبس الرجل للذهب والحرير، حيث إن ذلك ورد بدليل ظني في ثبوته[٣٩].

والمكروه تحريماً هو الحرام عند جمهور العلماء لأنه يفيد النهي عن الفعل نهياً جازماً، أما الحرام عند الحنفية فهو ما كان دليل تحريمه دليلاً قطعياً في ثبوته كالقرآن الكريم أو السنة المتواترة[٤٠] ومثال ذلك قوله سبحانه وتعالى: (وَلاَ تَقْرَبُواْ الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً)[٤١] فإن حكم الزنا أنه محرم لأنه ثبت في القرآن الكريم ولا بد من التنبيه هنا إلى أن الدليل الظني لا يعني أنه دليل ضعيف، إنما هو ظني مقارنة مع الدليل القطعي.

الحكم الوضعي: وهو جعل شيء سبباً لشيء آخر أو شرطاً له أو مانعاً أو بيان صحة تصرف المكلف من فساده وبطلانه أو رخصة وعزيمة[٤٢] وبناء على التعريف السابق فإن الحكم الوضعي ينقسم إلى الأقسام الآتية:

١. السبب: هو الوصف الظاهر المنضبط الذي جعله الشارع مناطاً لحكم شرعي فيستلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم[٤٣] ومثاله: قوله سبحانه وتعالى: (أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ . . .)[٤٤] فالآية الكريمة السابقة بينت أن سبب وجوب صلاة الظهر هو دخول الوقت بدلوك الشمس أي بزوالها، ويلزم من ذلك أنه إذا لم يدخل الوقت فإن الصلاة لا تجب[٤٥].

٢. الشرط: هو وصف ظاهر منضبط يترتب على انعدامه انعدام غيره، ولا يترتب على وجوده وجود غيره، فهو مما يتوقف ثبوت الحكم عليه[٤٦]. ومثاله: حديث النبي صلى الله عليه وسلم «لا نكاح إلا بولي»[٤٧]. فالحديث الشريف اشترط لصحة عقد النكاح وجود الولي، فهذا يعني أنه إذا لم يوجد الولي فإن العقد لا يصح، ولكن الشرط إذا وجد فإن وجوده لا يستلزم وجود الحكم، فلا يلزم من وجود الولي وجود النكاح، فيكون الشرط هنا يختلف عن الركن وهذا هو تفسير عبارة التعريف السابق «ولا يترتب على وجوده وجود غيره»[٤٨].

٣. المانع: هو وصف ظاهر منضبط يلزم من وجوده عدم الحكم أو بطلان السبب[٤٩]، ومثال ذلك: المحرم بالحج والعمرة لا يجوز له صيد البر لأن الإحرام يعد مانعاً له[٥٠]. و القاتل الذي يقتل مورثه لا يرث منه، لأن القتل مانع من الميراث رغم وجود أركان الميراث وأسبابه وشروطه[٥١].

٤. الصحيح: ما اجتمعت أركانه وشرائطه حتى يكون معتبراً في حق الحكم، فهو مما يعتمد عليه[٥٢] ومعنى هذا أن الفعل إذا وجد وفق ما طلب الشرع بأن تحققت أركانه وتوافرت شروطه فهذا يعني أن الفعل صحيح فمن صلى مع مراعاة أركان الصلاة وشروطها فإن هذا، يعني صحتها وعدم وجوب إعادتها أو قضائها، وكذلك في جانب المعاملات فلو عقد المكلف عقداً صحيحاً كعقد البيع مثلاً بوجود الأركان والشروط. فإن صحته تعني ترتب الآثار على هذا العقد بتسليم الثمن وتسلم السلعة المبيعة[٥٣].

٥- الباطل: هو الذي لا يكون صحيحاً بأصله ولا يعتد به ولا يفيد شيئاً[٥٤] وهذا يعني أن الفعل إذا اختل فيه ركنه أو شرط من شروطه، فهذا يؤدي إلى عدم ترتب الآثار الشرعية عليه، فإن كان من العبادات فهذا يعني عدم صحتها وضرورة إعادتها، وإن كان من المعاملات فإنه لا تترتب عليه آثاره الكاملة،

---

[٣٩] خلاف: علم أصول الفقه ص ١١٦.
[٤٠] خلاف: علم أصول الفقه ص ١١٥، ١١٦، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٤٦.
[٤١] سورة الإسراء آية ٣٢.
[٤٢] ابن بدران: المدخل لمذهب الإمام أحمد ص ٦٥، ٦٦، خلاف: علم أصول الفقه ص ١١٧.
[٤٣] ابن بدران: المدخل لمذهب الإمام أحمد ص ٦٧، الشوكاني: إرشاد الفحول ص٦.
[٤٤] سورة الإسراء آية ٧٨.
[٤٥] خلاف: علم أصول الفقه ص ١١٧.
[٤٦] الجرجاني: التعريفات ص ١٢٥، ابن بدران: المدخل لمذهب الإمام أحمد ص ٦٨، الشوكاني: إرشاد الفحول ص ٧.
[٤٧] أبو داود: سنن أبي داود كتاب النكاح باب (في الولي)، ج٢ص٦٣٥ برقم (٢٠٨٥)، الترمذي: سنن الترمذي كتاب النكاح باب (ما جاء لا نكاح إلا بولي) ج ٣ص ٤٠٧ برقم (١١٠١)، ابن ماجة: سنن ابن ماجة كتاب النكاح باب (لا نكاح الا بولي) ج١ ص٦٠٥ برقم (١٨٨١)،ابن حنبل مسند أحمد ج٤ ص٣٩٤، ٤١٣، الدارمي: سنن الدارمي، كتاب النكاح باب (النهي عن النكاح بغير ولي) ج١ ص٦٢٠ برقم (٢١٨٣)، الدار قطني: سنن الدار قطني كتاب النكاح ج٣ص٢١٨، ٢١٩، البيهقي: سنن البيهقي، كتاب النكاح باب (لا نكاح الابولي) ج٧ ص ١٠٧.
[٤٨] خلاف: علم أصول الفقه ص ١١٩، أبو زهرة: أصول الفقه ص ٥٩.
[٤٩] الشوكاني: إرشاد الفحول ص ٧، خلاف: علم أصول الفقه ص ١٢٠.
[٥٠] الطوفي: شرح مختصر الروضة ج ١ص ٤٣٨.

ووصفه فيكون الخلل فيه راجعاً إلى أركان العقد، أما الفاسد فهو ما كان مشروعاً بأصله دون وصفه، فيكون الخلل راجعاً إلى أوصاف العقد لا إلى أركانه. ومثال الباطل عند الحنفية الزواج بإحدى المحرمات من النكاح مع العلم بذلك. أما مثال الفاسد عندهم فهو إجراء عقد البيع مع جهالة الثمن، والمهم هنا هو معرفة الأثر المترتب على كل من الباطل والفاسد، فالباطل لا يترتب عليه أي أثر فالزواج من إحدى المحرمات من النكاح يعد باطلاً لا يترتب عليه آثار عقد الزواج من وجوب المهر والنفقة وثبوت التوارث بين الزوجين. أما الفاسد فإنه تترتب عليه بعض الآثار فجهالة الثمن في عقد البيع التي هي سبب فساده يمكن بيانها والاتفاق على تحديدها وبذلك تترتب بعض الآثار حال فساده باعتبار وجود الصيغة وسائر الشروط، وبعد التصحيح تترتب سائر الآثار الشرعية[٥٦].

٦. الرخصة: هي ما شرعه الله من الأحكام تخفيفاً على المكلف في حالات خاصة تقتضي هذا التخفيف[٥٧]، فالرخصة مبناها التيسير والتخفيف لوجود العذر مع بقاء حكم الأصل، فإذا ما زال العذر رجعنا إلى حكم الأصل[٥٨].

ومن أنواع الرخصة الشرعية:

أ. إباحة المحظورات حفاظاً على الضروريات كإباحة أكل لحم الخنزير خوفاً من الهلاك جوعاً.

ب. إباحة ترك الواجب كإباحة الإفطار للصائم في رمضان بسبب المرض الشديد.

ت. تصحيح بعض العقود التي يحتاجها الناس، وإن لم تجر على القواعد العامة، كإباحة الوصية التي هي تمليك للموصى له بعد موت الموصي، فهذا تصرف على خلاف القواعد العامة التي تمنع تصرف الميت بوفاته، ولكن أبيحت حثاً على فعل الخير[٥٩].

ذلك: صوم رمضان، وجوب القيام في صلاة الفريضة، حرمة أكل لحم الخنزير.

المكلف وأهليته

المقصود بأهلية المكلف صلاحيته للإلزام والالتزام بمعنى أن يكون الشخص صالحاً لأن تثبت له حقوق على غيره، وأن يكون صالحاً لأن يلتزم بالحقوق لغيره[٦٢]، والأهلية تنقسم إلى قسمين أهلية وجوب وأهلية أداء.

أهلية الوجوب: هي صلاحية الإنسان لأن تثبت له الحقوق وتجب عليه الواجبات.

وهذه الأهلية تنقسم إلى قسمين:

أ. أهلية وجوب كاملة، وهذه تثبت لكل إنسان بمجرد ولادته وحتى وفاته، وهذه الأهلية تؤهل الإنسان لأن تثبت له حقوق وتجب عليه الواجبات.

ب. أهلية وجوب ناقصة، وهذه تثبت للجنين بمجرد ثبوته في رحم أمه حتى ولادته وهذه الأهلية تثبت للجنين حقوقاً ولا تثبت عليه واجبات، فيثبت له الحق في الميراث وتجوز له الوصية، وفي نفس الوقت لا تجب عليه النفقة أو الزكاة[٦٣].

أهلية الأداء: هي صلاحية المكلف لأن تعتبر شرعاً أقواله وأفعاله. أي أنه إذا صدر منه عقد أو تصرف كان معتبراً شرعاً وتترتب عليه أحكامه. وتنقسم أهلية الأداء إلى قسمين:

أ. أهلية أداء كاملة: وهذه تثبت ببلوغ المكلف عاقلاً، وبوجود هذه الأهلية فإن المكلف يمكنه القيام بالتصرفات التي تترتب عليها آثارها الشرعية كإجراء العقود.

---

[٥٥] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٢٦، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٦٥.

[٥٦] السمرقندي: ميزان الأصول ص ٣٩، ابن بدران: المدخل لمذهب الإمام أحمد ص ٦٩. خلاف: علم أصول الفقه ص ١٢٦، زيدان: الوجيز في أ صول الفقه ص ٦٦، ٦٧.

[٥٧] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٢١.

[٥٨] النسفي: كشف الأسرار ج ١ص ٤٤٨، ٤٤٩.

[٥٩] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٢١، ١٢٢، زيدان، الوجيز في أصول الفقه ص ٥١، ٥٢.

[٦٠] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٢١.

[٦١] النسفي: كشف الأسرار ص ٤٤٧،٤٤٨.

[٦٢] أبو زهرة:أصول الفقه ص ٣٢٩.

[٦٣] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٢٩-٣٣١، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٩٢،٩٣.

ب. أهلية أداء ناقصة: وهذه تثبت للصبي المميز الذي لم يبلغ الحلم إلى أن يصل إلى سن البلوغ، وتثبت أيضاً للمعتوه لأنه ضعيف العقل وليس فاقداً له. ويترتب على نقصان أهلية الأداء تقييد تصرفات ناقص الأهلية على النحو الآتي:

١. إن كانت تصرفات ناقص الأهلية تحقق نفعاً محضاً له كقبول الهبة أو الوصية فهذه التصرفات تصح منه.
٢. إن كانت تصرفاته تحقق ضرراً محضاً له كتبرعه بماله للغير، فإن هذا التصرف يعد باطلاً ولا يجيزه وليه.
٣. إن كانت تصرفاته مترددة بين النفع والضرر، فإن هذا النوع من التصرفات لا يعد باطلاً مطلقاً، بل يكون موقوفاً حتى يجيزه الولي، وذلك كعقد البيع والإجارة[٦٤].

عوارض الأهلية

المقصود بعوارض الأهلية، ما يعرض لأهلية الأداء من الأمور مما يؤدي إلى إزالتها أو إنقاصها أو تغيير بعض الأحكام بالنسبة لمن عرضت له. وهذه العوارض تنقسم إلى عوارض سماوية وعوارض كسبية.

العوارض السماوية: وهي العوارض التي تثبت بدون اختيار الإنسان، ونسبت للسماء هنا لأنها خارج قدرته، ومن أمثلتها الجنون والعته الذي هو أقل درجة من الجنون، والنوم والإغماء والنسيان والمرض.

العوارض الكسبية: ونعني بها العوارض التي يكون فيها للإنسان كسب واختيار وهي نوعان:

أ. عوارض كسبية من نفس الإنسان كالسكر والهزل والسفه والجهل والخطأ.
ب. عوارض كسبية من غير الإنسان نفسه كالإكراه.[٦٥]

مصادر الأحكام الشرعية

نعني بالمصادر الشرعية هنا، الأدلة التي لا بد أن يستند إليها الفقيه عند استنباطه للحكم الشرعي. ويطلق على هذه المصادر، أدلة الأحكام وأصول الأحكام، والمصادر التشريعية للأحكام[٦٦] وإذا كانت المصادر تعني هنا الأدلة فإن علماء الأصول قد عرفوا الدليل بأنه: ما يستدل بالنظر الصحيح فيه على حكم شرعي عملي على سبيل القطع أو الظن[٦٧] ومن خلال التعريف السابق نلاحظ أن الاستدلال لابد له من نظر صحيح، أي نظرة علمية سليمة، فلا يكفي أن يساق الدليل على حكم ما، بل لا بد أن يكون الاستدلال صحيحاً ونلاحظ أيضاً أن الأدلة منها ما يكون قطعياً كالقرآن الكريم ومنها ما يكون ظنياً كالأدلة الاجتهادية.

وتنقسم مصادر الأحكام الشرعية إلى قسمين[٦٨]:

١. مصادر أساسية: وهذه تتمثل بالقرآن والسنة باتفاق العلماء، وبالإجماع والقياس كما يرى أغلب علماء الأصول.
٢. مصادر تبعية: وهذه محل خلاف بين علماء الأصول من حيث اعتبارها دليلاً تشريعياً مستقلاً، ومن هذه المصادر: الاستحسان والمصلحة المرسلة، وسد الذرائع والاستصحاب، والعرف، وفتوى الصحابي، وعمل أهل المدينة، وشرع من قبلنا، والاستقراء، والأخذ بأقل ما قيل. وحتى يتم التعرف أكثر على هذه المصادر فإننا سنلقي الضوء بالتوضيح المختصر لبعض هذه المصادر.

أولاً: القرآن الكريم

القرآن الكريم أشهر من أن يعرف، إلا أن علماء الأصول اهتموا بتعريفه، وورد عنهم أكثر من تعريف له، لأنهم كانوا حريصين على أن يعرفوه بتعريف جامع مانع. ويمكن استخلاص التعريف الآتي من جملة هذه التعريفات: هو كلام الله المنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بوساطة جبريل عليه السلام بلسان عربي للإعجاز، المتعبد بتلاوته، المنقول إلينا بالتواتر، المكتوب بين دفتي المصحف المبدوء بسورة الفاتحة المختوم بسورة الناس[٦٩].

والقرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر التشريع، وحتى تتم معرفة أي حكم شرعي فإنه لا بد أولاً من الرجوع إليه، لأنه لا يصح أي حكم يخالف آية من آياته[٧٠] وقد وضع علماء الأصول عدة قواعد لغوية توصل إلى فهم القرآن فهماً صحيحاً، حيث على الفقيه الالتزام بها عند استنباط الحكم الشرعي من الآية القرآنية، وسنشير إلى بعض من هذه القواعد عند الحديث عن الدلالات اللفظية.

---

[٦٤] النسفي: كشف الأسرار ج٢ص٤٦٦-٤٧٥، خلاف: علم أصول الفقه ص ١٣٦-١٣٨، أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٣٤،٣٣٣، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص٩٨،٩٧.

[٦٥] ملاجيون: نور الأنوار على المنار ج٢ص ٤٧٧، أبو زهرة: أصول الفقه ص٣٣٩. زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٠١.

[٦٦] خلاف: علم أصول الفقه ص٢٠.

وأفعال وتقريرات. أما المقصود بالأقوال فهي الأحاديث الشريفة التي قالها النبي صلى الله عليه وسلم، أما الأفعال فهي التصرفات التي كان يقوم بها النبي صلى الله عليه وسلم ككيفية صلاته وحجه. أما التقريرات فهي ما أقره النبي صلى الله عليه وسلم مما صدر من بعض أصحابه من أقوال وأفعال، وذلك بسكوته وعدم إنكاره أو بموافقته وإظهار استحسانه، فيعتبر السكوت هنا بمثابة الإقرار والموافقة.[٧٢]

والسنة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع وهي حجة باتفاق، وبالسنة النبوية نفسر مجمل القرآن ونتعرف على كثير من الأحكام التي وردت في القرآن الكريم بشكل عام، إضافة إلى أن السنة النبوية قد جاءت بأحكام كثيرة لم ترد في القرآن الكريم[٧٣]، والسنة النبوية كالقرآن الكريم تفهم من خلال القواعد اللغوية الأصولية التي وضعها علماء أصول الفقه.

ثالثاً: الإجماع

وهو اتفاق جميع المجتهدين من المسلمين في عصر من العصور بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على حكم شرعي في أمر من الأمور العملية.[٧٤]

ونعني بهذا المصدر أن يكون هناك اتفاق بين فقهاء عصر من العصور على حكم شرعي، بحيث لا يكون هناك من يخالف في هذا الحكم منهم، ويكون هذا الإجماع حجة قطعية بعد انعقاده لا مجال لمخالفته[٧٥]، وقد انعقد إجماع الصحابة على العديد من المسائل، من ذلك الإجماع على أن الأم تحجب الجدة في الميراث، والإجماع على عدم جواز الجمع بين المرأة وعمتها والمرأة وخالتها في النكاح[٧٦].ولا بد من الإشارة هنا إلى أن العلماء اهتموا بنقل الإجماع حيث ألفوا الكتب التي حوت الإجماعات التي انعقدت، ومن أشهر هذه الكتب كتاب «الإجماع» لابن المنذر وكتاب «مراتب الإجماع» لابن حزم.

منع إجراء عقد الإجارة وقت النداء لصلاة الجمعة قياسا على ما ورد به النص من منع البيع في هذا الوقت لاشتراكهما في العلة. وحتى نتعرف على معنى القياس بشكل مفصل من خلال المثال السابق فإنه يمكن فهم معناه من خلال التعرف على أركان القياس[٧٩].

الأصل: ما ورد بحكمه النص (البيع وقت النداء لصلاة الجمعة).

الفرع: الواقعة المراد معرفة حكمها (إجراء عقد الإجارة وقت النداء لصلاة الجمعة).

حكم الأصل: الحكم الشرعي الذي ورد به النص في الأصل (منع البيع) لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٨٠].

العلة: هو الوصف الموجود في الأصل والذي بني عليه حكم الأصل وبناء على وجوده في الفرع يسوى بالأصل في حكمه (الإشغال عن صلاة الجمعة واحتمال تفويتها). وهنا تكون نتيجة القياس أن نقول بمنع إجراء عقد الإجارة وذلك عند النداء لصلاة الجمعة قياساً على البيع وذلك لاشتراكهما في علة واحدة هي الإشغال بل احتمال تفويت الصلاة حيث إن النهي عن البيع وقت النداء ليس لذات البيع بل لأن فيه إشغالاً عن صلاة الجمعة.

خامساً: الاستحسان

هو العدول بالمسألة عن حكم نظائرها إلى حكم آخر لوجه آخر يقتضي هذا العدول[٨١]، وعرف بأنه العدول عن موجب قياس إلى قياس أقوى منه[٨٢] وعرف بأنه العمل بأقوى الدليلين[٨٣].

ومن خلال التعريفات السابقة نلاحظ أن معنى الاستحسان

---

[٧٠] الشافعي: الأم ج٧ص ٤٢٣، الغزالي: المستصفى ج١ص ٦٣٠، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص١٥٢.
[٧١] ملاجيون: نور الأنوار على المنار ج٢ص٣، خلاف: علم أصول الفقه ص ٣٦، أبو زهرة: أصول الفقه ص ١٥٢.
[٧٢] خلاف: علم أصول الفقه ص ٣٦، أبو زهرة: أصول الفقه ١٠٥.
[٧٣] الشافعي: الرسالة ص ٤٠، الجويني: البرهان ص ٤٩٠ - ٤٩٣، أبو زهرة: أصول الفقه ص ١٠٥.
[٧٤] الجرجاني: التعريفات ص ١٠، خلاف: علم أصول الفقه ص ٤٥، أبو زهرة: أصول الفقه ص ١٩٨.
[٧٥] أبو زهرة: أصول الفقه ص ١٩٨، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٦٣.
[٧٦] ابن المنذر: الإجماع ص ٩٥، ١٠٧.
[٧٧] خلاف: علم أصول الفقه ص ٥٢.
[٧٨] الجرجاني: التعريفات ص ١٨١.
[٧٩] خلاف: علم أصول الفقه ص ٦٠، أبو زهرة: أصول الفقه ص ٢٢٧، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ١٩٧.
[٨٠] سورة الجمعة آية ٩.
[٨١] عبد العزيز البخاري:كشف الأسرار ج ٤ص٣.
[٨٢] المصدر السابق نفس الموضع.
[٨٣] الشاطبي: الموافقات ج٥ ص١٩٦.

يدور حول تقديم الدليل الأقوى على غيره. ومن الأمثلة على الاستحسان القول بجواز عقد السلم وهو من أنواع البيوع حيث يدفع الثمن فيه ويؤخر استلام السلعة، فهذا العقد جائز لحديث النبي صلى الله عليه وسلم: «من أسلف في شيء ففي كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم»[٨٤] إلا أن إباحة عقد السلم معارض بالأصول العامة في عقد البيع ومنها عدم جواز العقد على ما ليس عند الإنسان وفي بيع السلم يتم العقد على السلعة وهي ليست في ملك بائعها، ولكن أبيح العقد لقوة الدليل المبيح لعقد السلم[٨٥].

ومن الأمثلة أيضاً القول بجواز الإطلاع على العورات للتداوي مع أن الأصل هو عدم الجواز ولورود الأدلة في النهي عن كشف العورة، إلا أن الحفاظ على النفس البشرية من الهلاك أو التأذي من المرض ثابت في العديد من الأدلة الشرعية فيؤخذ بها لقوتها هنا[٨٦].

ومن الأمثلة أيضاً إباحة عقد الوقف على الأموال المنقولة كالكتب والأواني استحساناً مع أن الأصل يقتضي عدم الجواز لأن من شروط الوقف التأبيد، والأموال المنقولة مما يقبل التلف بسبب الاستهلاك إلا أن وقف المنقول جاز لتعارف الناس عليه وللمصلحة التي يحققها لجهة الوقف[٨٧].

سادساً: المصلحة المرسلة

هي المصلحة التي لم يشهد لها دليل خاص بالاعتبار أو الإلغاء، وسميت مرسلة لأنها مطلقة لم تقيد بدليل اعتبار أو إلغاء[٨٨]. ومن أمثلة العمل بالمصلحة المرسلة، جمع القرآن في مصحف واحد من قبل أبي بكر الصديق رضي الله عنه واتخاذ السجون من قبل عمر بن الخطاب، وقضاء عثمان بن عفان بتوريث المطلقة بائناً في مرض موت زوجها إذا مات في عدتها[٨٩].

وحتى يتم الاحتجاج بالمصلحة المرسلة فإنه لا بد من توافر الشروط الآتية[٩٠]:

١. أن لا تعارض نصاً شرعياً قطعياً ولا مقصداً من مقاصد الشريعة، كمقصد الشريعة في المحافظة على النفس و الدين والمال والعقل والنسل.[٩١]

٢. أن تكون مصلحة عامة وليست مصلحة شخصية، بحيث تحقق النفع لأكبر قدر ممكن من الناس.

٣. أن تكون المصلحة حقيقية لا وهمية، فالمصلحة الحقيقية هي تجلب النفع وتدفع المضرة ومن أمثلة المصلحة الوهمية، القول بإعطاء القاضي حق الطلاق ومنع الزوج منه مطلقاً، فهذا لا يحقق مصلحة حقيقية.

٤. أن يكون الأخذ بالمصلحة يؤدي إلى حفظ أمر ضروري ورفع حرج لازم في الدين.

سابعاً: العرف

هي ما استقرت النفوس عليه بشهادة العقول وتلقته الطبائع بالقبول[٩٢]. ويطلق العرف على العادة وهي ما استمر الناس عليه على حكم المعقول، وعادوا إليه مرة بعد أخرى[٩٣].

والعرف ينقسم من حيث ماهيته إلى قسمين[٩٤]:

١. **عرف قولي** يتعلق بالأقوال التي تعارف الناس على استخدامها في تعاملاتهم، كإطلاق الناس لفظ الولد على الذكر دون الأنثى.

٢. **عرف عملي** يتعلق فيما تعارف عليه الناس من أفعال يتعاملون فيها في معاملاتهم ومن ذلك تعارف الناس على تقسيم المهر إلى مهر معجل ومهر مؤجل.

وحتى يتم الاحتجاج بالعرف فإنه لا بد من توافر الشروط الآتية[٩٥]:

١. ألا يخالف نصاً شرعياً بشكل مباشر، وألا يؤدي العمل به إلى وقوع الظلم أو الضرر على فئة من الناس، فلو تعارف التجار على التعامل بالربا فإن هذا العرف لا يعتد به لمخالفة نص

---

[٨٤] البخاري: صحيح البخاري كتاب السلم باب (السلم في وزن معلوم) ج ٣ص ٤٤، مسلم: صحيح مسلم، كتاب البيوع باب (السلم) ج ٥ ص ٥٦.

[٨٥] السرخسي: أصول السرخسي، ج٢ص ٢٠٣، ابن أمير الحاج: التقرير و التحبير ج٣ص ٢٢٢، عبد العزيز البخاري:كشف الأسرار ج ٤ص٥.

[٨٦] الشاطبي: الموافقات، ج٢ص ١٩٥.

[٨٧] ابن الهمام:فتح القدير ج٦ ص ٢٠٣.

[٨٨] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٢٧٩، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٣٧، الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي ج٢ ص٧٦٤،٧٦٣

[٨٩] خلاف: علم أصول الفقه ص ٨٦، أبو زهرة: أصول الفقه ص ٢٨٠، ٢٨١.

[٩٠] الشاطبي: الاعتصام ج ٢ص ١٢٩- ١٣٣، الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي ج٢ص ٧٩٩،٨٠٠، أبو زهرة: أصول الفقه ص٢٧٩، ٢٨٠.

[٩١] زاد بعض الفقهاء مقاصد أخرى مثل ما قرره محمد الطاهر بن عاشور (ت١٩٧٣هـ) في كتابه «مقاصد الشريعة» حيث أضاف إلى مقاصد الشريعة التي نص عليها الشاطبي إضافة متممة وهي مقصد الحرية في الاعتقاد والرأي، حرية العلم والتعلم والعمل، فإن الاعتداء على الحرية من الظلم الفادح والاستبداد القاتل لروح الأمة، وكذلك أضاف المساواة بين الخليقة والبشرية. وكذلك هناك تفصيلات إضافية عند محمد رشيد رضا ود. يوسف القرضاوي، وزاد د. مصطفى أبو

شائعاً بين أهله معروفاً عندهم ومعمولا به من قبلهم، ومعنى الغلبة أن تكون أكثرية أي أنها لا تتخلف إلا قليلاً.

٣. أن يكون العرف الذي يحمل عليه التصرف موجوداً وقت إنشائه، بأن يكون حدوث العرف سابقاً على وقت التصرف ثم يستمر إلى زمانه فيقارنه.

٤. ألا يتم الاتفاق على خلاف العرف، فإن تم الاتفاق على عكس مضمون العرف فإن العمل يكون بهذا الاتفاق، وذلك كما لو كان العرف يقتضي تقسيط ثمن سلعة معينة واتفق الطرفان على دفع الثمن دون تقسيط، فإن ما يتم الاتفاق عليه هو المعمول به.

ثامناً: سد الذرائع

المقصود بالذرائع الوسائل، وسد الذرائع أي منع الوسائل المفضية إلى المفاسد. والتعريف السابق يدل على أنه لو وجدت وسيلة مفضية إلى أمر محرم فإن هذه الوسيلة تمنع حتى لا تؤدي إلى الوقوع في المحظور وحتى لا ينتج عن هذه الوسيلة وقوع مفسدة راجحة مع وجود مصلحة مرجوحة[٩٦].

ومن أمثلة الاستدلال بهذا المصدر منع بيع العنب لمن يريد صنع الخمر منه، فالوسيلة لصنع الخمر هي بيع العنب، فهنا يمنع البيع حتى لا يؤدي إلى وقوع المحظور. ومن الأمثلة، منع بيع السلاح وقت الفتنة حتى لا يؤدي ذلك إلى إراقة الدماء وإزهاق الأرواح[٩٧].

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن الذرائع منها ما يكون محرماً لذاته فيكون حكمه المنع حتى لو أدى الفعل لتحقيق مصلحة وذلك كمن سرق مالاً ليبني به مسجداً أو يتبرع للفقراء أما لو كانت الذرائع مباحة في أصلها فإنها لا تمنع إلا إذا حققت مفسدة راجحة مؤكدة كما في الأمثلة السابقة. فإن كانت المفاسد مرجوحة فهنا لا تمنع الذرائع المباحة فلا نقول نمنع زراعة العنب مطلقاً خشية صناعة الخمر منها، ولا نقول بعدم اعتبار الشهادة وسيلة من وسائل الإثبات في القضاء خشية كذب الشهود لأن المصلحة فيها أرجح من المفسدة[٩٨].

الأساسيان فإن هذا يتطلب معرفة بمعاني الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وذلك من خلال معرفة باللغة العربية تؤدي إلى الفهم الصحيح للنصوص الشرعية. لذلك فإن علماء الأصول اهتموا باستقراء الأساليب العربية وعباراتها ومفرداتها واستمدوا من هذا الاستقراء، ومما قرره علماء هذه اللغة قواعد وضوابط يتوصل بمراعاتها إلى فهم الأحكام الشرعية فهماً صحيحاً، يطابق ما يفهمه منها العربي الذي وردت هذه النصوص بلغته، ويتوصل بها أيضاً إلى إيضاح ما فيه خفاء من النصوص ورفع ما قد يظهر بينها من تعارض وتأويل ما دل دليل على تأويله وغير هذا مما يتعلق باستفادة الأحكام من نصوصها[٩٩].

وقد تناول علماء الأصول مباحث الألفاظ من خلال عدة جوانب من أهمها[١٠٠]:

١. النظر إلى ما تدل عليه الألفاظ من معنى، فتناولوا بالبحث اللفظ العام ومدى إمكانية تخصيصه وكذلك المطلق وتقييده، و اللفظ المشترك.

٢. دراسة استعمال الألفاظ في المعنى الموضوع له أو في غيره، فدرسوا ألفاظ الحقيقة والمجاز، والصريح والكناية.

٣. النظر إلى الألفاظ من حيث وضوحها وخفائها وقوة دلالتها في المقصود، فدرسوا الألفاظ الواضحة وهي النص والظاهر والمحكم والمفسر. وكذلك الألفاظ الخفية وهي الخفي والمجمل والمشكل والمتشابه.

٤. البحث في كيفية دلالة اللفظ على المعنى وبيان طرق الدلالة وذلك من خلال النظر إلى ما يفهم مباشرة من النص بطريق العبارة أو بطريق الإشارة من خلال فهم لوازم النص أو ما يقتضيه النص أو طريق الدلالة.

٥. النظر في صيغ التكليف الشرعية من الأوامر والنواهي.

وقد توصل علماء أصول الفقه نتيجة دراستهم للمباحث اللغوية السابقة إلى مجموعة من القواعد الأصولية اللغوية، والتي سأتعرض لبعضها في هذا المقام مع شرح موجز لها.

---

[٩٦] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٢٨٨، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٤٥.
[٩٧] ابن قدامة: المغني ج ٤ص ١٦٧، ١٦٨، أبو زهرة: أصول الفقه ص ٢٩١، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٩١.
[٩٨] ابن القيم: إعلام الموقعين ج ٣ص ١٣٦، الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي ج ٢ص ٨٨٥، ٨٨٦. زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٤٥، ٢٤٦.
[٩٩] خلاف: علم أصول الفقه ص ١٤٠، ١٤١.
[١٠٠] أبو زهرة: أصول الفقه ص ١١٧، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٧٧.

الأمر يقتضي الوجوب[101]

هذه قاعدة أصولية رجح جمهور العلماء العمل بها ومعناها أنه إذا وردت صيغة فعل الأمر المجرد عن القرائن التي تصرف الوجوب إلى غيره فإنها تفيد الوجوب.

ومثال ذلك: قوله سبحانه وتعالى: (فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[102]. فالأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله يدل على أن هذه الأفعال واجبة أما مثال وجود الأمر المقترن بما لا يفيد الوجوب فهو قوله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ، فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ)[103] فالأمر بالسعي إلى ذكر الله لأداء صلاة الجمعة أمر مجرد يفيد الوجوب، لكن الأمر بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله وذلك بالخروج من المسجد بعد الصلاة فإن هذا يفيد الإباحة لا الوجوب وذلك لأن الانتشار في الأرض لم يكن واجباً قبل الصلاة بل هو مباح.

الأمر بالشيء نهي عن ضده[104]

معنى هذه القاعدة أنه إذا وردت صيغة فعل الأمر فإن هذا يعني النهي عن القيام بفعل يعارض هذا الأمر، فعندما ورد الأمر بالصيام فهذا يعني النهي عن الفطر، وعندما ورد الأمر بالصلاة فهذا يعني النهي عن الانشغال بالأعمال الدنيوية في أثناء الصلاة. والأمر بالإيمان يعني النهي عن الكفر.

ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب[105]

يرى جمهور العلماء أن الأمر يقتضي جميع ما يتوقف عليه فعل المأمور به، فإن الأمر بشيء لا يتعلق به فقط بل يتعلق بكل ما يتوقف وجوده عليه، فإذا كان الفعل الواجب متوقفاً وجوده على فعل آخر فإن هذا يعني وجوبه أيضاً. ومثال ذلك الصلاة فإنها واجبة وبما أنها لا تصح إلا بالوضوء فإن الوضوء يكون واجباً هنا. وإذا قلنا إن الوضوء واجب وأنه لا يتم إلا بالقيام وطلب الماء في المحيط القريب منه فإن هذا يعني أن طلب الماء واجب.

النهي يقتضي التحريم[106]

ذهب جمهور علماء الأصول إلى أن النهي عن فعل ما فإنه يفيد تحريمه وذلك كقوله سبحانه وتعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ...)[107] فالنهي عن القتل يفيد تحريمه. والنهي هنا يفيد التحريم إذا كان مجردا عن القرائن فإن وجدت هذه القرائن فإنه لا يفيد التحريم ومثال ذلك: قوله سبحانه وتعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)[108] فإن الآية السابقة تضمنت نهياً ولكنه لا يفيد التحريم إنما يفيد الإرشاد، بقرينة أن ورد النهي عن السؤال ولكنه إن حصل فإنه ستكون الإجابة والبيان، ولو كان النهي للتحريم لما كانت إجابة ولشدد الإنكار على السائل.

النكرة في سياق النفي تفيد العموم[109]

ومعنى هذه القاعدة أن النكرة إذا كانت منفية فإن هذا يفيد العموم ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[110] فكلمة «صلاة» نكرة غير معرفة وردت في سياق نفي لأنها سبقت بلا النافية، فهذا يعني أن كل صلاة لا يقرأ فيها بالفاتحة فهي غير صحيحة.

ومن الأمثلة على هذه القاعدة قوله سبحانه وتعالى: (وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا...)[111] فهنا لفظ «أحد» نكرة في سياق النفي أنه سبق بنهي، فهذا يعني النهي عن الصلاة على أي ميت من المنافقين.

الاجتهاد والفتوى والتقليد

اهتم علماء الأصول بموضوع الاجتهاد والفتوى والتقليد من حيث الشروط التي لا بد من توافرها في الفقيه المؤهل للاجتهاد والفتوى، كما ناقش علماء الأصول مسألة تقليد الفقهاء لبعضهم

---

[101] التلمساني: مفتاح الوصول ص ٢٨، ٢٩، ابن قدامة: روضة الناظر ص ١٠٠، الشوكاني: إرشاد الفحول ص ٩٤.
[102] سورة المجادلة آية ١٣.
[103] سورة الجمعة آية ٩، ١٠.
[104] التلمساني: مفتاح الوصول ص ٣٦، ٣٧، ابن قدامة: روضة الناظر ص ٢٥، الشوكاني: إرشاد الفحول ص ١٠٢.
[105] التلمساني: مفتاح الوصول ص ٣٥، ٣٦، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٢٩٩، ٣٠٠.
[106] التلمساني: مفتاح الوصول ص ٣٩، ٤٠، أبو زهرة: أصول الفقه ص ١٨١، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٣٠٢.
[107] سورة الإسراء آية ٣٣.

هو بذل الفقيه وسعه في استنباط الأحكام العملية من أدلتها التفصيلية[١١٢] وعرف بأنه بذل الجهد للوصول إلى الحكم الشرعي من دليل تفصيلي من الأدلة الشرعية[١١٣].

وبناء على التعريفين السابقين فإن الاجتهاد يقوم به الفقيه القادر على استنباط الحكم الشرعي من الأدلة الشرعية وهذا يتطلب توافر الشروط التي تؤهله للقيام بهذه المهمة، من أهم هذه الشروط[١١٤]:

١. العلم بالقرآن الكريم وذلك بمعرفة آيات الأحكام وتفسيرها ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد وأسباب النزول.

٢. العلم بالسنة النبوية وذلك بمعرفة أحاديث الأحكام وشرحها، ومعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والمطلق والمقيد وأسباب ورود الحديث، إضافة إلى معرفة درجة صحة الحديث وإمكانية الاحتجاج به.

٣. معرفة المسائل التي انعقد الإجماع عليها والمسائل التي هي محل خلاف، لأنه لا يصح الاجتهاد في المسائل المجمع عليها.

٤. المعرفة باللغة العربية التي تؤهل المجتهد لأن يفهم الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة فهماً صحيحاً.

٥. العلم بمقاصد الأحكام الشرعية وذلك بإدراك الضروريات التي لا بد من حفظها ومراعاتها في الاجتهاد، هي حفظ الدين والنفس والنسل والعقل والمال، ومعرفة معنى الحاجيات والتحسينات.

٦. معرفة وجوه القياس، والعلل والحكم التشريعية التي شرعت من أجلها الأحكام.

٧. صحة الفهم وحسن التقدير، فالمجتهد لا بد أن يكون مدركاً للواقع التي سيصدر حكمه عليه.

٨. صحة النية وسلامة الاعتقاد، لأن الاجتهاد مسؤولية شرعية

ينحصر مجال الاجتهاد في ثلاث حالات ويمنع في حالة واحدة، أما المجالات التي يجوز فيها الاجتهاد فهي[١١٥]:

١. وجود الدليل القطعي في ثبوته الظني في دلالته، فهنا يبحث المجتهد في الدلالة الظنية للنص الشرعي ليتوصل إلى الرأي الراجح فيها، ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: (وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ...)[١١٦] فكلمة القرء تحتمل أكثر من معنى، فتكون مهمة الفقيه المجتهد ترجيح أحد المعاني.

٢. وجود الدليل الظني في ثبوته الظني في دلالته، فهنا تكون مهمة الفقيه التحقق أولاً من قوة الدليل وصحته كما لو كان حديثاً شريفاً فإنه لا بد من معرفة درجة صحته حتى يصلح للاستدلال به، ثم تكون مهمة المجتهد فهم النص وترجيح أحد معانيه، ومثال ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب)[١١٧] فهذا النص له أكثر من دلالة فيمكن القول إن معناه عدم صحة الصلاة لمن لم يقرأ بالفاتحة أو معناه أن صلاته تكون ناقصة الأجر.

٣. عدم وجود نص في المسألة، وهذا يفتح المجال للمجتهد أن يسلك الطريق المناسب في الاجتهاد إما بالقياس أو المصلحة المرسلة أو العرف.

أما الحالة التي لا مجال للاجتهاد فيها فهي ورود الدليل القطعي في ثبوته القطعي في دلالته كقوله سبحانه وتعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ ...)[١١٨] فهنا لا مجال للاجتهاد في إثبات صحة الآية لأن القرآن كله قطعي في ثبوته ولا مجال للاجتهاد في لفظ مئة لأنه لا يحتمل إلا معنى واحداً. ويمكن القول إن الدليل القطعي في دلالته والظني في ثبوته يلحق بهذه الحالة إلا أن الاجتهاد هنا يتعلق بالتأكد من صحة

الدليل الظني فقط، ومثال ذلك بعض الأحاديث الظنية التي أفادت وجوب الصلاة، فإن وجوب الصلاة قطعي لا مجال للاجتهاد فيه، ولكن الظنية تتعلق بثبوت هذه الأحاديث.

---

[١١٢] أبو زهرة: اصول الفقه ص ٣٧٩.

[١١٣] خلاف: علم أصول الفقه ص ٢١٦.

[١١٤] انظر: ابن بدران: المدخل لمذهب الإمام أحمد ص ١٨٠-١٨٢- الشوكاني: إرشاد الفحول ص ٢٢١، ٢٢٢، الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي ج ٢ ص ١٠٤٣-١٠٤٩. الشنقيطي: مذكرة أصول الفقه ص ٣١١.

[١١٥] الخضري: أصول الفقه ص ٣٧٠، خلاف: علم أصول الفقه ص ٢١٦، ٢١٧، زيدان: الوجيز في أصول الفقه ص ٤٠٦، ٤٠٧.

[١١٦] سورة البقرة آية ٢٢٨.

[١١٧] سبق تخريجه انظر هامش رقم (٣٦).

[١١٨] سورة النور آية ٢.

الفتوى

هي الإخبار عن حكم شرعي في حادثة وقعت وسئل عنها[١١٩] وتعريف الفتوى السابق يدل على علاقته بالاجتهاد، إلا أن الإفتاء أخص من الاجتهاد فإن الاجتهاد استنباط الأحكام سواء أكان سؤالاً في موضوعها أم لم يكن. أما الإفتاء فإنه لا يكون إلا إذا كانت واقعة وقعت ويتعرف الفقيه حكمها، وهذا يتطلب منه معرفة واقعة الاستفتاء ودراسة نفسية المستفتي والجماعة التي يعيش فيها ليعرف مدى أثر الفتوى سلباً وإيجاباً[١٢٠]. لذلك فإن المفتي يشترط فيه ما يشترط في المجتهد[١٢١] فإن لم تتوافر فيه جميع الشروط فعليه أن يختار من المذاهب الفقهية مع الالتزام بالضوابط الآتية[١٢٢]:

١. أن يتبع القول لدليله فيختار من المذاهب أقواها دليلاً مع ضرورة علم المفتي بمناهج المذهب الذي يختار منه، ولا يجوز له أن يتبع شواذ الفتيا.

٢. أن يجتهد ما أمكن الاجتهاد في الالتزام بالمسائل المجمع عليها وعدم العدول عنها إلى المختلف فيها.

٣. ألا يتبع أهواء الناس بل يتبع المصلحة والدليل، والمصلحة المعتبرة هي مصلحة العامة، وما تؤدي إليه الفتوى من تحليل وتحريم.

التقليد

هو قبول قول القائل بلا حجة[١٢٣]، وعرف بأنه قبول قول الغير من غير معرفة دليله[١٢٤]. والتقليد بمعناه السابق يتعلق بالأحكام الشرعية بأن يلتزم المسلم بفتوى الفقيه دون معرفة دليله، وهذا مقبول على الرأي الأرجح من الذي لا يقدر على الاجتهاد أو لا يستطيع أن يرجح بين الآراء الفقهية[١٢٥]. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هناك طبقة من طبقات الفقهاء ظهرت في الفترة المتأخرة عرفت باسم طبقة المقلدين أو طبقة الحافظين وهؤلاء كانوا قادرين على التمييز بين الأقوى والقوي والضعيف من الآراء، ومعرفة ما رجح العلماء من قبلهم، وهؤلاء يحق لهم الإفتاء في إطار ما يعرفون كما أنه ظهر هناك فقهاء مقلدون كانوا يستطيعون فهم الكتب الفقهية ولكنهم لا يستطيعون التمييز بين الآراء الراجحة من غيرها فهؤلاء مقلدون لا يفرقون بين الغث والسمين فلا تصح منهم الفتوى[١٢٦] وكلامنا عن التقليد هنا يقودنا إلى أن نحذر من أن يؤدي التقليد إلى التعصب المذهبي والانتصار للرأي بدون علم، ذلك أن المذاهب الفقهية ما هي إلا مدارس علمية متخصصة في فهم النصوص الشرعية واستنباط الأحكام منها، ولكل مدرسة منها منهجها الخاص بها، حيث تهدف هذه المدارس إلى الوصول للحكم الشرعي الراجح بطريقة موضوعية بعيدة عن التعصب الأعمى[١٢٧].

ولا بد من التنبيه هنا إلى أن المقلد ينبغي أن يقصد من يثق بعلمه ودينه لمعرفة الحكم الشرعي ولا يجوز له أن يتتبع الرخص والآراء التي تتفق مع رغبته لأن هذا يعد تلفيقاً حيث ذهب جمهور العلماء إلى النهي عنه لأنه يؤدي إلى التلاعب بالأحكام الشرعية[١٢٨].

الأسئلة:

١. سلك علماء أصول الفقه عدة طرق في تأليفهم لكتب الأصول، اذكر هذه الطرق مع التوضيح مع ذكر اسم كتاب واحد مع اسم مؤلفه على كل طريقة.
٢. بين المقصود بالمصطلحات الآتية موضحاً ذلك بمثال واحد على كل مصطلح: الواجب، المكروه، السبب، المانع، الرخصة.
٣. بين المقصود بأهلية الأداء الناقصة، مع بيان ما يترتب على نقصانها من تقييد للتصرفات.
٤. عرف المصلحة المرسلة ثم بين الشروط التي وضعها العلماء حتى يصح الاحتجاج بها.
٥. اشرح قاعدة «النهي يقتضي التحريم» مع ذكر مثال واحد للتوضيح.
٦. اذكر خمسة من شروط المجتهد مع التوضيح.

---

[١١٩] الزحيلي: أصول الفقه الإسلامي ج ٢ ص ١١٥٦.
[١٢٠] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٤٠١.
[١٢١] المحلي: شرح الورقات ص ٧٥، أبو زهرة: أصول الفقه ص ٤٠١.
[١٢٢] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٤٠٤، ٤٠٥.
[١٢٣] المحلي: شرح الورقات ص ٧٦.
[١٢٤] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٩٨.
[١٢٥] الطوفي: شرح مختصر الروضة ج٣ ص ٦٥٢-٦٥٥، زيدان الوجيز في أصول الفقه ص ٤١٠.
[١٢٦] أبو زهرة: أصول الفقه ص ٣٩٨.

- ابن أمير الحاج، محمد بن محمد الحلبي، ت (٨٧٩ هـ): التقرير والتحبير على كتاب التحرير، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (٢)، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ابن بدران، عبد القادر بن أحمد، ت (١٣٤٦هـ): المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، القاهرة، إدارة لمطبعة المنيرية، د.ط، د.ت.
- ابن حنبل، أحمد بن حنبل الشيباني، ت (٢٤١هـ): مسند احمد، بيروت، المكتب الإسلامي ودار الفكر، ط (٢)، ١٣٩٨هـ -١٩٧٨م.
- ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، ت (٦٦٠هـ): قواعد الأحكام في مصالح الأنام، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ط، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- ابن قدامة، موفق الدين عبد الله بن أحمد، ت (٦٢٠هـ): روضة الناظر وجنة المناظر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (١)، ١٤٠١هـ -١٩٨١م.
- ابن قدامة، موفق الدين عبد الله بن أحمد، ت (٦٢٠ هـ): المغني على مختصر الخرقي، الرياض، مكتبة الرياض الحديثة، د.ط، ١٤٠٠هـ -١٩٨٠م.
- ابن القيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، ت (٧٥١هـ): إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: طه سعد، القاهرة، مكتبة عبد السلام شقرون، د.ط، ١٣٨٨هـ -١٩٦٨م.
- ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت (٢٧٥هـ): سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، دار إحياء التراث العربي، د.ط، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.
- ابن المنذر، أبو بكر محمد بن إبراهيم، ت (٣١٨هـ): الإجماع، تحقيق: صغير أحمد حنيف، الإمارات العربية، مكتبة الفرقان ومكتبة مكة الثقافية، ط (٢)، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، ت (٧١١ هـ): لسان العرب، القاهرة، المؤسسة المصرية للنشر، د.ط، د.ت.
- ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي. ت (٨٦١ هـ): شرح فتح القدير، خرج أحاديثه: عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (١١)، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.
- أبو داود، سليمان بن الاشعث السجستاني، ت (٢٧٥هـ): سنن أبي داود. ضبط أحاديثه: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة، دار إحياء السنة النبوية، د.ط، د.ت.
- أبو زهرة، محمد: أصول الفقه، القاهرة، دار الفكر العربي، د،ط. د.ت.

(ب)

- البخاري، عبد العزيز بن أحمد، ت (٧٣٠هـ): كشف الأسرار عن أصول البذدوي، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ط، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- البخاري، محمد بن اسماعيل، ت (٢٥٦هـ): صحيح البخاري، بيروت، دار الفكر، د.ط، د.ت.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، ت (٤٥٨هـ): السنن الكبرى، بيروت، دار المعرفة، د.ط، ١٤١٣-١٩٩٢م.

(ت)

- الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، ت (٢٧٩هـ): سنن الترمذي، تحقيق: مجموعة من المحققين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت.
- التفتازاني، سعد الدين مسعود بن عمر، ت (٧٩١هـ): حاشية التفتازاني على شرح العضد لمختصر ابن الحاجب، مراجعة وتصحيح: شعبان إسماعيل، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، د.ط، ١٤٠٣هـ -١٩٨٣
- التفتازاني:سعد الدين مسعود بن عمر،ت (٧٩١): شرح التلويح على التوضيح لمتن التنقيح في أصول الفقه، ب بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، ١٣٧٧هـ-١٩٥٧م.
- التلمساني، محمد بن أحمد المالكي، ت (٧٧١هـ): مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (١١)، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م.

(ج)

- الجرجاني، علي بن محمد، ت (٨١٦هـ): التعريفات، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (١١)، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الجويني، عبد الملك بن عبد الله، ت (٧٤٨هـ): البرهان في أصول الفقه، تحقيق: محمد عبد العظيم الديب، الدوحة، د،ن،ط (١)، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.

(خ)

- الخضري، محمد بك، أصول الفقه، القاهرة، المكتبة التجارية الكبرى، ط (٦)، ١٣٨٩هـ-١٩٧٩م.
- خلاف، عبد الوهاب، ت (١٣٧٥هـ): علم أصول الفقه، الكويت، دار القلم، ط (١٠).

(د)

- الدارقطني، علي بن عمر، ت (٣٨٥هـ): سنن الدارقطني، بيروت، عالم الكتب، القاهرة، مكتبة المتنبي، د.ط، د.ت.
- الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن، ت (٢٥٥هـ): سنن الدارمي، تحقيق: سيد إبراهيم وعلي محمد علي، القاهرة، دار الحديث، ط (١١)، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م.

(ر)

- الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، ت (٦٠٦هـ): المحصول في علم أصول الفقه، تحقيق: طه جابر علواني، الرياض، لجنة البحوث والتأليف والترجمة بجامعة محمد بن سعود، ط (١١)، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(ز)

- الزحيلي، وهبة: أصول الفقه الإسلامي، دمشق، دار الفكر، ط (١١)، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- زيدان عبد الكريم: الوجيز في أصول الفقه، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط (٥)، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

(س)

- السرخسي، أبو بكر محمد بن أحمد، ت (٤٩٠هـ): أصول السرخسي، تحقيق: أبو الوفا الأفغاني، بيروت، دار المعرفة، د.ط، د.ت.
- السمرقندي، علاء الدين أبو بكر محمد بن أحمد، ت (٥٣٩هـ): ميزان الأصول في نتائج العقول، تحقيق: محمد زكي عبد البر، د.م، د.ن، ط (١١)، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(ش)

- الشاطبي، أبو اسحق إبراهيم بن موسى، ت (٧٩٠هـ): الاعتصام، بيروت، دار المعرفة، د.ط، د.ت.
- الشاطبي، أبو اسحق إبراهيم بن موسى، ت (٧٩٠ هـ): الموافقات، تحقيق: مشهور حسن آل سلمان، الخبر، دار ابن عفان، ط (١١)، ١٤١٧هـ -١٩٩٧م.
- الشافعي، محمد بن إدريس، ت (٢٠٤هـ): الأم، القاهرة، دار الغد العربي و المكتبة القيمة، ط (١١)، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- الشافعي، محمد بن إدريس، ت (٢٠٤هـ): الرسالة، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط (١١)، ١٣٨٨هـ-١٩٦٩م.
- الشنقيطي، محمد الأمين بن المختار: مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر، د.م، د.ن، ط (١١)، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- الشوكاني، محمد بن علي، ت (١٢٥٠هـ): إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، بيروت، دار المعرفة، د.ط، د.ت.

(ص)

- صور الشريعة، عبيد الله بن مسعود، ت (٧٤٧هـ): التوضيح في حل غوامض التنقيح، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت.

(ط)

- الطوفي، سليمان بن عبد القوي، ت (٧١٦هـ): شرح مختصر الروضة، تحقيق: عبد الله التركي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط (١١)، ١٤١٠هـ -١٩٩٠م.

(غ)

- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، ت (٥٠٥هـ): المستصفى من علم الأصول، ضبط وتعليق: إبراهيم محمد رمضان، بيروت، دار الأرقم، د.ط، د.ت.

(م)

- المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد، ت (٨٦٤هـ): شرح المحلي للمنهاج، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، د.ط، د.ت.
- المحلي، جلال الدين محمد بن أحمد، ت (٨٦٤هـ): شرح الورقات في علم أصول الفقه، القاهرة، مطبعة المساحة، د.ط، د.ت.
- مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج، ت (٢٦١هـ)، بيروت، دار الفكر، د.ط، د.ت.
- ملاجيون، أحمد بن أبي سعيد بن عبيد الله، ت (١١٣٠هـ): شرح نور الأنوار على المنار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (١١)، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

(ن)

- النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد، ت (٧١٠هـ): كشف الأسرار شرح المنار، بيروت، دار الكتب العلمية، ط (١١)، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٤- إرشاد الفحول: الشوكاني.

٥- المستصفى: الغزالي.

عروه عكرمه صبري

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذ مساعد

تاريخ الولادة: ١٩٧٢/٨/٢

المؤهلات العلمية

- حصل على الإجازة في المحاماة الشرعية من ديوان قاضي القضاة بفلسطين عام ٢٠٠٢
- شهادة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة القرويين بالمغرب عام ٢٠٠١
- شهادة الماجستير في الفقه المقارن من جامعة أم درمان بالسودان عام ١٩٩٦
- شهادة البكالوريوس في الشريعة الإسلامية من جامعة اليرموك بالأردن عام ١٩٩٣

السيرة العملية

١- عمل محاضراً في جامعة القدس من عام ١٩٩٨

٢- عمل مدرساً غير متفرغ في جامعة القدس المفتوحة من عام ١٩٩٦٩

٣- تولى وظيفة الإرشاد الديني في مؤسسة العناية الأهلية بالقدس عام ١٩٩٣

٤- يشغل عدة وظائف إدارية في الجامعة، عضو في مجلس الدائرة، وعضو في المجلس المشترك لكليتي القرآن والدعوة وعضو في المجلس الأكاديمي للجامعة

٥- عضو في مجلس الفتوى الأعلى في فلسطين

٦- مستشار علمي في مجلس الإسراء الصادرة عن دائرة الفتوى بالقدس

٧- الإشراف على رسائل الماجستير والمشاركة في مناقشة الرسائل في الجامعة وخارجها.

الإنتاج العلمي

بحث محكم بعنوان (مشاهدة المحضون من أحد الوالدين) دراسة فقهية مقارنة.

تاريخ التشريع والفقه الإسلامي

د. شفيق موسى عياش*

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد إمام الفقهاء العاملين وعلى آله وصحبه الذين فقهوا كتابه الكريم، وعملوا بما فيه، فكان لهم الفوز الأكبر والنصر المؤزر، وعلى من سلك مسلكهم وتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد فإن التشريع الإسلامي نظم علاقات الأفراد بخالقهم، ومع بعضهم البعض، وعلاقتهم بالدولة، ووضع أسسا للتعامل بين المسلمين وغير المسلمين داخل المجتمع المسلم، كما وضع التشريعات المنظمة لكافة مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغيرها، وهذا التنوع في التشريع الإسلامي من شأنه أن يجعل من الفقه ثروة فقهية كبيرة تلبي حاجات الناس في كل عصر من العصور، وتحقق مصالحهم في كل زمان ومكان.

والتشريع الإسلامي عالمي لجميع البشرية، قال تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)[1]، ونظر التشريع إلى البشرية نظرة إنسانية حيث وضع القواعد والأسس المنظمة للعلاقات الدولية فيما بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول الأخرى، مراعيا بذلك مبادئ العدالة والكرامة الإنسانية والمساواة، وغيرها، فهو محاط بسياج أخلاقي ومرتكز على أساس ديني، لأن جزاء الإخلال بتعاليمه ليس دنيويا فقط كالقوانين الوضعية ولكن الجزاء في التشريع الإسلامي أخروي دنيوي فهو أعظم ضمان لزجر النفوس المخالفة وكفها عن العصيان.

ويقصد بالتشريع الإسلامي ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده من أحكام سواء كانت تلك الأحكام متعلقة بالعقيدة، أم بالأخلاق، أم بالأحكام العملية التي تتعلق بأعمال العباد، وهذه الأحكام العملية هي موضوع علم الفقه، وقد يطلق لفظ التشريع ويراد به الفقه من باب إطلاق العام وإرادة الخاص وبذلك يكون التشريع أعم من الفقه إذ إن الفقه جزء منه.

لقد نشأ الفقه الإسلامي وتدرج في مراحل متعاقبة حتى بلغ درجة النضج والكمال، وذلك منذ عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وحتى منتصف القرن الرابع الهجري، وأتى بثمار طيبة للناس، وزود الدولة الإسلامية بالأحكام الفقهية، لتنظيم مختلف أمورها، فسعد الناس بتلك الأحكام، وتكونت ثروة فقهية كبيرة من جراء كثرة المدارس الفقهية، فقد دُوِّن الفقه، وضبطت قواعده، وصار بناؤه شامخا وعلما متميزا عن بقية العلوم الأخرى، مما جعل الفقه الإسلامي أنضج صور الاجتهاد والتشريع على مدى التاريخ الإنساني،وقد استمر ذلك الجهد الفقهي متناميا على الرغم من موجات الشوائب التي اكتنفت حياة المسلمين حتى بداية القرن التاسع الهجري ولعل القرن العاشر إذا لم نقل التاسع أول قرون الخمول والتقليد، وإنك لترى هذا التقليد عاما وشاملا للعلوم الدينية والأدبية ومناهج التعليم[2]

والتقليد الفقهي مما ابتليت به الأمة الإسلامية بعد قرون الخير والعطاء بلاء عظيما، عطّل عند المقلدين الاستفادة من الكتاب العزيز، والسنة النبوية الشريفة، ووضع الحواجز لفهمها، والعمل بها، وعطّل العمل بالشريعة لحاجة الناس إلى الاجتهاد[3]، ونتيجة لعدم العمل بهذا الدين، فقد ركد فقهه، وتعطلت أحكامه إلا في بعض المسائل الشخصية كالزواج والطلاق والنفقات، وقد أدى هذا الركود مع ما واكبه من نهضة غربية مادية إلى مجاراة القوانين الوضعية وتُرك الفقه يدرس للتبرك في حلقات العلم الشرعي وجامعاته.

إن العصر الذي نعيش فيه في الوقت الحاضر يتميز بتغير البرنامج اليومي لحياة الإنسان، حيث يتسارع النمو المعرفي والنشاط الإنساني، وهذا التسارع سوف يزداد في هذا العصر، الأمر الذي يتطلب إحياء الاجتهاد من جديد، وتنظيم أدواته، والعمل على تطوير دراسات الفقه الإسلامي في مختلف الكليات والمعاهد العلمية الشرعية من خلاله، على أساس طبيعة الشريعة الإسلامية المشتملة على الثوابت مع البعد عن مخالفة أحكامها، والسير في إطارها، مستثمرا الفقيه مرونتها، لوضع الأحكام الفقهية للقضايا المستجدة التي تحيط بحياته وحياة المسلمين جميعا.

---

* استاذ مشارك في جامعة القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] سورة الأعراف آية ١٥٨

[2] الندوي- أبو الحسن - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- ص١٦٦.

[3] الشوكاني.محمد بن علي (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد. ص٦.

وفي ضوء ما تقدم يتبين لنا أهمية هذا البحث الذي جاء ليلبي احتياجات القارئ بكشف الغطاء له عن حقيقة ومعطيات علم الفقه الإسلامي منذ نشوئه وأدواره التي مر بها وإلى وقتنا الحاضر. وسأقوم بتقسيمه إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة:

المبحث الأول:
التعريف بالتشريع والفقه الإسلامي وبيان الصلة بينهما

المبحث الثاني:
نشأة الفقه الإسلامي ومراحل تطوره.

المبحث الثالث:
الفرق بين مصادر الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية.

وأما الخاتمة فقد أبديت فيها أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول
التعريف بالتشريع والفقه الإسلامي والصلة بينهما

وفيه ثلاثة مطالب

المطلب الأول: التعريف بالتشريع

التشريع مصدر من كلمة شرع، ومأخوذة من الشريعة، وتطلق الشريعة في اللغة على الطريقة المستقيمة، ومن ذلك قوله تعالى: (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها)[٤]، وشرع لهم أي سنّ[٥].

والتشريع في اصطلاح الفقهاء «ما شرع الله لعباده من الدين، أي من الأحكام المختلفة»[٦] والتشريع الإسلامي بهذا المعنى خاص بما جاء عن الله سبحانه وتعالى فهو المشرع لهذا الدين وأحكامه جاءت شاملة لجميع متطلبات الحياة الإنسانية، وتحقق لها شتى جوانب حياتها الاجتماعية والاقتصادية والجنائية والدستورية والإدارية وغيرها وقد اكتسبت نصوص التشريع الإسلامي من المرونة والشمول ما جعلها صالحة لكل زمان ومكان، تساير عوامل التقدم والرقي، وتقود الحضارة الإنسانية إلى معالم الحق، وسبيل الخير والرشاد.

المطلب الثاني: التعريف بالفقه

الفقه لغة: هو الفهم والفطنة، ولقد استعمل القرآن الكريم كلمة الفقه في الفهم الدقيق بقوله سبحانه: (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين)[٧] أي ليفهموا الدين فهما دقيقا ويقول الله سبحانه وتعالى على لسان نبيه موسى عليه السلام: (واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي)[٨]، أي يفهموا قولي والمعنى ذاته أورده الجرجاني في تعريفاته بقوله: «الفقه في اللغة عبارة عن فهم غرض المتكلم من كلامه»[٩].

والفقه في الاصطلاح الشرعي: هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية[١٠]. وهذا التحديد الاصطلاحي لكلمة الفقه استغرق زمنا كانت الكلمة تطلق على ما يشمل مع الأحكام موضوعات الزهد والعقائد، وقد عرف أبو حنيفة الفقه بأنه «معرفة النفس ما لها وما عليها»، فيشمل هذا التعريف الأحكام الإعتقادية كوجوب الإيمان بالله تعالى والأحكام الوجدانية والأخلاقية، كوجوب الصدق، والأحكام العملية، المتعلقة بالعبادات والمعاملات، كوجوب الصيام وإباحة البيع»[١١]، ولا شك أن معرفة النفس ما لها وما عليها يتناول معرفة جميع العلوم الدينية، ثم تخصص هذا التعميم فاقتصر مدلول الفقه على معرفة وفهم جانب من الأحكام وهي الأحكام الشرعية العملية التي تخص أفعال المكلفين، وبذلك تخرج أحكام العقائد والأخلاق من مدلول الفقه، ولقد تطور التعريف بالفقه بعد أن أصبح علما مدونا مستقلا، فلم يعد مقتصرا على العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلته التفصيلية، بل صار يطلق على العلم بهذه الأحكام أي إدراكها عن طريق النظر والاستدلال، ولم يعد لقب الفقيه يطلق فقط على من يستنبط هذه الأحكام من أدلتها التفصيلية، وإنما أطلق كذلك على العارف بهذه الأحكام الملم بالأدلة التي ذكرت بإزائها، القادر على التخريج في المذهب الذي ينتمي إليه. فهذا هو تعريف الفقه بعد أن شاع التخصص في العلوم والمعارف، وبعد أن أصبح علما مدونا مستقلا.

المطلب الثالث: الصلة بين التشريع والفقه الإسلامي

تبين مما سبق ذكره، من تعريف التشريع والفقه، أن التشريع أعم وأكثر شمولا من الفقه لتناول التشريع جميع الأحكام الاعتقادية والتهذيبية والعملية، فهي أحكام تحيط

---

[٤] سورة الجاثية آية ١٨.
[٥] الرازي- محمد بن أبي بكر- مختار الصحاح- ص٣٣٥.
[٦] القرطبي- محمد بن أحمد الأنصاري- الجامع لأحكام القرآن- جزء١٦- ص٦٣
[٧] سورة التوبة آية ٢٢

الله سبحانه وتعالى وبلغه رسوله صلى الله عليه وسلم، ويتضمن التشريع أحكاما قطعية ثابتة ملزمة لا يجوز بحال إهمالها أو استبدالها.

أما الفقه فهو اخص من التشريع لأنه لا يعنى إلا بالأحكام العملية، أي أحكام العبادات والمعاملات، فهو يحوي الأصول الثابتة من أحكام الشريعة القطعية الورود والدلالة، كما يحوي الفروع، فما كان من الأصول لا يجوز تركه أو تخطيه أو الخيرة في أخذه وتركه، أما الفروع التي اجتهد فيها الفقهاء وتعد من آرائهم المبنية على أصول التشريع فيجوز فيها الاجتهاد والاختلاف والخيرة في الأخذ والترك.

وقد قسّم الأستاذ عبد الوهاب خلاّف[١٢] أنواع الأحكام التي يشتمل عليها الفقه الإسلامي، من حيث مصادرها إلى أربعة أقسام:

الأول: أحكام، مصادرها نصوص صريحة قطعية في ثبوتها وقطعية في دلالتها على أحكامها وهذه أحكام لازمة، وعلى كل مسلم إتباعها، ولا يجوز أن يختلف المسلمون فيها، ولا أن يقننوا ما يخالفها.

الثاني: أحكام، مصادرها ظنية في الدلالة على أحكامها، وهذه فيها مجال للمجتهدين لكن في حدود تفهم النص، ولا يخرج عن دائرته، كثبوت الخيار للمتبايعين في المجلس أو عدم ثبوته.

الثالث: أحكام دلّ عليها الإجماع، كتوريث الجدة، وحجب ابن الابن مع وجود الابن، وهذه لا مجال للاجتهاد فيها.

الرابع: أحكام، لم تدل عليها نصوص؛ لا قطعية ولا ظنية، وليس فيها إجماع كأكثر الأحكام التي امتلأت بها كتب الفقه، وهي أحكام استنبطها المجتهدون بحسب ما وصلت إليه عقولهم، وما أحاط بهم من الظروف والأحوال والملابسات، وليست أحكاما لازمة لوقائعها، فيجوز لأهل الاجتهاد في عصرهم وبعد عصرهم أن يخالفوهم في استنباطهم. ومن هنا نرى أن بعض الكتاب والباحثين في تاريخ التشريع والفقه الإسلامي يطلقون كلمة التشريع على الفقه باعتبار الأصل لأن الفقه في الأصل مأخوذ من الشرع، أي من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأن استنباط الأحكام من هذه المصادر كان بإذن من الشريعة ومحققا لمقاصدها.

إن علم الفقه من أشرف العلوم وأجلها، وأكثر العلوم الشرعية مساسا بحياة المسلم اليومية، وأعظمها تأثيرا على المجتمع، وهو من أهم فروع الثقافة الإسلامية، ذلك أن الثقافة الإسلامية هي من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وما استمد منهما، ووضعت من أجل فهمهما، وهي وإن شملت علوم اللغة العربية وعلوم التفسير وعلوم الحديث والخطط التشريعية وغيرها، فإن الفقه من أبرز ما تظهر فيه الأفكار التي تتصل بواقع الحياة وتعالج أحكامه مشاكلها، وما الفقه إلا العلم بهذه الأحكام.

وقد نشأ الفقه الإسلامي وتدرج وتطور في مراحل متعاقبة حتى بلغ درجة النضج والكمال.

وتقسم المراحل التي مر بها الفقه الإسلامي إلى عدة عهود أبينها في عدة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: العهد النبوي

بدأت الثقافة الإسلامية وبدأ معها تعلم الأحكام الشرعية منذ بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وحتى وفاته عام ١١ هجرية. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وحده المرجع للأحكام الشرعية، لأنه أرسل ليعلم الناس دين الله، قال تعالى: (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته)[١٣]، وقال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزّل إليهم)[١٤]، ولم يكن لأحد غير الرسول صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يستقل بإعطاء أي حكم في عهده صلى الله عليه وسلم، والفقه في هذا العصر هو فقه الوحي فقط ولا شيء غيره، أما اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم فراجع إلى الوحي.

وقد اجتهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكم ما لم ينزل بحكمه الوحي من السماء وأذن لأصحابه في الاجتهاد، فإن أصاب وجه الحق أقر عليه، وإن لم يصب في الرأي نُبه إليه، وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد رسم للفقهاء من بعده طريقة الاجتهاد، ليكون الفقه الإسلامي قادرا على مسايرة الزمن، ومتابعة حاجات الناس في كل زمان ومكان.

وقد تميّز التشريع في عصر النبوة بأن الشريعة قد اكتملت أصولها وقواعدها قبل وفاته صلى الله عليه وسلم، ولم يعد يتبقى من بعده إلا الاجتهاد، واجتهاد الصحابة لم يعتبر تشريعا في عصره إلا إذا أقرهم

---

[١٢] خلاّف- عبد الوهاب- مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه.
[١٣] سورة المائدة آية ٦٧.
[١٤] سورة النحل آية ٤٤.

الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك، فلم يكن هناك مجال للخلاف حول حكم من الأحكام الشرعية في عهده صلى الله عليه وسلم.

صفات التشريع في العهد النبوي

امتاز التشريع في العهد النبوي بعدة صفات أهمها:

التدرج في التشريع: فالأحكام التشريعية لم تشرع دفعة واحدة، فلما سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الخمر والميسر، أجابهم القرآن الكريم بقوله تعالى: (فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا)[15]، ولم يصرّح بطلب الكف عنهما، ثم يصرح بنهيهم عن الصلاة وهم سكارى، فيقول سبحانه وتعالى في محكم كتابه: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْرَبُواْ الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ»[16] ثم جاء النهي صريحا في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)[17]، وهذا النهج في التشريع أخف على النفس مما لو نزلت الأحكام دفعة واحدة.

١. **رفع الحرج**: أي عدم التضييق، على أتباع هذا الدين، وهذه صفة اتصفت بها كل الأحكام التشريعية، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: (وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ)[18] وفي السنة النبوية الشريفة قوله صلى الله عليه وسلم: «يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا»[19].

٢. **قلة التكاليف**: امتازت الشريعة الإسلامية بقلة التكاليف، فالناظر إلى هذه التكاليف يجدها لا تثقل على كاهل أتباعها بالأوامر والنواهي بل سلكت طريقا وسطا لا إعنات فيه بكثرة التكاليف ولا إرهاق، قال تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)[20].

٣. **النسخ**: ومعناه رفع الحكم السابق بحكم لاحق، والنسخ بهذا التعريف لا ينطبق إلا على العصر النبوي، لأن ذلك من اختصاص الوحي، وقد انقطع الوحي بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وسببه رعاية المصلحة ورفع الحرج عن المكلفين، فمن ذلك:

أ. إن عدة المتوفى عنها زوجها كانت في بادئ الأمر سنة كاملة قال تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج)[21]، ثم جعلت العدة أربعة أشهر وعشرة أيام قال تعالى: (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا)[22].

والرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن ادخار لحوم الأضاحي لأجل الوفود التي كانت بالمدينة أيام العيد، ثم أباح ادخارها لما رحلت تلك الوفود، ونهى صلى الله عليه وسلم عن زيارة القبور ثم أباحها، فقد جاء في الحديث «كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة»[23].

فهذا النسخ في وقت التشريع دليل على أن التشريع الإسلامي ساير مصالح الناس، لأن من مصالح الناس أن تراعى أعرافهم ما دامت لا تعارض أصلا دينيا ولا يجلب ضررا لهم.

وعلى هذا فإن عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كان مصدر الثقافة الإسلامية كلها واستمر منذ بعثته صلى الله عليه وسلم إلى حين وفاته في مدة تقارب ثلاثة وعشرين سنة نزل فيها القرآن الكريم، واكتملت فيها السنة الشريفة، فهما المصدران للإسلام وكل ما ثبت عن طريق الاجتهاد كان استنباطا من القرآن الكريم وراجعا إلى الوحي الإلهي.

المطلب الثاني: عهد الصحابة والتابعين

وبوفاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في السنة الحادية عشرة للهجرة، ابتدأ عهد الصحابة رضي الله عنهم، وهو عهد، فُتح فيه باب الاجتهاد مسترشدين بالكتاب الكريم والسنة النبوية، مستوحين ما عرفوه من أسرار الشريعة، بما يحقق العدالة، والمصلحة العامة.

ويتسم التشريع في هذا العهد بأنه كان واقعيا، شرعت أحكامه لحوادث وأقضية، وقعت حين تشريعها، ولم تشرع لأحداث ووقائع يحتمل وقوعها.

ومن الخصائص التي امتاز بها هذا العصر ما يلي:

١. قيام الصحابة بجمع القرآن الكريم ونشره بين المسلمين، واتخاذهم الاحتياطات اللازمة التي تكفل الوثوق من رواية السنة وتحري الرواة في نقلها[24].

---

[15] سورة البقرة آية ٢١٩.
[16] سورة النساء، آية ٤٣.
[17] سورة المائدة آية ٩٠.
[18] سورة الحج آية ٧٨.
[19] البخاري- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل- صحيح البخاري- كتاب العلم- رقم الحديث ٦٧.
[20] سورة البقرة آية ٢٨٦.

أن يفتوا الناس فيما يطرأ عليهم من الوقائع والأقضية التي لا نص فيها، وأخذوا يستنبطون الأحكام التي تلزم للمسائل التي تحدث، وبذلك قاموا بواجب الدين خير قيام.

الطريقة التي سار عليها الصحابة في استنباط الأحكام الشرعية

كانت الخطة التشريعية التي سار عليها فقهاء الصحابة بالنسبة إلى المصادر التشريعية على النحو الآتي:

١. كان الصحابة إذا وجدوا نصا في القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة يدل على حكم الواقعة التي طرأت لهم، وقفوا عند هذا النص، وقصروا جهودهم على فهمه والوقوف على ما يقصد منه، ليصلوا إلى تطبيقه على الواقع تطبيقا صحيحا.

٢. إذا لم يجدوا نصا في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يدل على حكم ما عرض لهم من الوقائع جمعوا فقهاءهم واستشاروهم حتى إذا استقر رأيهم على حكم جديد للواقعة كان إجماعا، فإن لم يستقر رأيهم على حكم مسألة اجتهدوا لاستنباط حكم لها، وكانوا في اجتهادهم يعتمدون على ما يلي:

أ. فهم الصحابة لنصوص الشريعة، حيث كانوا في اجتهادهم يعتمدون على ملكتهم التشريعية التي تكونت عندهم من مشافهة الرسول صلى الله عليه وسلم وتعليمه لهم ومعاصرتهم لنزول الآيات القرآنية الكريمة وتطبيقها على الوقائع، ووقوفهم على أسرار التشريع، ومبادئه العامة.

ب. كانوا يقيسون ما لا نص فيه على ما فيه نص، فإذا لم يكن هناك نص يمكن حمل الواقعة عليه عن طريق القياس مثلا اجتهدوا حسب ما تقضي به المصلحة أو دفع المفسدة؛ وبهذا كان اجتهادهم فيما لم يرد فيه نص فسيحا، وفيه متسع لحاجات الناس ومصالحهم[٢٥].

وقد انقضى عصر الصحابة ولم يدوّن فيه شيء من نصوص الفقه، بالرغم من قيمته وغزارته، وخاصة إجماع الصحابة، كما نلاحظ أن قواعد الاستنباط لم تتخذ طابعا محدد المنهج والأسلوب، حتى جاءت المراحل اللاحقة، فوضحت أسس هذا الاجتهاد ووضعت ضوابط له حتى ظهر علم أصول الفقه، وعلم مصطلح الحديث.

ويمثل هذا العهد فترة النشاط والنضوج الفكري، والحياة العلمية الواسعة، وقد أخذ الفقه الإسلامي ينمو ويزدهر ويبلغ غاية كماله، وكثر الاجتهاد المطلق وكثرت المنافسة الفقهية الشريفة، وسلطت الأضواء على نوابغ الفقهاء، وتكونت في هذا الدور المذاهب الفقهية الجماعية المتعددة، ودونت علوم القرآن والسنة والفقه واللغة وسائر العلوم الأخرى، ويرجع الفضل في هذا النشاط التشريعي خلال هذه الفترة إلى عناية الخلفاء العباسيين بالفقه، وتكريمهم للفقهاء، وأهل العلم ورعايتهم وحثهم على وضع الأنظمة القانونية لشؤون الدولة المختلفة، فقد كانت دولتهم سياسية دينية، اهتموا فيها بأمور الدين اهتماما كبيرا وازدهر الفقه بعنايتهم ورعايتهم.

ومما ساعد على ازدهار الفقه ونموه في هذا العصر أيضا حرية الرأي دون التقيد في القضاء والفتوى برأي معين، وكذلك كثرة الجدل العلمي والمناظرات العلمية وسّعت دائرة الحركة الفقهية[٢٦].

وقد كان لنشاط حركة التدوين وشمولها كل فروع العلوم، أن دوّنت السنة الشريفة وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم كما وضع علم أصول الفقه، وكان الإمام الشافعي أول من دون فيه، وكذلك دون التفسير والفقه وعلوم اللغة، وقد ساعد ذلك على نهضة الفقه وازدهاره.

وقد كانت مصادر التشريع في هذا العهد أربعة، القرآن الكريم والسنة النبوية والإجماع والاجتهاد بالقياس، أما غير هذه المصادر التشريعية فقد كانت محل خلاف بين الفقهاء، فقد اختلفوا في بقية المصادر التشريعية الأخرى كالاستحسان، والمصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها.

كما تميز هذا العهد بارتباط العادات والتقاليد والأعراف المحلية في البلاد المختلفة بالفقه، وبنيت عليها الأحكام، فظهر أثر عرف العراق في مذهب أبي حنيفة وأثر عرف مصر في مذهب الإمام الشافعي الجديد. ويتسم الفقه الإسلامي في هذه الفترة أيضا بكثرة التفريع والافتراض وظهور ما يعرف بالفقه الافتراضي[٢٧]، ومن أبرز فقهائه أبو حنيفة. كما يتميز بظهور كثير من المصطلحات الفقهية التي لم تكن معروفة من قبل، كأسماء الفرض والواجب والسنة والمستحب والحرام والمكروه والصحيح والفاسد والباطل وغير ذلك.

---

[٢٥] الصابوني - عبد الرحمن- المدخل لدراسة التشريع الإسلامي- ص١٥٩

[٢٦] فراج- أحمد حسين- تاريخ الفقه الإسلامي- ص١٣٠ ما بعدها.

[٢٧] الصابوني - عبد الرحمن- المدخل لدراسة التشريع الإسلامي- ص١٨٣.

الفرع الأول: مرونة الفقه الإسلامي وتطوره

إن في مصادر الفقه الإسلامي ونصوصه ومقاصده من المرونة ما يجعله قابلا للتطور، ومواجهة مطالب الحياة، وكل جديد في حياة الناس، والأمم المختلفة، مع تغير الأمكنة والأزمنة، وقد كان من نتائج هذه المرونة تعدد المذاهب الاجتهادية وتعدد طرق الاجتهاد، ووفرة المبادئ والقواعد الفقهية التي جعلت الفقه الإسلامي متميزا عن بقية القوانين الأخرى، والتي يمكن الاستنباط منها بما يوافق روح كل عصر وحاجات كل أمة، وحسبنا أن نعلم أن الأئمة المجتهدين لم يكونوا أربعة فقط بل كان منهم مئات المجتهدين في العصر الواحد، ويتضح من هذا أن الفقه الإسلامي يساير التغيرات الحضارية، ولا يعيش بمعزل عنها، بل يصدر حكمه فيها مسترشدا بالنصوص وبمقاصد التشريع.

ويستدل على صلاحية الفقه الإسلامي لمواكبة التطور الحضاري -زيادة على ما تقدم- بعدة أمور منها:

١. مرونة النصوص وعمومها، وبخاصة في المعاملات ونظم الحكم، ولعل عدم تغطية النصوص لجميع أحكام الفروع جاء مقصودا، مما أطلق نشاط المجتهدين لإيجاد أحكام لما يستجد من الأحداث والوقائع مستنبطين ذلك من النصوص ومن روح الشريعة ومقاصدها، دون الحاجة إلى البحث عن أحكامها في القوانين الوضعية.

ويدل على هذا؛ إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم لقول معاذ بن جبل رضي الله عنه « اجتهد رأيي ولا آلو »[٢٨] أي لا أقصر، فالمقصود به هنا أقصى استخدام للعقل البشري لاستنباط الحكم من المصدرين الأصليين، وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ونؤكد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ﴾[٢٩]، وعملية الاستنباط من النصوص الشرعية هي عملية عقلية كبيرة.

ولعل الإمام الشاطبي يشير إلى هذا عندما قال: «كل دليل شرعي ثبت في الكتاب مطلقا غير مقيد، ولم يجعل له قانون، ولا ضابط مخصوص، فهو راجع إلى معنى معقول، وكل إلى نظر المكلف وهذا القسم أكثر ما نجده في الأمور العادية التي هي معقولة المعنى»[٣٠].

٢. شهادة علماء القانون في الدول المختلفة باعتبار النظام الإسلامي أحد الأنظمة القانونية الأربعة التي لها صفة العالمية والتي تفسر على أساسها المادة (٩) من النظام الأساسي لمحكمة العدل الدولية والتي قررت أن يمثل قضاة المحكمة هذه المذاهب الرئيسة وهي المذهب اللاتيني والمذهب الانجلوسكسوني والمذهب الجرماني والمذهب الإسلامي.

ونكتفي بذكر ما أصدره المؤتمر الدولي للقانون المقارن سنة ١٩٥١م بعد مناقشات الأسبوع الذي نظمه باسم (أسبوع الفقه الإسلامي) في باريس الأوروبية فقد قال عن هذه المناقشات أنها أوضحت بجلاء ما لمبادئ القانون الإسلامي من قيمة لا تقبل الجدال، كما أوضحت أن تعدد المدارس والمذاهب داخل هذا الأصل القانوني الكبير، إنما تدل على ثروة من النظريات القانونية والفن البديع، وكل هذا يمكن هذا القانون من تلبية جميع حاجيات الحياة العصرية. فهذه شهادة قانونيين دوليين مختصين للفقه الإسلامي بصلاحيته لكل زمان ومكان وتلبيته لكل متطلبات العصر في الوقت الحاضر والمستقبل.

٣. تنوّع طرق الاجتهاد لاستنباط الأحكام في الفقه الإسلامي، وبخاصة فيما لا نص فيه ولا إجماع كالقياس والعرف والمصالح وسد الذرائع وغيرها.

٤. الفقه الإسلامي منذ نشأته تغطي أحكامه كل الوقائع والأحداث المستجدة التي تعرض عليه، فقد أثبت صلاحيته للبيئات المتنوعة في أزمنة مختلفة، ولم يضق في السابق بثقافات الأمم الأخرى وحضاراتها وعاداتها، وتقاليدها، ومعالجة مشكلاتها، وهو بذلك يكون صالحا لهذا العصر إذا استطعنا حسن عرضه والإفادة من تعدد مصادره.

الفرع الثاني: المذاهب الفقهية

من أبرز مميزات عهد نضج الفقه ومرونته ظهور المذاهب الفقهية والتي وضع لها حجر الأساس في عهد الصحابة والتابعين، من خلال وجود مدرستي الحديث والرأي معتمدتين على آراء الصحابة وفتاويهم وطرق استدلالهم للأحكام من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حيث برزت في ذلك العصر نزعتان، نزعة ترمي إلى الغوص في معاني النصوص الشرعية، ونزعة أخرى ترمي إلى الوقوف عند ظواهرها، ويقصد بالمذاهب الفقهية تلك المذاهب التي لم تكن من عمل إمام المذهب وحده، بل تكونت من مجموعة القواعد والآراء الفقهية المنقولة عن إمام المذهب مضافا إليها كذلك آراء تلاميذه واجتهاداتهم في المسائل التي لم يؤثر فيها عن إمام المذهب شيء، أو قال فيها برأي، غير أنهم خالفوه فيها مع ارتباطهم بقواعده وأصوله التي سار عليها[٣١].

والمذاهب الفقهية المشهورة عند أهل السنة التي كتب لها البقاء، وظل معمولا بها إلى وقتنا الحاضر هي:المذهب الحنفي والمذهب المالكي والمذهب الشافعي والمذهب الحنبلي، ومن

---

[٢٨] أبو داود- سليمان الأشعث- سنن أبي داود- ٤١٢/٣- إسناده متصل ورجاله معروفون بالثقة.

وسأتعرض بإيجاز لمذاهب أهل السنة الأربعة المشهورة مبينا المنهج والأصول التي اعتمد عليها كل صاحب مذهب من هذه المذاهب، وذلك على النحو الآتي:

أولا: المذهب الحنفي

مؤسس هذا المذهب هو الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ولد بالكوفة سنة ٨٠هـ، وتوفي سنة ١٥٠هـ.وهو إمام أهل الرأي، وفقيه أهل العراق، درس الفقه في مدرسة الكوفة، وإمام هذه المدرسة الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود الذي تأثر بالخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في حرية الرأي وقال عنه الشافعي «الناس في الفقه عيال على رأي أبي حنيفة»[٣٢].

أصول المذهب الحنفي

تقوم أصول المذهب الحنفي على الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، والإجماع، وقول الصحابي والقياس والاستحسان والعرف.

روي عن أبي حنيفة قوله: «إني آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله، فإن لم أجد أخذت بقول الصحابة، آخذ بقول من شئت منهم، وأدع قول من شئت منهم، ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم النخعي وغيره، فلي أن أجتهد كما اجتهدوا، فهم رجال ونحن رجال»[٣٣].
وأما أسلوبه في التدريس لتلاميذه، فكان يتبع أسلوب الحوار والمناقشة مبتعدا عن أسلوب الإملاء معطيا لطلابه فرصة التعبير والحوار والمناقشة، ويعتبر هذا الأسلوب في زمننا هذا من الأساليب التربوية الحديثة التي تصقل شخصية الطالب وتنمي ملكته الفقهية، وتصل به إلى مستوى علمي رفيع، فعلى أساتذة الجامعات في العصر الحالي أن يتبعوا هذا الأسلوب مع طلبتهم خلال فترة تدريسهم لأنه الأسلوب الأنجع والأمثل.

ولم يصل إلينا أي كتاب من كتب الفقه لأبي حنيفة غير أن تلاميذه كانوا يحفظون أقواله وينقلونها عنه في كل باب من أبواب الفقه الإسلامي، وأشهر تلاميذ الإمام أبي حنيفة هم أبو

ثانيا: المذهب المالكي

مؤسس هذا المذهب هو الإمام مالك بن أنس ولد بالمدينة عام ٩٣هـ، وتوفي عام ١٧٩هـ عن شيخوخة صالحة بإذن الله، وعاش حياته بالمدينة، وأخذ عن علمائها الحديث والفقه، وقد أجمع الناس على فضله وإمامته في كليهما، ويعتبر الإمام مالك إمام أهل الحجاز في عصره، كما اعتبر أبو حنيفة إمام أهل العراق.

وقد تميزت مجالسه بالسكينة والوقار، والابتعاد عن لغو الكلام، وكان يقول من آداب العلم ألا يضحك إلا تبسما»، وقال عنه الإمام الشافعي «مالك حجة الله على خلقه بعد التابعين»[٣٤].

أصول المذهب المالكي

يقوم مذهب الإمام مالك على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والإجماع والقياس وكان يعتمد بجانب هذه الأدلة على عمل أهل المدينة، والمصالح المرسلة، وقول الصحابي، وسد الذرائع، والاستحسان[٣٥].

ومن أكثر آثار الإمام مالك شهرة كتاب «الموطأ» الذي يعد تراثا فقهيا وهو منتشر حاليا بكثرة في معظم البلاد الإسلامية، ومذهبه موجود في بلاد المغرب وصعيد مصر والسودان وغيرها[٣٦].

ثالثا: المذهب الشافعي

مؤسس هذا المذهب هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، ولد بغزة هاشم عام ١٥٠هـ وهو عام وفاة الإمام أبي حنيفة، وتوفي الشافعي في الفسطاط عام ٢٠٤ هـ، وقد اكتسب الإمام الشافعي ثقافة واسعة في اللغة والأدب وثقافة في الحديث على طريقة مدرسة أهل الحديث، وثقافة في الرأي على طريقة مدرسة أهل العراق، فكان وسطا بين المدرستين، وقد حفظ القرآن الكريم في صباه، ورسم لنفسه طريقة فقهية محددة تقوم على أصول وقواعد متميزة.

وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: «كان الشافعي كالشمس للدنيا وكالعافية للبدن، فانظر هل لهذين من خلف»[٣٧].

---

[٣٢] الزحيلي- وهبة- الفقه الإسلامي وأدلته - ص٢٩-٣٠.
[٣٣] فراج- أحمد حسين- تاريخ الفقه الإسلامي- ص١٧١.
[٣٤] خلاف- عبد الوهاب- خلاصة تاريخ الفقه الإسلامي-ص٨٩.
[٣٥] الزحيلي- وهبة - الفقه الإسلامي وأدلته- الجزء الأول- ص٣١.
[٣٦] خلاف-عبد الوهاب - خلاصة تاريخ الفقه الإسلامي-ص٨٩ انظر-الزحيلي-وهبة- الفقه الإسلامي وأدلته- جزء ١ ص٣١-٣٢.
[٣٧] جامعة القدس المفتوحة- المدخل إلى الفقه الإسلامي-ص٩٧.

أصول المذهب الشافعي

يقوم هذا المذهب على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والإجماع والقياس، ولم يأخذ بقول الصحابي، لأنها اجتهادات تحتمل الخطأ والصواب، وترك العمل بالاستحسان الذي قال به الحنفية والمالكية وسماه أهل بغداد «بناصر السنة»[٣٨].

ومن أهم آثار الإمام الشافعي كتاب الأم، كما توجد للشافعي رسالة في أصول الفقه ويعتبر أول من وضع اللبنة الأولى في خطة البحث في أصول الفقه، وسار عليها كل من تبعه من أصحاب المذاهب الأخرى[٣٩].

رابعا: المذهب الحنبلي

مؤسس هذا المذهب هو أحمد بن حنبل، ولد ببغداد عام ١٦٤هـ، وتوفي بها عام ٢٤١هـ[٤٠]. ولم يدون الإمام أحمد بن حنبل مذهبه بنفسه، خشية أن يتبدل اجتهاده في بعض مسائله، وإنما قام تلاميذه من بعده بتدوين ما سمعوه منه من فتاوى، ولم يقتصر علمه على شرح الأحاديث، وإنما تناول العديد من المسائل في كافة أبواب الفقه.

أصول المذهب الحنبلي

يقوم مذهب الإمام أحمد على الأخذ بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وبفتوى الصحابي عند عدم النص أما القياس فلا يلجأ إليه إلا للضرورة القصوى، وقد عمل الإمام أحمد كالإمام الشافعي بالاستصحاب، كذلك عمل بسد الذرائع.

ومن كتب مذهبه رضي الله عنه كتاب «المغني» لابن قدامة المقدسي ويقع في اثني عشر مجلدا وهو مطبوع بمصر وهو من أجلّ وأعظم كتب الفقه الإسلامي[٤١].

المطلب الرابع: عهد التقليد وقفل باب الاجتهاد

يبدأ هذا الدور من منتصف القرن الرابع الهجري وينتهي قبل نهاية القرن الثالث عشر بقليل، يشمل مرحلتين تتميز كل مرحلة منهما عن الأخرى، وإنما اشتركتا في صفات عامة، أصابت الفقه، فقيدت من نموه ثم انتهت به إلى الجمود والتأخر.

المرحلة الأولى:

تنتهي هذه المرحلة بسقوط بغداد على يد هولاكو التتري عام ٦٥٦هـ.

وتتسم هذه المرحلة بانقسام الدولة الإسلامية، حيث أصبحت دولا متفرقة يعادي بعضها بعضا، كما أخذت في التدهور نتيجة للاضطراب السياسي، وانشغال الولاة بالسياسة والحروب، مما كان له أثره الكبير على الحركة العلمية، فقد سرت في العلماء أنفسهم روح التقليد والجمود.

ومن الأسباب التي صرفت العلماء عن الاجتهاد إلى التقليد دون التجديد ما يلي:

١. تدوين المذاهب في الدور السابق؛ مما جعل تناول العلم سهلا يسيرا.

٢. تعصب معظم تلاميذ المذاهب الفقهية لآراء وآثار أساتذتهم من الأئمة المجتهدين؛ مما صرف جهدهم عن الدراسة والاجتهاد إلى التقليد، وصار الواحد منهم، لا يرجع إلى نص قرآني أو حديث، بل قد منعوا أنفسهم من الإدلاء، حتى يقول يخالف ما أفتى به إمامهم، وقد شاعت في هذه الفترة المناظرات بين العلماء غير أن المناظرات كانت تحركها الأهواء وتسودها العصبية أكثر من الروح العلمية، وماتت فيهم روح الاستقلال العقلي، وشكوا في أنفسهم وقدرتهم على الاجتهاد، فلم يجتهدوا كما اجتهد الصحابة والأئمة المجتهدون من قبلهم فقد تعادوا وتباغضوا بعكس الأئمة المجتهدين الذين كانوا يحترمون آراء غيرهم ويثني بعضهم على البعض الآخر، فالإمام الشافعي يقول عن أبي حنيفة «الناس عيال على فقه أبي حنيفة»[٤٢].

٣. اقتصر دور العلماء في هذه المرحلة على تعليل الأحكام، أي استنباط علل الأحكام التي نقلت عن الأئمة المجتهدين، حتى يتسنى لهم الحكم فيما لم يرد فيه حكم عن الأئمة السابقين.

٤. كان إعلان بعض العلماء في القرن الرابع الهجري إغلاق باب الاجتهاد، لمنع ممن ليسوا أهله، خشية من هؤلاء الأدعياء، وإفسادهم دين الناس بالفتاوى الباطلة، التي لا تقوم على علم أو فقه[٤٣].

المرحلة الثانية:

تبدأ هذه المرحلة من سقوط بغداد على يد هولاكو التتري في منتصف القرن السابع الهجري إلى القرن الثالث عشر الهجري تقريبا.

ورغم أن هذه المرحلة هي أطول مرحلة في تاريخ الفقه الإسلامي، فإن الفقه أخذ خلالها في الضعف وأصابه من الركود والجمود ما لم يصبه في أي وقت مضى، فالتقليد قد فشا وشاع حتى صار أمرا مألوفا ومع هذا فقد وجد فقهاء لم يرضوا بالتقليد، ونادوا

---

[٣٨] الزحيلي-وهبة- الفقه الإسلامي وأدلته- الجزء الأول- ص٣٧.

[٣٩] الصابوني- عبد الرحمن- المدخل لدراسة التشريع الإسلامي-- ص٢١٣.

حجر العسقلاني والسيوطي[٤٤] ونحوهم ممن بلغ درجة الاجتهاد، وذلك على الرغم من إشاعة إغلاق باب الاجتهاد، ويعود سبب تأخر الفقه الإسلامي في هذه المرحلة إلى الأسباب التي من أهمها:

١. ضعف الدولة الإسلامية السياسي، أدى إلى ضعف الأنشطة العلمية والفكرية والاجتماعية، ولعل هذا التدهور السياسي كان عاملا لضعف الحكام، مما جعلهم ينصرفون إلى حفظ مراكزهم ونفوذهم، أكثر من حرصهم على تشجيع العلم والعلماء[٤٥].

٢. نتج عن عدم تطبيق الشريعة الإسلامية، وتغييب الحكم بما أنزل الله سبحانه عدم الاهتمام بعلوم الفقه الإسلامي وغيرها من العلوم الشرعية من قبل الحكام، فقد أصبحت العلوم الشرعية تُقابل بنوع من المحاربة، وذلك من خلال تغيير المناهج وطرق تدريس هذه العلوم كعلوم نظرية فقط غير عملية، وغير قابلة للتطبيق.

٣. ضعف فهم اللغة العربية عند الكثير من العلماء وأبناء الأمة الإسلامية، فقد تعرضت اللغة الأم لغة القرآن الكريم إلى هجمة شرسة ومقصودة في أواخر الدولة العثمانية حين ألغيت اللغة العربية كلغة رسمية، وذلك من خلال ضعف المناهج، والتقليل من أهمية اللغة العربية في بناء الحضارة الإسلامية، واستبدالها باللغة العامية، ولأن بإهمالها سيبقى الاجتهاد في الشريعة الإسلامية مفقودا، ولا يمكن الاجتهاد في الشرع إلا بها.

٤. كان للغرب دور مباشر في عزل الشريعة الإسلامية عن التطبيق، وإحلال القوانين الوضعية الغربية محلها، وبدأ هذا في العالم العربي منذ الغزو الفرنسي لمصر على يد نابليون ثم تلاها الحملات الاستعمارية على العالم الإسلامي بعد انهيار الخلافة العثمانية، لقد اتبع الغرب أسلوبا كان أثره أخطر وأشد من الاستعمار العسكري، وهي محاولة زحزحة العقيدة الإسلامية، وقلعها من نفوس المسلمين، وبخاصة الحكام منهم، واستمالتهم إلى جانب المدنية الغربية الزائفة، وبالتالي يسهل عليهم إبعاد المسلمين عن تحكيم شريعتهم، والهيمنة العسكرية على دولهم، وواكب هذه الهيمنة تعديلات رئيسة في القوانين التي تحكم الدول العربية والإسلامية، فقد أخذت هذه الدول في أغلبها بالقوانين الغربية، وتأثرت بالعديد من العادات والتقاليد التي تعيش عليها رغم مخالفتها في الغالب للعادات المتعلمين وعطلت الأحكام الشرعية في محاكم المسلمين، حيل حينئذ بين الفكر الإسلامي وتطبيقه، وعزلت العقيدة عن قوانين السلوك والأخلاق.

وكان مما تبرر به هذه الإجراءات أن الفقه الإسلامي غير مقنن وغير مرتب في مواد يسهل الرجوع إليها عند الحاجة لمعرفتها.

المطلب الخامس: عهد يقظة الفقه الإسلامي والنهوض من كبوته

بالرغم من استمرار ضعف الدولة الإسلامية وانقسامها إلى دويلات ممزقة فقد بقيت أنظمة هذه الدول بعيدة عن تطبيق القوانين الوضعية الغربية إلى بداية القرن التاسع عشر، حيث جاء دور الغزو الفكري لتلك الدويلات عن طريق القوانين الغربية، كما توقف تطبيق الفقه الإسلامي في معظم أمور الحياة، الأمر الذي جعل الغيورين من أبناء المسلمين يضيقون ذرعا في أواخر القرن الثالث عشر مما آل إليه أمر الفقه الإسلامي من جمود وتخلف عن مسايرة ركب الحياة[٤٦]، فأخذ المصلحون في العالم الإسلامي ينادون بالدعوة إلى النهوض بالفقه حتى يكون قادرا على تلبية احتياجات الناس؛ وذلك بالاستفادة من التراث الفقهي الضخم الذي ورثوه من العلماء السابقين، والتخلص من دراسة الكتب العلمية المعقدة التي انتشرت في عهد التأخر العلمي، والعمل على تأليف الكتب السهلة الأسلوب، والاستفادة من الفقه الإسلامي بأكمله، وعدم تقييد الناس بمذهب معين في قضائهم وإفتائهم، إذ إن المذاهب كلها من نبع واحد هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقد تميزت مظاهر النهضة الفقهية في دراسة الفقه الإسلامي في هذه الفترة الزمنية عن العصور السابقة بعدة أمور نذكر منها ما يلي:

أولا: دراسة المذاهب الفقهية المشهورة والآراء المعتبرة دون تفضيل مذهب على مذهب، وعدم التعصب الفقهي الأعمى، الذي سيطر على الفقه الإسلامي طوال سبعة قرون، ولا يخفى ما لهذا الأمر من أثر على طلاب العلم والمعرفة، إذ يضع أمامهم ألوانا من الآراء ووجهات النظر المختلفة، فتتسع مداركهم، وتنمو ملكاتهم الفقهية، ومكانتهم العلمية، وهذا ما حصل فعلا في وضع قوانين الأحوال الشخصية في الوقت الحاضر.

---

[٤٤] زيدان- عبد الكريم- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية-ص١٥٠.
[٤٥] الصابوني- عبد الرحمن- المدخل لدراسة التشريع الإسلامي ص٢٦٤.
[٤٦] الصابوني- عبد الرحمن- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية- ص٢٧٤.

ثانيا: تقنين أحكام الفقه الإسلامي: والمقصود بالتقنين جمع أحكام المسائل في كل باب وصياغتها في مواد متتابعة، بحيث يقتصر في حكم كل مسألة على رأي واحد، يختاره المشرع من بين الآراء المتعددة، وذلك بغرض توحيد الحكم في المسائل المتشابهة، وتيسير مراجعة الأحكام الفقهية للحد من تسرب القانون الوضعي إلى دول العالمين العربي والإسلامي، والرد على ما يحتج به المروجون الداعون إلى تطبيقه بحجة حسن تنظيمه وترقيمه وتبويبه وسهولة تناوله، وقد بدأ التفكير في تقنين الفقه الإسلامي في أواخر القرن الثالث عشر، وذلك في تركيا حيث ظهرت الحاجة الماسة إلى تيسير مراجعة الأحكام الفقهية، فصدر الأمر بتأليف لجنة من مشاهير الفقهاء، لوضع مجموعة الأحكام الشرعية في المعاملات في الفقه الحنفي، وبدأت اللجنة عملها عام ١٢٨٦هـ، وانتهت منه عام ١٢٩٣هـ، وعرفت هذه المجلة باسم المجلة العدلية، وجرى تطبيقها في تركيا والبلاد التابعة لها ولم تكن مصر من بينها لأنها كانت قد استقلت عن تركيا عام ١٢٩١هـ، وقد صدرت الإرادة السلطانية في ٢٦ شعبان عام ١٢٩٣هـ بلزوم العمل بها وتطبيق أحكامها في محاكم تركيا والبلاد التابعة لها.

ثالثا: الدراسات المقارنة: لقد اشتدت العناية، بالدراسات المقارنة، والمقارنة تكون تارة بين المذاهب الفقهية الإسلامية في مسألة بعينها، وتارة تكون بين الشريعة الإسلامية في جملة مذاهبها، وبين القوانين الوضعية، وقد أتاحت هذه الدراسة الآفاق أمام المشرعين، كما دفعت إلى التعمق في دراسة الشريعة الإسلامية لمعرفة ما فيها من كنوز المعرفة وروعة التحليل، فهي شريعة متكاملة تشمل مختلف حالات الإنسان في دينه ودنياه وآخرته وصالحة لكل زمان ومكان، والدراسة المقارنة توسع ذهن الطالب، وتعلمه طريق المناقشة للأدلة، والترجيح بين الآراء، وهذا مفيد جدا، وضروري له في المرحلة الجامعية الأولى، ومن أهم فوائدها تخفيف حدة العصبية المذهبية، وإنصاف أئمة الاجتهاد.

رابعا: ظهور الموسوعات الفقهية: لقد نجم عن الشعور بالحاجة إلى موسوعات فقهية تيسر سبيل البحث الفقهي، أن قامت كلية الشريعة في جامعة دمشق عام ١٩٥٦م بمحاولة لإيجاد موسوعة للفقه الإسلامي غايتها صياغة مباحث الفقه الإسلامي بجميع مذاهبه وفق الموضوعات القانونية الحديثة بحيث:

١. تعرض مواد الفقه الإسلامي عرضا علميا حديثا.
٢. تسهل الرجوع إلى نصوصه في كل موضوع للاستفادة منها إلى أبعد حد.
٣. ترشد الباحثين إلى مصادر هذا الفقه ومواطن كل بحث فيها[٤٧].

ثم تلتها وزارة الأوقاف المصرية عام ١٩٦١م وقد صدر عنها خمسة عشر جزءا من الموسوعة الفقهية حتى اليوم، ثم صدرت عن وزارة الأوقاف الكويتية الموسوعة الفقهية[٤٨].

خامسا: المجامع العلمية والمؤتمرات الفقهية والجامعات الإسلامية: ومن مظاهر النهضة الفقهية الحديثة إنشاء المجامع الفقهية على نسق المجامع العلمية الأخرى، وعقد المؤتمرات والندوات الفقهية، وإنشاء الجامعات الإسلامية، تحقيقا للهدف العام الذي يشعر المسلمون بالحاجة الماسة لتجديد الفقه الإسلامي وتطوره، ومن أشهر الجامعات الإسلامية التي لها دور بارز في تدريس الفقه الإسلامي على مختلف مذاهبه جامعة الأزهر الشريف في جمهورية مصر العربية وجامعة الزيتونة في تونس وجامعة أم القرى في مكة المكرمة وجامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض وجامعة أم درمان الإسلامية في السودان والجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

وأما المجامع العلمية التي تهتم بالدراسات الفقهية فمنها على سبيل المثال:

١. مجمع البحوث الإسلامية الذي تم تأسيسه سنة ١٩٦١م في الأزهر الشريف.
٢. مجمع الفقه الإسلامي بجدة أسس عام ١٩٨١م.
٣. مؤسسة آل البيت في الأردن وتهتم بالدراسات الفقهية والعلمية.

أما بشأن المؤتمرات الفقهية فقد تم عقد مؤتمرات دولية ومن هذه المؤتمرات: المؤتمر العالمي للاقتصاد في مكة عقد في عام ١٩٧٦م، ومؤتمر الفقه الإسلامي بالرياض عقد عام ١٩٧٦م أيضا[٤٩]، وقد تناولت هذه المؤتمرات بحوثا هامة عالجت مشكلات معاصرة فأوجدت لها الحلول وأثبتت جدارة الفقه الإسلامي وقابليته للتطور والتجديد.

فهذه لمحة موجزة تحدد ملامح تجديد الفقه وتطوره فإذا أردنا لهذا الفقه أن يعود إلى قوته وعافيته من جديد، كما بدأ، فالطريق إلى ذلك تتطلب من علماء المسلمين معرفة الأسباب التي جعلت الفقه ينمو ويزدهر في عهد السلف الصالح والتي أشرت إليها من خلال هذا البحث، وأن يقدموا للأمة الإسلامية الحلول للمشكلات المعاصرة في الوقت الحاضر، وإيجاد الأحكام الشرعية للأمور المستجدة في مختلف جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، وذلك عن طريق فتح باب الاجتهاد لمن توافرت فيهم مقومات الأهلية الكاملة للبحث والاستنباط بحيث يرتكز الاجتهاد على أساس الشريعة الإسلامية والسير في فلكها وإطارها وعدم الخروج على أحكامها، فهي تقدم لنا ما نحتاج إليه إذا وجدت لدينا الرغبة الصادقة لخدمتها والعمل على تطبيقها فهي بحمده تعالى صالحة لكل زمان ومكان بخلاف ما عليه الحال في القوانين الوضعية حيث سأفرد مباشرة مبحثا خاصا لبيان الفرق بين مصادرهما.

الشريفة، وقد اتخذ المجتهدون بعد عصر الرسول صلى الله عليه وسلم هذين المصدرين لاجتهادهم، فإذا لم يجدوا حكما لما يعرض عليهم، وجب عليهم أن يتقيدوا بالأصول والمبادئ التي جاء بها الوحي الإلهي، وأن يستلهموا مقاصدها، وأن يسيروا وفق مبادئها وإلا رد اجتهادهم.

أما القوانين الوضعية، فإن مصادرها ما تعارف عليه الناس، بعد ممارسة لشؤون الحياة دون أن يراعى فيها ارتباطها بالوحي الإلهي.

وكان من الطبيعي أن يتميز الفقه الإسلامي عن القانون الوضعي بأمرين أساسيين:

الأمر الأول: إن الفقه الإسلامي يتصف بصفة العموم والشمول والاكتمال في جميع أحكامه ومبادئه، ولم يعد أمام المسلمين سوى تطبيق هذه المبادئ والقواعد والأصول، دون تعديل أو تغيير أو تبديل.

وكل ما فعله الفقهاء المسلمون على كثرة عددهم، واختلاف اجتهادهم أن طبقوا القواعد والمبادئ والأصول على المسائل الجزئية التي عرضت لهم أو التي يحتمل وقوعها.

أما القانون الوضعي فمن المعروف أنه نشأ غير مكتمل المبادئ والأصول والنظريات، وظل قرونا طويلة تتناوله يد التغيير والتبديل والحذف والإضافة في كثير من قواعده وأحكامه حتى زالت معظم معالمه التي لازمته منذ نشأته، وأبرز مثال على ذلك القانون الروماني الذي تطور على مدى ثلاثة عشر قرنا، ورغم ذلك لم يبلغ من الكمال ما ضمن له البقاء والاستمرار. وسر الاختلاف في ذلك أن التشريع السماوي من عند الله سبحانه وتعالى، وهو محيط بكل دقائق الأمور، وعالج كل شؤون الحياة كلها لجميع أصناف البشر، سواء في مجال العبادات أم المعاملات وغير ذلك.

أما القانون الوضعي فهو من وضع البشر الذي تعجز قدراتهم عن الإحاطة بكل متطلبات الحياة حاضرا أو مستقبلا، فهي دائما ناقصة في حاجة إلى تكميل أو تغيير أو تبديل قاصرة عن تنظيم كل جوانب الحياة، إذ إنها لا تتناول سوى جانب واحد، وهو ما يتصل بعلاقة الناس بعضهم ببعض، علاوة على أنها غير صالحة للتطبيق في كل زمان ومكان.

الأمر الثاني: تتصف أحكام الفقه الإسلامي بالصبغة الدينية سواء في ذلك العبادات والمعاملات وغيرها، فامتثالها، طاعة يثاب الإنسان عليها، ومخالفتها معصية يعاقب عليها فالأصل احترام الشريعة الإسلامية إنما ينبعث من عقيدتهم الإسلامية.

أما القوانين الوضعية فلا مجال فيها لفكرة الحلال والحرام ولا عبرة لبواطن الأمور، فلا تهتم بالصفات الأخلاقية كثيرا؛ ذلك أن مهمتها هي مجرد التنظيم الظاهري لأمور الناس، وتبيح كثيرا من التصرفات التي قد لا تتفق مع الفضيلة والأخلاق الحميدة. وترتب على ذلك كله ارتباط الأحكام الفقهية بقواعد الأخلاق التي تسمو على المصالح الشخصية.

هذا مجمل القول في وجوه الفرق بين مصادر الفقه الإسلامي والقوانين الوضعية، حيث يتبين لنا أن للأهواء والرغبات الشخصية ولثقافة المشرع وعلمه، أثرا كبيرا في مصادر القوانين الوضعية، وبعد بيان ذلك فلا مجال للمقارنة وليس من اللائق منا أن نناظر ونقارن بين فكر بشري أثبت التطبيق أخطاءه وبرهنت الأيام على مدى عدم ملاءمته وصلاحيته، وبين الفكر الإسلامي المستند إلى شريعة الله التامة الكاملة الصالحة لكل زمان ومكان.

الخاتمة

في نهاية هذا البحث الذي تناول مراحل التشريع والفقه الإسلامي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عصرنا الحاضر نلاحظ ما يلي:

١. مصدر التشريع في العهد النبوي هو الوحي الإلهي من خلال القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

٢. اهتمام الخلفاء على مدى عصور الدولة الإسلامية بالعلم والعلماء وتشجيعهم لدراسة الفقه الإسلامي.

٣. عندما كانت الدولة الإسلامية قوية سياسيا واقتصاديا وعسكريا انعكس ذلك على جميع مناحي الحياة بما فيها الناحية العلمية والفقهية فقد عاش الفقه الإسلامي أزهى عصوره وازدهاره ونموه في ظل الدولة العباسية التي كانت تجل العلم والعلماء.

٤. ضعف الدولة الإسلامية، وتغلغل النفوذ الأجنبي فيها، أدى إلى تأخر الفقه الإسلامي وجموده وإحجام الفقهاء عن الاجتهاد، إما لوفرة ما لديهم من الأحكام المنقولة عن أئمة مذاهبهم أو تهيبا من الإدلاء برأيهم.

٥. يعاني الفقه الإسلامي في وقتنا الحاضر من مراحل الجمود والضعف وتخلفه عن مسايرة ركب الحياة المعاصرة ويعود

---

* زيدان- عبد الكريم- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية- ص٢٧٤.

ذلك إلى الأسباب التي تم ذكرها في البحث مع الملاحظة بوجود بعض المخلصين اليوم في العالم الإسلامي الذين أخذوا ينادون بالدعوة إلى تطور الفقه حتى يكون قادرا على مجابهة مطالب الحياة.

٦. ضرورة العودة إلى تحكيم شرع الله سبحانه وتعالى، وتطبيق أحكامه على كافة مجالات الحياة حتى تعود الدولة الإسلامية قوية كما بدأت ويعود الازدهار والرقي إلى الفقه الإسلامي من جديد، ويتطلب ذلك استخدام آليات جديدة في الاجتهاد من خلال المجامع الفقهية، ومشاركة كل علماء المسلمين فيها، القادرين على البحث والاستنباط.

نسأل الله سبحانه أن يعجّل في تحكيم شرعه عن قريب، وتعود العزة والقوة للأمة الإسلامية وتنهض بفقهها وعلمائها من جديد حتى يتسنى لها قيادة العالم إلى بر الأمان والاطمئنان.

كما ونسأله سبحانه أن يتقبل عملنا هذا خالصا لوجهه الكريم وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

١. الأشقر- عمر سليمان- تاريخ الفقه الإسلامي- مكتبة الفلاح- الكويت- ١٩٨٢م.
٢. البخاري- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل- صحيح البخاري- كتاب العلم- رقم الحديث ٦٧.
٣. جامعة القدس المفتوحة- المدخل إلى الفقه الإسلامي- عمان- الجامعة ١٩٩٣م.
٤. الجرجاني- تحقيق د. عبد الرحمن عميرة - طبعة عالم الكتب- بيروت.
٥. حسين- أحمد فراج- تاريخ الفقه الإسلامي- الدار الجامعية- بيروت- ١٩٨٩م.
٦. ابن حنبل- أحمد- كتاب العشرة المبشرين في الجنة- رقم الحديث ١١٧٣.
٧. الخزرجي- ضياء الدين- الأمة الإسلامية بين عوامل التقدم وأسباب الانحطاط- مقال على الانترنت.
٨. خلاف- عبد الوهاب- خلاصة تاريخ التشريع الإسلامي- دار العلم - الطبعة التاسعة- ١٣٩١هـ- ١٩٧١م.
٩. أبو داود- سليمان بن الأشعث- سنن أبي داود.
١٠. الرازي- محمد بن أبي بكر- مختار الصحاح- ص٣٣٥- طبعة دار المعارف- مصر.
١١. الزحيلي- وهبة- الفقه الإسلامي وأدلته- دار الفكر- الطبعة الرابعة- دار الفكر ١٩٩٧م.
١٢. الزرقاء- مصطفى- الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد- الطبعة الثانية- ١٩٦٤م.
١٣. زيدان- عبد الكريم- المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية- مكتبة القدس- مؤسسة الرسالة- الطبعة التاسعة- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.
١٤. السايس- محمد علي- تاريخ الفقه الإسلامي- مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.
١٥. الشاطبي- أبو إسحاق- الموافقات.
١٦. الشوكاني- محمد علي- القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد.
١٧. الصابوني-عبد الرحمن- المدخل لدراسة التشريع الإسلامي.
١٨. القرطبي- محمد بن أحمد الأنصاري- الجامع لأحكام القرطبي - دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان.
١٩. الندوي- أبو الحسن- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين- مطابع علي بن علي- الدوحة- قطر- ١٩٧٤م.

المؤهلات العلمية

- حصل على شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، تخصص فقه مقارن، جامعة الأزهر الشريف، عام ١٩٧٨
- حصل على شهادة الماجستير في الشريعة الإسلامية، تخصص فقه المقارن من جامعة الأزهر الشريف، عام ١٩٧٢
- حصل على شهادة البكالوريوس في الحقوق من جامعة القاهرة عام ١٩٦٩

السيرة العملية

١. أستاذ مشارك في كليتي القرآن والدعوة - جامعة القدس ١٩٩٧ حتى الآن
٢. عميد كلية الدعوة وأصول الدين سابقاً (١٩٨٠-١٩٨٦)- جامعة القدس
٣. عميد كلية القرآن والدراسات الإسلامية سابقا (٢٠٠٠- ٢٠٠٥)
٤. عميد كلية الدعوة وأصول الدين سابقاً (٢٠٠٣-٢٠٠٥)
٥. عضو الهيئة الإسلامية العليا، (١٩٨٤- حتى الآن)
٦. عضو مجلس الأوقاف الأعلى بالقدس، (١٩٩٤- حتى الآن)
٧. عضو مجلس أمناء في جمعية العلوم والثقافة الإسلامية منذ تأسيسها
٨. عضو مجلس الفتوى الأعلى من (١٩٩٤- حتى الآن)
٩. عضو مجمع اللغة العربية (١٩٩٥- حتى الآن)
١٠. عضو مجلس الاستشارة في مجلة هدى الإسلام المقدسية (١٩٩٢- حتى الآن)
١١. رئيس دائرة الفقه والتشريع/ كلية الدعوة وأصول الدين (١٩٩٦-٢٠٠٠)
١٢. عضو لجنة تطوير المناهج في جامعة القدس
١٣. منس لجنة الإعداد لبرنامج الماجستير في الشريعة الإسلامية في جامعة القدس
١٤. منسق لجنة تأليف المناهج للصف العاشر لدى وزارة التربية والتعليم العالي - فلسطين
١٥. عضو لجنة برنامج الماجستير في الدراسات الإسلامية المعاصرة ٢٠٠١ وحتى الآن
١٦. منسق المواد الشرعية التي تطرح في كليات جامعة القدس ٢٠٠١ وحتى الآن
١٧. عضو في لجنة مجلة الجامعة للبحوث الإنسانية - جامعة القدس ٢٠٠١ وحتى الآن

الإنتاج العلمي

١. كتيب بعنوان «أضواء على الحياة الزوجية في فلسطين»
٢. كتيب بعنوان «زاد الصائم»
٣. كتيب بعنوان «مكانة الأقصى العلمية»
٤. كتاب بعنوان «مقالات وبحوث فقهيه»، الجزء الأول
٥. كتاب بعنوان «جريمة السرقة بين الشريعة الإسلامية والقانون الوضعي»
٦. كتاب بعنوان «الفوائد في علم الفرائض» ٢٠٠٢-٢٠٠٣
٧. كتاب «فقه العبادات» ٢٠٠١-٢٠٠٢

د. أحمد فواقه*

الأخلاق

هي المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه. ثم إن لهذا النظام الأخلاقي الإسلامي طابعين مميزين:

طابع النظام الأخلاقي الإسلامي

١. طابع إلهي: من حيث أنه مراد الله فيجب على الإنسان أن يتبع في هذه الحياة نظاماً محدداً ولذلك جاء الوحي بصورة هذا النظام، وطلب من الإنسان أن يشترك في تطبيقه بقلبه وروحه وبإرادته الخيرة الخالصة لوجه الله، على أن يتجلى ذلك في سلوكه الظاهري المادي.

٢. طابع إنساني: من حيث أن هذا النظام عام في بعض نواحيه لم يحدد تحديداً دقيقاً، وإنما فيه بعض المبادئ العامة. مثل التنظيم السياسي في الإسلام فإنه غير محدد من جميع النواحي، ولكن هناك معالم خاصة لهذا النظام. وعلى الحاكم أن ينظم الدولة ويحكم على أساس هذه المعالم. إذن فللإنسان هنا مجهود ودخل في تحديد هذا النظام من الناحية العملية.

٣. والنقطة الأخيرة في هذا المفهوم وهي أن الأخلاق نظام من العمل من أجل الحياة الخيرة: أي طراز السلوك وطريقة التعامل مع الغير، أياً كان هذا الغير إنساناً كان أم حيواناً من حيث ما ينبغي أن يكون عليه هذا السلوك كسلوك إنساني تجاه الغير. وذلك بناءً على مكانته في الكون ومسؤولياته التي يجب أن ينهض بها وبناءً على ما وضع له خالقه من أهداف في هذه الحياة.

تكامل الجانب النظري مع الجانب العملي

هذا جانب من مفهوم الأخلاق في الإسلام وهناك جانب آخر وهو تكامل الجانب النظري مع الجانب العملي منه.

الأخلاق جوهر الإسلام

وهناك شيء آخر مهم لا بد من ملاحظته وهو أن النظام الأخلاقي ليس جزءاً من نظام الإسلام العام فحسب، بل إن الأخلاق هي جوهر الإسلام وروحه السارية في جميع جوانبه، فالنظام الإسلامي عموماً مبني على فلسفته الخلقية أساساً، ومصداق ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)[١]. فقد قصر الرسول صلى الله عليه وسلم أهداف رسالته في هذا الحديث على الأخلاق، وأنه جاء ليتم البناء الأخلاقي الذي بدأته الرسالات السابقة. كما قال في حديث آخر: (مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأتمها وأكملها إلا موضع لبنة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها، ويقولون: لولا موضع اللبنة، فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبياء)[٢]. إذن فهدف الرسالات الإلهية كلها هدف أخلاقي أيضاً.

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (الدين حسن الخلق)[٣]، وكانت عائشة رضي الله عنها تفهم هذا المعنى من الدين الإسلامي فقالت عندما سئلت عن أخلاق النبي: (كان خلقه القرآن)[٤] ويؤيد ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن أحسن الناس خلقاً أحسنهم ديناً)[٥] وكذلك قوله: (الإسلام حسن الخلق)[٦]. وقوله صلى الله عليه وسلم (ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن)[٧]، وجاء في تفسير القرطبي وابن كثير في قوله تعالى: (وإنك لعلى خلق عظيم)[٨]، أي على دين من الأديان، وكذلك فسرها ابن عباس ومجاهد.

---

* محاضر في جامعة القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[١] سلسلة الاحاديث الصحيحة المجلد الاول ص ١١٢ حديث رقم ٤٥/ حديث صحيح

[٢] صحيح مسلم المسند الصحيح ٢٢٨٧

[٣] مرسل العراقي في تخريج الاحياء ٦١/٣

[٤] صحيح الالباني صحيح الجامع ٤٨١١

[٥] موضوع الالباني السلسلة الضعيفة ٣٨٨٦

[٦] وجدته بنص اخر وهو ضعيف (حسن الخلق نصف الدين) الالباني في ضعيف الجامع ٢٧١٦

[٧] صحيح الالباني صحيح ابي داود ٤٠١٤

[٨] سورة القلم: ٤

وقد سمى البعض الأخلاق بأنها علم الواجب: أي أنها علم يعرف الإنسان الواجبات كما يجب أن يفعلها. ومن ثم كان إطلاق الأخلاق على الدين في اللغة وفي الاصطلاح أحياناً. وليس هذا الفهم مفروضاً على الإسلام أو غريباً عنه، بل روح الإسلام روح أخلاقية، وهدف الإسلام في الحياة تحقيق غاية أخلاقية، هذه الروح نجدها في كل جانب من جوانب الإسلام.

العقيدة أخلاق

ففي جانب العقيدة: نجد قوله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً)[9] وقال: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[10] وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)[11].

ثم إن الإسلام اعتبر الإيمان برا فقال تعالى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ)[12].

ومعلوم أن البر صفة للعمل الأخلاقي أو هو جامع لأعمال الخير كما يقول بعض العلماء، وقد بين صلى الله عليه وسلم أن من لم يتخلق بالأخلاق الحسنة لا يقبل الله منه الإيمان والدين فقال: (لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له)[13].

العبادة أخلاق

وروح العبادة في الإسلام روح أخلاقية في جوهرها لأنها أداء الواجبات الإلهية ولهذا نجد الإتجاه الأخلاقي سائدا في جميع العبادات، ففي الصلاة قال تعالى: (إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ)[14]. وبين صلى الله عليه وسلم أن من لم يتخلق لا يقبل الله منه الصوم فقال: (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)[15]. وقال تعالى في الحج: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ)[16].

وقال في الأضحية: (لَن يَنَالَ اللّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ)[17]

وقال في الزكاة: (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا)[18].

وقد ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (أن فلانة تكثر من صلاتها وصدقتها وصيامها غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها)، قال: (هي في النار)[19].

هنا نجد أن الإسلام يختلف في نظريته الأخلاقية بالنسبة الى الله عز وجل عن بعض الفلاسفة مثل (كانط) الذي يرى عدم وجود هذا النوع من الأخلاق. لأن الأخلاق في نظره واجبة والواجب يقتضي سبق حق وليس للإنسان حق سابق على الله.[20]

أما الإسلام فقد قرر أن للعباد حقا على الله كتبه الله على نفسه إذا عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن يدخلهم الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً وحق العباد على الله عز وجل ألا يعذب من لا يشرك بالله شيئاً)[21].

وقال تعالى: (إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[22]

حقوق الحيوان

بل أكثر من ذلك فقد قرر الإسلام حقوقاً للحيوان على الإنسان في مقابل تسخيرها له. قال تعالى: (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

---

[9] اسناده صحيح ابن حجر مختصر البزار ٧٦/١
[10] صحيح البخاري الجامع الصحيح ١٣
[11] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٦١٣٦
[12] سورة البقرة: ١٧٧
[13] صحيح الالباني صحيح الجامع ٧١٧٩
[14] سورة العنكبوت: ٤٥
[15] صحيح البخاري الجامع الصحيح ١٩٠٣
[16] سورة البقرة ١٩٧
[17] سورة الحج: آيه ٣٧
[18] سورة التوبة آيه ١٠٣
[19] اسناده صحيح الالباني مشكاة المصابيح ٤٩٢٢

ولا سقتها ولا هي تركتها تاكل من خشاش الارض)[22]

وقال عبد الله: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلقت لحاجتي فرأيت حمرة (عصفورة) معها فرخان فأخذت فرخيها فجاءت الحمرة فجعلت تعرش (تغرد حزناً) فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (من فجع هذه بولدها ردوا ولديها إليها)[25].

ثم إن الإسلام دين الرحمة جاء رحمة للعالمين، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[26]. وعلى ذلك فلا بد أن يقرر لكل حي حقوقاً طبيعية وأن يوجب على الإنسان احترام هذه الحقوق، ولهذا جاءت أحاديث كثيرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم في الرفق بالحيوان، منها حديث عائشة عندما ركبت بعيرا فكانت فيه صعوبة فجعلت تردد فقال لها صلى الله عليه وسلم: (عليك بالرفق فإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه)[27].

وأثار القرآن هذا التعاطف والتراحم بين الإنسان والكائنات الحية الأخرى في قوله: (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم)[28]

الأخلاق في المعاملة

أما روح الأخلاق في المعاملة العامة بين الناس في جوانب الشريعة الإسلامية فنجدها بصورة أوضح، ومن الأدلة الواضحة على ذلك ما نجد من اعتراف علماء الشريعة أنفسهم بهذا المفهوم، ذلك أنهم في صدد بيان مقاصد الشريعة؛ قالوا إن مقاصد الشريعة ثلاثة وهي: تحقيق الضروريات والحاجيات والتحسينات للإنسان في هذه الحياة. والضروريات في نظرهم (هي الأمور التي لا بد منها لقيام مصالح الدين والدنيا بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد وبهارج وفوت حياة وفي الأخرى فوت النجاة والنعيم والرجوع المطالب. مثل تحقيق كل حاجيات الإنسان بشيء من السعة من المأكل والمشرب والمسكن. وإزالة ما يؤدي إلى الضيق في بعض التكاليف كالتخفيف في الرخص في حالات الاضطرار. وأما التحسينات: فهي اتخاذ أحسن وأجمل الأساليب في حالة معاشرة الناس ومراعاة شعورهم وإحساساتهم الأدبية[30] فنجد أن مقاصد الشريعة مقاصد أخلاقية. ويؤيد هذا نصوص كثيرة منها: (إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى، وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى، جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى)[31]

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هاجر ما حرم الله)[32]. وقال (من غشنا فليس منا ومن حمل السلاح علينا فليس منا)[33].

وهكذا نجد أن الإسلام قد ربط بين جوانب الإسلام برباط أخلاقي لتحقيق غاية أخلاقية.

وأصدق دليل على ذلك قوله تعالى: (لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ)[34] وأصحاب الخلق أولئك الذين يؤدون تلك الواجبات السابقة. وقد فهم هذه الروح الأخلاقية في الإسلام أكثم بن صيفي أحد حكماء العرب الذي قال عندما دعا قومه إلى الإسلام: إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً)[35]. وبعد هذا كله لا نبالغ إذا قلنا أن الأخلاق في الإسلام

---

[23] سورة النحل آيه ٥-٧
[24] صحيح الالباني غاية المرام ٤٧٧
[25] صحيح الالباني صحيح ابي داود ٢٣٢٩
[26] سورة الأنبياء آيه ١٠٧
[27] صحيح الالباني صحيح الادب ٣٦٤
[28] سورة الأنعام آيه ٣٨
[29] الموافقات في اصول الاحكام للامام الشاطبي ٤/٢ وما بعدها
[30] الموافقات في اصول الاحكام ٥/٢ للشاطبي
[31] سورة طه الأيات ٧٤-٧٦
[32] صحيح البخاري الجامع الصحيح ١٠
[33] صحيح مسلم المسند الصحيح ١٠١
[34] سورة البقرة آيه ١٧٧
[35] مختارات من روائع الادب العربي ٥٣٣ دكتور عبد السلام سرحان

بالمفهوم السابق هي روح الرسالة الإسلامية وإن النظام الإسلامي التشريعي يعد صورة مجسمة لهذا الروح.

وبعد هذه التحليلات والتحديدات لمفهوم الأخلاق في نظر الإسلام يمكننا أن نجمل هذا المفهوم بأن (الأخلاق هي أنماط سلوك الإنسان في الحياة) سواء كان هذا السلوك ظاهراً أو باطناً يصدر من الإنسان بإرادة وبهدف إلى تحقيق غاية.

غاية الأخلاق في الإسلام

نظام الإسلام نظام أخلاقي، فما الهدف الذي يرمي اليه الإسلام من وضع هذا النظام؟

عندما ندرس الإسلام من جميع النواحي نجد تصريحات حينا وتلميحات حينا آخر، إن هذا النظام وضع من أجل مصلحة الإنسان وتحقيق السعادة له في الدنيا والآخرة. ونجد أيضاً أن حقيقة السعادة هي الشعور والإحساس الدائم بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير.

خيرية الذات: لا بد من صحة العقيدة وصحة العقل وصحة النفس.

والدليل على صحة العقيدة: أن تبرر نفسها بنفسها بالبراهين العقلية الواضحة.

والدليل على صحة العقل: التمييز بين الحق والباطل وبين الفضيلة والرذيلة وبين النافع والضار وهذا يكون بالمعرفة والعلم والحكمة.

والدليل على صحة النفس: الشعور بالأمن والطمأنينة والصحة.

ولكي يتحقق هذا لا بد من توفر الأمن الخارجي وهو متوقف على النظام العام للحياة. ولا بد من توفر الأمن الداخلي ايضا ويتحقق بالتوفيق بين العقيدة وبين السلوك في الحياة ثم بينهما وبين الأهداف التي يريد الإنسان تحقيقها في الحياة.

فلا بد أن يكون بين هذه الأمور انسجام وتناسق ليشعر بالأمن، قال الله تعالى: (الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ)[٣٦] ولكي يتحقق العنصر الثاني (خيرية الحياة) لا بد من الشروط التالية:

١. الشعور بخيرية الذات.
٢. السلامة من الأمراض.
٣. تحقيق مطالب الإنسان الأولية وأن يكون ذلك بالحكمة

أما العنصر الثالث (خيرية المصير) فلا يتحقق إلا بتحقيق العنصرين السابقين، فالإنسان لا يشعر بخيرية مصيره إلا إذا رسخت العقيدة الصحيحة في قلبه، وإلا إذا عمل بمقتضى هذه العقيدة، وإلا إذا كانت الأهداف التي حددها لنفسه في حياته متلائمة مع هذه العقيدة من جهة ومع إمكانيات طبيعته البشرية من جهة أخرى.

وتحقيقاً لذلك فقد جاء الإسلام بعقيدة سليمة برهن عليها ببراهين عقلية واضحة. ثم جاء بنظام عام للحياة الإنسانية حدد فيه سلوك الإنسان. وقد راعى في هذا وذاك طبيعة هذا الوجود بوجه عام وطبيعة الإنسان بوجه خاص. كما حدد مركزه ومصيره والأهداف التي ينبغي أن يسعى لتحقيقها، وربط في كل ذلك بين العقيدة وواقع الإنسان وسلوكه في هذه الحياة، ومصيره فيما بعد هذه الحياة. وكل ذلك بحكمة تخضع لها العقول المدركة لحقيقتها خضوع الإكبار والإجلال.

اثر العقيدة على الفرد

وليس هذا مجرد دعوى بدون دليل أو فكرة مفروضة على الإسلام، بل هي مستوحاة من روح الإسلام وفلسفته وفي الإسلام أسانيد لها.

ففيما يتعلق بأثر العقيدة الراسخة في سعادة الفرد يقول صلى الله عليه وسلم: (إن الله عز وجل بحكمته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط)[٣٧]. وللعقيدة أثر في اطمئنان القلب قال إبراهيم عليه السلام: (وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)[٣٨]

ولها أثر ثالث وهو حلاوة الإيمان الناشئ عن محبة، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار)[٣٩]

عناية الإسلام بالعقل

ولصحة العقل وسعادته اتخذ الإسلام طريقين:

أ. طريق الوقاية
ب. طريق التنمية

ففي الطريق الأول حرم على الانسان تناول كل ما يخدر العقل ويضره وفي الطريق الثاني دعا الى تحقيق مطالبه من النظر والمعرفة والحكمة.

ولم يكتف بمجرد الدعوة الى ذلك فحسب، بل زوده بمعرفة كثير من أسرار الكون والحياة وعلم الغيب، علم ما وراء الكون وهو العلم الذي ما كان يستطيع العقل الإنساني أن يصل اليه وحده.

---

٣٦ ـ سورة الأنعام آية ٨٢

تحقيق الأمن الداخلي للإنسان

وفيما يتعلق بالأمن الداخلي دعا الإسلام الى بعض الأمور التي تحقق هذا الأمن: منها ذكر الله دائماً. لأن القلوب تطمئن بذكر الله: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)[٤١].

ومنها دعوته أن يكون الله ملجأ الإنسان في السراء والضراء والمستعان الذي يستطيع معاونة الإنسان ونصره وتأييده وهو يكلؤه ويحفظه إذا سلك طريقه وكسب رضاه ومحبته. قال صلى الله عليه وسلم في حديث قدسي إن الله عز وجل قال: (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب وما تقرب الي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه وما زال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سالني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا اكره مساءته)[٤٢] ونتيجة الاطمئنان إلى رعاية الله ونصره فلا يصيب هذه النفوس خوف ولا فزع عند المصائب والشدائد (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[٤٣].

تحقيق الإسلام للأمن الخارجي

وأما تحقيق الأمن الخارجي: فإن هذا النظام الأخلاقي أوجب احترام الفرد في حريته وممارسة حقوقه الطبيعية. وحرم القتل والغصب والسرقة والإعتداء على الأعراض. والى جانب ذلك دعا الى التبشير بالخير ونهى عن التشاؤم فقال صلى الله عليه وسلم: (بشروا ولا تنفروا)[٤٤]، وقال: (لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل

اهتمام الإسلام بصحة الإنسان

ولتحقيق الصحة الكاملة أمر الإسلام بثلاثة أمور:

الأمر الأول: الوقاية من الأمراض. وذلك بالأمر بمراعاة النظافة والطهارة في كل شيء لأن أغلب الأمراض تأتي نتيجة عدم النظافة. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله نظيف يحب النظافة فنظفوا أفنيتكم)[٤٦] وقال (الطهور شطر الإيمان)[٤٧]. وأمر بتغطية الأطعمة والآنية من التلوث بالجراثيم فقال: (أوكوا قرابكم)[٤٨]، وفي رواية: (خمروا الطعام والشراب)[٤٩]. كما أمر بالإبتعاد عن الأمراض المعدية والأماكن الموبوءة فقال: (إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها)[٥٠]. وقال: (فر من المجذوم فرارك من الأسد)[٥١] وقال (لا يورد ممرض على مصح)[٥٢]. هنا نرى الرسول صلى الله عليه وسلم يأمر بعملية الحصار للمرض المعدي كما تفعل الدول اليوم.

أحاديث العدوى

غير انه ينبغي الإشارة الى النصوص التي تفيد انكار الرسول صلى الله عليه وسلم العدوى مثل: (لا عدوى ولا طيرة ولا هامة)[٥٣]، ومناقشته صلى الله عليه وسلم الأعرابي في مسألة تعدي الجذام من بعير الى آخر. وأكله صلى الله عليه وسلم مع المجذوم[٥٤]، وقد وقع خلاف طويل بين العلماء إلا أن الرأي الراجح والله أعلم: إن حديث لا عدوى عام والأحاديث التي تفيد العدوى خاصة. وهذا صحيح لأن ليس كل الأمراض معدية. كما أن أكل الرسول صلى الله عليه وسلم مع المجذوم ومناقشته الأعرابي يوحيان بأنه صلى الله عليه وسلم أراد ان يثبت أن التعدي لا يحصل إلا بإرادة الله فهو لا يريد إلغاء إرادة الله مع وجود الأسباب. لكننا مع

---

[٤٠] سورة البقرة آيه ١٥١
[٤١] سورة الرعد آيه ٢٨
[٤٢] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٦٥٠٢
[٤٣] سورة يونس آيه ٦٢
[٤٤] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٦٩
[٤٥] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٥٧٧٦
[٤٦] غريب، وله شاهد مرسل فهو حسن، الالباني مشكاة المصابيح ٤٤١٣
[٤٧] صحيح مسلم - المسند الصحيح ٢٢٣
[٤٨] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٥٦٢٣ ومعنى:اوكوا :اربطوا والتخمير :التغطية
[٤٩] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٦٢٩٦
[٥٠] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٥٧٢٨
[٥١] صحيح البيهقي السنن الصغير للبيهقي٣/٦٥
[٥٢] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٥٧٧١
[٥٣] صحيح البخاري الجامع الصحيح ٥٧٠٧
[٥٤] نفس المصدر كتاب المرض والطب ١٢/٢٦٥

ذلك أمرنا باتخاذ الأسباب إتباعاً لقوله تعالى: (إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ، فَأَتْبَعَ سَبَبًا)[٥٥].

الأمر الثاني: تحقيق المطالب الأساسية في الطبيعة الإنسانية بحكمة واعتدال:

وهذه الحاجات تنقسم الى قسمين:

١. الحاجات الروحية

٢. الحاجات الحسية.

وأهمية الأولى لا تقل عن الثانية.لأن الروح موجودة أودعها الله في الإنسان لمعرفته وللإتصال به. ولتدفع الإنسان إلى تحمل مسؤولياته الإنسانية في الحياة. وهي وإن كانت غامضة في كنهها وجوهرها فهي ظاهرة من حيث آثارها في السلوك وفاعليتها في الأبدان. وهي متأصلة في الإنسان بالفطرة.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد أن تكون لها مطالب تنشط بتحقيقها وتذبل وتضيق بالحرمان منها. والحياة الروحية كما قررها الإسلام هي أداء العبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة. وتذكر الإنسان بأن الله خالقه ورازقه ويستمد منه العون. وأن يتذكر بأن الحياة مؤقتة ستتحول في النهاية - إن أحسن الإنسان عمله - إلى حياة أبدية ملؤها السعادة. ولهذه الحياة الروحية دور كبير في سعادة الإنسان.

فالإنسان عندما يحيا هذه الحياة يشعر بالاطمئنان والراحة في أعماق قلبه. لأنه يحس في قرارة نفسه بأن الله راض عنه وأنه يحفظه. ولأنه يرى أن الموت لا يقطع حياته بل ينقله من حياة مؤقتة إلى حياة دائمة. وأن الأعمال إن لم يجن ثمارها هنا فسيجدها هناك.

ولهذا كله فإن هؤلاء الذين يحيون هذه الحياة تبتسم سريرتهم بالرغم من الشدائد التي يعانون منها والصعوبات التي يخوضونها، أما الذين أهملوا الروح ولم يعطوها حقها من الحياة فهم في ضيق وحرج ولا سيما عند الأزمات والمصائب يزعجهم خوف الموت، ويقلقهم ضياع الحقوق، وعدم استيفائهم ثمار أعمالهم - ويؤدي بهم هذا الضيق والحرج أحيانا - إلى الأمراض النفسية والإنتحار.

ولقد أدرك هذه الحقيقة العالم الفرنسي الدكتور الكسيس كارل فهو يقول: (ومن الغريب أن الإنسان الحديث قد استبعد من الحقيقة الواقعية كل عامل نفسي (روحي) وبنى لنفسه وسطاً مادياً بحتاً، غير أن هذا العالم لا يلائمه قط بل نراه يصاب فيه بالإنهيار.... فمن الحكمة إذن أن نجعل لعالم الروح نفس الموضوعية التي لعالم المادة)[٥٦].

وهكذا نرى فداحة الخطأ الذي يرتكبه هؤلاء الذين يضعون نظاماً للإنسان ويهملون فيه الجانب الروحي بقصد أو بغير قصد.

وأما الحاجات الحسية الأساسية في الإنسان: كالمأكل والملبس والمسكن والجنس فهي ضرورية لدوام الحياة أولاً وللشعور بالسعادة ثانياً.لذلك فقد أباح الإسلام كل ما يحتاج اليه الإنسان، بالضرورة وحرم كل شيء يضر بالصحة.وسمى الأول الطيب والثاني بالخبيث. (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ)[٥٧]. وأباح النكاح للحاجة البيولوجية وللمتعة النفسية، (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً)[٥٨] وخلق أشياء لنصنع منها لباساً: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ)[٥٩].

إذن لا مانع أن نهتم بحاجاتنا الأساسية لنسعد في حياتنا. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (من سعادة ابن آدم ثلاثة ومن شقوة ابن آدم ثلاثة: من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة والمسكن الصالح والمركب الصالح، ومن شقوة ابن آدم: المرأة السوء والمسكن السوء والمركب السوء)[٦٠]. وقال: (ثلاث خصال من سعادة المرء المسلم في الدنيا: الجار الصالح والمسكن الواسع والمركب الهنيء)[٦١].

ولم يراع الإسلام مصلحة الإنسان الضرورية فحسب وإنما لفت نظره الى المناظر الجميلة ليشبع بها العاطفة الجمالية: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)[٦٢]. والى زينة الحدائق وأنواع الأشجار والنبات (وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ)[٦٣] وجمال الحيوانات والدواب (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ)[٦٤] وهكذا نجد الإسلام يقرر للإنسان حياة مادية حسنة وهذا مما لا شك فيه يشكل جزءا من سعادة الإنسان.

---

[٥٥] سورة الكهف الآيات ٨٤-٨٥

[٥٦] تأملات في سلوك الإنسان ص ١٧٣ - ١٧٤ الدكتور الكسيس كارل، ترجمة: محمد القصاص

[٥٧] سورة الأعراف ١٥٧

[٥٨] سورة الروم آيه ٢١

[٥٩] سورة النحل آيه ٨٠

[٦٠] صحيح لغيره، الالباني، صحيح الترغيب ١٩١٤

فالزاوية التي ذم الحياة الدنيا منها فهي زاوية الماديين: وهي أن الحياة غاية لا وسيلة وأنها مستقلة لا حياة بعدها. فعندما نظر إليها الإسلام من هذه الزاوية ذمها وذم المنهمكين فيها. لأنها حياة عارضة زائلة. فهي في هذه النظرة لا تساوي شيئاً ولا جناح بعوضه ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (لو كانت الدنيا تعادل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء)[٦٥]. وكل الآيات والأحاديث التي تذم الحياة المادية وأهلها إنما تذمها بهذا الاعتبار ومن هذه الزاوية.

أما الزاوية الثانية: فهي أن هذه الحياة ما هي إلا وسيلة لحياة أخرى أو مقدمة لها. فمن هذه الزاوية وبهذا الإعتبار مدح الإسلام هذه الحياة. وكان اهتمامه بها على النحو التالي:

١. تنظيمها تنظيماً اجتماعيا واقتصادياً وسياسيا وقضائياً.

دعوة الناس إلى أخذ نصيبهم منها: من مأكل ومشرب وزواج وملبس ومسكن قال تعالى (وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا وَاتَّقُواْ اللّهَ الَّذِيَ أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ)[٦٦]، كما وبخ الذين يمنعون الناس هذه المتعة: (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ)[٦٧] ثم إن الإسلام يعتبر هذه الحياة كلها سبيل الله الى الجنة لمن سار فيها كما أمر الله.ولما كان من الممكن أن نشتري بها الجنة فإن قيمتها تساوي الجنة.ولهذا يخطئ من يترك الدنيا ومن يغرق فيها: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ....)[٦٨]

الأمر الثالث: الذي أمر به الإسلام لكمال الصحة هو الاعتدال في الحياة والتصرف فيها طبقاً للحكمة، سواء كان في ميدان إشباع الدوافع والمطالب الأساسية أم في ميدان العمل أياً كان نوع هذا العمل.

لهذا كله منع الإسلام الإفراط في الأكل والشرب والملذات الأخرى فقال تعالى: (وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)[٦٩] وقال صلى الله عليه وسلم: (إن المؤمن يأكل في معاء واحد والكافر يأكل في سبعة أمعاء)[٧٠]، وليس المراد من كثرة الأمعاء هنا معناها الحقيقي بل القصد منها الكناية عن الكثرة في الأكل. وقال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ)[٧١]

وكما منع الإسلام الإفراط في تحقيق الحاجات الحسية منع أيضا الإفراط في التعبد والتنطع فيه فقال صلى الله عليه وسلم: (هلك المتنطعون)[٧٢].وروي عن أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم: (نهى عن التبتل)[٧٣]، ونهى الجماعة الذين اعتزموا مواصلة العبادة فقال: (أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني)[٧٤].

وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه صلى الله عليه وسلم قال: (يا عبد الله ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل قلت نعم، قال فلا تفعل صم وافطر وقم ونم فإن لجسدك عليك حقاً وإن لعينك عليك حقاً وإن لزوجك عليك حقاً)[٧٥].

الاعتدال في العمل

أما الاعتدال في ميدان العمل فضروري ذلك أن الإرهاق في العمل يؤدي إلى الإضرار بالصحة، فالإرهاق في الأعمال الجسدية يؤدي إلى الاختلال في وظائف الأعضاء والى الأمراض الفسيولوجية. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى)[٧٦]. وقال: (إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق)[٧٧]، وقال: (إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين)[٧٨] وقال: (إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا وأبشروا)[٧٩].

---

[٦٥] صحيح لغيره، الالباني
[٦٦] سورة المائدة آيه ٨٨
[٦٧] سورة الأعراف آيه ٣٢
[٦٨] سورة القصص آيه ٧٧
[٦٩] سورة الأعراف آيه ٣١
[٧٠] صحيح البخاري، الجامع الصحيح٥٣٩٤
[٧١] سورة محمد آيه ١٢
[٧٢] صحيح مسلم، المسند الصحيح ٢٦٧٠
[٧٣] صحيح الالباني،صحيح الجامع ٦٨٦٧
[٧٤] صحيح الالباني، صحيح الترغيب ١٩١٨
[٧٥] صحيح البخاري،الجامع الصحيح١٩٧٥
[٧٦] مرسل البغوي، شرح السنة ٢/ ٤٧٠، وقال الالباني: ضعيف [ضعيف الجامع ٢٠٢٢]
[٧٧] حسن، الالباني، صحيح الجامع ٢٢٤٦
[٧٨] صحيح، الالباني، صحيح ابن ماجة ٢٤٥٥
[٧٩] صحيح البخاري، الجامع الصحيح ٣٩

والسعادة تتبع الاعتدال أو العدالة في كل الأمور كما يقول أفلاطون في جمهوريته: (إن العدالة لا تتناول مظاهر أداء الإنسان لعمله الخاص فحسب وإنما تتناول البواطن التي تخص الرجل نفسه ومصالحه الخارجية بحيث لا يسمح الرجل العادل لعناصره المتعددة أن تعمل عملاً غير عملها ولا للطبائع المميزة في نفسه أن يتدخل بعضها في بعض)[٨٠].

الغاية الكبرى وأثرها على السعادة

يبقى بعد هذا كله العنصر الأخير والهام لتحقيق السعادة في رأي الإسلام وهو تحديد الغاية الكبرى للإنسان في هذه الحياة. وهذه الغاية هي الفوز برضا الخالق والدخول في دار الرضوان. إن ربط الإنسان مصيره بالسعادة له دور كبير في إحساسه بالسعادة في مختلف الظروف مهما تكبد في سبيلها من عناء ومشقة. لأن السعادة أمل الإنسان عاجلاً أم آجلاً. وهذا الأمل هو الذي يبعث في نفس الإنسان الاطمئنان: (يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ، ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي)[٨١] هذه الجنة تنعم فيها تلك الوجوه بنعم لم ترها أعين ولم تسمع بها آذان ولا خطرت على قلب بشر (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ، لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ، فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ...)[٨٢]. (مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ)[٨٣] وفيها: (فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ، فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ، كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ)[٨٤]. وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم: (ينادي مناد في أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً)[٨٥] وتلك هي السعادة الحقيقة الأبدية (وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا .....)[٨٦]

من هذا كله نرى أن الإسلام قد حدد للإنسان عقيدة سليمة وغاية سعيدة ثم حدد له نمطاً سلوكياً في هذه الحياة تنسجم فيه العقيدة مع الغاية وينسجم مع قوانين الحياة والدوافع الأساسية للطبيعة البشرية.

ثم إن هناك أمراً وهو أن الإسلام قرر أن من يسير في هذه الحياة وفقاً لهذا النمط السلوكي الذي حدده سوف يسعد في هذه الحياة أيضا قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا)[٨٧] (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى، وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)[٨٨] (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ)[٨٩] وقال صلى الله عليه وسلم: (من سعادة المرء حسن الخلق ومن شقاوته سوء الخلق)[٩٠]. ويمكن أن نستخلص من هذا كله أن هدف الأخلاق في الإسلام هو السعادة. وماهية هذه السعادة في نظره تختلف من حيث الزمان والمكان ومن حياة الى أخرى. فالسعادة في الحياة الدنيا ليست هي السعادة في الحياة الأخرى. والإسلام يهدف إلى تحقيق السعادة في الآخرة أكثر مما يستهدفها في الدنيا. والسعادة في نظره لا تقتصر على جانب واحد بل تشمل الجانب الروحي والنفسي والعقلي والحسي معا. وكلما كان هناك إتساق بين هذه الجوانب زاد نطاق السعادة كما وكيفا.

الفرق بين هدف الأخلاق وهدف المسلم الذي يطبق الأخلاق

ولكن يجب أن ننتبه إلى إن الأخلاق في نظر الإسلام وإن كانت ترمي إلى تحقيق السعادة فإن هذا الهدف هو هدف الأخلاق لا هدف الذات الفاعلة. فإن هدف الذات ينبغي أن لا ينحصر في تحقيق المرء السعادة لنفسه أو لغيره. وإنما ينبغي أن يكون هدفه الأول هو الله وحده. فهو يقوم بهذه الأخلاق لأنه مأمور بها من الله. وهو يقصد بها وجه الله لا وجه غيره، ولا وجه السعادة. قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[٩١]. وقال تعالى: (وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ)[٩٢] وقال صلى الله عليه وسلم: (فإن الله لا يقبل من الأعمال الى ما خلص له)[٩٣]. وقال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ قل إن صلاة ونسكي ومحياي ومماتي لله رب

---

٨٠ جمهورية افلاطون ص ٨١ ترجمة نظلة الحكيم
٨١ سورة الفجر آيه ٢٧ - ٣٠
٨٢ سورة الغاشية الآيات ٨ - ١٠
٨٣ سورة محمد آيه ١٥
٨٤ سورة الرحمن الآيات ٥٦ - ٥٨
٨٥ صحيح، الالباني، صحيح الترغيب ٣٧٧١
٨٦ سورة هود آيه ١٠٨
٨٧ سورة النور آيه ٥٥
٨٨ سورة الليل الآيات ٥-٧
٨٩ سورة الطلاق الآيات ٢-٣

مجال الأخلاق في الإسلام

مجال الأخلاق هو مجال الحياة كلها، لأن الأخلاق إذا كانت نمطاً للعمل والسلوك في الحياة، فعمل الإنسان لمساعدة الآخرين أخلاق. وعمله لكسب قوته وقوت من يعوله أخلاق، وإيمانه بالله وعبادته له أخلاق، لأنه برّ كما جاء في الآية الكريمة، بل لا يتحقق البر دون الإيمان والعبادة، والبر هو الأخلاق والأخلاق هي البر. والأعمال العلمية سواء كانت للتكامل الذاتي أو للخدمة الإنسانية أخلاق. ثم معاملة الإنسان الكائنات الحية بالرفق أخلاق، وكذلك تحمله أعباء الحياة ومصائبها أخلاق أيضاً.

إذن فكل سلوك إنساني يحقق الخير والبر للذات الفاعلة أو لغيرها يعد أخلاقاً طالما كانت الذات الفاعلة تريد بسلوكها هذا عمل الخير لوجه الله قبل كل شيء.

ومصداق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد الا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[٩٦]، ثم إن هناك مبادئ أخلاقية مثل الصدق والأمانة والإخلاص وإتقان العمل لا بد من مراعاتها في جميع الأحوال والأفعال..

الأخلاق في جميع أنواع السلوك البشري

ولم يكتف الإسلام بإضفاء الصفة الأخلاقية على نوع السلوك ذي الطابع النفعي والضروري للحياة فحسب. بل أضفى تلك الصفة على كل سلوك ولو لم يتسم بصفة النفع والضرورة. لأن الأخلاق في نظر الإسلام لا تحمل معنى النفع فحسب بل تحمل الى جانب ذلك المعنى التحسيني والجمالي. ومن ثم لم يكن هدفه تحقيق النفع للإنسان فقط بل تحقيق الحياة الأدبية له التي يمتاز بها عن الحيوان.

ففي المأكل أمر - مثلاً - أن يبدأ بالبسملة ويأكل بيمينه وأن يأكل مما يليه؛ فقد روي عن أبي سلمة رضي الله عنه: (كنت غلاماً في حجر رسول الله وكانت يدي تطيش بالصحفة فقال لي رسول الله يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك)[٩٧].

وقال في الشرب: (إذا شرب أحدكم فليشرب في ثلاث أنفاس يحمد الله في كل منها)[٩٨]

وفي الملبس أمر بالتستر والإحتشام ولو في السر حتى ولو في الحمام قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام بغير إزار)[٩٩]. لأن الحياء جزء هام في الأدب بل إنه جزء من الإيمان فإن (الحياء من الإيمان)[١٠٠]. وليس الحياء من الناس بل من الله والملائكة. والإستحياء من الله له دور هام في تجنب المعاصي ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إذا لم تستح فاصنع ما شئت)[١٠١]

وفي المجلس أمر بالجلوس المتواضع الرزين فقد روي عن الشريد بن زيد قال مر بي رسول الله وأنا جالس هكذا وقد وضعت يدي اليسرى خلف ظهري واتكأت على إلية يدي فقال: (أتقعد قعدة المغضوب عليهم)[١٠٢].

وفي المشي أمر بالإقتصاد والتواضع فقال: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ، وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ)[١٠٣]. وقال: (وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)[١٠٤]

وعند الكلام أمر بعدم رفع الصوت وعدم التكلف والتشدق في الكلام فقال تعالى: (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ

---

[٩٦] سورة الأنعام آيه ١٦٢
[٩٧] صحيح البخاري، الجامع الصحيح ٥٦٤١
[٩٨] صحيح مسلم، المسند الصحيح ٢٩٩٩
[٩٩] صحيح البخاري،الجامع الصحيح ٥٣٧٦
[١٠٠] موجود بصيغ مختلفة منها [كان يشرب ثلاثة انفاس يسمي الله في اوله ويحمد الله في اخره] الالباني في صحيح الجامع ٤٩٥٦
[١٠١] اسناده صحيح ابن تيمية الطهارة من شرح العمدة ٤٠٥/١
[١٠٢] صحيح مسلم المسند الصحيح ٣٦
[١٠٣] صحيح البخاري، الجامع الصحيح ٣٤٨٤
[١٠٤] اسناده صحيح، النووي رياض الصالحين ٣١٩
[١٠٥] سورة لقمان الآيات ١٨-١٩
[١٠٦] سورة الإسراء الآيات ٣٧-٣٩

لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)[١٠٥]. وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها)[١٠٦].

وعند معاشرة الأخرين دعا الى مراعاة الشعور والإحساس الأدبيين في الحركات فدعا مثلاً الى بسط الوجه عند المقابلة ونهى عن تصعير الخد، فقال تعالى: (وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ...)[١٠٧]. وقال صلى الله عليه وسلم: (إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط وجوه وحسن خلق)[١٠٨]. ودعا الى عدم التناجي بين اثنين دون الثالث فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج إثنان دون صاحبهما)[١٠٩]. كما دعا إلى إحترام كل إنسان بما يليق به من التقدير حسب دينه وعلمه ومنزلته بين الناس فقال صلى الله عليه وسلم: (أنزلوا الناس منازلهم من الخير والشر)[١١٠]. كما دعا الى الظهور بالمظهر الجميل أمام الناس فقد روي أن رجلاً جاءه صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس فأشار عليه بإصلاح شعره وجاء آخر وشعره جمه وأشار بقصه ثم قال هذا أحسن.[١١١] وعندما سأله رجل هل من الكبر أن يكون ثوب الإنسان حسن ونعله حسن فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الله جميل يحب الجمال إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس)[١١٢]. وكان ينصح دائماً بتحسين الهندام وتجميل الظاهر وتطهير الثياب[١١٣].

فرض الأخلاق على السلوك الباطني للإنسان

ولم يفرض الإسلام المبادئ الأخلاقية على السلوك الإنساني الظاهري فقط بل والسلوك الباطني لأن الحياة قسمان، قسم ظاهري محسوس، وقسم باطني غير محسوس. وأهمية الأخير لا تقل عن الأول. بل إن مظاهر الأول ما هي الا انعكاس للثاني

ولهذا كانت الأخلاق الإسلامية مركزة على الحياة الباطنة في الدرجة الأولى. لأنها إذا صلحت صلحت الأخرى. لهذا قال صلى الله عليه وسلم: (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)[١١٤]. ويجمع هذا قوله تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ)[١١٥] ومن هنا دعى الى تجميل الباطن وتحسينه. فدعا الى حسن الظن بالخالق كما دعا الى حسن الظن بالمخلوق. قال صلى الله عليه وسلم: (حسن الظن من حسن العبادة)[١١٦]، وقال راويا عن ربه: (أنا عند حسن ظن عبدي بي إن خيراً فخيراً وإن شراً فشر)[١١٧].

وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ)[١١٨]. ثم دعى إلى الفأل ونهى عن التشاؤم والتطير وقال صلى الله عليه وسلم: (لا طيرة ويعجبني الفأل الصالح الكلمة الحسنة)[١١٩]. لأن التشاؤم والتطير وسوء الظن من العوامل التي تؤدي الى الكآبة والقلق وعدم راحة البال. والى جانب دعوته الى التفاؤل نهى عن الأمور التي تجعل الحياة النفسية ظلاماً قاتماً وتزيل منها البشاشة والبهجة كالتباغض والتحاسد والحقد والكراهية. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً)[١٢٠].

وقد عدّ بعض علماء النفس هذه الرذائل من الأمراض النفسية والإجتماعية، ثم دعا الى المحبة لأنها تضفي على حياة الناس البهجة والنشاط والفاعلية. ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: (إن من عباد الله أناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله قالوا يا رسول الله تخبرنا من هم؟ قال: (هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فوالله إن وجوههم لنور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)[١٢١].

---

[١٠٥] سورة لقمان آيه ١٩
[١٠٦] صحيح، الالباني، صحيح ابي داود ٤١٨٥
[١٠٧] سورة لقمان آيه ١٨
[١٠٨] اسناده حسن، ابن حجر، فتح الباري ١٠/ ٤٧٤
[١٠٩] صحيح مسلم، المسند الصحيح ٢١٨٤
[١١٠] ضعيف الالباني، ضعيف الجامع ١٣٤٤ بدون (من الخير والشر)
[١١١] صحيح المستدرك ١٨٦/٤
[١١٢] صحيح الالباني، صحيح الجامع ٧٦٧٤
[١١٣] صحيح المستدرك ١٨٦/٤
[١١٤] صحيح البخاري، الجامع الصحيح ٥٢
[١١٥] سورة الاعراف آيه ٣٣
[١١٦] ضعيف، الالباني، ضعيف ابي داود ١٠٦٠
[١١٧] صحيح، الالباني في صحيح الجامع ١٩٠٥

الدنيا. ثم إن رضا المرء بما هو فيه له دور كبير في طمأنينة الحياة الداخلية. لأن عدم الرضا يؤدي إلى التبرم والضجر.

والرضا وسيلة إلى تهدئة النفس من الملمات والمصائب التي لا مخرج منها. ولذلك فهي وسيلة للشعور بالغنى قال صلى الله عليه وسلم: (إرض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس)[١٢٣].

ووسيلة الشعور بالرضا هي أن ينظر الإنسان في المال والصحة الى من هو دونه قال صلى الله عليه وسلم: (أنظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا الى من هو فوقكم فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم)[١٢٤]

ولا ينبغي ان يفهم من هذا أن الأخلاق في الإسلام دعوة الى التكاسل والإتكال. إذ أن هناك فرقاً في التنافس بين ميدان وآخر. ففي ميدان الصحة والمال لا ينبغي التنافس والتباهي بينما الأمر ممدوح في ميدان الفضائل الإنسانية.

ومن التوجيهات دعوته الى جعل الإرادة العاقلة الخيرة مسيطرة على أعمال النفس ونزعاتها. وهذه الإرادة هي التي يجب أن تسيطر على قوى النفس مثل الغضب والشهوة ومثل الشح والإنتقام.

ففي الغضب قال: (ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)[١٢٥].

فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَاسِ)[١٢٢] وليس معنى سيادة الإرادة أن تقف في وجه نزعات الشر. بل معناها استخدام هذه القوى في سبيل تحقيق الخير.

هذه الإرادة إذا سيطرت تصبح روحاً توحي دائماً بالخير. وتدفع الإنسان بإستمرار الى تحقيق الخير للناس. ومن ثم تصبح قوى موجهة الى الخير ونوراً يضيء جوانب النفس المظلمة ثم يفيض منها. عند ذلك يشعر الإنسان أنه خير وذلك سبيل السعادة والطمأنينة النفسية.

من هذا كله نرى أن الإسلام قد جاء بمبادئ وجه بها النفوس إلى ما فيه سعادتها وشفى ما فيها من أمراض هي سبب شقاوتها. وصدق الله العظيم: (قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ)[١٢٨]. (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)[١٢٩].

وأخيراً يتبين لنا بوضوح أن الأخلاق الإسلامية تحاول إخضاع كل سلوك ما ظهر منها وما بطن لروح الأخلاق التي جاء بها. وهي تستهدف من وراء ذلك صلاح الإنسان وسعادته في هذه الدنيا.

وإذا كان الأمر كذلك فإن مجال الاخلاق هو هذه الحياة كلها من حيث هي موضوع الاخلاق وغاياتها معاً.

نماذج أسئلة للوحدة:

السؤال الأول: روح الإسلام روح أخلاقية، هل لك ان توضح ذلك من خلال استعراض أركان الإسلام ومدى ارتباطها بهذه، مع إيراد الدليل من الشرع؟

السؤال الثاني: يتهم الإسلام في هذه الأيام وأهله بالإرهاب والقسوة، هل لك أن ترد على ذلك من توجيهات الإسلام في المعاملة مع الإنسان وغيره؟

السؤال الثالث:المسلم ابعد الناس عن الأمراض النفسية، هل لك ان تثبت ذلك من خلال دراستك لغاية الأخلاق في الإسلام؟

السؤال الرابع: الأخلاق الإسلامية أول من دعى إلى الحجر الصحي للوقاية من انتشار الأمراض، وضح ذلك بالادلة.

السؤال الخامس: نرى من الناس من يغرق في شهوات الدنيا ومنهم من يعتزلها ويتمسك بالعبادات ما هو موقفك من دراستك لنظرة الأخلاق الإسلامية للدنيا، مع النصوص؟

السؤال السادس: لم يفرض الإسلام المبادئ الأخلاقية على السلوك الإنساني الظاهر فقط بل والسلوك الباطني، وضح ذلك مع الشواهد.

السؤال السابع: ما اثر القناعة والرضا على سعادة المسلم وكيف حققتها الأخلاق الإسلامية، مع الدليل؟

---

[١٢٢] صحيح البخاري، الجامع الصحيح ٦٤٤٦

[١٢٣] حديث حسن، الالباني، صحيح الترمذي ١٨٧٦

[١٢٤] صحيح مسلم، المسند الصحيح ٢٩٦٣

[١٢٥] صحيح البخاري،الجامع الصحيح ٦١١٤

[١٢٦] سورة النازعات آيه ٤٠

[١٢٧] سورة آل عمران آيه ١٣٤

[١٢٨] سورة يونس آيه ٥٧

[١٢٩] سورة طه آيه ١٢٣

مراجع الوحدة

١. جند الله ثقافة واخلاقا ..... سعيد حوى
٢. المستخلص في تزكية الأنفس: ..... سعيد حوى
٣. خلق المسلم: ..... محمد الغزالي
٤. مدارج السالكين: ..... ابن القيم
٥. الإسلام عقيدة وشريعة: ..... محمود شلتوت
٦. التربية الأخلاقية الإسلامية: ..... د. مقداد يلجن
٧. مختصر منهاج القاصدين: ..... المقدسي

أحمد مصطفى حسين فواقه

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذ مساعد

تاريخ الولادة: ١٩٥١/٨/١٨

المؤهلات العلمية

- حصل على شهادة الدكتوراه تخصص عقيدة ومذاهب من كلية أصول الدين، جامعة القرآن الكريم، أم درمان، السودان عام ١٩٩٨
- حصل على شهادة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٩٨٣
- حصل على شهادة البكالوريوس من كلية الشريعة في الجامعة الأردنية عام ١٩٧٣

السيرة العملية

١. محاضر في جامعة القدس ١٩٨٣-٢٠٠٦
٢. عمل واعظاً في دائرة الأوقاف الإسلامية في القدس ١٩٧٦-١٩٧٩
٣. عمل مدرساً في مدارس القدس ١٩٧٤-١٩٧٦
٤. رئيس لجنة زكاة صور باهر ١٩٨٤- ٢٠٠٦
٥. أمين سر لجنة زكاة القدس
٦. محاضر جزئي في كلية الدعوة والعلوم الإسلامية في أم الفحم ١٩٩١-٢٠٠٦

الإنتاج العلمي

١. تحقيق الجزء الأول من كتاب إيثار الحق على الخلق لابن الوزير - رسالة ماجستير
٢. تحقيق القسم الأول من كتاب لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية- محمد بن أحمد السفاريني- رسالة دكتوراه
٣. كتاب على خطى ابرهيم
٤. موجز شفاء العليل وبل الغليل في حكم الوصية بالختمات والتهاليل- لابن عابدين، تلخيص

د. مريم صالح*

مقدمه

جاء الإسلام محررا للمرأة من الوضع الذي كانت تعاني منه، سواء في الجزيرة العربية أو خارجها، وقد انتقلت المرأة نقلة نوعية مكنتها من لعب الدور الذي يتعلق بها في نشر الدعوة وإرساء دعائم المجتمع وإحداث نهضة أوصلت المسلمين إلى قمة الحضارة العالمية. إن المرأة والرجل يشكلان جناحي المجتمع المسلم الذي لا يستطيع أن يحلق إلا بوجودهما معا.

إن كتابا مثل كتاب عبد الحليم أبو شقة «تحرير المرأة في عصر الرسالة» يدلل على التغير في التصور والواقع الذي نتج عن تنزل الوحي، وتحت إشراف معلم البشرية صلى الله عليه وسلم. وإن جمال الصورة التي نتحدث عنها لا يعكر صفوها إلا ابتعاد الناس عنها، وهذا تقصير يتحمله المتقاعسون، ويدفعون ثمنه باستمرار، وفي كثير من الأحيان تكون المرأة المسلمة هي التي تتحمل أكثر من الرجل في هذا الباب، إذ يختزل دورها وتحرم من حقوقها التي أقرها الإسلام. ولا بد من التنبيه إلى أن العادات والتقاليد قد تصطدم بالتصور الإسلامي في جانب أو آخر، وهذا المقال يساعد في استعادة الرؤية الإسلامية لمكانة المرأة.

المرأة في ضوء الكتاب والسنة

الرجل والمرأة من أصل واحد: الأصل في خطاب الشارع الحكيم انه موجه للرجال والنساء سواء، بدءاً من تقرير الكرامة الإنسانية إلى تقرير المسؤولية الجنائية، على أن هناك فوارق محدودة قررها في وضوح وجلاء.لكن يظل الأصل هو المساواة، والفوارق استثناء من الأصل. وانه لخطأ فادح وعدوان على شرع الله أن يضيع هذا الأصل.

قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)[1]

قال القرطبي[2]: المراد بالنفس آدم عليه السلام، والمرأة زوج الرجل والرجل زوج المرأة، وزوج آدم هي حواء عليها السلام. إن هذه الآية توحي بأن هذه البشرية التي صدرت من إرادة واحدة تتصل في رحم واحد وتنبثق من أصل واحد وتنتسب إلى نسب واحد، وقوله تعالى (خلق منها زوجها) يدل على انه لا فارق في الأصل والفطرة، إنما الفارق في الاستعداد والوظيفة[3].

قال تعالى: (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ)[4]

قال الزمخشري[5] في معنى قوله تعالى (بعضكم من بعض) أي يجمع ذكوركم وإناثكم أصل واحد، وهذه جملة معترضة بينت بها شركة النساء مع الرجال فيما وعد الله عباده العاملين.

تقرير مسؤولياتها الإنسانية

لما كانت المرأة مخاطبة بأحكام الشريعة فان الله تعالى حينما وعد المؤمنين بعدم إضاعة عملهم الصالح صرح بأن المرأة والرجل في ذلك سواء، قال تعالى: (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)[6]، وقال تعالى: (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[7].

---

* أستاذة مساعدة كلية الدعوة أصول الدين -جامعة القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] سورة النساء الآية ١

[2] تفسير القرطبي ٢/٥.

[3] في ظلال القرآن ٥٧٤/١.

[4] سورة آل عمران آية ١٩٥

[5] الكشاف للزمخشري ٤٥٦/١

[6] سورة النساء آية ١٢٤

[7] سورة النحل آية ٩٧

وقد جاءت السنة الشريفة بما يؤكد هذه المساواة، قال صلى الله عليه وسلم: «إنما النساء شقائق الرجال».[٨] وتمت ترجمة هذه المساواة إلى شراكة في المسؤولية، فعن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته... والرجل راع على أهل بيته والمرأة راعية على بيت زوجها وولده فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته».[٩]

مساواة المرأة والرجل في الحقوق والواجبات

المساواة في الاصطلاح الشرعي تقوم على معنى المماثلة والمعادلة بين شيئين أو أكثر، ولما كان الكلام في الأمور الشرعية يتعلق بالأحكام الشرعية، فالمقصود في الاصطلاح الشرعي المماثلة في الأحكام الشرعية بين اثنين أو أكثر.

الأدلة على أن الأصل مساواة المرأة للرجل في الأحكام الشرعية[١٠]:

أولا: مناط التكليف في الشريعة الإسلامية.

مناط التكليف في الشريعة الإسلامية كون الإنسان بالغا عاقلا وقد دل على ذلك الحديث الشريف «رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يفيق»[١١]

فالمكلف إذن هو البالغ العاقل دون غيره من صبي أو بالغ غير عاقل وإذا كان مناط التكليف والخطاب بأحكامها البلوغ والعقل فان المرأة يتحقق فيها هذا المعنى كما يتحقق في الرجل، فإذا بلغت الأنثى وكانت عاقلة صارت مكلفة بتكاليف الشريعة ومخاطبة بأحكامها. ونذكر فيما يلي بعض خطابات الشارع وأحكامه الواردة في القرآن الموجهة إلى المرأة كما هي موجهة إلى الرجل كما في الأمثلة التالية:

أ. (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما)[١٢].

ب. (الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة)[١٣].

ج. (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)[١٤].

ثانيا: عموم الشريعة

من خصائص الشريعة الإسلامية العموم بمعنى أنها جاءت لعموم البشر بجميع أجناسهم وبمختلف بلدانهم النساء منهم والرجال قال تعالى: (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)[١٥]

والمرأة تدخل بمفهوم «الناس» بلا خلاف بين العلماء، والحديث التالي يبين أصالة هذا الفهم، فعن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت:

(كنت أسمع الناس يذكرون الحوض ولم أسمع ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما كان يوما من ذلك والجارية تمشطني فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أيها الناس! فقلت للجارية: استأخري عني قالت إنما دعا الرجال ولم يدع النساء فقلت: **إني من الناس**...الحديث)[١٦]

الاختلاف والتنوع في الحقوق والواجبات

إذا كان الأصل المساواة بين النساء والرجال في الحقوق والواجبات فإن هذا لا يعني انعدام الاختلاف بينهما في بعض الحقوق والواجبات لأن الأحكام الشرعية مبنية على علل ومعان وصفات معينة.

وبناء على قانون التساوي والاختلاف فان الشريعة ساوت بين الرجل والمرأة في واجبات الإيمان والعبادات، وخالفت وفرقت الشريعة بين الرجل والمرأة في بعض الحقوق لافتراقهما فيما تبني عليه هذه الحقوق.

فحق تعدد الزوجات ثابت للرجل محظور على المرأة، فليس لها أن تعدد الأزواج في وقت واحد لأن في المرأة مانعا لا وجود له عند الرجل، وهو أن المرأة هي التي تحمل الجنين في بطنها وليس الرجل، فتعدد الأزواج بالنسبة للمرأة في وقت واحد يؤدي إلى اختلاط المياه والأنساب، ولا يوجد هذا المعنى في تعدد الرجل لزوجاته في وقت واحد.

وقد يكون الاختلاف في التمتع بحق معين كون المرأة اقدر وأصلح من الرجل على القيام بمقتضيات هذا الحق، كما في حق الحضانة، فالأم لها هذا الحق لحضانة طفلها، وهي مقدمة على أبيه، لأنها اقدر وأصلح للقيام بمقتضيات هذا الحق لما جبلت عليه خلقة وطبيعة.

وقد يكون اختلاف المرأة عن الرجل في واجب معين مرده توزيع الواجبات بما يلائم طبيعة كل منهما ويحقق المصلحة للاثنين، ومن الأمثلة على ذلك النفقة، فهي واجب على الرجل لزوجته، ورعاية البيت واجب على

---

[٨] رواه الإمام احمد ٦/٢٥٦ وأبو داود في ١/١١٢

[٩] صحيح البخاري/ باب المرأة راعية في بيت زوجها/ كتاب النكاح.

[١٠] انظر المفصل في أحكام المرأة ٤/١٧٥ والمرأة ولطائف التشريع/ وأبو داود في الحدود.

[١١] رواه أبو داود عن عائشة وابن عباس باب رقم ١٦/ كتاب الحدود، والإمام احمد في ١/١٤٠، والإمام احمد في ١/١٤٠، والنسائي في ٦/١٥٦.

[١٢] سورة المائدة آية ٣٨

الحقوق العامة للمرأة المسلمة

الحرية الشخصية

ويراد بالحرية الشخصية حرية الإنسان في الرواح والمجيء، وهو آمن مطمئن على سلامته وكرامته من أي اعتداء عليه، كما تعني هذه الحرية عدم جواز القبض عليه أو حبسه أو معاقبته دون وجه حق، وتعني أيضا هذه الحرية حرية الإنسان في التنقل داخل الدولة التي يعيش فيها، وحريته في الخروج منها والعود إليها[١٨]، فقد كرم الله تعالى بني آدم فقال تعالى: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ)[١٩]، ومن لوازم هذا التكريم تمتع الإنسان بالحرية الشخصية بالمعنى المذكور سابقا فلا يجوز لأحد أن يسلبها منه، ولهذا كان من أعظم ما تصاب به المجتمعات من شر وضرر أن يتسلط عليهم حكام ظلمة ويسلبون أفرادها حرياتهم ويذلونهم فيصيرون كالبهائم لا تملك من أمرها شيئا.

حرمة المسكن

المقصود بحرمة المسكن حق الشخص في انفراده بمنافع مسكنه والخلوة فيه وعدم السماح لأحد ما بالدخول فيه إلا بإذنه لان مسكن الإنسان هو محل أسراره وراحته، والمكان الذي يأخذ فيه حريته في لباسه وجلوسه ومنامه، ولهذا كله كان من حقه الذي قررته الشريعة الإسلامية له تمتعه بحرمة المسكن بالمعنى الذي بيناه لذا شرع الاستئذان في الكتاب والسنة والإجماع فقال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا)[٢٠]، وقال صلى الله عليه وسلم: «الاستئذان ثلاث

حرية الرأي

المقصود بحرية الرأي كون الإنسان يملك حق اختيار الرأي الذي يراه في أمر من الأمور العامة أو الخاصة سواء كان هذا الرأي موافقا لرأي الآخرين أو مخالفا له وحقه في إبداء الرأي الذي رآه وإسماعه للآخرين.

وحرية الرأي ضرورية للقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصورة عامة ويدخل في هذا الواجب النصيحة لأئمة المسلمين قال تعالى: (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ)[٢٣]، وقال صلى الله عليه وسلم «الدين النصيحة» قلنا لمن يا رسول الله قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٢٤].

والمرأة المسلمة في دار الإسلام تتمتع بحرية الرأي كما يتمتع الرجل المسلم بهذا الحق.

حرية التعلم والتعليم

للعلم منزلة عظيمة في الإسلام وهناك نصوص كثيرة في القران والسنة النبوية المطهرة في فضل العلم والعلماء قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ)[٢٥] قال المفسرون في هذه الآية[٢٦]: فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم، وناهيك بهذا شرفا وفضلا وجلالا ونبلا، وهذه خصوصية عظيمة للعلماء، فقال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)[٢٧] قال العلماء[٢٨]:فضل الله الذين آمنوا والذين أوتوا

---

[١٧] ذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي إلى عدم وجوب خدمة المرأة لزوجها، وقالوا: إن عقد الزواج إنما اقتضى الإستمتاع لا الإستخدام وبذل المنافع. وعمل المرأة في بيتها من باب التطوع ومكارم الأخلاق. (السيد سابق، فقه السنة، ج٢، ص١٧٥-١٧٦) وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يساعد في عمل البيت، فعن الأسود بن يزيد سألت عائشة رضي الله عنها ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في البيت؟ قالت: (كان يكون في مهنة أهله فإذا سمع الأذان خرج) صحيح البخاري، النفقات، باب خدمة الرجل في أهله. أما إذا كانت الزوجة تعمل خارج البيت مثل زوجها، وهذا الوضع منتشر في أيامنا هذه، فليس من العدل أن تعود هي إلى البيت للعمل الإضافي، ويعود هو للبيت ليلعب دور الباشا! (المحرر)

[١٨] المفصل في أحكام المرأة ٤/ ١٩٠.

[١٩] سورة الإسراء آية ٧٠

[٢٠] سورة النور آية ٢٧

[٢١] الموطأ ٢/ ٩٦ باب الاستئذان/ كتاب الاستئذان.

[٢٢] صحيح مسلم باب الخروج في التجارة/ كتاب البيوع، وصحيح مسلم باب الاستئذان/ كتاب الآداب حديث رقم ٣٦.

[٢٣] سورة التوبة آية٧١

[٢٤] صحيح مسلم باب بيان أن الدين النصيحة/ كتاب الإيمان حديث رقم ٩٥، صحيح البخاري باب الدين النصيحة/ كتاب الإيمان.

[٢٥] سورة آل عمران آية ١٨

[٢٦] انظر/ تفسير ابن كثير ١/ ٣٥٣ إحياء علوم الدين ١/ ٥.

[٢٧] سورة المجادلة آية ١١

[٢٨] انظر تفسير الالوسي ٢٨/ ٢٩

العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم بدرجات وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء:من صدقة جارية أو علم ينتفع به بعده أو ولد صالح يدعو له»[٢٩]. وقال صلى الله عليه وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٣٠] وتدخل المرأة في قوله كل مسلم أي أن المرأة كالرجل في تعلم العلوم الدينية والدنيوية.

وإذا أمعنا النظر في نصوص الشرع وجدنا أن الشارع الحكيم قرر أن طلب العلم ونشره وتعليمه فضيلة يستوي فيها النساء والرجال وان تعلم المرأة مباح لها، وفي بعض ما تتعلمه واجب عليها كما هو واجب على الرجل وان من حق النساء أن يطلبن من يأتي إليهن أو يذهبن إليه ليعلمهن أمور الدين.

كذلك من الفروض الكفائية أن يوجد في المجتمع الإسلامي نساء متخصصات بفروع الطب المختلفة التي تحتاجها النساء حتى يستغنين عن مراجعة الأطباء وكشف عوراتهن للفحص والعلاج ومن هذه الفروع لعلم الطب (أصول التوليد) والعمليات الجراحية وكذلك الطب الباطني وتحليلات الدم والأشعة ونحو ذلك، وعلى هذا فينبغي إيجاد الوسائل اللازمة لتعليم النساء اللاتي يرغبن في تعلم علوم الطب.

ويجوز للمرأة أو يندب تعليم المرأة ما تستطيع الارتزاق والكسب الحلال عن طريقه، لان المرأة غير ممنوعة من العمل الحلال بالكيفية المشروعة لها ومن ذلك ما صرح به الفقهاء فقد قال الإمام ابن عابدين الفقيه الحنفي المشهور: «وعليه فله - أي للأب - دفعها- أي دفع ابنته لامرأة تعلمها حرفة التطريز والخياطة مثلا»[٣١]، وقياسا على هذا القول يمكن القول بجواز تعليم المرأة علوم الصيدلة لتكون صيدلانية وغير ذلك من الحرف أو المهن التي تناسب طبيعة المرأة.

حرية العمل

قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[٣٢] قال المفسرون[٣٣] استدل بالآية الكريمة على ندب التسبب والكسب، وفي الحديث الشريف قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف»[٣٤]

يستفاد من نصوص القران الكريم والسنة النبوية المطهرة الكثيرة الواردة في شأن العمل وما قاله العلماء في معانيها ودلالتها أن العمل مباح، بل ومندوب وشرف وفضيلة يحث عليه فهو إذن حق من حقوق الأفراد، فلهم ممارسة أنواع الأعمال الجائزة شرعا كالتجارة والزراعة والصناعة والعمل باليد، وما يستلزمه مباشرة هذا الحق من حرية التنقل والسفر في أنحاء البلاد والخروج منها والعودة إليها.

المرأة وحرية العمل

إن الحكمة من مشروعية العمل المشروع تحصيل الإنسان ما يوفر له أسباب العيش من طعام وشراب ولباس وسكن ونحو ذلك، فإذا توفر للإنسان ذلك كله كان العمل في حقه مباحا، له أن يعمل ليزداد كسبا وله أن لا يعمل، لان عنده ما يكفي لمتطلبات ومقتضيات معيشته. وحيث إن المرأة مكفية المؤونة لان نفقتها على زوجها إن كانت ذات زوج سواء كانت غنية أو فقيرة فان لم تكن ذات زوج فنفقتها على أبيها إن لم تكن ذات مال، فان لم يكن لها أب فنفقتها على أخيها أو من تلزمه نفقتها، فالعمل إذن في حق المرأة مباح.

على أن عمل المرأة الأول والأعظم الذي لا ينازعها فيه منازع ولا ينافسها فيه منافس هو تربية الأجيال الذي هيأها الله له بدنيا ونفسيا، ويجب أن لا يشغلها عن هذه الرسالة الجليلة شاغل مادي أو أدبي مهما كان، فان أحدا لا يستطيع أن يقوم مقام المرأة في هذا العمل الكبير الذي عليه يتوقف مستقبل الأمة، وبه تتكون أعظم ثرواتها وهي الثروة البشرية ورحم الله شاعر النيل حافظ إبراهيم حين قال:

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

ومثل ذلك عملها في رعاية بيتها ،وإسعاد زوجها، وتكوين أسرة سعيدة، وهذا لا يعني أن عمل المرأة خارج بيتها محرم شرعا فليس لأحد أن يحرم بغير نص شرعي صحيح الثبوت، صريح الدلالة وقد يكون عمل المرأة مطلوبا طلب استحباب أو طلب وجوب إذا احتاجت إليه، كأن تكون أرملة أو مطلقة ولا مورد لها ولا عائل وقد تكون الأسرة هي التي تحتاج إلى عملها كأن تعاون زوجها، أو تربي أولادها أو إخوتها الصغار أو تساعد أباها في شيخوخته، وقد يكون المجتمع نفسه في حاجة إلى عمل المرأة كما في تطبيب النساء وتعليم البنات.

ما جاء في القران الكريم في عمل المرأة خارج البيت

قال تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ، فَسَقَى لَهُمَا)[٣٥]

---

[٢٩] صحيح مسلم ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته/ كتاب الوصية.

[٣٠] سنن ابن ماجة باب فضل العلماء والحث على طلب العلم المقدمة/ رواه غيره من طرق كثيرة وهو حديث حسن عند العلماء.

[٣١] رد المحتار على الدر المختار لابن عابدين ٣/ ٦١٢ والمفصل ٤/ ٤٥١.

العمل في التمريض: عن عائشة رضي الله عنها: «أصيب سعد بن معاذ في معركة الخندق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اجعلوه في خيمة رفيدة التي في المسجد أعوده من قريب»[٣٧]

العمل في الرعي: عن سعد بن معاذ قال: أن جارية لكعب بن مالك كانت ترعى غنما بسلع فأصيبت شاه منها فأدركتها فذبحتها بحجر، فسئل النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «كلوها»[٣٨].

العمل في قوات الجيش: عن الربيع بنت معوذ قالت: «كنا نغزو مع النبي فنسقي القوم ونخدمهم ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة»[٣٩]

الحقوق الخاصة للمرأة المسلمة

حقوق المرأة المالية

جعل الإسلام للمرأة حقاً في الكسب والتملك والتمتع بالحقوق الخاصة المالية كحق الرجل حق التملك:

قال تعالى: (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ)[٤٠]. فلها أن تكتسب المال بالطرق المشروعة كالإرث، قال تعالى: (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا)[٤١]

حق الاكتساب

للمرأة أن تباشر المعاملات المختلفة لكسب المال، قال تعالى في استئجار الظئر لإرضاع الطفل: (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم) قال الكاساني[٤٢] في هذه الآية:

حق التصرف

وللمرأة أن توكل من تشاء في سائر ما تملكه من تصرفات كالبيع والشراء كما يجوز لها أن تتوكل على غيرها ولها أن تشارك غيرها، وأن تتولى بنفسها إجراء العقود ولها أن تهب أموالها أو تتصدق بها كلها أو بعضها دون حاجة إلى إذن زوجها أو إذن غيره وهذا قول جمهور الفقهاء[٤٤].

حقوق المرأة العائلية

بناء على ثبوت الأهلية للمرأة فإنها تتمتع بالحقوق الخاصة العائلية كالرجل كما يلي:

حق الموافقة على الخاطب أو رفضه

فلها حق اختيار الزوج الصالح ولا يجوز إجبارها على الاقتران برجل لا تريده قال صلى الله عليه وسلم: «لا تنكح البكر حتى تستأذن ولا الثيب حتى تستأمر، فقيل له أن البكر تستحي، فقال: إذنها صمتها»[٤٥].

حق مفارقة الزوج

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: جاءت امرأة ثابت بن قيس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله ما انقم على ثابت في دين ولا خلق إلا إني أخاف الكفر فقال: (فتردين عليه حديقته) قالت: نعم. فردت عليه، وأمره مفارقتها[٤٦]. قال العلماء في شرح الحديث انه لما جعل الطلاق بيد الرجل إذا كره المرأة جعل بيد المرأة حق المفارقة إذا كرهت الرجل[٤٧].

حق النفقة

قال تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)[٤٨] عن جابر بن عبد الله قال:

---

[٣٦] صحيح مسلم/ باب جواز خروج المعتدة البائن/ كتاب الطلاق.
[٣٧] صحيح مسلم/ باب جواز قتال من نقض العهد/ كتاب الجهاد والسير
[٣٨] صحيح البخاري/ باب ذبيحة المرأة والأمة/ كتاب الذبائح والصيد، (وسلع جبل معروف بالمدينة).
[٣٩] صحيح البخاري/ باب رد النساء القتلى والجرحى/ كتاب الجهاد والسير.
[٤٠] سورة النساء آية ٣٢
[٤١] سورة النساء آية ٧
[٤٢] بدائع الصنائع ٤/١٧٣.
[٤٣] سورة البقرة آية ٢٣٣
[٤٤] انظر المغني ابن قدامه ٥/٧٩، ٨١، المحلى لابن حزم ١/ ٣٠٩، فتح الباري ٢/٤٦٦.
[٤٥] صحيح البخاري/ باب لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها.
[٤٦] صحيح البخاري/ باب الخلع/ كتاب الطلاق.
[٤٧] انظر/ بداية المجتهد ونهاية المقتصد ٢/ ٥٠
[٤٨] سورة النساء آية ٣٤

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف»[٤٩] وهناك كثير من النصوص الشريفة التي لا تكتفي بتقرير مسؤولية النفقة بل تحض الزوج بكل سبيل لتوسعه على زوجه وأولاده، وأنها من الأعمال الصالحة التي يثاب عليها، بل هي مقدمة على جميع سبل الخير.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، وابدأ بمن تعول»[٥٠].

الحقوق السياسية للمرأة المسلمة

حق المشاركة في اختيار الحاكم

للمرأة المسلمة أن تشترك في الانتخاب المباشر لرئيس الدولة (الخليفة) بأن تدلي برأيها فيمن تختاره لمنصب الولاية العامة والأدلة على أن لها هذا الحق ما يأتي:

١. إن من الأوصاف الثابتة لجماعة المسلمين تشاورهم في أمورهم وما يعرض لهم من أحداث تهم المجتمع بأسره يدل على ذلك قوله تعالى: (وأمرهم شورى بينهم)[٥١] وهذه الآية الكريمة نزلت في مكة قبل قيام الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، مما يدل على أن الشورى طابع الجماعة الإسلامية في جميع حالاتها[٥٢]. والآية الكريمة دلت على أن المسلمين يتشاورون فيما بينهم ولا ينفردون بالرأي، ويتشاورن في كل أمر، فإذا وقعت واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم لهذا النهج السديد منهم، نهج المشاورة لما يعرض لهم من أمور[٥٣].

ومن الواضح أن انتخاب رئيس الدولة من الوقائع المهمة جدا التي تستدعي التشاور والتحري لمعرفة الأصلح للرئاسة، وتدخل النساء في مفهوم الآية الكريمة لان المقصود من الآية «وأمرهم شورى بينهم» أي أن أمر المسلمين شورى بين المسلمين والمرأة واحدة منهم فيحق لها أن تبدي رأيها في انتخاب (رئيس الدولة) لأن إبداء الرأي من لوازم المشاورة ومقتضياتها.

٢. جاء في قصة انتخاب الخليفة بعد وفاة عمر بن الخطاب -من بين الستة الذين اختارهم عمر رضي الله عنه اجتمع هؤلاء وبعد مشاورة منهم اختاروا عبد الرحمن بن عوف ليختار واحدا من اثنين عثمان بن عفان أوعلي بن أبي طالب وقد بقي عبد الرحمن بن عوف يشاور الناس ثلاثة أيام، واخبر أن الناس لا يعدلون بعثمان وانه شاور حتى العذارى في خدورهن[٥٤].

٣. أشار القران الكريم إلى أن المرأة تشاور فيما لها مصلحة فيه وذلك في مسالة فطام ولدها قبل انتهاء مدة الرضاع أو بعدها قال تعالى: (فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ....)[٥٥] فالمرأة تشاور فيما لها فيه مصلحة أو علاقة تستوجب المشاورة، ولاشك أن للمرأة مصلحة وعلاقة في انتخاب رئيس الدولة، لان انتخاب الصالح لرئاسة الدولة عامل مهم في صلاح المجتمع وللمرأة مصلحة مؤكدة في صلاح المجتمع لأنها تعيش فيه.

٤. قال صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة قلنا لمن؟ قال: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٥٦] وجاء في معنى النصيحة لعامة المسلمين أي بإرشادهم إلى سبيل الفلاح، وإعانتهم على ما فيه الخير والصلاح بالقول والفعل[٥٧]. ولا شك أن ما فيه مصلحتهم المساهمة في انتخاب الصالح لمنصب الرئاسة ويكون ذلك بتمكين الرجال والنساء بإبداء آرائهم فيمن يرونه أهلا لذلك

٥. قال تعالى: (وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)[٥٨] والشهادة واجبة على الرجل والمرأة. والانتخاب هو شهادة حق فيها أخبار عمن يصلح لقيادة الأمة[٥٩].

٦. إن إبداء المرأة رأيها فيمن تراه أهلا لمنصب الخليفة (رئيس الدولة) يعتبر من قبيل الاجتهاد أو الإفتاء فيمن يصلح للرئاسة، والمرأة غير ممنوعة من الاجتهاد فيه، وغير ممنوعة من الإفتاء فيما هي قادرة على الإفتاء فيه، وقد كانت أمهات المؤمنين وغيرهنّ من الصحابيات كأم سليم وأم عطية وأسماء ومن التابعيات عمرة وحفصة بنت سيرين وفاطمة بنت المنذر يجتهدن ويفتين الناس[٦٠].

---

[٤٩] صحيح مسلم/ باب صفة حجة النبي صلى الله عليه وسلم/ كتاب الحج
[٥٠] صحيح البخاري/ باب وجوب النفقة على الأهل والعيال/ كتاب النفقات.
[٥١] سورة الشورى آية ٣٨
[٥٢] في ظلال القرآن ٢/ ٤٧
[٥٣] تفسير الرازي ٢٧/ ١٧٧، فتح البيان للعلامة صديق حسن خالد ٨/ ٣٨٣
[٥٤] انظر البداية والنهاية لابن كثير٧/ ١٤٦، منهاج السنة النبوية ٣/ ٢٣٣
[٥٥] سورة البقرة آية ٢٣٣
[٥٦] صحيح البخاري/ باب قول النبي الدين النصيحة/ كتاب الإيمان/ وصحيح مسلم باب الدين النصيحة/ كتاب الإيمان.
[٥٧] دليل الفالحين، محمد بن علان ٢/ ٢٦٠

صحيح، و من ذلك مشاركة النساء في انتخاب العناصر الصالحة للمجالس التشريعية والمحلية والنقابية، وكذلك المشاركة في التصويت على الاستفتاءات التي تعرض على الرأي العام، فيتعين بذلك إقرار معروف أو إبطال منكر وكذلك الإشراف على تنظيم وتنفيذ عملية الانتخاب لتحقيق صدقها ونزاهتها وذلك في أماكن خاصة بالنساء لتجنب مزاحمة الرجال[٦١].

حق المرأة في الترشيح لمجالس التشريعية

أود أن أنبه هنا على جملة أمور مهمة ذكرها العلامة القرضاوي حفظه الله[٦٢]:

الأول: أننا يجب ألا نلزم أنفسنا إلا بالنصوص الثابتة الصريحة الملزمة. أما ما لا يثبت من النصوص كالأحاديث الضعيفة أو ما كان محتملا في فهمه لأكثر من وجه وأكثر من تفسير - مثل ما جاء في شأن نساء النبي - فليس لأحد أن يلزم الأمة بفهم دون آخر وخصوصا في الأمور الاجتماعية العامة التي تعم بها البلوى، وتحتاج إلى التيسير.

الثاني: أن هناك أحكاما وفتاوى لا نستطيع أن نفصلها عن عصرها وبيئتها، ومثلها قابل للتغير بتغير موجباته. ولهذا قرر المحققون أن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف، وكثير ما يتصل بالمرأة من هذا النوع، قد أصابه التشدد والتغليظ حتى حُرّم عليها الذهاب إلى المسجد برغم معارضة ذلك للنصوص الصريحة. ولكنهم قدموا الاحتياط وسد الذريعة على النصوص بناء على تغير الزمان.

الثالث: إن العلمانيين اليوم يتاجرون بقضية المرأة ويحاولون أن يلصقوا بالإسلام ما هو براء منه وهو انه جار على المرأة، وعطل مواهبها وقدراتها، ويحتجون لذلك بممارسات العصور المتأخرة، وبأقوال بعض المتشددين من المعاصرين.

نظرة في الأدلة

على هذا الأساس السابق يجب أن ننظر في مشروعية دخول الدليل على التحريم الذي يسوقه المانعون:

١. آية (وقرن في بيوتكن) وهذا الدليل غير ناهض كما هو واضح من السياق:

أ. لأن الآية تخاطب نساء النبي صلى الله عليه وسلم.

ب. إن المرأة قد خرجت من بيتها بالفعل وذهبت إلى المدرسة والجامعة وعملت في مجالات الحياة المختلفة دون نكير من أحد يعتد به، مما يعتبره الكثيرون إجماعا على مشروعية العمل خارج البيت للمرأة بشروطه.

ج. إن الحاجة تقتضي من المسلمات الملتزمات أن يدخلن في معركة الانتخاب في مواجهة المتحللات والعلمانيات اللائي يتزعمن قيادة العمل النسائي، والحاجة الاجتماعية والسياسية قد تكون أهم وأكبر من الحاجة الفردية التي تجيز للمرأة الخروج إلى الحياة العامة.

٢. المرأة والولاية على الرجل:

وهناك من يستدلون على منع المرأة من الترشيح للمجلس النيابي بان هذا ولاية على الرجال، وهي ممنوعة منها. بل الأصل الذي أثبته القرآن الكريم أن الرجال قوامون على النساء، فكيف نقلب الوضع وتصبح النساء قوامات على الرجال؟ ويجاب عن ذلك بأمرين:

الأول: إن عدد النساء اللاتي يرشحن للمجلس النيابي محدود وستظل الأكثرية الساحقة للرجال وهذه الأكثرية هي التي تملك القرار وهي التي تحل وتعقد فلا مجال للقول بأن ترشيح المرأة سيجعل الولاية للنساء على الرجال.

الثاني: إن الآية الكريمة التي ذكرت قوامية الرجال على النساء إنما قررت ذلك في الحياة الزوجية، فالرجل هو رب الأسرة وهو المسؤول عنها، ومع قوامية الرجل على الأسرة ينبغي أن يكون للمرأة دورها وان يؤخذ رأيها فيما يهم الأسرة مثل قوله تعالى: (فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا . . .)[٦٤]

---

[٦١] تحرير المرأة في عصر الرسالة ٢/٤٤٢، المرأة وحقوقها في السياسية في الإسلام ص١٣٢.

[٦٢] فتاوى معاصرة ٢/٣٨٦.

[٦٣] للمزيد من الاطلاع على أقوال المعارضين، انظر: تدوين الدستور الإسلامي للمودودي ص٦٩ـــص٧٠.
- فتاوى شرعية/ الشيخ حسنين مخلوف ص٢١٤.
- المرأة وحقوقها السياسية في الإسلام للزنداني.
- الولاية العامة للمرأة المسلمة في الفقه الإسلامي لمحمد سليمان القضاة.
- المفصل في أحكام المرأة ٤/ ٣٣٠.

[٦٤] سورة البقرة آية ٢٣٣.

أما ولاية بعض النساء على بعض الرجال خارج نطاق الأسرة فلم يرد ما يمنعه، بل الممنوع هو الولاية العامة للمرأة على الرجل.

والحديث الذي رواه البخاري عن أبي بكرة رضي الله عنه مرفوعا: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» إنما يعني الولاية العامة كلها أي رئاسة الدولة، كما تدل عليه كلمة (أمرهم) أما بعض الأمر فلا مانع أن يكون للمرأة ولاية فيه مثل ولاية الفتوى أو الاجتهاد أو التعليم أو الإدارة ونحوها فهذا مما لها ولاية فيه بالإجماع، وقد مارسته على توالي العصور حتى القضاء أجازه أبو حنيفة فيما تشهد فيه، أي في غير الحدود والقصاص، مع أن من فقهاء السلف من أجاز شهادتها في الحدود والقصاص، كما ذكر ابن القيم في (الطرق الحكمية) وأجازه الطبري بصفة عامة، وأجازه ابن حزم مع ظاهريته وهذا يدل على عدم وجود نص أو دليل شرعي يمنع توليها القضاء وإلا لتمسك به ابن حزم وقاتل دونه كعادته.

وسبب ورود الحديث يؤيد تخصيص الحديث بالولاية العامة، فقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن الفرس بعد وفاة إمبراطورهم، ولوا عليهم ابنته بوران بنت كسرى فقال: «لن يفلح قوم..... » انتهى كلام القرضاوي حفظه الله

مشاركة المرأة في النشاط السياسي في عصر الرسالة

١. خديجة أم المؤمنين ثبتت قلب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد عودته من غار حراء بكلمات تشير إلى كمال عقلها واستدلالها على صدق ما رأى بقرائن الحال حيث تقول له «كلا والله ما يخزيك الله أبدا انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق»[٦٥].

٢. المرأة تهاجر من الوطن فرارا بالدين الجديد قال ابن حجر: «.... أما النسوة المهاجرات إلى الحبشة الهجرة الأولى: منهن رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم وسهلة بنت سهل امرأة أبي حذيفة وأم سلمة وليلى بنت أبي خيثمة وأما اللاتي هاجرن الهجرة الثانية فبلغن ثماني عشرة امرأة منهن أم حبيبة بنت أبي سفيان وأسماء بنت عميس»[٦٦].

٣. مبايعة النساء النبي صلى الله عليه وسلم وهو إمام المسلمين قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[٦٧]

مبايعة النساء لها عدة دلالات:

١. استقلال شخصية المرأة وإنها ليست مجرد تابع للرجل.

٢. مبايعة النساء تقوم على أساسين:

أ. باعتباره الرسول المبلغ عن الله.

ب. باعتباره إمام المسلمين وقائد الأمة. يؤيد ذلك قوله تعالى: (ولا يعصينك في معروف).

إذن فبيعة أفراد الأمة لرئيس الدولة أداء لمهمة سياسية يلزم به الدين بدءا من المبايعة التي تمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح ومروراً بمبايعة سائر الخلفاء والحكام، ويستوي في التكليف بها الرجال والنساء.

٤. المرأة تشير على الرجال في قضايا السياسة فها هي أم سلمة تشير على رسول الله يوم الحديبية ولعمري إن رسول الله لفي غنى عن أن يستشير أم سلمة ولكنه كما ذكر الحسن البصري وغيره أحب أن يقتدي به الناس في ذلك وان لا يشعر أحد منهم بمعرّه في مشاورة امرأة، وقد كان الصحابة يستشيرون النساء وفي مقدمتهم عمر وأبو بكر وعثمان وعلي[٦٨].

٥. المرأة تنشر الوعي بالهدي النبوي في مجال السياسة.فعن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال: «انه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع قالوا:يا رسول الله: ألا تقاتلهم؟ قال:لا ما صلوا»[٦٩].

شروط وآداب اشتراك المرأة المسلمة في الحياة الاجتماعية ولقائها الرجال:

- أن يكون العمل في ذاته مشروعا، بمعنى أن لا يكون عملها حراما في نفسه أو مفضيا إلى ارتكاب حرام، كالتي تعمل خادما لرجل عزب،أو سكرتيرة خاصة لمدير تقتضي وظيفتها أن يخلو بها أو تخلو به، -ويخرج عن مفهوم الخلوة المحظورة الخلوة في حضرة الناس عند الحاجة- أو راقصة تثير الشهوات والغرائز الدنيا، أو عاملة في بار تقدم الخمر وغير ذلك من الأعمال التي حرمها الإسلام على النساء خاصة أو على الرجال والنساء جميعا.
- أن تلتزم المرأة المسلمة إذا خرجت من بيتها في الزي والمشي والكلام والحركة ويؤكد ذلك ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم مثل:

---

[٦٥] صحيح البخاري/ أول كتاب بدء الوحي/ كيف كان بدء الوحي إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم.

[٦٦] فتح الباري شرح صحيح البخاري ٨/ ١٨٩ باب هجرة الحبشة/ كتاب المناقب.

البصر أنه قد يستتبع اللقاء رؤية الرجال النساء والنساء الرجال وهذا لا حرج فيه مادام الطرفان يحرصان على الغض من أبصارهم فلا يحملق أحدهما في الآخر، وهذا فضلا عن براءتهما من الشهوة إذا ما وقع نظر بين حين وآخر.

٢. **الزي المحتشم:** قال تعالى: (وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا)[٧٢] والمقصود بظاهر الزينة الوجه والكفان وستر ما عدا ذلك باللباس الذي يجب أن تتوافر فيه الشروط التالية:

أ. ستر جميع البدن ما عدا الوجه والكفين بلباس سابغ لا يصف ولا يشف

ب. التزام الاعتدال في زينة الثياب والوجه والكفين.

ج. أن يكون اللباس مما يتعارف عليه مجتمع المسلمين.

د. أن يكون اللباس مخالفا في مجموعه للباس الرجال.

ه. أن يكون اللباس مخالفا في مجموعه لما يتميز به لباس الكفار.

٣. **اجتناب الطيب:** قال النبي صلى الله عليه وسلم: « أيما امرأة استعطرت ثم خرجت فمرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية.....»[٧٣].

٤. **الوقار في الحركة:** قال تعالى: (وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ)[٧٤] والمعنى النهي عن لبس الخلاخل التي يسمع صوتها عند الخروج من المنزل ومثله كل ما يصدر صوتا من المرأة كأحذية الكعب العالي ومنه أيضا التكسر والتمايل المفتعل أثناء المشي لقوله صلى الله عليه وسلم: «صنفان من أهل النار لم أرهما قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها »[٧٥].

٥. **الجدية في التخاطب:** قال تعالى: (فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولا معروفا)[٧٦] يقول ولو كانت هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وانه لا طهارة من الدنس حتى تمتنع الأسباب المثيرة من الأساس فلا ينبغي أن يكون بين المرأة والرجل الغريب لحن ولا إيماء ولا هزل ولا دعابة ولا مزاح كي لا يكون مدخلا إلى شيء آخر وراءه من قريب أو من بعيد »[٧٧] والآية تشير إلى أن موضوع الحديث بين الرجال والنساء ينبغي أن يكون في حدود المعروف فالجد بين الرجال والنساء معروف أما اللهو واللعب فمنكر، وألا يكون عملها على حساب واجبات أخرى لا يجوز لها إهمالها كواجبها نحو زوجها وأولادها، وهو واجبها الأول وعملها الأساسي، وهو واجب عيني كما قال الفقهاء، إن المرأة المتزوجة التي أنجبت أطفالا يلاحقها المجتمع بطائفة من الأعمال الكثيرة التي لا تقدر في الأغلب على النهوض بها كلها فلا مناص عندئذ من إتباع ما يقتضيه سلم الأوليات وسلم الأوليات يقول فيما يقرره الفقهاء وعلماء الاجتماع: إن نهوض الزوجة الأم بمسؤولية رعاية الزوج وتربية الأولاد والعمل على تنشئتهم النشأة الصالحة يرقى إلى مستوى الضرورات من مصالح المجتمع ذلك لان صلاح الأسرة هو الأساس الأول لصلاح المجتمع، وانطلاقا من هذا الواقع فإذا لم تتمكن الزوجة الأم من الجمع بين النهوض بمهام الأسرة والأنشطة الثقافية والاجتماعية الأخرى فان عليها أن توفر وقتها لرعاية الأسرة. لذلك فان الشريعة الغراء كفتها مؤونة النفقة على نفسها وأولادها وألزمت به الزوج.

المجالات التي فرق فيها الإسلام بين الرجل والمرأة ومبرراتها[٧٨]

الشهادة

شهادة المرأة كانت ولا تزال عند نظر الكثير من الناس دليل آخر على ظاهرة اللامساواة بينها وبين الرجل، أساس ذلك عندهم قول

---

[٧٠] سورة النور آية ٣١

[٧١] صحيح مسلم/ باب نظر الفجاءة/ كتاب الآداب.

[٧٢] سورة النور آيه ٣١

[٧٣] أخرجه الإمام احمد في المسند ٤/٤١٤ والحاكم في المستدرك.

[٧٤] سورة النور آية ٣١

[٧٥] صحيح مسلم/ باب النار يدخلها الجبارون/ كتاب الجنة وصفات نعيمها

[٧٦] سورة الأحزاب آية ٣٢

[٧٧] في ظلال القران ٥/٢٨٥٨

[٧٨] انظر: المرأة ولطائف التشريع الرباني ص١٤٧، الولاية العامة للمرأة د.محمد سليمان القضاة ص٨٦.

الله عز وجل: (وَاسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ من رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ)[٧٩]

إن حفظ الحقوق غاية يرعاها الشرع ويعتبرها مقصدا من مقاصده توظف الشهادة أحيانا لذلك وهذه الوظيفة بحاجة إلى إنسان تترجح لديه الجوانب العقلية على الجوانب العاطفية لئلا تساهم العاطفة الغالبة في الميل إلى أحد الخصمين ولما كان الرجل بفطرته العامة متمتعا بهذا النوع من الاختصاص جعلت الشريعة شهادة اثنتين من النساء مقابل شهادة رجل واحد وهذا الشرط ليس امتهانا لكرامة المرأة ولكن لماذا امرأتان مقابل رجل؟

[إن النص لا يدعنا نحدس! ففي مجال التشريع يكون كل نص محددا واضحا معللا! «أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى» والضلال هنا ينشأ من أسباب كثيرة. فقد ينشأ من قلة خبرة المرأة بطبيعة التعاقد، مما يجعلها لا تستوعب كل دقائقه وملابسته ومن ثم لا يكون الوضوح في عقلها بحيث تؤدي عنه شهادة دقيقة عند الاقتضاء، فتذكرها الأخرى بالتعاون معاً على تذكر ملابسات الموضوع كله، وقد ينشأ من طبيعة المرأة الانفعالية، فان وظيفة الأمومة شديدة الاستجابة الوجدانية الانفعالية لتلبية مطالب طفلها بسرعة وحيوية لا ترجع فيهما إلى التفكير البطيء وذلك من فضل الله على المرأة حين تكون امرأة سوية -بينما الشهادة على التعاقد في حاجة إلى تجرد كبير من الانفعال ووجود امرأتين فيه ضمانة أن تذكر إحداهما الأخرى- إذا انحرفت مع أي انفعال][٨٠]، وليس في هذا إنتقاص من قيمة المرأة، مادام تكوينها الفطري معدا للقيام بوظائف اجتماعية لا تكون مثالية فيها ما لم تكن الجوانب العاطفية غالبة على الجوانب العقلية.

أما في الأمور الأخرى التي يضعف فيها تدخل العواطف الإنسانية فان شهادة المرأة فيها مثل شهادة الرجل، وذلك حينما يكون الاعتماد على مجرد الذكاء والحفظ، ومن اجل ذلك قبلت التعاليم الإسلامية رواية المرأة لنصوص الشريعة وأخبارها في التاريخ والعلوم ومساواتها في ذلك بالرجل، وقبلت شهادة المرأة الواحدة في إثبات الولادة والرضاع وما يخص النساء وجعلتها مثل شهادة الرجل.

الميراث

أعطى الإسلام المرأة نصف ما أعطي الرجل، قال تعالى: (يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ)[٨١]، وليس الأمر في هذا أمر محاباة لجنس على حساب جنس، إنما الأمر أمر توازن وعدل بين أعباء الذكر وأعباء الأنثى في التكوين العائلي. والنظرة الفكرية والواقعية الشاملة في هذا الموضوع لا بد أن تلاحظ الأمور التالية كلها في وقت واحد حتى تكون أحكامها صحيحة[٨٢].

أولا: لقد كرم الإسلام المرأة في نظامه ونظر إلى أعباء حملها ورضاعها وتربية أبنائها وتدبير أعبائها الزوجية فأعفاها من واجبات السعي لاكتساب الرزق ولم يحملها مسؤوليات أعباء المعيشة لا لنفسها ولا لغيرها وألقى كل هذه الأعباء على الرجل، دون أن يمنعها من العمل الشريف إذا هي اختارت ذلك.

ثانيا: لدى الزواج يتحمل الرجل أعباء دفع المهر للزوجة وأعباء سائر النفقات التي يتطلبها الزواج في حين أن المرأة هي المستفيدة من المهر ومعظم نفقات الزواج، دون أن تكون مسؤولة عن أي شيء من ذلك.

ثالثا: الرجل هو المسؤول عن السعي لكسب الرزق والنفقة على زوجته وأولاده بينما لا تكلف المرأة شيئا من هذه الأعباء، إلا أن تقدم شيئا من ذلك تطوعا، يضاف إلى ذلك أن الرجل مسؤول أيضا عن النفقة على طائفة من ذوي قرابته الفقراء، ضمن تفصيلات موضحة في الفقه الإسلامي.

إذا كان كذلك فان نظام الميراث في الشريعة الإسلامية فيه معنيان:

المعنى الأول: انه غطاء للتكافل الاجتماعي داخل الأسرة الواحدة، إذ يكون غرم النفقة الواجبة مقابلا لغنم الميراث.

المعنى الثاني: إن الميراث فيه دعم للترابط الاجتماعي المشعر بوحدة الأسرة ففيه مواساة للأقارب مما تركه ميتهم.

وحين ندرك كل ذلك نستطيع أن ندرك حكمة التشريع التي تظهر فيها ميزة الإسلام وعظمته ويبدو كل كلام في هذا التوزيع جهالة من ناحية وسوء أدب مع الله الذي وصى فقال تعالى: «يُوصِيكُمُ اللّهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ»[٨٣] وزعزعة للنظام الاجتماعي والأسري.

---

[٧٩] سورة البقرة آية ٢٨٢

[٨٠] ظلال القران ١/٣٣٧.

[٨١] سورة النساء آيه ١١. ملاحظه: إذا نظرنا في نفس الآية المذكورة وما يليها:

(يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما حكيما....)

فسنجد أن هنالك حالات تتساوى فيها المرأة مع الرجل. وهنالك حالات ترث المرأة فيها أكثر من الرجل، فمثلا في حال وفاة امرأة عن زوج وأب وأم، فللزوج

ينشأ للأسرة من مقتل الرجل أو المرأة.

إن القتل العمد يوجب القصاص من القاتل، سواء كان المقتول رجلا أو امرأة، وسواء كان القاتل رجلا أو امرأة وهذا لأننا في القصاص نريد أن نقتص من إنسان لإنسان، والرجل والمرأة متساويان في الإنسانية.

أما في القتل الخطأ وما أشبهه فليس أمامنا إلا التعويض المالي، والعقوبة بالسجن ونحوه، والتعويض المالي تراعى فيه الخسارة المادية للأسرة فليس خسارة الأسرة للرجل كخسارتها للمرأة.

إذن فان الدية ليست هي ثمن الدم وإنما هي تعويض أفراد أسرة القتيل ومن يعولهم، فالذي يظهر قيمة الدم هو القصاص نفسه حيث يتساوى الرجل والمرأة في القصاص، فيقتل الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل[٨٥].

القوامة

جعل الله تعالى القوامة للرجال على النساء لقوله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاء بِمَا فَضَّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ)[٨٦]. فمن الناس من يقول إن هذه القوامة التي ميز بها الرجل، واخضع المرأة لها، تنطوي على إجحاف بحقها، كما أنها شاهد بين على غياب المساواة المزعومة بين الرجل والمرأة المؤسسة، أي إليه الإمارة فيها والإدارة لشؤونها. والضرورة تقتضي أن يكون هناك قيم توكل إليه الإدارة العامة لهذه الشركة التي تقوم بين الرجل والمرأة وما ينتج عنها (أي الشركة) من نسل وما تتبعه من تبعات، وقد اهتدى الناس في كل تنظيماتهم إلى انه لا بد من رئيس مسؤول وإلا ضربت الفوضى اطنابها ولعل هذا الحرص الشديد من الشارع على النظام أن لا ينفك عن المجتمع في حال من أحواله، وفي أي من مظاهره يبدوا جليا في قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»[٨٨] ولعمري إن الشارع الذي يحرص على أن لا يسير ثلاثة إلا بعد أن يؤمروا واحدا منهم عليهم، لهو اشد حرصا على أن لا تمر على أسرة في منزل ساعة من زمان، إلا ولها أمير يرعى شؤونها ويدير أمورها، ولدى أهل الفكر في مسألة القوامة داخل الأسرة مجموعة من الاحتمالات:

الاحتمال الأول: أن يكون الرجل هو القيم.

الاحتمال الثاني: أن تكون المرأة هي القيم.

الاحتمال الثالث: أن يكون كل من الرجل والمرأة قيما على سبيل الشركة المتساوية.

ومنذ البداية يستبعد الفرض الثالث لان التجربة أثبتت أن وجود رئيسين للعمل الواحد ادعى إلى الإفساد من ترك الأمور فوضى بلا رئيس. والقرآن الكريم يقول عن السماء والأرض «لو كان

---

[٨٤] قال الشيخ القرضاوي خلال ندوة نظمها المجلس الأعلى لشؤون الأسرة في العاصمة القطرية الدوحة الأربعاء ٢٢-١٢-٢٠٠٤: «مسألة الدية محل اجتهاد، وليست من الثوابت ولا من القطعيات؛ لذلك ليس هناك مانع من إعادة النظر فيما ذهب إليه الفقهاء» بشأنها. وأضاف: «بالنظر إلى القرآن الكريم لا نجد دليلا يساند رأي القائلين بالتنصيف وعبارة القرآن الكريم في الدية عامة مطلقة لم تخص الرجل بشيء منها عن المرأة، قال تعالى: (ومن قتل مؤمنا خطا فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله) النساء الآية ٩٢.

وأوضح القرضاوي أن هذه الآية تشير إلى أنه: «لا فرق في وجوب الدية بالقتل الخطأ بين الذكر والأنثى، فمن المعلوم عند أهل اللغة أن النكرة في سياق الشرط تعم، فالجملة (الآية) شرطية ومؤمنا نكرة تشمل المرأة والرجل فتقتضي العموم».

كما رأى القرضاوي أن مسألة الدية «ليس فيها حديث متفق على صحته ولا إجماع مستيقن وإذا لم يصح حديث في هذه القضية يحتج به فكذلك لم يثبت فيها إجماع... بل ذهب ابن علية والأصم- من فقهاء السلف- إلى التسوية بين الرجل والمرأة في الدية وهو الذي يتفق مع عموم النصوص القرآنية والنبوية وإطلاقها».

واعتبر أن استخدام القياس على الميراث في مسألة الدية «لا يعتد به فهنالك حالات (في الميراث) تأخذ فيها المرأة نفس النصيب الذي يأخذه الرجل» وتأخذ المرأة ضعف الرجل في حالة من الحالات، ففي (سورة النساء آيه ١١) قال ابن عباس رضي الله عنهما في زوج وأبوين: للزوج النصف وللأم ثلث جميع المال وللأب ما بقي (أي السدس)، وبهذا قال شريح القاضي ومحمد بن سرين، وداود بن علي الظاهري.

وفند الشيخ القرضاوي حجة مراعاة المصلحة الذي يستند إليها القائلون بالتنصيف باعتبار أن فقد الرجل باعتباره العائل ليس مثل فقد المرأة، وقال: «هذا الأمر ليس له اعتبار في الشريعة بدليل أن دية الطفل الصغير مثل الكبير والفراش مثل البروفسور».

ودعّم القرضاوي رأيه بما ذهب إليه عدد من علماء العصر كالشيخ محمد رشيد رضا والشيخ محمود شلتوت في كتابه «الإسلام عقيدة وشريعة»، والشيخ أبو زهرة في كتابه «العقوبة»، والشيخ محمد الغزالي رحمه الله. (المحرر)

http://www.islamonline.net/Arabic/news/2004-12/23/article04.shtml

[٨٥] انظر المرأة بين الفقه والقانون/الولاية العامة للمرأة في الفقه الإسلامي.

[٨٦] سورة النساء آية ٣٤

[٨٧] انظر: شبهات حول الإسلام ص١٠١. المرأة ولطائف التشريع. أجنحة المكر الثلاثة ص٥٣٢. الولاية العامة للمرأة في الفقه الإسلامي ص٧٢. المرأة في ظل الإسلام ص١٠٢. عودة الحجاب ٢/ ٩٩.

[٨٨] سنن أبي داود/ باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم/ كتاب الجهاد رقم٢٦٠٨

فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»[٨٨] ويقول تعالى: (إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ)[٨٩] فإذا كان الأمر هكذا بين الآلهة المتوهمين، فكيف هو بين البشر العاديين.

وعلم النفس يقرر أن الأطفال الذين يتربون في ظل أبوين متنازعين على السيادة تكون عواطفهم مختلفة وتكثر في نفوسهم العقد والاضطرابات.

أما إسناد القوامة إلى المرأة دون الرجل فهو أمر ينافي ما تقتضيه طبيعة التكوين الفطري لكل منهما، وهو يؤدي إلى اختلال ونقص في نظام الحياة الاجتماعية فأهم خصائص القوامة المثلى رجحان العقل على العاطفة وهذا الرجحان متوافر في الرجال، والرجل بطبيعته المفكرة (اللامنفعلة) هو أصلح من المرأة في أمر القوامة على البيت، بل إن المرأة ذاتها لا تحترم الرجل الذي تسيره فيخضع لكامل رغباتها، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أي اعتبار لان المرأة تريد الرجل الذي تشعر معه بالأمن والأمان وفي ذلك يقول أحد العلماء الغربيين الدكتور أوجست فوريل تحت عنوان (سيادة المرأة):

(يؤثر شعور المرأة بأنها في حاجة إلى حماية زوجها على العواطف المشعة من الحب فيها تأثير كبير، ولا يمكن للمرأة أن تعرف السعادة إلا إذا شعرت باحترام زوجها وإلا إذا عاملته بشيء من التمجيد والإكرام ويجب أيضا أن ترى فيه مثلها الأعلى في ناحية من النواحي، إما في القوة البدنية، أو في التفوق الذهني أو في صفة طيبة أخرى، وإلا فانه سرعان ما يسقط تحت حكمها وسيطرتها ويفصل بينهما شعور من النفور والبرود وعدم الاكتراث. ولا يمكن أن تؤدي سيادة المرأة إلى السعادة المنزلية لان في ذلك مخالفة للحالة الطبيعية التي تقضي بان يسود الرجل المرأة بعقله وذكائه وإرادته، لتسوده هي بقلبها وعواطفها)

ولا يعني ذلك أن يستبد الرجل بالمرأة، أو بإدارة البيت، فالرئاسة لا تنفي المشاورة ولا المعاونة بل العكس هو الصحيح، فالرئاسة الناجحة هي التي تقوم على التفاهم الكامل والتعاطف المستمر، وكل توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح داخل الأسرة، وإلى تغليب الحب والمودة والتفاهم على النزاع والتفاهم على النزاع والشقاق، يقول تعالى: (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ)[٩٠]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٩٢]

ونعود في الختام إلى تأكيد الحقيقة التي افتتحنا بها حديثنا هذا عن قوامة الرجل في الأسرة فان مصدر هذه القوامة لا يتمثل في أفضلية ذات الرجل عند الله عن ذات المرأة، وإنما مصدرها الأفضلية المصلحية الآتية من توافق إمكانات الرجل ووظيفته الإنفاقية، مع ما تحتاج إليه الأسرة في مجال الرعاية والسهر على مصالحها الخطيرة. وإنني كامرأة مسلمة اعتقد اعتقاداً جازما أن الله سبحانه وتعالى جعل الرجال قوامين تكريما للنساء وليس عبئا عليهن.

رئاسة الدولة

جاء في الحديث الشريف الذي رواه الإمام البخاري وغيره عن أبي بكرة قال: «لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى قال: لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» قال ابن حزم: الولاية الممنوعة منها المرأة هي الولاية العظمى -أي الخلافة- أي رئاسة الدولة[٩٣]. وهذا ما ذكره الفقهاء وعليه إجماعهم. وقد استدل علماء الشريعة الإسلامية بهذا الحديث الصحيح على حرمة إسناد مهام الخلافة (رئاسة الدولة) إلى المرأة أيا كانت وعلى أن البيعة لا تنعقد لها شرعاً.

ولكن ما الحكمة من هذا الحجر الذي جاء خاصاً وبموجب نص صريح، برئاسة الدولة؟ الحكمة من ذلك أن رئيس الدولة في الإسلام ليس صورة رمزية إنما هو قائد المجتمع ورأسه المفكر ولسانه الناطق، فهو الذي يعلن الحرب على الأعداء ويقود الجيوش ويدير عملياته ومن المعلوم أن المرأة غير مكلفة بالجهاد القتالي إلا عند النفير العام فكيف يستقيم منها أن تقود الناس في عمليات هي غير مكلفة بها، ومن مهام الخليفة الخروج بالناس إلى صلاة الجمعة والعيد والاستسقاء وإلقاء الخطبة المتعلقة بالصلوات وهي غير مكلفة بذلك، وقد لا تكون في وضع يخولها القيام بهذه الأمور، فاقتضى أن لا تزج المرأة في هذه المحرجات دون ما ضرورة تستدعي ذلك. والواقع انه ليس ثمة ضرورة تقتضي تحميل المرأة هذه المحرجات ومما لا ينكر أن هذه الوظائف لا تتفق مع تكوين المرأة النفسي والعاطفي ولا سيما في الحروب وإذا وجدنا نساء قدن الجيوش وخضن المعارك فإنهن ندره وقلة. وإذا نظرنا إلى الواقع التاريخي منذ اقدم العصور رأيناه متفقا مع هذا الذي قررته الشريعة الإسلامية الغراء[٩٤].

---

[٨٨] سورة الأنبياء آية ٢٢

[٨٩] سورة المؤمنون آية ٩١

[٩٠] سورة النساء آية ١٩.

[٩٢] سنن ابن ماجة ١/ ٦٣٦ باب حسن معاشرة النساء/ كتاب النكاح

الكفائية على المرأة.

٥. أباح الإسلام للرجل تعدد الزوجات، وأعطاه حق الطلاق، ولم يعطه للمرأة. علل

المراجع

١. أجنحة المكر الثلاثة/ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني/ دار القلم/ دمشق/ بيروت.

٢. إحياء علوم الدين/أبو حامد محمد بن محمد الغزالي/ دار المعرفة/ بيروت ١٩٨٢

٣. بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع/ علاء الدين الكاساني الحنفي/ مطبعة الأمان/ القاهرة.

٤. بداية المجتهد ونهاية المقتصد/ محمد بن احمد بن رشد القرطبي/ الطبعة الخامسة.

٥. البداية والنهاية في التاريخ/ أبو الفداء إسماعيل بن كثير/ مكتبة النصر/ الحديثة- الرياض-الطبعة الأولى.

٦. تاريخ عمر بن الخطاب/ ابن الجوزي.

٧. تحرير المرأة في عصر الرسالة/ عبد الحليم أبو شقة/ دار القلم للنشر والتوزيع/ الكويت.

٨. تفسير القران العظيم/ أبو الفداء إسماعيل بن كثير/ مكتبة النصر/ دار الفكر للطباعة والنشر.

٩. التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي/ الطبعة الأولى/ المطبعة البهية/ مصر.

١٠. الجامع لأحكام القران/ أبو عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي/ دار إحياء التراث/ لبنان.

١١. الجامع الصحيح (صحيح البخاري)/ محمد بن إسماعيل البخاري/ دار الفكر/ بيروت

١٢. الجامع الصحيح (صحيح مسلم)/ مسلم بن الحجاج النيسابوري/ المكتبة الفيصلية.

١٣. دراسات في الفكر الإسلامي العربي/ د.إبراهيم زيد الكيلاني/ د. همام سعيد/ د. صالح الهندي/ عمان/ دار الفكر للنشر ١٩٨٨

١٤. روح المعاني/ محمود الالوسي البغدادي/ دار إحياء التراث العربي/ لبنان.

١٥. روضة الطالبين/ الإمام يحيى بن شرف النووي/ المكتب الإسلامي للطباعة/ بيروت

١٦. فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ احمد بن حجر العسقلاني/ المكتبة السلفية

١٧. في ظلال القران/ سيد قطب/ دار الشروق/ الطبعة الشرعية السابعة

١٨. الكشاف عن حقائق الأقاويل في وجوه التأويل/ جار الله محمود بن عمر الزمخشري/الطبعة الأولى/ المكتبة التجارية

١٩. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد/ الحافظ علي بن أبي بكر الهيثمي/ دار الكتاب العربي/ بيروت/ الطبعة الثالثة.

٢٠. المحلى/ أبو محمد علي بن احمد بن حزم الظاهري/ تحقيق شاكر احمد شاكر.

٢١. المرأة المسلمة بين الفقه والقانون/ د. مصطفى السباعي/ الطبعة الخامسة.

٢٢. المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني/ د. محمد سعيد رمضان البوطي/ دار الفكر/ دمشق/ الطبعة الأولى.

٢٣. المرأة المسلمة في ظل الإسلام/ السيدة مريم فضل الله/ دار الزهراء/ لبنان.

٢٤. المرأة وحقوقها السياسية في الإسلام/ عبد المجيد الزنداني/ مؤسسة الريان/ الطبعة الأولى.

٢٥. المرأة والحقوق السياسية في الإسلام/ مجيد أبو حجر.

٢٦. المغني والشرح الكبير/ ابن قدامة المقدسي/ دار الكتاب العربي/ بيروت.

٢٧. المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم/ د. عبد الكريم زيدان/ مؤسسة الرسالة/ بيروت/ الطبعة الثانية.

٢٨. منهاج السنة النبوية/ ابن تيميه الحراني.

٢٩. الموطأ/ الإمام مالك بن انس الأصبحي/ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

٣٠. الولاية العامة للمرأة في الفقه الإسلامي/ د. محمد طعمة سليمان القضاة/ دار النفائس/ الأردن ١٩٩٨.

مراجع مقترحة للقراءة الإضافية:

١. تحرير المرأة في عصر الرسالة/ عبد الحليم أبو شقة

٢. الإسلام والمرأة المعاصرة/ البهي الخولي

٣. الأحوال الشخصية/ د. احمد الكبيسي

٤. المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم/ د. عبد الكريم زيدان

٥. واقع المرأة الفلسطينية/ مها عبد الهادي

٦. موقع إسلام اون لاين على الإنترنت www.islamonline.com

مريم محمود حسن صالح

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذة مساعد

تاريخ الولادة: ١٩٥٢

المؤهلات العلمية

- شهادة الدكتوراه في الشريعة الإسلامية، قسم الكتاب والسنة - جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٩٩٣م
- شهادة الماجستير في الشريعة الإسلامية - قسم الكتاب والسنة- جامعة أم القرى عام ١٩٨٦م
- شهادة البكالوريوس في الشريعة الإسلامية - قسم الدعوة - جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة عام ١٩٧٩م

السيرة العملية

١. أستاذ الحديث وعلومه/ كلية الدعوة وأصول الدين/ جامعة القدس منذ عام ١٩٩٣م
٢. أستاذة زائرة في جامعة القدس المفتوحة منطقة رام الله التعليمية في العام الدراسي ٢٠٠٤/٢٠٠٥
٣. التدريس في كلية صحة المجتمع التابعة للإغاثة الطبية لمساق الفكر الإسلامي العربي لعدة فصول
٤. أستاذة متطوعة في معهد مريم البتول الشرعي التابع لجمعية الهدى النسائية

الإنتاج العلمي

١. تحقيق جزء من كتاب إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم/ رسالة دكتوراه
٢. نظرة القرآن الكريم إلى الترف والمترفين/ رسالة ماجستير
٣. الثقافة الإسلامية/ كتاب مشترك
٤. بحث عن آثار الطلاق المعنوية
٥. بحث آثار الطلاق المالية والاجتماعية
٦. بحث حقوق المرأة السياسية في الإسلام
٧. عدة مقالات منشورة في بعض المجلات المحلية
٨. مذكرات مكتوبة في مواد/ الحديث والتفسير وأصول الدعوة

المؤتمرات والندوات والدروس

١. مؤتمر الداعيات الأول/ البيرة ١٩٩٨م كلية الدعوة
٢. مؤتمر الداعيات الثاني/ البيرة ١٩٩٩م كلية الدعوة
٣. مؤتمر التمكين النسوي في المجتمع العربي في مناطق ٤٨ عام ١٩٩٨م في نتانيا
٤. مؤتمر الزواج ومشاكل المهور/ الأوقاف/ البيرة ١٩٩٩م
٥. مؤتمر العمل النسوي بين تقييم التجربة وتحسين الأداء/ جمعية الهدى/ البيرة
٦. ساهمت بطلب من فضيلة الشيخ رائد صلاح بإحياء مصاطب الأقصى حيث ألقت عشرات المحاضرات والدروس تحت قبة الصخرة المشرفة للمئات من النساء من مختلف مناطق الوطن
٧. إلقاء مئات المحاضرات والدروس والمواعظ في الجامعات والمعاهد والمدارس والمساجد في مختلف أنحاء الضفة.

النشاط الاجتماعي

١. قامت مع بعض الأخوات بتأسيس جمعية الهدى النسائية في مدينة البيرة سنة ١٩٩٦م ورأست الجمعية من سنة ١٩٩٧-٢٠٠٠م، وما زالت عضو هيئه عامه ولها العديد من النشاطات في الجمعية
٢. عضو الهيئة التأسيسية لجمعية خليل الرحمن في مدينة الخليل
٣. عضو الهيئة العامة في جمعية أصدقاء الكفيف/ مدينة البيرة
٤. عضو الهيئة العامة لجمعية الاتحاد النسائي العربي/ البيرة
٥. عضو اللجنة النسائية في جمعية بيت نبالا الخيرية/ رام الله.

الإسلام وأهل الكتاب

د. مصطفى أبو صوي*

مقدمه

إن الحديث عن الإسلام وأهل الكتاب ينقسم إلى قسمين، الأول يعتمد على الأساس القرآني والأنموذج المفصل في السنة النبوية، والثاني يتنقل ما بين التجارب التاريخية. ومع أن التجربة التاريخية بعد مرحلة النبوة لا تدخل في تأصيل الرؤية الإسلامية، إلا أنه لا يمكن القفز على التاريخ فهو محك يبين صحة علاقة المسلمين مع الآخر من جهة، وعلاقة هذا الآخر بالمسلمين من جهة أخرى. ومن هنا، فإن المواقف الإختزالية التي تحاول أن تتجاوز المصادر الإسلامية أو تحذف التاريخ من الصورة لا تساعد على فهم مواقف المسلمين، فقد ظل النص المقدس منطلقهم، وظلت التجربة التاريخية منذ الخلافة الراشدة ترشدهم إلى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أن هنالك، بالإضافة إلى ما هو مقدس وعالمي (النظرة الإسلامية للإنسان والكون والحياة)، موروثا ثقافيا ذا طابع محلي تنقله الذاكرة الجمعية عبر قنوات متعددة. وفي حين أن العلماء المسلمين يجتهدون في العودة إلى الأصول الثابتة لهذا الدين في تبني المواقف عامة، نجد أن كثيرا من الناس يعبرون عن مواقف جذورها التراث المحلي والذي هو بالفعل خليط من الجهتين، ينتقي من الإسلام شيئا ظل على صفائه، ويضيف عليه من الموضوعات ويخلطه بالإسرائيليات ويغلفه بالأساطير، ثم يضفي عليه مما تسرب على فضائنا من التيارات الفكرية الوافدة عليه من الخارج بمفرداتها في السياسة والاقتصاد والاجتماع، فيلقحه بماء التغريب، فتتولد من كل هذا نغولة فكرية، لا يعرف نسبها!

وهذا لا يعني أننا ندعو إلى العزلة والانقطاع وبناء الحواجز بيننا وبين «الآخر». وقد ذكر الدكتور طه جابر العلواني في مقدمة كتاب الدكتور عبد المجيد النجار «خلافة الإنسان بين الوحي والعقل» أن هذا الدين جاء ليخرج للدنيا أمة تكون خير أمة أخرجت للناس، لا لتنكفىء على ذاتها بل هي أمة أخرجت لغيرها...»

ولكن هنالك فرق جوهري بين الإختيار عن إرادة ووعي بما يتناسب مع قيم الرؤية الإسلامية، وبين إلغاء الذات والإرتماء معرفيا في حضن الغير، لا نرد يد لامس! فلا بد من الندية بين مثقفينا ومثقفيهم، ولا بد من التخلص من عقدة النقص تجاه الوافد من الخارج، ولا بد من الوقوف بثبات أمام الضغوطات الخارجية التي تفرض نظما وقيما لا مصالحة معها. وهنا يجب التنبيه إلى إمكانية التقاطع بين الأنموذج الإسلامي وغيره، وأن هنالك قيما مشتركة كثيرة مع الغير بما لديهم من بقايا وحي سابق أو جاء نتيجة فطرة سليمة، ولكن الفوارق والخصوصيات موجودة ولها حضور قوي ومؤثر في الوعي الإسلامي. هذا مع التنبيه إلى أن المعرفة العلمية تراكمية بمعنى أنها إرث للإنسانية وروافدها الحضارية متعددة، ولا يمكن أن تنتج بصورة حصرية داخل حدود جغرافية معينة بمعزل عن الحضارات الأخرى، ولا يمكن منعها من عبور نفس الحدود وفي أي إتجاه، على الرغم من محاولات احتكار العلم لأغراض تجارية أو عسكرية! ولذلك أنبه مرة أخرى إلى أننا لا نرفض العلم ولكننا نرفض أن يكون المثقف الغربي هو المصدر المطلق لما يصلح لأهل الكرة الأرضية من قيم بلا منازع، فهذا الموقف يعكس رؤية داروينية- إجتماعية، تعتبر أن سكان دول الجنوب (العالم الثالث!) عاجزون بالطبع عن إصلاح أنفسهم، وهي نظرة عنصرية وتشكل إمتدادا للمركزية الأوروبية التي أدت في الماضي والحاضر إلى الاستعمار المباشر.

وكذلك فاستعادة الثقة بالنفس لا تعني العيش في الماضي، ولا استنساخ ظواهر ونظم ومفردات تعبر عن الحالة الحضارية التي كانت سائدة قبل أربعة عشر قرنا مما تركه الإسلام لإجتهادات الناس في شؤون الدنيا. فمن السذاجة، على سبيل المثال، اعتبار الأشكال الإدارية التي سادت حينئذ صالحة لكل زمان ومكان، فشكل الحكومة يتبع وظيفتها والتي بدورها تعكس تطور وتعقيدات الحياة المعاصرة.

والحديث عن الإسلام هو غير الحديث عن المسلمين، ويشكل الأول المثال والثاني الواقع الذي قد يقترب أو يبتعد عن المثال. والابتعاد عن المثال يتناسب طرديا مع حدوث الإشكالات بين المسلمين أنفسهم، وبين المسلمين وغيرهم. فإذا ما كانت هنالك إشكالية، والمثال المتعلق بها محكم- قطعي الثبوت قطعي

* محاضر في جامعة القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

الدلالة- لا يتبادر إليه شك، فالإشكالية تتعلق بخلل في التطبيق أو عدم التطبيق أساسا! فمن الممكن أن يخطىء المسلم وهو يجتهد في وضع تصور للعلاقة، ومن الممكن أيضا أن يقع الظلم على الكتابي عمليا ويفعل يخالف التصور الإسلامي مطلقا. ولا يمكن أن يكون هنالك تاريخ لأمة يمتد عبر أربعة عشر قرناً من الزمان، وعدد أفرادها يقترب من المليارين، ناهيك عن المليارات الذين عاشوا وماتوا في السابق، وأن تكون بلا أخطاء! وهذا الكلام ينطبق على أبناء كل حضارة وكل دين، وما الاختلاف إلا في حجم المصائب والظلم الذي يقع على الناس.

أما بالنسبة لإشكالية العنف السياسي، فلا يوجد دوائر عنف، بل خطوط مستقيمة متناهية، فالدائرة لا بداية لها ولا نهاية، والعنف له بداية ونهاية، والقول بدوائر العنف يضفي نوعا من الضبابية التي تخفي وراءها المسؤول عن بدايته، فحيثما يوجد إرهاب دولة، مثلا، فإنه من رحم إرهابها يولد رد الفعل العنيف.

وهذه الورقة تشكل محاولة لعرض قضايا العلاقات الإسلامية بأهل الكتاب، ومن يدخل في حكم أهل الكتاب. وواقعية الطرح تستلزم تعريف الآخر بالمثال الذي أنت عليه، وإلا كان الحديث اختزاليا وضربا من التمرس في العلاقات العامة. والسؤال الأساسي المطروح هو: هل هنالك تعارض بين الإسلام ومتطلبات العيش المشترك؟ إننا نرى أن الوفاء للرؤية الإسلامية والالتزام بها وتنزيلها على أرض الواقع لا يتعارض مع الاعتراف بالآخر والعيش المشترك معه جنبا إلى جنب. بل الرؤية الإسلامية تراه إنسانا مكرما (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ...)[1] ومواطنا له جذور وتاريخ، وحقوقه ليست متعلقة بعدد أفراده، فهي ربانية المصدر، تكاد مقولة «له ما لنا وعليه ما علينا» تعكس كل الصورة إلا ما يتعلق بالخصوصيات الدينية.

وهنا يجب التنبيه إلى أنني أتحدث عن «الآخر» على مستويين، الأول على المستوى الحضاري، والثاني على المستوى الديني. فعلى المستوى الأول أعتبر أن جميع أبناء الدولة ينتمون إلى نفس المنظومة الحضارية الإسلامية، وعلى المستوى الثاني هنالك فروق عقدية أساسية، ومع ذلك فإنني أعتبر أن الكتابي هو «آخر» ولكنها «آخرية مخففة»[2] والسبب في ذلك المكانة الخاصة التي أولاها الإسلام لأهل الكتاب.

ومع كل الأمور المشتركة بين المسلمين وأهل الكتاب، وتاريخ تعايش بعمر الإسلام، إلا أن هنالك قضايا خلاف جوهرية تتعلق بأمور العقيدة سنبينها لاحقا. ومع أن القرآن الكريم بين أوجه الخلاف العقدي لم يعتبرها سببا مانعا للعيش المشترك في ظل نظام حكم يستمد قيمه من الإسلام الذي جاء ليؤكد على نفس رسالة التوحيد التي أوحي بها مرة بعد مرة، منذ أن تلقى آدم عليه السلام تلك «الكلمات»[3] ومرورا بأنبياء بني إسرائيل وحتى وصلت هذه الأمانة إلى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ومن ثم إلى أمته.

والأصل أن تؤدي الأمانة العلمية والصراحة في الطرح إلى الثقة المتبادلة، وهي حجر الأساس في بناء علاقة سليمة، وأجدني هنا أقتبس كلام الإمام محمد أبو زهرة، من مقدمة كتابه «محاضرات في النصرانية» حيث يقول:

«وإذا كان من إخواننا وعشرائنا من تململ من محاضراتنا، أو تبرم من مخالفتنا لما يؤمن به، فإنا علم الله ما قصدنا بكلامنا إحراجا ولا إيلاما...»[4]

ومن هنا، فإن عرض مواقف العقيدة الإسلامية من أساسيات اللاهوت اليهودي أو المسيحي إنما يبين الخلفية التي ينطلق منها المسلم في تعامله مع الآخر، وليس للمسلم إلا أن يعرض العقيدة الإسلامية كما هي.. وإذا ما فرغنا من تحديد ما هو قطعي ومحكم بالنسبة للمسلم، عرفنا أين نتوجه في العلاقة المستقبلية حوارا ومعاشا، وبالتالي ما يمكن أن يدرج على بساط البحث وما لا يمكن، حتى لا يتحول فضاء الحوار إلى أرضية للمجاملات أو ساحة لمعركة فكرية.

وأرى أنه يتوجب على العلماء المسلمين أن يشرحوا العقيدة الإسلامية بصورة شمولية بحيث لا يكفي ولا يصح الاقتصار على القضايا المتفق عليها، إذ مجرد ذكر «المتفق عليها» يعني أن هنالك ما لا نتفق عليه. فلا يصح الحديث عن حالة العلاقة بين المسلمين وغيرهم بمعزل عن الأطروحات العقدية والفقهية وكأن العلاقات منقطعة عن الرؤى المعرفية. وكلنا يعلم أن مجتمعاتنا متدينة أصلا، وهنالك صحوة إسلامية جديدة، ويتبع هذا وذاك حضور قوي للدين في كل مجالات الحياة، فلا يصح الطرح الإختزالي أو خطاب المجاملات.

وسأفترض في هذا البحث أن المشكلة معرفية، مع أن الأدبيات الإسلامية في هذا الموضوع لم تترك شاردة ولا واردة!.فإذا كانت المشكلة معرفية وتنم عن جهل بالتصور الإسلامي، فالحل يكمن في عرض بعض النصوص القرآنية والحديثية فيما يتعلق بقضية الكفر، قال جل وعلا: (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية)[5] وهنالك غيرها من الآيات.. وثبت في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أهل النار».

وقد تكون لخلفيات بعض المشاركين المسلمين في قنوات

---

[1] سورة الإسراء آيه ٧٠

مع أن الذين يحافظون على الخصوصية الدينية ليسوا أقل مطالبة بالحقوق الوطنية، بل الذي يحافظ على الأولى أولى بالحفاظ على الثانية، بل هذه من تلك. وعلى الصعيد الداخلي فإنه لا يوجد ارتباط عضوي ما بين الحفاظ على الخصوصية الدينية وبين إشكاليات التعايش، بل على العكس من ذلك، فإن فصلدينية الخطاب، في المحصلة النهائية، وبال على المجتمع ككل. ومع أن الحوار مع المسيحيين أو غيرهم ليس حكرا على علماء الشريعة المتخصصين، والذين ليس لأحد منهم العصمة، إلا أنه بات من الواضح ان كثيرا من الذين يتحدثون بإسم الإسلام في أطر الحوار معروفون بانتماءاتهم الفكرية وولاءاتهم الحزبية التي أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها ابتعدت كثيرا عن الرؤية الإسلامية. ومن المشاركين مسلمون لهم مراكز إجتماعية وسياسية وأكاديمية مرموقة ولكن بضاعتهم في الدراسات الإسلامية مزجاة، أقحموا في قضايا الحوار وهي ليست صنعتهم. وهنالك شريحة محاورين جدد، ينتمون إلى مؤسسات لها صبغة رسمية أو علاقة مباشرة مع نظام الحكم، تعكس مفرداتهم وأطروحاتهم فيما يمكن تسميته بالسياسة الرسمية! وهذه الظاهرة الأخيرة، والتي برزت في أكثر من دولة عربية وإسلامية، جاءت كرد فعل للاتهامات بالتطرف والأصولية والإرهاب، وخصيصا بعد أحداث ١١ سبتمبر المؤسفة في الولايات المتحدة الأمريكية. وخلاصة القول أنه نتج عن مثل هذا التنوع خليط عجيب من الأطروحات والمواقف، وكم هائل من المعلومات اختلط فيها الحابل بالنابل.

وقد انتبه الدكتور حمزة ذيب إلى وضع شروط للمحاور الإسلامي لمهمة الحوار والتي اعتبرها جليلة، فكان أول شرط «أن يكون متضلعا في علوم الشريعة الإسلامية» والشرط الرابع «أن يكون قويا في دينه ملتزما بشرع الله الحنيف» والشرط السابع «أن يعرف بالمحافظة والالتزام بثوابت الدين الحنيف وقضايا أمته المعاصرة». وأما بقية الشروط فتتعلق بشخصية المحاور ومعرفته بالتاريخ وثقافة العصر والقدرة على المواءمة بين الأصالة والمعاصرة.[٧] وشرط الجاهزية العلمية والمعرفة بالإسلام ووضوح الرؤية ظاهر في قوله تعالى:

الحرية الدينية

إنه مما لا شك فيه أن الحرية الدينية تقع في أوائل المطالب والحقوق وهي مقدمة العيش المشترك. والمؤكد هو أن العيش المشترك لا يعني التنازل عن المعتقدات، فلكل من المسلم وغير المسلم أن يؤمن بما تمليه عليه عقيدته بمفرداتها، وهذا مما أكده القرآن الكريم في أكثر من موضع:

«لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ...»[٩]

«وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ»[١٠]

« وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ»[١١]

«وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ..»[١٢]

«لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ»[١٣]

ولو كان هنالك إكراه، لا سمح الله، لما عاش المسيحيون واليهود مع المسلمين جنبا إلى جنب حتى يومنا هذا، ولاختفى هؤلاء من الفضاء الإسلامي منذ زمن بعيد، وما عرف التاريخ الإسلامي محاكم تفتيش، ولا استأصل شأفة الآخر من دولته كما حدث لليهود والمسلمين في إسبانيا على يد فرديناند وإيزابيلا. وهذه الآيات السابقة تؤصل لمجتمع التعددية وإمكانية العيش المشترك مع وجود الإختلاف العقدي بين أبناء المجتمع الواحد. ومن المعلوم للقاصي والداني أن أهل الكتاب شاركوا في بناء الحضارة الإسلامية، وقد كان لهم دور ريادي في حركة الترجمة والتي تعتبر رافدا للحركة العلمية، بل شرطا مسبقا لها، في عصور العلم الذهبية. وقد كان منهم العلماء وموظفو الدولة الكبار من وزراء وسفراء، في مجتمع كان ولا يزال يحث جميع أفراده على المشاركة بما ينفع الناس. ومن نماذج العيش المشترك التي لم يخل منها التاريخ الإسلامي، يشهد النموذج الأندلسي ما قبل ١٤٩٢ لإمكانية العيش المشترك بين اليهود والمسيحيين

---

[٦] إن ترجمة كلمة secularism إلى «علمانية» هي ترجمة مغلوطة، فالجذر ع-ل-م لا علاقة له بجذر المصطلح المترجم ولا بدلالاته اللغوية، فكما أنه يوجد فرق بين secularism و science (علم) في اللغات الأوروبية على مستوى الجذر والمعنى، فكذلك يجب أن يكون الحال في اللغة العربية، ومن هنا قمت بترجمة secularism إلى «فصلدينية» فهي في إحدى صورها تنادي بفصل الدين عن الدولة.

[٧] حمزة ذيب، «هل هنالك من ضرورة للحوار الإسلامي-المسيحي؟»، جريدة القدس، ص٢٣، ٢٨- ٨- ٢٠٠٤

[٨] سورة يوسف آيه ١٠٨

[٩] سورة البقرة آيه ٢٥٦

[١٠] سورة يونس آيه ٩٩

[١١] سورة هود آيه ١١٨

[١٢] سورة الكهف آيه ٢٩

[١٣] سورة الكافرون آيه ٦

والمسلمين وبصورة رائعة تعبر عن التكافل والتضامن. وأما في فلسطين، فقد شكلت العهدة العمرية، والتي لها أكثر من متن في كتب التاريخ وبفروق جوهرية،[١٤] حدثا فريدا من نوعه في تاريخ العلاقة بين الأديان، ولا زالت إيحاءاتها السياسية ماثلة أمامنا اليوم. ولعل من أهم ما فعله الخليفة العادل، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هو الامتناع عن الصلاة في كنيسة القيامة حفاظا على خصوصيتها، ويا ليت هذا النموذج هو الذي يطبق على المسجد الأقصى والإبراهيمي وغيرهما اليوم. ولا يفكر أحد بإمكانية السلام مع هذا الوضع إلا ساذج، وكما عنون هانس كونج، اللاهوتي الكاثوليكي المعروف، لخاتمة كتاب «المسيحية وديانات العالم» بالعنوان التالي: «لا سلام عالمي دون سلام ديني»[١٥].

وقد وجدت أن بعض المستشرقين، مثل و. مونتغمري وات، ينسب عدم الاضطهاد والبحبوحة التي تمتع بها أهل الكتاب تاريخيا في الدولة الإسلامية إلى الخليفة بشكل شخصي حتى لا يؤثر عنه الظلم[١٦]، لا أن تلك الحالة تعكس الرؤية الإسلامية، وأنه من واجب الخليفة أن يعامل أهل الكتاب بما يمليه عليه القرآن والسنة. بل إن القرآن الكريم قد ذهب إلى أبعد من هذا إذ مهد لمجتمع التعددية العرقية والثقافية، قال تعالى:

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ»[١٧]

واعتبار التنوع العرقي واختلاف اللغات آيات من عند الله -عز وجل- يدعو إلى الإحتفاء بهذا التنوع وبحرم التمييز بناء عليه. وقد جاءت السنة النبوية لتؤكد هذه المعاني، ففي مسند الإمام أحمد أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى...»[١٨]

ومن المهم أيضا التأكيد على أن العيش المشترك ليس رهينة أي فكر وافد أو أنموذج مستورد! فإذا كان الغرب قد وصل إلى حيث هو حضاريا عن طريق فصل الدين عن الدولة لفسح المجال أمام الحركة العلمية في أوروبا، أو تحييد الدين واختزاله وحصر دوره في حياة الفرد الروحية وترك الحياة العامة للعقل المحض أو هوى النفس، فإن الحضارة الإسلامية لم تعرف مثل هذا الفصل ولا السياق التاريخي الذي أدى إليه، ووصلت إلى ما وصلت إليه برؤية وروح ونظام وقوة دفع مبعثها جميعا الدين الإسلامي نفسه، فتحرك المسلمون في دائرة الشهود الحضاري وتحرك العالم معهم.

يظل الناتج الآخر للفصلدينية، وهو منظومة قيم لادينية، الثمن الباهظ الذي تدفعه هذه المجتمعات، والقيم الجديدة نسبية متغيرة لا تبقي ولا تذر! وأصبحت القضية قانونية أو ممنوعية الفعل، بدلا من الحل والحرمة، ويكفي في هذا وجود أغلبية في المجالس النيابية فيصبح الحلال حراما، والحرام حلالا. فقد حلت مركزية الإنسان محل مركزية الله - جل وعلا- منذ عصر التنوير الأوروبي والذي أعلن موت الإله على لسان نيتشه في كتابه «هكذا تكلم زرادشت»، وسادت الفصلدينية كأنموذج لصياغة كل رؤية وقانون وقيمة.

وأضرب مثالا على أثر الفصلدينية وهو التغير في مفهوم الأسرة والتي أصبحت مكونة من أي شخصين بغض النظر عن جنسهما، ذكر وأنثى، ذكرين، أو أنثيين! وقد أصبح بالإمكان قانونيا الزواج بين الشاذين من مثيلي الجنس، في مكاتب تسجيل الزواج الحكومية، ولهم نفس الحقوق كالأسرة الطبيعية. وقد طال هذا التغيير المؤسسات الدينية فأصبح الكنيس اليهودي الإصلاحي وبعض الكنائس البروتستنتية يعقدون قران ذكرين أو أنثيين. وقد قمت في الأصل بكتابة بعض التفاصيل لمواقف بعض المؤسسات الكنسية تجاه هذه المسألة، ولكني تركتها مخافة أن يتسبب ذلك في خلق صور نمطية جديدة أو تعزيز القديمة منها. والقصد من الحديث عن هذا المثال تبيان أن الفصلدينية أدت في نهاية المطاف إلى تغير في عقلية الناس ومنهم كثير من رجال الدين المسيحي واليهودي الذين بدلا من الوقوف أمام هذا التيار استسلموا له وأضفوا عليه المشروعية، هذا مع وجود تيار في أوساط اليهود والمسيحيين يعارض الإنحلال الخلقي والشذوذ الجنسي وهذا بناء على أن الموقف الأصلي في العهد القديم هو ضد مثل هذا الشذوذ:

«وإِنْ ضاجعَ أحدٌ ذَكَرًا مُضاجعةَ النِّساءِ فكلاهُما فعَلا أمرًا مَعيبًا فليُقتَلا ودَمُهُما على رأسَيهما.» سفر اللاويين: ٢٠:١٣

وأما في العهد الجديد فقد ورد في رسالة بولس الأولى إلى أهل قورنتس (٩:٦-١٠) النص التالي:

«أما تعلمون أن الفجار لا يرثون ملكوت الله؟ فلا تضلوا، فإنه لا الفاسقون ولا عباد الأوثان ولا الزناة ولا المخنثون ولا اللوطيون ولا السراقون ولا السكيرون ولا الشتامون ولا السالبون يرثون ملكوت الله»

ومن هنا فإنني أدرك تماما تبعات زحزحة الوعي الديني على منظومة الأخلاق، وهكذا تتقدم الرموز المادية وعلى رأسها الرموز الجنسية بحيث أصبح لها حضور قوي، لا أقول في الفضائيات فحسب، بل في الفضاءات كلها بلا استثناء ويساعدها في ذلك تطور هائل في

[١٤] أنظر موسى البسيط، العهدة العمرية بين القبول والرد (القدس:٢٠٠١)، والدكتور البسيط أستاذ علم الحديث في جامعة القدس.

إن لعلاقات الإنسان مجالات عدة أعلاها علاقة الإنسان بالله -عز وجل-، وعلاقته بنفسه وعلاقته بأخيه الإنسان، ومن ثم علاقته بالبيئة وبالكون استخلافا واستعمارا وارتفاقا. وهذه المجالات ليست منقطعة عن بعضها البعض، بل إن العلاقة مع الله، ضمن النظرة الإسلامية للإنسان والكون والحياة، هي التي تحدد طبيعة العلاقة مع كل ما عداه.

ومن هنا، فقد رسم القرآن الكريم والسنة النبوية صورة للعلاقة مع اليهود و المسيحيين كأهل كتاب وكذميين، ومن الواضح أن العلاقة على مستوى العقيدة فيها اعتراف وإنكار، فعلى سبيل المثال هنالك إيمان بنبوة المسيح (عليه السلام) وإنكار لألوهيته. وحددت الشريعة الإسلامية ضوابط للعلاقات الإجتماعية وما يترتب عليها مثل الرضاعة والزواج، وهم في هذا لهم ما لليهود تماما وعليهم ما عليهم، ومع أن الفقه اليهودي (الهلاخاه) قريب إلى الفقه الإسلامي في بعض القضايا (حرمة لحم الخنزير مثلا) إلا أن الخطاب القرآني قرب النصارى وأبعد اليهود على المستوى السياسي والمعنوي:

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ»[19]

ويبقى السؤال: هل هذا الخطاب متعلق بحقبة تاريخية معينة، وهي سنوات البعثة، أم أن هذا الخطاب يدخل في باب «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»؟

وقد كانت الدولة الإسلامية حصنا يحمي المسلمين واليهود والمسيحيين من أن يعتدى عليهم من الخارج، وضابطا من الداخل، وخصيصا في المحافظة على الطابع الأخلاقي للحياة العامة التي تحكمها الشريعة الإسلامية. وقد ساد الأنموذج الذمي في العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب أولا، ثم ظهر نظام الملة زمن الحكم العثماني في فترة متأخرة. ويرى بعض المفكرين المسلمين المعاصرين مثل زعيم حزب النهضة التونسي الغنوشي في «حقوق المواطنة في الدولة الإسلامية» أن مفهوم المواطنة يحل محل نظام الذمة، ويشاركه في ذلك فهمي هويدي في كتاب «مواطنون لا ذميون».

ومع أن القرآن الكريم استخدم لفظ «ذمة» مرتين كما في الآيات التالية:

إلا أن ربط المصطلح بأهل الكتاب المعاهدين ورد في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يؤكد فيها على حقوقهم كما في الأحاديث التالية: «من آذى ذميا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله»[21] عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل نفسا معاهدا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما.»[22]

والذمة تأتي بمعنى العهد والأمان والضمان والحرمة والحق، وقد بينت الأحاديث حرمة إيذاء الذمي، وهذا ينسحب على الجوانب المادية والمعنوية. والقرآن الكريم يجعل العلاقة مع الذمي على مستوى «البر»:

«لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ»[23]

وكل من يعرف لغة الضاد، يعرف أيضا أن «البر» ارتبط بالمعاملة الحسنة للوالدين ولا يوجد علاقة أفضل منها للوالدين وإلا لأمر القرآن بها. ولهذا فأن تكون العلاقة مع الذمي مرتبطة بنفس مفردات العلاقة مع الوالدين هو غاية في التكريم. ولذلك فإن الحساسية المفرطة تجاه التسمية بالذمي غير مبررة، وفي بعض الحالات، كبعض مواقع شبكة المعلومات التي تدعي أنها تتابع الظاهرة «الذمية» في العالم الإسلامي، فإنها تنطوي على سوء نية مبيتة والهدف من وجودها هو تشويه سمعة المسلمين وتعزيز الصورة النمطية السلبية عنهم، وبث المعلومات المغلوطة عن الإسلام، ودفع غير المسلمين في الغرب على وجه الخصوص حتى يعانوا من الرهب أو الخواف الإسلامي (الإسلاموفوبيا) لإيجاد حالة من الريبة التي تمنع العلاقة الصحية بين الإسلام والغرب، وحتى لا يستقر للمسلمين في الغرب حال.

ويبقى هنالك بعد آخر في العلاقة مع الكتابيين، وهو العهد الذي بيننا وبين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذ ظل يوصي بهم خيرا، وهذه قضية تدين خاصة بالمسلم ليس له أن يكون في حل منها، ولكن لا مشاحة في الأسماء، فله أن يعبر عنها بالصورة التي ترضيهم ولا بأس في ذلك، فعن ابن عمر أنه قال: «كان آخر ما تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم: احفظوني في ذمتي».

---

[19] سورة المائدة آيه ٨٢

[20] سورة التوبة آيه ٨-١٠

[21] رواه الطبراني بإسناد حسن.

[22] رواه البخاري، كتاب الديات. برقم ٦٤٠٣

[23] سورة الممتحنة آيه ٨

المستأمن

والمستأمن هو الأجنبي، أي ليس من أبناء البلد، والذي لا يحمل جنسية أو تابعية الدولة الإسلامية، ويريد أن يعيش فيها بصورة مؤقتة، طالت المدة أو قصرت، وقد يكون مسيحيا أو يهوديا. و بلغة العصر، هو الذي يحصل على تأشيرة (فيزا) للدخول والإقامة. هذا الإنسان محمي حتى لو كان أصلا من قوم بينهم وبين المسلمين عداوة، وإنما تنوب مؤسسات الدولة، مثل السفارات، عن المسلمين في إعطاء التأشيرة، أي عقد الأمان، وليس للمسلمين أن يخلوا بمثل هذا العقد، فلا يحق لهم أن يؤذوه بأي صورة من الصور، حتى ولو كانت سياسة دولته تؤذي المسلمين. ويجب اعتبار أن حالة العداء مؤقتة، وأن ليس كل المواطنين في الدول الغربية يدعمون السياسات الخارجية العدائية لدولهم، فالكثير من الناس في الغرب يخرجون في مظاهرات احتجاجا على تلك السياسات.

وكما أن بعض الكنائس في الغرب تسمى بالكنائس المسيحية الصهيونية وتدعم الاحتلال الصهيوني لفلسطين، هنالك كنائس غربية لها مواقف مبدئية ضد الحرب والعنف مثل كنيسة الكويكرز، وقد دعت الكنيسة الأنجليكانية إلى الاعتذار إلى المسلمين عن الحرب على العراق.

إن معاملة المستأمنين بالحسنى تؤتي ثمارها ولو بعد حين، فقد يصبح الأجنبي سفيرا للنوايا الحسنة نيابة عن المسلمين من تلقاء نفسه، وقد رأينا منهم من يدافع عن قضايانا السياسية وينافح عن الإسلام، بل ويحمي المسلمين في بلاده حينما يتطلب الأمر ذلك، وهو ليس مسلما.

والأصل أن أي مسلم بإمكانه أن يعطي الأمان كما ورد في إجارة «أم هانئ» لمشرك. وهذه القضايا تحكمها اليوم اتفاقات وقوانين دولية، وليت القوانين الدولية تطبق على جميع الدول، وتساوي بينها دون ازدواجية في المعايير، وهذا لا يتسنى إلا بإصلاح المؤسسات الدولية مثل الأمم المتحدة، وبجعلها ديمقراطية حقا، وذلك بإلغاء إمتيازات الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن، وإلغاء حق النقض «الفيتو» والعمل على إيجاد نظام يحترم التعددية الثقافية في العالم ويضع آليات لتطبيق القرارات بدون تمييز.

العلاقة على مستوى العقيدة

إن الإسلام هو خاتم الرسالات السماوية وقد جاء مؤكدا على رسالة التوحيد التي حملها كل الأنبياء والرسل:

«وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ . . .»[٢٤]

«مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ . . .»[٢٥]

والإيمان بجميع الرسل جزء من عقيدة المسلم:

«قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»[٢٦]

وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أخوة الأنبياء ورسالتهم الواحدة في الحديث الذي رواه البخاري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم: (أَنَا أَوْلَى النَّاس بِعِيسَى ابْن مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ)

ومن الأحاديث ما يبين تكامل العلاقة بين الأنبياء، اي بين ما أتوا به من نفس مشكاة الوحي، وهو أيضا حديث رواه البخاري، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ)

وهذا الحديث يبين عمل الأنبياء وجهدهم التراكمي المبارك في تحضير البشرية للرسالة الخاتم المكملة لكل الرسالات السابقة، ومن الملاحظ أن عمل كل الأنبياء كان في نفس المشروع، البيت الواحد حسب الحديث، والذي كمل بالإسلام. وقد ذكر القرآن الكريم مسألة إكمال الدين، قال تعالى:

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً . . .»[٢٧]

الإسلام دين الأنبياء

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الإسلام هو دين الأنبياء من قبل، وقد ورد في القرآن الكريم عدة آيات تبين هذه الرابطة القديمة، أي إسلام الأنبياء، وكذلك إسلام ذرياتهم وأقوامهم الذين اتبعوا الوحي الذي أنزل إليهم قبل أن يصيبه التغيير:

«إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَابِ اللّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَاء . . .»[٢٨]

---

[٢٤] سورة النحل آيه ٣٦

إسلام إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوبعليه السلام

«وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ؛ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ؛ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ؛ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»[30]

«مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»[31]

إسلام سليمان عليه السلام وملكة سبأ

«فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ؛وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ؛ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»[32]

إسلام موسى عليه السلام

«وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ»[33]

إن الدين عند الله الإسلام

وبعد بيان أن دين الأنبياء جميعا هو الإسلام، كما ورد في القرآن، وأكده الحديث الشريف، يعتبر بيان أن الدين عند الله الإسلام منسجما مع ما سبقه من المقدمات، وهو الدين الحقيقي وهو أمر

«فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»[38]

وفي هذه الآية إشارة إلى توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وإلى واجب دعوة غير المسلمين.إلى الإسلام وهذا يتضمن دعوة أهل الكتاب، وأنهم إذا لم يؤمنوا فأمرهم إلى الله:

«وَإِن جَادَلُوكَ فَقُلِ اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ اللّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»[39]

العلاقة مع العقائد اليهودية

يقرر القرآن الكريم وقوع تحريفات للكتب السابقة، ويورد في قصص بني إسرائيل مواقف لا تتفق والتوحيد مثل صناعة العجل وعبادته:

«وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لاَ يُكَلِّمُهُمْ وَلاَ يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَالِمِينَ»[40]

---

[29] سورة يونس الآيات ٧٢-٧٣
[30] سورة البقرة الآيات ١٣٠-١٣٣
[31] سورة آل عمران آيه ٦٧
[32] سورة النمل الآيات ٤٢-٤٤
[33] سورة يونس آيه ٨٤
[34] سورة آل عمران آيه ١٩
[35] سورة آل عمران آيه ٨٥
[36] سورة المائدة آيه ٣
[37] سورة الأنعام آيه ١٢٥
[38] سورة آل عمران آيه ٦٤
[39] سورة الحج آيه ٦٨-٦٩
[40] سورة الأعراف آيه ١٤٨

وفي سورة طه، حينما عاتبهم موسى عليه السلام لنقضهم العهد بعبادتهم العجل:

«قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ؛ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ »[41]

وكذلك دعواهم أن العزير ابن الله، وقد يراد بذلك إيمان بعضهم في مرحلة تاريخية معينة:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ...»[42]

ومما لم يرد في القرآن الكريم من عقائدهم التي لا تتفق مع التوحيد استخدامهم لصيغة الجمع في مخاطبة الله تعالى فيقولون «إلوهيم» أي آلهة، ويؤمنون بأن لله عز وجل تجسد أنثوي سموها «شخينة»، ويؤمن كثير منهم أن الروح تتناسخ، أي تحل في آدمي آخر من بعد الموت.

الإسلام والعقائد المسيحية

المسيح ومريم (عليهما السلام)

بين القرآن الكريم أن المسيح (عليه السلام) هو كلمة الله إلى مريم (عليها السلام) التي اصطفاها على نساء العالمين، وهي المرأة الوحيدة التي ذكر اسمها في القرآن وسميت سورة باسمها، وهذا تكريم من الله -عز وجل- لها ولابنها (عليهما السلام) الذي كان آية من آيات الله -عز وجل-خلقا وابتداء وتثبيتا ورفعا:

«وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ؛ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ؛ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ؛ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ »[43]

«ألوهية» المسيح و «بنوته» لله

وقد وضح القرآن الكريم أن ولادة المسيح (عليه السلام) بلا أب ليست سببا للقول ببنوته لله عز وجل وأن القول ببنوته لله أو بألوهيته كفر بواح:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ»[44]

« لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...»[45]

وقد ضرب القرآن الكريم آدم عليه السلام مثلا، فخلقه آية ولم يكن له أب ولم تكن له أم:

«إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ»[46]

ويقارن القرآن الكريم بين خلق البشرية كلها وخلق الكون، حتى يتواضع الإنسان، فقد يغيب عنه أنه يتعامل مع قدرة الله الخلق البارئ المصور:

«لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»[47]

«الثالوث»

ولم يقتصر القرآن الكريم على رفض البنوة والتأكيد على عبودية المسيح (عليه السلام)، بل ذهب إلى رفض عقيدة الثالوث:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً؛ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً»[48]

---

[41] سورة طه الآيات ٨٧-٨٨

[42] سورة التوبة آيه ٣٠

[43] سورة آل عمران الآيات ٤٢-٤٥

[44] سورة التوبة آيه ٣٠

[45] سورة

بين «الصلب» والرفع

«وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً ؛ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيما»[٥٠]

الإنجيل

وقد أوحى الله-عز وجل- إلى المسيح (عليه السلام) كتابا هو الإنجيل:

«ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ»[٥١]

والإيمان بالإنجيل الأصلي واجب، وهو واحد لا غير، وهو غير الأناجيل الأربعة (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) التي إختارها مجمع نيقية عام ٣٢٥ للميلاد، وقد لفت نظري خطاب بعض العلماء والمفكرين المسلمين في تعاملهم مع إنجيل برنابا وكأنه هو الأنجيل الأصلي، والحقيقة أنه يحتوي على مخالفات عقدية أيضا! وعلى كل فإن علاقة القرآن الكريم بما سبقه من الكتب تبينها الآية التالية:

«وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ عَمَّا جَاءكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَاء اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ»[٥٢]

وقد شرح إبن كثير معنى «ومهيمنا» فقال أن القرآن الكريم:

«أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع

الحوار الديني

إن الحوار الديني، على الرغم من الشكوك التي تثار حوله، واجب على العلماء المسلمين على وجه التحديد، إذ يشترط العلم في المحاور كما تقدم، ويضاف إلى ذلك التحلي بأدب الحوار كما تبين الآيات التالية:

«قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ»[٥٤]

«وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»[٥٥]

ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ»[٥٦]

وتظل هنالك إشكالية أن زمام المبادرة قلما يأتي من المسلمين، وأن هنالك قلة من المؤسسات الإسلامية التي ترعى الحوار، وهذا يعكس حالة الشك أو اعتبار هذه القناة غير مجدية. ولعله من الواجب التحذير من وجود أطر للحوار الديني التي تهدف إلى التطبيع السياسي، بمعنى الوصول إلى تنازلات سياسية على حساب المسلمين أو الحصول على بيانات ختامية لا تقر بجذور المشكلات السياسية، مثل احتلال بلد مسلم مثلا، ولا تذكر حقوق المظلومين، بل تساوي بين الجلاد والضحية.

حوار الحضارات

إن الأصل في العلاقة مع الشعوب الأخرى هو السلم، وغير ذلك هو حالة استثنائية، وليس في صالح البشرية استنزاف مواردها في الحروب. ويدرك كل عاقل أن الواجب الأخلاقي يكمن في إعلان الحرب على الفقر والمرض والأمية. وقد

---

[٤٩] سورة المائدة آيه ٧٣

[٥٠] سورة النساء الآيات ١٥٧-١٥٨

[٥١] سورة الحديد آيه ٢٧

[٥٢] سورة المائدة آيه ٤٨

[٥٣] إبن كثير، تفسير القرآن العظيم (بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨) ج٢، ص٦٢-٦٣

[٥٤] سورة آل عمران آيه ٦٤

[٥٥] سورة العنكبوت آيه ٤٦

[٥٦] سورة النحل آيه ١٢٥

بين القرآن الكريم أن التعارف بين الشعوب هدف يجب أن نسعى إليه:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ»[٥٧]

والتعارف ليس مسألة شكلية، بل يتطلب التعاون في مجالات الخير. ومن هنا فإن تقسيم العالم إلى دار إسلام ودار حرب أو دار عهد بصورة مطلقة، هو بناء معرفي لاحق. نعم، إذا اعتدت دولة أجنبية على الدولة الإسلامية تكون تلك الدولة في حالة حرب، ولكن لا يمكن اعتبار كل أرض لا يحكمها الإسلام دار حرب. فبالإضافة إلى العلماء الذين قسموا العالم بناء على معيار العقيدة، نقل فهمي هويدي معيارا غير العقيدة الإسلامية في تصنيف دار الإسلام، فعن كتاب وهبة الزحيلي «العلاقات الدولية في الإسلام» نقل اعتبار الأحناف توفر عنصر «الأمان» هو الفيصل، فإذا توفر فيها الأمن للمسلم فهي دار إسلام، وإن لم يأمن فهي دار حرب.[٥٨] وبالإضافة إلى تصنيف دار عهد، فإن هنالك من صنف غير دار الإسلام، حين تضع الحرب أوزارها، كدار دعوة، ولعلي أضيف «دار حوار» كأنموذج يناسب السياق الموجود اليوم.

ولهذا السبب، فإن أطروحة صراع الحضارات التي جاء بها صامويل هانتنجتون مرفوضة. وللأسف الشديد، قام بعض المسلمين بتدوير أطروحة هانتنجتون وإعادة تقديمها بثوب إسلامي على أنها مقبولة، وهذا يخالف ما جاء به الإسلام ويدل على إشكالية قبول صحة كل ما يجيء به المثقف الغربي وسذاجة من يجعل من نفسه ببغاء معرفيا يردد أقوال غيره دون أن يفهمها، وإنما هي أطروحات نهاية الحرب الباردة والتي تبحث عن عدو بديل. بل إن هناك من المثقفين الغربيين من يرفض أطروحة هانتنجتون ويرى فيها محاولة للقفز على المشكلات الحقيقية التي أوجدتها سياسات الدول الغربية من احتلال مباشر وسياسات اقتصادية تعمل على إفقار دول الجنوب! ولهذا فإننا نرفض أطروحة الصراع الذي يقوم على الإختلاف الثقافي، مع الإقرار بوجود تحديات وتدافع بين الحضارات، فلا تزال رؤية تنافس أخرى، ولا زال في تطلع المسلمين إلى الشهود الحضاري عزم وإرادة، وإصرار وتصميم، ونية صادقة لإنقاذ البشرية مما هي فيه! ومن هنا لا نرى تماهيا كاملا مع الأطروحات الوافدة ولا زال لمفردات النظرة الإسلامية للإنسان والكون والحياة القوة على دحض أطروحة أخرى، هي أطروحة فرنسيس فوكوياما عن نهاية التاريخ، ويعني بهذا انتصار الأيديولوجية الرأسمالية-الليبرالية الغربية، فالتاريخ لم ينته بعد!

وهنا يجب الفصل بين «مسيانية» السياسة الخارجية الأمريكية، ومن خلفها من المحافظين الجدد وارتباطهم بالمسيحية المتصهينة، وبين المسيحيين العرب الذين لا علاقة لهم بكل هذا إلا من ارتضى منهم أن يرتمي في أحضان الغرب، تماما كالمسلمين الذين يدعمون السياسات الظالمة واحتلال البلاد الإسلامية. وكذلك يجب عدم تعميم الموقف هذا على جميع الكنائس المسيحية في أمريكا، فشتان ما بين الأصولية المسيحية المتصهينة الداعمة للحرب من جهة، وموقف اللاعنف الذي تتبناه كنيسة الكويكرز من جهة أخرى، على سبيل المثال لا الحصر.

وكما أن المسيحيين العرب ليسوا مسؤولين عن تصرفات المسيحيين الغربيين الداعمين للحرب اليوم، فإنهم أيضا ليسوا مسؤولين عن حروب الفرنجة والتي اشتهرت بالصليبية. وإنني أعلم أن المسيحيين العرب يتضايقون من تسميتها بالصليبية. وقد أجريت بحثا على شبكة المعلومات لمعرفة عدد المرات التي استخدمت فيها «الحروب الصليبية» في مقابل «حروب الفرنجة» بالعربية والإنجليزية، فوجدت أن هنالك ٣,٣٦٠ موقعا استخدم «الحروب الصليبية» في مقابل ٣٢٧ مرة «حروب الفرنجة»، وفي اللغة الإنجليزية أكثر من نصف مليون موقع استخدم Crusades في مقابل ٧٤,٣٠٠ مرة Wars of the Franks.[٥٩] وهي بالضبط مثل اصطلاح «الحجاب»، فالتسمية الصحيحة في القرآن الكريم لغطاء الرأس هو «الخمار»، ولكن اشتهرت التسمية الأولى وطارت في الآفاق!

العيش المشترك

«لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ؛ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»[٦٠]

فالخلاف العقدي مع أهل الكتاب لا يؤثر على إمكانية العيش المشترك. وكيف لا يكون هنالك عيش مشترك وطعام أهل الكتاب حل للمسلمين والعكس صحيح، وكذلك فالمسلم ينكح المحصنات من أهل الكتاب فيكون أخوال أولاده من أهل الكتاب، وغير هذا من المعاملات المشروعة مما لا يتحقق إلا في سياق العيش المشترك.

وقد انعكس الأنموذج المثال على واقع العلاقات الإسلامية-المسيحية تاريخيا في أكثر من مكان وزمان، وكان لهذه العلاقات

---

[٥٧] سورة الحجرات آية ١٣

للحرمات. وهذا الموقف، للمقارنة، هو على العكس تماما من حمام الدم الذي وقع على يد الفرنجة، وهم الذين في طريقهم إلى الأرض المقدسة قام بعضهم بذبح الجماعات اليهودية التي سكنت في وادي الراين إنتقاما ل «موت المسيح» كما يؤمنون، كما ذكرت كارين آرمسترونج. وقد بينت أنهم كانوا يعتقدون أنهم، أي المسيحيين الفرنجة، شعب الله المختار وأنه يقودهم إلى الأرض المقدسة كما قاد بني إسرائيل من قبل، ولذلك حينما دخلوا بيت المقدس في صيف ١٠٩٩ ارتكبوا مجزرة ذبحوا فيه سكان المدينة من اليهود والمسلمين بحماسة يوشع (بن نون حينما ذبح أهل أريحا عن بكرة أبيهم وقتل حيواناتهم ودمرها بصورة تامة، ولم يبق على أحد سوى العاهرة التي ساعدتهم في دخولها ومن استحيت!)، وببشاعة هزت معاصريهم.[٦١] ويبدو أن بعض علماء الآثار اليهود الإسرائيليين يرفض هذه الأسطورة التوراتية ويعتبر أن زمن تدمير أريحا هو غير الزمن الذي دخل فيه يوشع بن نون الأرض المقدسة، ولكنني أستطيع أن أتصور أثر هذه الأسطورة على من يعتقد بها!

وظل الأنموذج الإسلامي هو السائد في تاريخ المنطقة حتى مطلع القرن العشرين، فيما عدا زمن حروب الفرنجة. ومع أننا نتحدث هنا عن النظام السيادي الذي يمكن للأنموذج الإسلامي التنزل على أرض الواقع، إلا أن الظروف الموضوعية التي تحول دون تطبيقه لم تستطع اقتلاع هذا الأنموذج من النظام المعرفي الإسلامي، ولا أن تغيبه عن وعي المسلمين، ولا زالت ذاكرة المسلمين الجمعية، تزخر بحيثيات هذا الأنموذج السيادي، كما وأن النفوس المسلمة تواقة إلى ذلك النظام الذي يحميها ويحترم حقها في العيش بسلام، ويحترم خيارات الآخر العقدية ويحميه كما يحمي المسلم.

وقد تبدل الحال السياسي في فلسطين، ومهد الاحتلال البريطاني، المسمى بالانتداب، وسياسته الخارجية المتمثلة في وعد بلفور المشؤوم، لقيام دولة قومية لليهود على أرض فلسطين، ووقع أهل فلسطين من المسلمين والمسيحيين تحت والكون والحياة، والتي تمت بلورتها في زمن السيادة الإسلامية والتي استمرت في وجودها حتى نهاية الخلافة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين. وقد أباح غيابها فرض أنظمة معرفية وافدة ترجمت إلى دول قطرية، ورؤى قومية، وفصلدينية الفضاءات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، مما أدى إلى حالة من التشرذم أفسحت المجال أمام تغيير مكانة الدين الإسلامي، أو بالأحرى تحييده واختزاله في كثير من الأحيان إلى الأحوال الشخصية، وحتى هذه الأخيرة لم تسلم من محاولات التغيير. ولهذا فإن مقولة «الإسلام مصدر التشريع» أو أن «دين الدولة هو الإسلام» في الدساتير المعاصرة لا تحمل على محمل الجد، وهو خطاب في أغلبه ذر للرماد في العيون.

وقد غفل الباحثون في هذا المضمار عن الجانب السيادي في تشكيل الوعي المسلم، والذي يعني أن الخطاب الإسلامي، والذي لا يمكن أن يتبدل على المستوى العقدي، ظل حتى الآن يدفع باتجاه تغيير حال الأمة الإسلامية لعدم وجود إمكانية للمصالحة مع الرؤى التي ثبت تاريخيا ومعرفيا أنها تفرض نفسها كبديل للأنموذج المعرفي الإسلامي وبالتالي تحرم المسلمين من حرية الاختيار وتمنعهم من العيش بحسب القيم الموجودة في الشريعة الإسلامية، وهذا يظهر زيف الدعوات الليبرالية التي تنادي بالحرية والتعددية الثقافية والاعتراف بالآخر والتي سرعان ما تستثني الإسلام والمسلمين. وبات من الواضح أن هنالك عولمة للقيم، ومنها القيم المادية الاستهلاكية، وبما لا يتفق مع وجود رؤية إسلامية مطبقة على أرض الواقع، وأصبح الحديث عن المصالحة مع الوافد في هذا المجال هو تنازل يفت في عضد كل بناء معرفي إسلامي متكامل، ويؤدي إلى الجمع بين المتناقضات التي ستتدافع حتما، وفي هذا هدر لطاقات الأمة ومضيعة للوقت.

إن التأكيد على الهوية والأطروحات الإسلامية والإعتراف بها والتعامل معها ومع من يمثلها بجدية واحترام لهو أولى لحل مشكلات العالم الإسلامي، بل ولحل مشكلات العالم أجمع.

[61] Karen Armstrong, A History of God (New York: Ballantine Books, 1994) p. 197.

أسئلة للتقويم:

١. هل يمكن إختزال الحوار الديني إلى كل واحد؟ ما هي أهداف الحوار الديني؟ وما هي شروط المحاور المسلم؟
٢. ما معنى أن آخرية أهل الكتاب هي آخرية مخففة؟
٣. كيف يرى الإسلام العقائد المسيحية واليهودية كما هي عليه اليوم؟
٤. ما هي علاقة القرآن الكريم بالكتب السماوية السابقة؟
٥. ما هي أطروحة كل من هانتنجتون و فوكوياما؟ وما هي الإيحاءات السياسية لهما؟
٦. من وراء البعد «المسياني» في السياسة الخارجية الأمريكية الحالية؟

مراجع للقراءة:

١. حول واقع العلاقة الإسلامية المسيحية في فلسطين، تقديم جميل حمامي، باسيا، ١٩٩٩
٢. حوار إسلامي مسيحي في القدس، تقديم. مهدي عبد الهادي، باسيا، ٢٠٠١
٣. محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة
٤. النصرانية من التوحيد إلى التثليث، محمد الحاج
٥. غير المسلمين في المجتمع المسلم، يوسف القرضاو

مصطفى محمود يوسف أبو صوي

الدرجة العلمية: دكتوراه
الرتبة العلمية: أستاذ مشارك
تاريخ الولادة: ١٩٥٨/٢/٢١

المؤهلات العلمية

- حصل على شهادة الدكتوراه في «التطور في نظرية المعرفة عند الإمام الغزالي» قسم الفلسفة عام ١٩٩٣من كلية بوسطن، أمريكا
- حصل على شهادة الماجستير في الفلسفة عام ١٩٨٥ من كلية بوسطن، أمريكا
- حصل على شهادة البكالوريوس في الأدب الإنجليزي ودبلوم في التربية من جامعة بيت لحم عام ١٩٨٤

السيرة العملية

- أستاذ مشارك في الفلسفة والدراسات الإسلامية في جامعة القدس ١٩٩٦-٢٠٠٦
- مدير مركز الأبحاث الإسلامية في جامعة القدس من عام ٢٠٠٠-٢٠٠٦
- منسق برنامج ماجستير الدراسات الإسلامية المعاصرة في جامعة القدس من عام ٢٠٠٠-٢٠٠٢
- رئيس قسم الفلسفة في الجامعة الإسلامية العالمية في ماليزيا من عام ١٩٩٥-١٩٩٦
- أستاذ فلسفة ودراسات إسلامية في الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا من عام ١٩٩٣-١٩٩٦
- أستاذ دراسات عليا في المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية - في الجامعة الإسلامية العالمية - ماليزيا من عام ١٩٩٥-١٩٩٦
- أستاذ زائر (برنامج فُلبرايت)، جامعة فلوريدا الأطلسية- أمريكا من عام ٢٠٠٣-٢٠٠٤
- شارك في عدة مؤتمرات دولية

الإنتاج العلمي

١. نظرية المعرفة في الإسلام: الغزالي نموذجاً: باللغة (الإنجليزية)
٢. فتاوى الغزالي
٣. شارك في تحرير كتاب «Islam in Focus»، إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي
٤. حرر وشارك في تأليف كتاب التربية الإسلامية للصف السابع - وزارة التربية والتعليم الفلسطينية
٥. وشارك في تأليف كتاب التربية الإسلامية للصف الحادي عشر - وزارة التربية والتعليم الفلسطينية

اللغة العربية والحضارة الإسلامية

د. محمود أبو كته الدراويش*

تمهيد

اللغة هي السفر الذي يحوي حضارة الأمة، والمستودع الذي يستوعب ثقافتها وعلومها ومعارفها، وهي سجل عاداتها وحكمها وتجاربها، واللغة أداة تفكير الأمة، ووسيلة تعبيرها عن حاجاتها ومقاصدها، فهي ناقلة إرث الأجيال من الماضي إلى الحاضر فالمستقبل، بها يتفاهم أبناء الأمة فيما بينهم على مختلف ألوانهم وأماكنهم وأزمانهم، وهي معلم بارز من معالم هوية الناطقين بها، والمنتسبين إليها. وهي كما قال بعضهم: (إن اللغة مخزن لقيم الجماعة وأخلاقها وعواطفها وتاريخها ومواقفها من الآخرين، ولذلك يمكن إن نقول: إن اللغة هي القوم، وإن القوم هم اللغة)[1].

ازدهار العربية: من محدودية المكان إلى عالمية اللسان

أتى على العرب حين من الدهر من غير أن يكون لهم ولا للغتهم بين الأمم الأخرى صيت ذائع ولا ذكر شائع، وكان نصيب لغتهم من الازدهار والانتشار لا يتجاوز محيط الناطقين بها آنذاك، وهم مع ما كانوا عليه من سبق في البلاغة وبلوغ الغاية في الفصاحة، فقد كانت مجالات تعبيرهم بلغتهم لا تتجاوز إطار حاجات النفس البشرية، ودوافعها الفطرية، ونوازعها الغريزية.

فلما أرسل الله سبحانه وتعالى رسوله بالهدى ودين الحق، وأذن لأهل العربية بان يتولّوا شرف قيادة الأمم، وحمل لواء الريادة في مختلف ميادين المعرفة والعلم، عندها بادرت العربية إلى تبوء مكانة علية، ونزلت أشرف منزلة بين اللغات البشرية، وقد اختصها الله بكتابه الكريم، فكانت وعاء حاويا لمعجزته الخالدة، ولسانا ذاكرا لآياته الباقية، فشُرفت بشرفه، وهيمنت بهيمنته، وسادت بسيادته، ورادت بريادته، وتحصنت به أمام عاديات الزمن، وتمنعت بتمنعه أمام كل المحن، وهكذا فقد استوعبت العربية رسالة الأرض والسماء.

العربية في الفارسية

بدايات احتكاك العرب بالفرس

كان الفرس والروم أقوى دولتين على وجه الأرض عند ظهور الإسلام ولم يكن للعرب احتكاك بهم على نطاق واسع سوى ما كان من نشاط تجاري أو أحلاف ومعاهدات تبرم ما بين المناذرة والفرس، والغساسنة والروم، ولم يكد يمضي ربع قرن على بزوغ فجر الإسلام حتى شهدت كل من معركة القادسية واليرموك[2] نهاية حاسمة لرحى الحرب التي خاضها العرب المسلمون مع إمبراطوريتي فارس والروم، حتى إذا أفل نجمهما وزالت دولتهما سطع نجم الدولة العربية الإسلامية في دمشق منذ عام ٤١ هجرية حتى عام ١٣٢ هجرية مؤذنا بميلاد حضارة عربية إسلامية على أنقاض الحضارتين الرومانية والساسانية.

وبينما كانت راية الدولة الأموية تعلو خفاقة في بلاد الشام كان العباسيون قد اتخذوا من خراسان مقراً لدعوتهم السرّية، ومنبرا لدولتهم المستقبلية ومناصرين لهم من العناصر الفارسية ضد خصومهم من بني أمية.

أجل لقد استمال العباسيون العناصر الفارسية إلى جانبهم وقلدوهم الوظائف الرفيعة والمناصب العالية، ووالوهم وصاهروهم، وتأثروا بهم وأثروا فيهم، فاتسعت ظاهرة الاختلاط بين العرب والفرس وغدا تعلم العربية متطلبا أساسيا لكل فارسي يجد له موقعا في الدولة العربية الإسلامية الناشئة، فالعربية آنذاك هي لغة الدولة المسيطرة، ووعاء العقيدة المهيمنة، وعليه فقد أكب العجم من فرس وغيرهم على تعلم العربية وفقهها، وأخذوا منها كمّاً هائلا من المفردات التي أضافوها لقاموسهم اللغوي مما عمل على ازدهار العربية وانتشارها خارج نطاق الجزيرة العربية إلى الممالك الجديدة المفتوحة، والبلاد التي اعتنق سكانها الدين الإسلامي الجديد، وخاضت تجارب التعبير عن كل جديد مما استجد في أوساط الناطقين بها، ونقلت ما وعته لغات الأمم

---

* أستاذ مشارك في النحو والصرف/ جامعة بيت لحم (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] الحياة مع لغتين: محمد علي الخولي، السعودية، الرياض، ١٩٨٨، ص ١٠٨.

[2] الكامل في التاريخ: ابن الاثير، بيروت، دار صادر- ١٩٦٥م، ج٢ ص٤١٥ و ص٤٨٥.

المجاورين لأهلها، وتوارثت معارف الأمم السابقة، وحفظت علوم الأقوام الغابرة، وتحققت لها كل أسباب الازدهار والانتشار، لتصبح اللغة العالمية السائدة آنذاك، وليصير أمر تعلمها من غير أهلها من الطلبة متطلباً إلزاميا وواجبا شرعيا.

فمَهر في تعلمها وتعليمها والتأليف فيها وفي علومها أعلام مشاهير، استحوذوا من أهلها على كل إطراء وتقدير، وغدوا نجوما لامعين في سماء الحضارة الإسلامية والعربية كسيبويه في الكتاب، وابن خالويه في الإعراب، وأبي علي الفارسي في الشيرازيات، وتلميذه ابن جني في الخصائص، وابن سينا في الطب والخوارزمي في مفاتيح العلوم، والبخاري في الصحاح، وابن خلكان في وفيات الأعيان، وياقوت الحموي في معجمي الأدباء والبلدان، وقد عَبَر هؤلاء الأعلام من العلماء بالعربية إلى لغاتهم الأصلية من فارسية وتركية ورومية وحبشية، وفتحوا أبواب الفارسية والتركية على مصراعيها أمام العربية، فكان باب الإقراض والإقتراض، والتأثر والتأثير والأخذ والعطاء.

تراجع وانحسار

ولما استدار الزمن وطال على أهل العربية العمر وارتكنوا من بعد السيادة والريادة إلى الغفلة والغواية، فتحوا أعينهم بعد هذا السبات الطويل، فإذا بينهم وبين تلك الأمم بون شاسع وفرق واسع، مما أفضى إلى إحداث فجوة حضارية عارمة انعكست آثارها سلبا على جميع مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والعلمية والاقتصادية.

وقد كان الأجدر بالعقل العربي واللغة العربية أن يجابها هذا التحدي الحضاري معا وسواء بسواء، بيد أنه قد حيل بين هذه الأمة وبين إرادتها في التوجه الصادق نحو قبول هذا التحدي الحضاري وصده واحتوائه بعد سبر غوره، واستكشاف كنهه ليتاح لها ما أتيح للآخرين من أسباب القوة والمنعة والتقدم والازدهار بدلا من النكوص والانحسار.

أجل لقد ابتليت امتنا في مرحلة جمودها وخمودها وانحدارها وانحسارها بهيمنة قوى باغية طاغية مؤيدة بسلطان العلم والمعرفة، حتى إذا ما أدبرت هذه القوى غير بعيدة عنا، تركت فينا ومنا من أثار الشُّبهات، واستمراً الدعوات حول أسباب التأخر ودواعيه، فحمّلوا العربية ظلما مسؤولية تأخر أهلها، ووزر تخلف الناطقين بها عن ركب الأمم المتقدمة والشعوب المتحضرة.

ويا ليت قومي يعلمون أن هذا التحدي الحضاري المعاصر إنما هو موجّه إليهم قبل أن يوجه إلى لغتهم، وليتهم يقفون وقفة جادة على الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ذلك التخلف، فيبرئون لغتهم من مسؤولية هذا التأخر، وإني لذاهب مع الكاتبة نازلي معوض إذ تقول: (ليس هناك لغة متخلفة من حيث الأساس وأخرى متحضرة، وإنما هناك شعب متخلف وآخر متحضر، والشعوب المتخلفة تعكس نفسها على لغتها فتضعف وتنهار وبالعكس، فاللغة الصينية كانت قبل ثورة الصين عام ١٩٤٩م لغة متخلفة، ولكننا نجدها الآن قد تحولت إلى لغة حيث يستخدمها الصينيون في التعليم والبحث العلمي. والشيء نفسه يقال بالنسبة للغة اليابانية)[٣].

صراع اللغات واصطراع الحضارات[٤]

ما من لغة تحيا أو تعيش في منأى عن الأحداث التي تعيشها الأمة الناطقة بهذه اللغة، وما من لغة تبقى في عزلة من المؤثرات التي تؤثر في أهلها، وما من لغة دخل قومها في تحد حضاري مع الآخرين، أو صراع عسكري إلا وتركت لغتهم بصماتها الواضحات على ذلك الوسط الذي شهد تصارع الحضارات وتعارك الأمم، وعليه فإن اللغة تسود بسيادة أهلها، ويسيطر لسان الأمة كصدى لقوتها وسيطرتها، وتهون اللغة وتذوي بهوان أهلها، وهذه حقيقة برهانها قديم وحديث، فالأمم الغالبة تحقق للسانها أيضا غلبة على مغلوبها، وهو أمر نبه عليه ابن حزم الظاهري في كتابه الموسوم بالإحكام في أصول الأحكام، حيث قال: (إن اللغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم أو بتنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنما يقيد لغة الأمم وعلومها وإخبارها قوة دولتها ونشاط أهلها وفراغها، وأما من تلفت دولتهم وغلب عليهم عدوهم واشتغلوا بالخوف والحاجة والذل وخدمة أعدائهم فمضمون منهم موت الخواطر، وربما كان ذلك سببا لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارها، وبيود علومهم، هذا موجود بالمشاهدة ومعلوم بالعقل ضرورة)[٥].

العربية تعطي وتأخذ وتقرض وتستقرض

ورث العرب من غيرهم حضارات ومعارف، وأورثوا غيرهم مما برعوا فيه من مختلف العلوم والمعارف، وكانوا قد تغلبوا على أمم ذات صرح حضاري مشيد و بأس شديد، كالفرس والروم

---

[٣] مجلة المستقبل العربي: نازلي معوض، تموز ١٩٨٠م، ص١٢٢.

[٤] إن الرؤية الإسلامية تحترم التعدد اللغوي بل إن القرآن الكريم اعتبر أن اللغة آية من آيات الله جل جلاله، قال تعالى: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين) سورة الروم: الآية: ٢٢

بهذا القرآن العربي المبين، فكانت اللغة العربية أداة طيعة في أيدي أهلها حين انتقلوا من واقع البداوة وما فيها من حياة بسيطة ساذجة، إلى واقع المدنية بكل ما يستلزمها من معطيات حضارية، فأكبو على الترجمة والتعريب والتأليف حين انفتحوا على أمم وشعوب كان لهم رصيد ضخم من التجارب، وحظ وافر من الرقي والتقدم، فأخذوا من هذه الأمم كل ما يمكن أخذه، شريطة إلا يتصادم هذا المأخوذ مع شريعتهم وهويتهم في مختلف مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، وعليه فقد انتشرت العربية مع انتشار الإسلام ودخلت كل بقعة دخلها الإسلام، فصارت لساناً لمن اعتنقه.

بين العربية و الفارسية

ولما كان العرب أكثر تماساً واحتكاكاً بالفرس من بين سائر الأمم الأخرى وأكثر تغلغلاً في بلادهم، فقد كان من الضروري أن تتأثر العربية بالحضارة الفارسية، وأن تؤثر في الأمة الفارسية وأن تتأثر اللغة الفارسية باللغة العربية، ولذلك فقد اقتبست العربية من الفارسية أكثر مما اقتبسته من أية لغة أخرى، ولكنها أعطت اللغة الفارسية أكثر مما أخذته منها.

ومع أن التباين واسع بين اللغة العربية واللغة الفارسية من حيث انتماء اللغتين الأسري، والنظام اللغوي، والبيئة الاجتماعية والعرق البشري، إلا أن الأدب الفارسي - وهو آري الأصول - أقرب إلى الأدب العربي السامي من الآداب العبرية والسريانية وغيرها من اللغات السامية. بل إنه قلَّ أن تجد في التاريخ البشري أدبين متمازجين متعانقين قريبين من بعضهما على النحو الذي يشاهد بين الادبين الفارسي والعربي[٦].

وكما اخذ العرب من لسان الفرس، منحوا غيرهم ألفاظاً ومعاني كثيرة، وعليه فان المستقرئ للسان الفرس، أو الترك مثلا يجد أنهم قد اخذوا عن العرب قاموسا ضخما من المفردات العربية، ومع أن العرب قد اخذوا من لسان الفرس ما أخذوه، إلا أن نسبة ما أعطته اللغة العربية للفرس من ألفاظها ومفرداتها هو أكثر بكثير مما أخذته العربية من الفارسية، وكذا الحال يقال عن الترك وغيرهم. ولعل أقوى الأسباب المقنعة في تعليل هذه الظاهرة، أي إقراض العربية هذا الكم الهائل من مفرداتها للسان الفرس، الإنساني الضخم الذي نرى آثاره في أسفار المؤلفين المنشورة أو الآثار المادية المنظورة.

وعليه فقد اخذ الفرس من العرب قاموس العقيدة و الشريعة والسياسة والأخلاق والطب، وكل ألوان العلوم والمعارف التي ازدهرت عند العرب المسلمين آنذاك أيما ازدهار، ولقد دخلت العربية في أدبيات اللغة الفارسية حيث رصّعت روائع الشعر والنثر الفارسي حين جرت ألفاظها ومعانيها على ألسنه مشاهير الشعراء والحكماء في بلاد فارس، فها هو ذا الشاعر جلال الدين الرومي الفارسي يَنظم أشعاره بالفارسية على نظام المثنوي أو المزدوج، وهو ما يسمى في الفارسية (الدوبيت) وهو مصطلح عروضي يعني مجيء القصيدة الشعرية مصرّعه في كل بيت من أبيات القصيدة الفارسية بحيث تحقق وحدة القافية بين العروض والضرب أي في نهاية صدر البيت الواحد وعَجُزه في آن معا، وإنك لتجد هذه الأبيات في الشعر الفارسي طافحة بالألفاظ العربية، وسترى بيان ذلك في شعر جلال الدين الرومي، فانظر إليه حين يقول:[٧]

سينة خواهم شرحه شرحه از فراق

تابكَاويم شرح درد اشتياق

قوت جبريل از مطبخ نبود

بود از ديدار خلاق وجود

فهذان البيتان من الشعر الفارسي وقد اشتمل كل منهما على عشر كلمات نصفها من اللغة العربية ونصفها الآخر من اللغة الفارسية، علاوة على صورة رسمهما التي هي بالخط العربي الذي استعاره الفرس من خط اللغة العربية، ليحل محل الخط البهلوي القديم.

أما معنى البيت الأول فهو: أريد صدرا ممزقا من الفراق حتى اشرح له ألم الاشتياق، في حين أن معنى البيت الثاني هو: إنَّ قوة جبريل لم تكن من المطبخ والطبق، وإنما هي من رؤية خلاق الوجود[٨].

وتبدو العربية جلية في شعر جلال الدين الرومي في موضع آخر من ديوانه حيث يقول:

جملة معشوقست وعاشق بردهّ

رندة معشوقست وعاشق مردهّ[٩]

---

[٦] ما الذي أخذه الشعر الفارسي من العربية، وما الذي أخذه الشعر العربي من الفارسية، جعفر الخليلي، مجلة الدراسات الأدبية، نشر الجامعة اللبنانية عدد ٣،٤ عام ٦٧ ص ٢٧٧.

[٧] جلال الدين الرومي في حياته وشعره: محمد عبد السلام كفافي،دار النهضة العربية، بيروت.

[٨] المصدر السابق، ص١٣٩.

[٩] المصدر السابق، ص١٥٩.

لقد غلبت المفردات العربية في البيت الشعري الفارسي على المفردات الفارسية، حيث كان عدد المفردات العربية خمسا بينما بلغ عدد المفردات الفارسية ثلاثا، ومعنى البيت: إن المعشوق هو الكل، وأما العاشق فحجاب، المعشوق هو الحي، وأما العاشق فميت[10].

ويتحدث جلال الدين الرومي عن المحبة الإلهية وتأثيرها على الجبل الأصم مما يفهم منه ضمنا أن تأثيرها على الإنسان الضعيف لا بد وان يكون أكثر من ذلك، وفي هذا المعنى يقول جلال الدين الرومي شعرا يغلب عليه الطابع الديني واللفظ العربي حيث بلغ عدد مفرداته العربية ٨٠٪ من مفردات البيت الفارسي، وفي هذا يقول:

عشق جان طور امد عاشقا

طور مست وخر موسى صاعقا[11]

أما معنى البيت فهو: لقد حل العشق بروح الطور، أيها العاشق، فسكر الطور وخر موسى صعقا[12]. وحينما ينادي الشاعر الفارسي جلال الدين الرومي تلميذه المحبوب حسام الدين جلبي الذي لازمه إبان عمله في نظم المثنوي، حيث كان مقربا إليه إلى حد أنه اختير من بعده شيخا للمولويه أتباع جلال الدين، وفي ذلك يقول شعرا فارسيا مطعما بالألفاظ العربية وما تحمله من معانٍ إسلامية:

أيْ ضياء الحق حسام الدين بيار

اين سوم دفتركه سنت شدسه بيار[13]

فقد بلغ نصيب العربية من ألفاظ هذا البيت سبعا، حيث تشكل نسبة الألفاظ الفارسية نصفه الآخر ومعناه: يا ضياء الحق، يا حسام الدين! هات السفر الثالث من المثنوي، فمن السنة العمل ثلاث مرات[14]. بل ربما استهوت اللغة العربية شعراء الفرس فراحوا يرصّعُون قصائدهم الفارسية بأبيات من الشعر العربي، أو بأنصاف الأبيات من العربية، أو بعض العبارات العربية التي يختتمون بها البيت الفارسي تكملة للقافية وروى القصيدة، وهو ما اصطلح على تسميته (الملمع)، والمثال على ذلك قول الشاعر جلال الدين الرومي هذا البيت بالعربية في ثنايا شعر المثنوي:

صار دكا منه وانشق الجبل

هل رأيتم من جبل رقص الجمل؟[15]

وفي هذا البيت إشارة إلى دك الجبل حين ذهب موسى لمناجاة ربه، وطلب منه موسى النظر إليه، قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا)[16] وهذه المقطوعة الشعرية شاهدٌ على الملمّع[17] في شعر جلال الدين:

١ . لي حبيبٌ حبُه يشوي الحشا

لو يشا يمشي على عيني مشا

٢ . روز آن باشد كه روزيم او بُوَدْ

أي خُوشا آن روز ورّوزى أي خوشا[18]

٣ . آن جه باشد كوكُنَدْ كان نيست خوش

قد رضينا يفعل الله ما يشا[19]

٤ . خارِ او سَرْ مَايْه كَلُها بُوَدْ

إنّه المنانُ في كشف الغشا[20]

٥ . هرجه كَفُتى ياشُنيدى بوست بود

ليس لبُّ العشق سَراً قد فَشا[21]

٦ . كي بقشر بوستها قانع شودَ

ذو لباب في التجلّي قد نشا[22]

٧ . من خَمُش كَردم غَمَشْ خامُشْ نكرد

عافِنا من شرِّ واشٍ قد وشا[23]

---

[10] المصدر السابق، ص١٥٩.
[11] المصدر السابق، ص١٥٦.
[12] المصدر السابق، ص١٥٦.
[13] المصدر السابق، ص٢٠٥.
[14] المصدر السابق، ص٢٠٥.
[15] المصدر السابق، ص٢١٤.
[16] سورة الأعراف آية: ١٤٣.
[17] الملمع لون من الشعر الفارسي تمتزج فيه أبيات عربية بأخرى فارسية. المصدر السابق، ص٤٧٢.
[18] معناه: أن يوما هو فيه رزقنا طاب رزقا وحلا.
[19] ما الذي من فعله لم يحل لي قد رضينا يفعل الله ما يشاء.
[20] شوكة الأصل لأزهار الربا انه المنان في كشف الغشا

الرقم	الكلمة في الأصل الفارسي	معناها	حالها بعد التعريب
١	باجار	السوق	بازار
٢	برزك	النحيب والبكاء	البرزخ الحاجز بين الشيئين وبين الدنيا والآخرة
٣	بردن، بريده دم	النقل والحمل	البريد وأصلها دابة البريد
٤	بارنامة	الورقة الجامعة للحساب	البرنامج
٥	البرهرهة	الإضاءة	البرهان، الحجة والدليل
٦	زم هرير	شدة البرد	الزمهرير مركبة من زم أي برد وهرير أي موجب
٧	مهركان	مهر بمعنى المحبة وكان بمعنى المتصلة	المهرجان: عيد الفرس وللفرس عيدان النوروز والمهرجان
٨	أو انداز	مقدر المجاري والقنى واحتفارها حين تحفر	مهندس
٩	تبهرة	ردىء الدراهم	بهرج
١٠	زندة كرد	وزند معناها الحياة و (كرد) معناها العمل،	أي يقول بدوام الدهر زنديق
١١	استاد	معلم	استاذ
١٢	استوان	العمود	اسطوانه
١٣	أنبار	المخزن	العنبر المخزن جمعها عنابر
١٤	أوَك	القمة، نهاية الشيء	أوج
١٥	بولاد	الحديد الصلب	فولاذ
١٦	كوهر	الدر، واللب	الجوهر
١٧	روزنامة	السجل اليومي	الروزنامة - ديوان السجل اليومي
١٨	سُرابِرده	الخيمة الكبيرة	السُّرادق
١٩	سَرْ آب «سر»: رأس، «آب»: ماء	ما يرى في الصحراء عند اشتداد الحر ويظنه ماء	السراب
٢٠	سَرْداب	«سرد»: بارد، «آب» الماء	السرداب وهو القبو تحت الأرض يكون فيها الماء البارد
٢١	بنكَان	كوب صغير لشرب القهوة	فنجان
٢٢	جان بولاد (جُنبلاط)	جنبلاط	الروح الفولاذية
٢٣	كيتان	الخيط السميك المعزول	قيطان
٢٤	كُفْته	اسم مفعول بالفارسية	المفروم
٢٥	كلهربا	جاذب القش	كهرباء
٢٦	مطره بان	إناء الحفظ	مَطْرَبان (إناء معد لحفظ السوائل)
٢٧	خانَم	السيدة	هانم

[٢٤] هنالك إشكالية في بعض المفردات الفارسية، فبدلا من «مهركان» برقم ٧ أعلاه، يجب أن تكتب مهر كَان، والفرق بينهما هو أن حرف كَ لا يلفظ مثل الكاف في اللغة العربية ولا يكتب مثلها (إنتبه إلى الخط فوق الحرف)، وإنما تلفظ مثل الجيم المصرية. وكذلك هنالك إشكالية في تحديد المعاني، فمن معاني مهر ان «الخريف» و «الإعتدال الخريفي» بالإضافة إلى الإحتفال.

وهنالك إشكالية تتعلق ب «بولاد» برقم ١٥، إذ الحرف الأول هو پ (إنتبه إلى النقط الثلاث تحت الحرف) ويلفظ مثل حرفp في اللغة الإنجليزية. وخلاصة القول أن هناك عدة إشكاليات هنا، منها ما هو تكرار للإشكاليتين السابقتين، ولكنها لا تخل بالهدف العام الذي من أجله وضع هذا الجدول. (المحرر)

[٢٥] معجم الألفاظ الفارسية: السيد آدي شير، بيروت- ١٩٨٠م، ص١٥ وما بعدها.

العربية والفارسية في الآداب الغربية

لقد امتزجت العربية والفارسية معا في تبادل لفظي واسع واقتراض لغوي ممتد عبر مضامين فكريه متبادلة كالإيمان والاعتقاد والتصوف والحكمة والفلسفة والأدب بأجناسه المختلفة من شعر ونثر وقصص وحكايات ومقامات فتجلت هاتان اللغتان في التعبير عن الأسرار المتعلقة بروحانية الشرق وحكمته وفلسفته، وأسهمتا معاً في التأثير العميق في أدب الغرب وحكمته وفلسفته، الأمر الذي دفع الناقد الألماني يوهان غوتفريد هيردر إلى الاعتراف بفضل اللغة والحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الغربية وكان قد درس جميع الآداب التي أمكنه التوصل إليها ومن ضمنها الشعر الأندلسي ومما قاله هيردر: (لم تؤثر الحضارة العربية الأندلسية في الأدب الأوروبي فقط، بل إنها غرست نشاط الفكر المنوّر في الفلسفة الأوروبية)[٢٦].

كما وجه هيردر نداء إلى الأدباء الألمان الشبان قائلا: (ليت أن القدرة المدبرة للتاريخ لا تزال تنتج للحضارة الأوروبية الوسيلتين الهامتين إلى روح بلاد الشرق والجنوب وهما اللغتان العربية والفارسية)[٢٧].

وكان لاطلاع الشاعر الألماني الشهير غوته في مطلع القرن التاسع عشر على اللغتين العربية والفارسية من خلال دراسته القران الكريم والمعلقات العشر وقصائد الشاعر الفارسي شمس الدين الشيرازي الملقب بحافظ، كان لاطلاعه أثر بالغ في ديوان شعره المسمى (الديوان الغربي الشرقي)، والناظر في ديوان غوته هذا يرى تأثره الكبير بإشعار العرب والفرس ويتضح ذلك من قراءة البيت الألماني الذي افتتح به إحدى قصائده:[٢٨]

Laßt mich weinen! umschränkt von
Nacht In unendlicher Wüste[29]

ومعناها بالعربية: دعوني أبك والدجى تحيطني،
في فلاة آفاقها تضلني

والمتأمل لهذه الكلمات يتذكر مطلع معلقة امرئ ألقيس:
قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ولعل اهتمام المستشرقين الألمان بدراسة اللغة العربية متطلبا ومدخلا أساسيا للخوض في دراسة الشعر الفارسي هو ما دفع المستشرق الألماني فريديرش روكرت (١٧٨٨-١٨٨٦) إلى تعلم مبادئ العربية[٣٠].

إسهام العربية في بناء الحضارة الإسلامية في تركيا

مدخل تاريخي

من اجل الوقوف على حجم التبادل اللغوي بين لغات الأمم والشعوب، لابد من الاطلاع على طبيعة العلاقات التاريخية التي سادت إبان احتكاك تلك الشعوب والأمم فيما بينها ومعرفه أسباب ذلك الاحتكاك، وما إذا كانت تلك العلاقات بينها سلمية تقوم على أساس من تبادل المنافع كالتجارة و المعرفة والثقافة، أم أنها علاقة تقوم على أساس من الصراع الحربي أو النزاع العسكري.

فلقد احتك العرب بالأتراك منذ وقت مبكر وكانت بدايات هذا الاحتكاك قد ترسخت دعائمها، وتعززت أواصرها في زمن الخليفة العباسي هارون الرشيد، الذي جمع بين ثلاث من النسوة إحداهن عربية وهي أم ولده الأمين، والثانية فارسية وهي أم ولده المأمون، والثالثة تركية وهي أم ولده المعتصم بالله وخليفته من بعد ولديه الأمين والمأمون (١٨٠ - ٢٢٧هـ)[٣١].

فقد اعتمد المعتصم على الأتراك في تثبيت دعائم حكمه، وإرساء قواعد ملكه، وقربهم من حوله في مدينة سامراء التي اتخذها عاصمة ملكه، ثم أصبحت لهم مناصب رفيعة في الدولة العربية الإسلامية آنذاك. ونظرا لما امتازت به العناصر التركية من قوة وبأس في الحرب فقد قربهم الخلفاء العباسيون منهم وقلدوهم الوظائف الكبيرة، فصار منهم الحجّاب وقادة الجيش ورؤساء الدواوين والولاة، ثم تطور هذا النفوذ التركي في الدولة العباسية فيما بعد على نحو غير عادي، حين غدا بعض القادة الأتراك قادرين على تعيين بعض الخلفاء أو عزلهم أو قتلهم، كما حدث للخليفة المستعين بالله (هـ ٢٥٢) من القائدين التركيين: (وصيف وبغا) وقد صور الشاعر الجنيد بن محمد الكاتب حال الخليفة العباسي عندهما قائلا:

خليفةٌ في قفصٍ بين وصيفٍ وبغا
يقولُ ما قالا له كما تقولُ الببغا[٣٢]

وحينما أفل نجم الدولة العباسية على أيدي التتار، كان كيان الدولة

---

[٢٦] مجلة فن وفكر من مقالة بعنوان: الأدب العربي باللغة الألمانية- نقله والتعرف إليه وتأثيره، فولف ديتش، فيشر، عدد ٥١ سنة ٢٧، سنة الطبع ١٩٩٠ م، ص٦٧.المصدر السابق، ص٦٧.

[٢٧] المصدر السابق، ص٦٧.

[٢٨] المصدر السابق، ص ٦٧.

[٢٩] هذا البيت أقرب إلى نهاية القصيدة منه إلى بدايتها، و تأثر جوته (١٧٤٩-١٨٣٢)، في «ديوان غرب شرق» (صدرت الطبعة الأولى عام ١٨١٩)، مباشرة بأحد دواوين الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي (ت١٣٩١م) وقد ذكره جوته في قصيدته. وقد قام بترجمة ديوان حافظ إلى الألمانية Joseph von Hammer-Purgstall

العالم العربي التي كانت تحت حكم المماليك، فامتد حكم الأتراك العثمانيين على الوطن العربي مدة أربعة قرون متتالية، وهيمنوا على الوطن العربي شرقا وغربا، وعلى ممالك كثيرة في آسيا وأوروبا وإفريقيا، وبلغوا حداً من الاستعلاء والاقتدار في الأرض ليصبحوا دولة عالمية أحادية القطب على غرار ما اصطلح على تسميته اليوم بالعولمة وغدوا قادرين على امتلاك زمام السيادة والحضارة.

وإن فترة زمنية تطول إلى هذا الحد من التعايش والاحتكاك بين الشعبين العربي والتركي صباح مساء، لابد أن تسفر عن مقدار كبير من التبادل اللغوي بين الشعبين، ولا بد من أن تسفر عن نصيب وافر من الإقراض والاقتراض بين اللغتين، لأن أسباب الاحتكاك كانت قائمة ودواعيه ماثله، وتلك سنة جارية في كل لغات الأمم، وقد أشار إلى هذه السنّة الجارية من التأثر فضيلة الشيخ صبحي الصالح - رحمة الله - حين قال: (وان تبادل التأثر والتأثير بين اللغات قانون اجتماعي إنساني، وإن اقتراض بعض اللغات من بعض ظاهرة إنسانية أقام عليها فقهاء اللغة المحدثون أدلة لا تُحصى)[٣٤].

مجالات اقتراض التركية من العربية ومظاهر ذلك في الحياة العملية

وأمام هذا الواقع الجديد من حالة الاختلاط بين الغالب والمغلوب والحاكم والمحكوم الذي جرى بين الأتراك والعرب، يبرز السؤال المهم وهو، أي اللسانين كان أكثر اقتراضا من اللسان الآخر؟ أهو اللسان العربي أم اللسان التركي؟ مع ما بين اللغتين من تباعد أسري فالعربية تنتسب إلى أسرة اللغات السامية في حين تنتسب اللغة التركية إلى أسرة اللغات الطورانية وعليه فهما مختلفتان في المستوى الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي.

وقد يتبادر إلى ذهن الباحث أن ما أخذناه من لغة الأتراك هو أكثر مما أخذوه من لغتنا، نظرا لهيمنة الأتراك العسكرية، وسيادتهم الإدارية والمعاشية على عالمنا العربي، بيد أن المدقق في القاموسين العربي والتركي ليندهش أيما اندهاش حينما يرى مقدار ما أخذته اللغة التركية من اللغة العربية، حتى ليخيل إليه أن اللسان التركي قد تحول إلى لسان عربي.

ولعل السبب وراء ذالك يعود إلى قوة غلبة أهل اللغة حضاريا، وليس لقوة غلبة أهل اللغة عسكريا، صحيح أن الأتراك كانوا أصحاب الغلبة العسكرية، ولكنّ العرب كانوا أهل غلبة حضارية، بدائيا، ولم يكن لهم حظ من مدنية تذكر، أو ثقافه عالمية تشهد، ولم يُحصّلوا هذا القدر الهائل من الحضارة إلا حينما احتكوا بالحضارة العربية الإسلامية، واعتنقوا الدين الإسلامي عقيدة واتخذوا اللغة العربية لسانا لهذه العقيدة، وكان ما اقترضوه من العربية يفوق ما اقترضه العرب من لسانهم، وقد اتخذ اقتراضهم من العربية مناحي شتى على النحو الآتي:

أولا: اتخذ الأتراك الحرف العربي في كتابة لغتهم وتفننوا في رسمه وتزويقه، ومهروا في تزيينه، وتنميقه، وأبدعوا في تحسنيه وتجليته، وانشأوا المدارس المختلفة في تعليمه، والمعاهد التي اعتنت بتدريسه، وتخرج منها الخطاطون المهرة الذين شاع ذكرهم، وذاع صيتهم، وكان من هؤلاء الخطاطين المشهورين الحافظ العثماني المتوفى سنه ١١١٠هـ، ومصطفى الراقم (١٧٥٧ - ١٨٢٦ م) وحامد الآمدي (١٨٩٠-١٩٨٧م) ومحمد شوقي (١٨٢٩ - ١٨٨٧م) وإسماعيل حقي (١٨٧٢ - ١٩٤٦م) وغيرهم[٣٥].

وقد أصدرت اللجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري الإسلامي أمشاق الخطاط محمد شوقي في الثُلث والنِسخ نقلا عن كراسته المحفوظة في متحف طوب سراي على شكل كراسات تعتزم إصدارها لتعليم الناشئة فن الخط، ومساعدة الخطاطين على صقل مواهبهم ورفع قدراتهم في مختلف أنواع الخطوط[٣٦].

وما تزال بعض هذه المدارس تؤدي دورها في تحسين الخط العربي وتزويقه إلى يومنا هذا خدمة للمصحف الشريف، والآيات القرآنية الكريمة التي زيّنوا بها جدران المساجد، وأروقتها وقبابها، وقصور السلاطين، وشواهد القبور.

وقد ظل الخط العربي منذ أن استعمله الأتراك العثمانيون الخط الرسمي المعتمد في كل ما كتبوه إلى عهد قريب[٣٧]، حين استبدله كمال أتاتورك بالخط اللاتيني فانقطعت صلة الأمة التركية حديثا عن كل ما خلفه آباؤهم من الأسفار، وبكل الآثار الحضارية والمعالم الأثرية المكتوبة والمنقوشة بالخط العربي.

ويستطيع الناظر في الآثار الإسلامية الباقية في تركيا أن يرى الخط العربي معلما بارزا من معالم الفن الإسلامي في المساجد، ودور المخطوطات، وعلى كل ما كتبوه بالحرف العربي قبل أن يتحولوا عنه للحرف اللاتيني.

---

[٣٣] العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك: محمد بن محمود الجلبي، الملقب بابن أجا، تحقيق محمد أحمد دهمان، دمشق-دار الفكر ١٩٨٦م،ط١،ص٢٤٨.

[٣٤] دراسات في فقه اللغة: صبحي الصالح، بيروت- دار العلم، ١٩٧٠م، ط٤،ص٣١٥.

[٣٥] رياض الخط العربي: محمد صيام، الطيبة - مركز إحياء التراث- ١٩٩٠م ص٩٧،١٢٧،١٣٦،١٣٨،١٣٨،١٤٤

[٣٦] نشرة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية: منظمة المؤتمر الإسلامي - استانبول عدد ٥٠-/١٢/ ١٩٩٩م، ص٣٩.

[٣٧] قام أتاتورك بالتخلص من الخط العربي في ١٩٢٨، وكان قد هدم الخلافة في ١٩٢٤، وألغى المحاكم الشرعية في ١٩٢٥، ومنع اللباس الإسلامي وفرض اللباس الأوروبي، وفرض القانون المدني السويسري، والقانون الجنائي الإيطالي، والقانون التجاري الألماني في ١٩٢٦. (المحرر)

ثانيا: الاقتراض اللغوي، وتتجلى مظاهره في الميادين الاتية[٣٨].

١. أخذ الكلمة بلفظها ودلالاتها واستعمالها في اللغة التركية لتدل على ما تدل عليه العربية. نحو كلمة امتياز imtiyaz وكذلك مكالمة mukaleme وملهم mulhem والتباس iltibas وابتدائي iptidai ولغه (لسان) lisan.

٢. أخذ الكلمة بلفظها ودلالاتها مع إبدال حروفها العربية بحرف آخر أخف من الحرف المبدل لعدم وجود هذا الحرف في التركية كالضاد، وحرصوا على هذه الكلمة لسهوله نطقها من نطق كلمة مرادفة لها مثل: إمضاء (توقيع) جعلوها بعد الإبدال imza، وكذلك تخليص tahlis وتحقيق tahkik وتعقيبات جعلوها takibat وظني جعلوها zanni وتظاهر جعلوها tzahur وذكي جعلوها zaki وعليه فقد تجنبوا الحروف الثقيلة من العربية وبدلوها بحروف خفيفة.

٣. أخذ الكلمة كما هي وإبدال تاء التأنيث المربوطة تاء مفتوحة نحو منفعة menfaat وممنونية memnuniyet ومعذرة mezert مع إبدال الذال زايا.

٤. أخذ الكلمة كما هي لفظا ودلاله فإذا أرادوا العكس أضافوا إليها اللاصقة (siz) لتدل على عكس الكلمه نحو imansiz ايمانسيز وتعني عكس إيمان وهو الكفر، وكذلك imkansiz وتعني عكس الإمكان وهو المستحيل وكذلك إطاعات itaat فإذا أرادوا عكسها زادوا عليها اللاصقة لتصبح itaatsiz وتعني العصيان، وكذلك إذا أرادوا الجهل أضافوا اللاصقة (siz) على كلمة malumat لتصبح Malumatsiz ومعناها الجهل، وكذلك Sartsiz ومعناها بدون شرط، وكلمة imzasiz غير موقعة من الإمضاء وهو التوقيع.

٥. وضع اللاصقة (luk) فإذا أرادوا ذكر المصدر أي مدة المحبوسيه قالوا mahpusluk أي المحكومية.

٦. أخذ الكلمة بلفظها معناها وإضافة اللاصقة amak أو emek بعد الكلمة لتدل على الفعل نحو imzalamak أي أمضى إمضاء أو وقّع.

٧. أخذ الكلمة لفظاً ومعنى وإضافة (ci) (جي) إليها لتدل على النسبة نحو imtayazci امتياز جي وكذلك مُزاكرجي Muzakereci وكذلك مقاومتجي mukavemtci واقتصادتجي iktisatci وكذلك خانجي hanci صاحب الخان وكذلك kundurci كندرجي أي بائع الأحذيه.

٨. أخذ حروف الكلمة كما هي وإضافة اللاصقة li (لي) إليها لتدل على النسبة نحو imtiyazli وكذلك kulli ومعناها كلي.

٩. أخذ حروف الكلمة المصدر في حالة النصب من العربية وإبقاءها على حالها المعرّب مع خلو التركية من الإعراب مثل: استنادا istinaden وكذلك محفوظا mahfuzen وكذلك ارتجالاً irtigalen.

١٠. أخذ الجمع من العربية واستعماله كما هو في التركية نحو: استراحات istirahat وكذلك خاطرات hatirat.

١١. أخذ كلمتين مستقلتين من جار ومجرور ونحت كلمة واحدة من هاتين الكلمتين نحو: مع التأسف maateessuf وكذلك مع الأسف maalesef.

١٢. نحت كلمة من كلمتين مستقلتين مستعملتين في العربية العامية مثل «مافيش» منحوتة من (مافي شيء) نقلوها إلى التركية على نحو mafis إذ إن حرف s المنقوط هو شين في التركية بالخط اللاتيني وكذلك حرف c.المنقوط تحته وهو جيم بالتركية.

١٣. أخذ الكلمة المفردة بتاء التأنيث المفتوحة وإبقاؤها على بنية العربية نحو: مهارة maharet

١٤. أخذ اسم الفاعل من العربية إلى التركية وإبقاؤه على بنية العربية نحو: ماهر maher.

١٥. أخذ الجملة العربية من حرف النفي والفعل والفاعل ونحت كلمة واحدة من ذلك نحو: ما شاء الله masallah.

١٦. أخذ ثلاث كلمات عربية وجعلها كلمة واحدة نحو مع ما فيه جعلوها كلمه واحدة وهي mamafih

١٧. اقترضوا بعض الكلمات بنصها ودلالاتها للتعبير عن مصطلح عسكري وبقي هذا المصطلح دارجا عندهم في حين لم نحافظ نحن عليه محافظتهم عليه مثل كلمه عصيان isyan التي نستعمل مكانها كلمة تمرد.

وهكذا فان الناظر في القاموس التركي يقع على عشرات الألوف من المفردات المستعارة من اللغة العربية والتي أصبحت مع مرور الزمن جزءا من ثقافة المجتمع التركي وعقيدته وقيمة وقد شملت هذه الألفاظ المقترضة جميع مناحي الحياة، إلا أنها تزداد كثرة في ميدان الفكر والعقيدة الإسلامية، وكل ما يتعلق بالشريعة الإسلامية من ألفاظ ومصطلحات ثم يلي ذالك المصطلحات السياسية والعسكرية والاقتصادية والعلمية والفلسفية والتقسيمات الإدارية والقانون والصفات المجردة والمحسوسة.

أما أخذنا نحن من الأتراك فقد اقتصر على الاستعمال الشفوي الذي لم يجد له مكانا في القاموس اللغوي المكتوب، وإنما توارثنا بعضه عن أجدادنا وآبائنا على عكس اقتراض الأتراك منا، فقد دوّنوا ما اقترضوه منا بينما أبقينا نحن العرب هذا المقترض من اللسان التركي سائرا على ألسنتنا وفي حياتنا المعاشة من غير تدوين، وربما دوّنا بعضها نحو: جمرك، خان، دكان، بشكير، نمرة.

Bukca	بقجة	Kasik	خاشوق/ معلقة	Ihtiyar	اختيار- رجل مسن
Bergol	برغل	Eczane	اجزخانه	Kopru	جسر/ كبري
Iskamla	اسكملة	Kosan	كوشان	Masura	ماسورة
Karakuz	قراقوز	Sorap	شراب	Kisla	قشلا، حبس
Kubbut	قبود/ معطف	Baklua	بقلاوة	Kalos	قالوش، منجل
Kazan	قازان	Bastarma	بسطرمة	Kalpak	كلبك، قبعة
Kaymakam	قائم مقام	Kefta	كفتة	Kayis	قايش،حزام
Kefkire	كفكيرة	Savirma	شاورما	Kazma	كزمة/فأس
Kurbac	كرباج	Lokanda	لوكندة/نزل	Kemer	كمر
Kundurci	كندرجي	Katayif	قطايف	Keskul	كشكول
Kundara	كندرة	Masbata	مزبطة	Zengin	زنقين/غني
Lakan	لكن	Nazik	جميل/نازك	Sadir	شادر
Manga	مانجة/راحة	Oda	اوضة	Kosk	كشك
Mangal	منقل	Pabuc	حذاء بابوج	Saray	سراي، قصر
Nisan	نيشان	Pasta	بسطة	Findik	فندق
Sac	صاج	Yardiya	وردية/ تناوب	Fistik	فستق
Afendi	افندي/سيد	Tembil	تمبل/ كسول	Belas	بلاش/ مجانا
Bahsis	بخشيش	Efendim	افندم/سيد	Hemseri	همشري
Birinci	برنجي، حاذق	Faraman	فارامان/ مرسوم	Sisbirek	ششبرك
Bih	بيه سيد	Fustan	فستان/ثوب	Bamba	بمبة
Boya	بوية/ دهان	Fusek	فشك/ عيار ناري	Bervaz	برواز
Bus	بوش/ خارب	Ham	خام/ غير مصنع	Sarabast	سرابسط
Furn	فرن	Horta	خردة	Alicenap	عالي جناب
Tabor	طابور	Havaca	خواجة/سيد	Avantaci	عونطجي
Dunum	دونم	Serseri	سرسري	Bega	باغة
Samkarci	سمكرجي	Sarma	صرمة	Basma	بصمة
Sokak	زقاق/ طريق	Sufraci	سفرجي	Bardu	برضة
Suc	صوج/ فضيحة	Bust	بشت سيء	Bik	بيك
Taslak	طسلق/ غبي	Sam'adan	شمعدان	Buluk	بلوك
Yatak	يطلق/ سرير	Tabanca	طبنجة	Tesdan	دزدان
Dusek	دوشك/ مقعد	Tapu	طابو	Bus	بوز
Salabi	شلبي/ رائع	Tabliya	طبلية	Basa	باشا
Damge	دمغة/ طابع	Takim	طقم	Durbuka	دربكة/ طبلة
Ekmek	خبز	Tavla	طاولة	Baskatib	باش كاتب
Ekmekci	اكماجي/ نوع من الخبز	Taza	طازة	Basrayyis	باش ريس
Buluk	بلوك/ قوالب	Tancara	طنجرة	Baltaci	بلطجي
Foskye	فسقية/ مغارة	Tarsi	طرزي	Seferlerlik	استدعاء العسكر للحرب
Fatura	فاتورة	Tutun	تتن/ دخان	Sefertasi	سفرطاس/ وعاء
Bakrage	بكرج/ ابريق القهوة	Tursi	طورشي	Sepet	سبت/ سلة
Firtina	فرتينة/ عاصفة	Yafta	يافطة	Sarsaf	شرشف
Fanus	فانوس/ قنديل	Zemberek	زمبرك	Sakus	شاكوش
Sincitak	سنجي طاق، دائم	Seferbirlik	السفربرلك	Savis	شاويش
Garse	جزرة	Balto	بالطو/ ساكو	Santa	شنطة
Yahni	يخني/ نوع من الطعام	Yuzbasi	يوزباشي	Gazma	جزمة
Tuz	طوز، كلمة للتحقير	Samasir	شماشير/ امتعة ممزقة	Sankal	شنكل/ عقفة
Zemberek	زمبرك/ لولب	Kassap	قصاب/ جزار	Sisma	ششمة/ قاذورات
Tatli	تطلي/ مربى	Silahlik	سلاحلك	Dugri	دغري/ مستقيم
				Bahsis	بخشيش

[٣٩] الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أوغلى، نقله إلى العربية صالح سعداوي، استانبول ١٩٩٩م ج٢ ص٢٥.

بعض مما أخذته التركية من العربية وهي عداد عشرات الألوف من الكلمات.

أولا: في المصطلح الفقهي والديني

Husran	خسران	Iman	ايمان	Fakih	فقيه
Ibadallah	عباد الله	Halk	خلق	Ezan	اذان
Iftar	افطار	Sunnet	سنة	Fedia	فديه
Ihram	احرام	Resul	سول	Facir	فاجر
Ihsam	احسان	Sabir	صبر	Fitne	فتنه
Imam	امام	Sadaka	صدقة	Gaib	غيب
Ilham	الهام	Rahmet	رحمة	Gavur	كافر
Mazlum	مظلوم	Nasip	نصيب	Gunah	جناح (ذنب)
Mazur	معذور	Mubah	مباح	Hac	حج
Tespih	تسبيح	Mihrap	محراب	Hadise	حديث
Tefsir	تفسير	Mezhep	مذهب	Hafiz	حافظ
Sirat	سراط	Cami	جامع	Hak	حق
Imsak	امساك	Insafsiz	ظلم	Haram	حرام
Vais	واعظ	Imansiz	كفر	Harika	خارقة
Hidayet	هداية	Halal	حلال	Mucize	معجزة
Mahazur	محذور	Itikat	اعتقاد	Hicap	حجاب
		Kefaret	كفارة	Hicret	هجرة

ثانياً: في المصطلح العسكري والسياسي والإداري والاقتصادي

Maas	معاش	Maiset	معيشة	Harekat	حركات/عمليات
Maraza	معارضة	Mal	مال	Harbiye	مصالح حربية
Masraf	مصرف	Maliye	مالية	Hamle	حملة عسكرية
Hakiymiyet	حاكمية	Mablag	مبلغ	Hapis	حبس/سجن
Hasiya	حاشية	Istila	استيلاء	Harp	حرب
Hokum	حكم	Istirdat	استرداد	Faith	فاتح
Hukumdar	حاكم	Isyan	عصيان	Feda	فداء
Ieraat	اجراءات	Itilaf	ائتلاف	Firar	فرار-هرب
Idari	إداري	Ittihad	اتحاد	Husumet	خصومة
Insaat	انشاءات	Ittifak	اتفاق	Hucum	هجوم
Tazahurat	تظاهرات	Gaben	غبن	Hurriyet	حرية
Teskilat	تشكيلات	Hasara	خسارة	Ihtiyhat	احتياط
Ttesrifat	تشريفات	Hasat	حصاد	Iklap	انقلاب
Tamirat	تعميرات	Hasim	خصم/حسم	Istibdat	استبداد
Tahkikat	تحقيقات	Hisse	حصة	Istihbarat	استخبارات
Sabika	سابقة	Iflas	إفلاس	Gaza	غزا
Reis	رئيس	Iktisati	اقتصادي	Gazi	غاز
Reisicumhur	رئيس الجمهورية	Imdadat	إمدادات	Hakem	حاكم
Nahiya	ناحية	Irat	ايراد، دخل	Hami	حامي
Muhasara	محاصرة	Israf	إشراف	Hareketli	كثير الحركة
Maharip	محارب	Istiare	استعارة	Himaye	حماية
Muhaber	مخابر	Istihsal	استحصال	Hisar	حصار
Muahete	معاهدة	Istigal	اشتغال	Hudut	حدود
Manfi	منفي	Itimat	اعتماد	Hahfaza	محفظة
Ihtarname	إخطار	Kira	كراء	Mahsol	محصول

Kelam	علم الكلام	Maden	معدن	Has	خاص
Kesif	اختراع/كشف	Madenci	معدنجي	Hat	خط
Kiraat	قراءات	Mahert	مهارة	Hatir	خاطر
Kissa	قصة	Makle	مقالة	Hatira	خاطرة
Maksat	مقصد/غاية	Mana	معنى	Hatirat	خاطرات
Makul	معقول	Manzume	شعر منظوم	Hattat	خطاط
Malum	معلوم	Marifet	معرفة	Hesab	حساب
Mantik	منطق	Kagit	كاغد/ ورق	Hesabci	محاسب
Mantiki	منطقي	Kagtci	ورق/أصلها فارسي	Hesablamak	يحاسب
Sart	شرط	Kaide	قاعدة	Hekel	هيكل
Iddia	ادعاء	Hulasa	خلاصة	Hikaya	حكاية
Hhtar	أخطار	Idrak	إدراك	Hikmet	حكمة
Ihtarname	إخطار نامة	Ihtibvas	اقتباس	Hitabet	خطابة
Mayi	مائي سائل	Imla	إملاء	Hitam	ختام
Macaz	مجاز	Insa	إنشاء	Ktapsarayi	مكتبة عامة
Medducezir	مد وجزر	Irsaliye	إرسالية	Kimya	كيمياء
Imtihan	امتحان	Irticalen	ارتجالا	Kinaya	كناية
Inhiraf	انحراف	Ispat	إثبات	Kulli	كلي
Temmuz	تموز	Ihtiraz	احتراز	Irsat	إرشاد
Saniye	ثانية	Kanun	قانون	Irade	إرادة
Sabah	صباح	Kanuni	قانوني	Irtibat	ارتباط
Mahkumiyat	محكومية	Kefalet	كفالة	Irtikap	ارتكاب
Meucudat	موجودات	Kefil	كفيل	Kahir	قهر
Dakika	دقيقة	Mahkeme	محكمة	Ezali	أزلي
Damgalamak	يدمغ	Mahkum	محكوم	Hakim	حكيم
Defter	دفتر	Makam	مقام	Harici	خارجي
Mulhem	ملهم	Mezhep	مذهب	Heyula	هيولا اصل المادة
Munasip	مناسب	Damga	دمغة	Mahiyet	ماهية
Muphem	مبهم	Dem	دم	Hazir	حاضر
Mureffeh	مرفه	Itiraz	اعتراض	Haziran	حزيران
Mucrim	مجرم	Muhrram	محرم	Ilelebet	للأبد
Mucerret	مجرد	Safer	صفر	Kutur	قطر
Mucehhez	مجهز	Saban	شعبان	Magrib	مغرب
Mubalage	مبالغة	Ramazan	رمضان	Mahal	محل
Mubadele	مبادلة	Istiab	استيعاب	Mahalle	محلي
Muzaffer	مظفر	Istintac	استنتاج	Manzar	منظر
Muzir	مضر	Sevval	شوال	Recap	شهر رجب
Mustarip	مستغرب	Tarih	تاريخ	Imza	إمضاء
Mutaassip	متعصب	Ufuk	افق	Insaf	إنصاف
Mutasavvif	متصوف	Uakit	وقت	Intisam	انتظام
Mukaddes	مقدس	Uakiti	وقتي	Istisari	استشاري
Muntazam	منتظم	Uakur	وكر	Itham	اتهام
Hissi	حسي	Yemin	يمين/قسم	Itiraf	اعتراف
Hissiyat	حساسية	Yetim	يتيم	Itiraz	اعتراض
Hususi	خصوصي	Zaman	زمان	Ittifak	اتفاق
Zarar	ضرر	Makbul	مقبول	Hususiyet	خصوصية
Zat	ذات/نفس	Mamur	(مكان) معمور	Ihtimam	اهتمام
Tertib	ترتيب	Memur	(موظف) مأمور	Ihtisam	اختصام

Tesis	تأسيس	Marifetli	ذو معرفة	Intiba	انطباع
Tespih	تشبيه	Maruf	معروف	Intibak	انطباق
Tenzilat	تنزيلات	Kahkaha	القهقهة	Kabir	كبير
Tesnif	تصنيف	Maccanen	مجانا	Kul	الجميع/ كل
Nesil	نسل/ أجيال	Meeccane	مجاني	Latif	لطيف
Mustakbel	مستقبل	Zaka	ذكاء	Laziz	لذيذ
Intihar	انتحار	Yetkin	يتقن	Magrur	مغرور
Mustehzi	مستهزئ	Kanaat	قناعات	Intisap	انتساب
Musarrif	مشرف	Merhum	مرحوم	Istifada	استفادة
Mustamel	مستعمل	Mutadavil	متداول	Itibar	اعتبار
Mustabit	مستبد	Mustahcen	مستهجن	Kadim	قديم
Mutekait	متقاعد	Mustahzar	مستحضر	Hekel	هيكل
Mutecessis	متجسس	Mustahzarat	مستحضرات	Mustesar	مستشار
mutecaviz	متجاوز	Mesuliyet	مسؤولية	Musrik	مشرك

العربية والفارسية في آداب الدولة التركية

نظرا لامتزاج العناصر الإسلامية بمختلف أجناسها من عربية وفارسية وتركية وغيرها في كيان الدولة العثمانية الصاعدة التي امتد نفوذها على ثلاث قارات آنذاك، فقد استطاعت أن تؤثر هذه الدولة في لغات الشعوب المفتوحة، وأن تتأثر بلغاتهم، وأن تقترض من ألفاظهم وأن تقرضهم، وراح الشعراء الأتراك يرصّعون أشعارهم بالألفاظ الأجنبية من لغتهم التركية، كالعربية والفارسية والكردية، وكان من هؤلاء الشاعر التركي الكبير فضولي أكثر شعراء الأتراك العثمانيين شهرة، فقد اعتاد هذا الشاعر على الكتابة في بعض أشعاره أبياتا تؤلفها الألفاظ والتراكيب الأجنبية وحدها كقوله[٤]:

ساية اميد زائل أ فتاب شوق كرم
رتبه ادبار عالي بايهْ تدبير دون

ومعناه:

ظلال الأمل زائلة، وشمس الشوق محرقة
ورتبة الأدبار عالية، ومنزلة التدبير دنية

فأنت ترى أن هذا الشعر قد خلا خلوا تاما من الألفاظ التركية، وجاء مزيجاً من الألفاظ العربية والفارسية.

وهذا نموذج أخر من الشعر التركي للشاعر فضولي نفسه وقد جاء شعره مطعما ببعض الألفاظ العربية إلى جانب الألفاظ التركية وفيه يقول:

كوز مدن دم بدم بغرم ازوب باشم كبي كَيتمه!
سنى ترك ايتمزم جون بن، بنى سن داخى ترك ايتمه!
اما ندر، ظالم اولمه، بن كَبى مظلومي اينجيتمه!
كوزم جانم افندم، سويدكم دولتلو سُلطانم!
لا تمض وقد حرقت صدري مثل دمع العين المنهمر دائما!
أنا لا أسلوك فلا تتركني أنت الآخر!

الأمان لا تكن ظالما أو تجرح المظلومين مثلي
أنت عيني وروحي وسيدي وسلطاني صاحب الدولة الذي أحبيته!

الثنائية اللغوية لدى علماء العربية

جمع كثير من علماء العربية لغة أو لغتين كالفارسية والتركية إلى جانب لغته، وقد ألفوا في تلك اللغات كتبا قارنوا فيها بين نحو العربية ونحو الفارسية والتركية وصرفها، فقد كان ابن جني ممن فقه الفارسية إلى جانب العربية، وكذا الحال عند أستاذه أبي علي الفارسي وسيبويه وابن فارس وغير هؤلاء كثير من علماء العربية.

وقد كان أبو حيان الأندلسي من علماء القرن السابع الهجري ملما بلغات عدة، وتجاوز دائرة التصنيف في العربية إلى التأليف في لغات أخرى بعد أن ألمَّ بها واطلع على أسرارها، وصنف فيها كتبا في نحوها وصرفها وأحكام كلامها، وقد شهد له بذلك تلميذه ابن فضل الله العمري في كتابه (مسالك الأبصار) حيث قال: (وأنا ممن قرأ عليه، وتشرفت لما مثلت بين يديه، وكان شيخنا أبو حيان ـ رحمه الله ـ قد ذللت له صعاب اللغات، فاقتادها بأعناقها، وجذبها أخذا بدائرة نطاقها، وتعدى لغة العرب إلى لغة العجم، وصنف عدة كتب في تراجم اللغات المختلفة، والتزم فيها بالصحيح، وقد أراني ما صنف من ذلك، فمنه: (الإدراك في لغة الأتراك)، ومنه: (زهو الملك في نحو الترك)، ومنه: (مُنطق الخرس في لسان الفرس) قد أكثر التقصي عن كل لسان، والسؤال من أهل المعرفة عن مفردات كلمها أسماء وأفعالا وحروفا، وتصريف الأفعال، وتركيب الكلام، ثم نزّلها على قواعد اللغة العربية، وأجراها عليها في مصطلح الترتيب.

في الاختصار والإيجاز تاركا استقصاء كل ما اقترضه اللسان الفارسي والتركي من اللسان العربي إلى ميدان بحثي أرحب، ومجال دراسي أوسع لتكون عونا للباحثين في مجال علم اللغات المقارن، وأثر العربية في حضارات الشعوب والأمم الإسلامية. ومسعفة للراغبين في تعلم اللغتين الفارسية والتركية. والإطلاع على حجم التأثير والتأثر الذي أدته اللغة العربية في شتى مجالات الحضارة الإسلامية على مدى التاريخ، كما أن هذا الكم الهائل من الثروة اللغوية التي اقترضها الفرس والترك، والتي فاقت ما اقترضه العرب من لسان الفرس والترك إلى حد يفوق التصور إنما يفسره

كما أن ظاهرة الاقتراض هذه هي أكبر برهان على أن طاقة اللغة إنما تكمن في طاقة الأمة الناطقة بها، وأن عطاء اللغة إنما هو ناجم عن عطاء الأمة، وإن تأخر الشعوب والأمم ينعكس على لغتهم، وأن العلاقة بين نهضة الأمة وعلو شان لغتها، إنما هي علاقة تلازم وكذا الحال في تخلف اللغات الناجم عن تخلف الأمم. وأن عطاء لغتنا العربية للغات أخرى أيام الازدهار الحضاري هو أكبر برهان على أن العربية قادرة على العطاء عندما يصبح الناطقون بها أهلا للإطلاع بمسؤوليتهم الحضارية.

المصادر والمراجع:

١. الإحكام في أصول الأحكام: ابن حزم الظاهري، بيروت - دار الجيل،ط٢، ١٩٨٧م.

٢. تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، القاهرة - مطبعه السعادة، ١٣٤٩هـ.

٣. تاريخ الخلفاء: جلال الدين السيوطي: تحقيق إبراهيم صالح، بيروت - دار صادر، ١٩٩٧م، ط١.

٤. الحياة مع لغتين: محمد علي الخولي، السعودية - الرياض- ١٩٨٨م.

٥. أبو حيان النحوي: خديجة الحديثي، بغداد - مكتبة النهضة ١٣٨٥ هـ، ط١.

٦. جلال الدين الرومي في حياته وشعره: محمد عبد السلام كفافي، بيروت - دار النهضة العربية.

٧. دراسات في فقه اللغة: صبحي الصالح: بيروت، دار العلم، ١٩٧٠م، ط٤.

٨. الدولة العثمانية تاريخ وحضارة: إشراف وتقديم أكمل الدين إحسان أو غلى نقلة إلى العربية صالح سعداوي، استانبول ١٩٩٩م ج٢ ص٢٥.

٩. رياض الخط العربي: محمد صيام، الناصرة - مركز إحياء التراث، ١٩٩٠م ط١.

١٠. العراك بين المماليك والعثمانيين الأتراك: محمد بن محمود الجلبي، الملقب بابن أجا، تحقيق محمد احمد دهمان، دمشق - دار الفكر، ١٩٨٦م، ط١.

١١. الكامل في التاريخ: ابن الأثير، بيروت - دار صادر، ١٩٦٥م، ج٢.

١٢. مجلة الدراسات الادبية، عدد ٣،٤ عام ٦٦-٦٧ نشر الجامعة اللبنانية.

١٣. مجلة فن وفكر: مقالة بعنوان: الأدب العربي باللغة الألمانية، نقله والتعرف إليه وتأثيره، تأليف فولف ديتش فيشر، عدد ٥١ السنة ٢٧، سنة الطبع ١٩٩٠م.

١٤. مجلة المستقبل العربي: نازلي معوض، تموز - ١٩٨٠م.

١٥. معجم الألفاظ الفارسية: السيد آدي شير، بيروت، ١٩٨٠م.

١٦. المعجم الجامع في المصطلحات الأيوبية والمملوكية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والعثمانية ذات الأصول العربية والفارسية والتركية: حسان حلاق وعباس صباغ، دار المعلم للملايين بيروت - ١٩٩٩م.

١٧. نشرة مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، منظمة المؤتمر الإسلامي، استانبول، عدد ٥٠، كانون أول ١٩٩٩م.

18. ARAP Lehecelerindeki Turkce kelimeler: yard .Doc. Istanbul 1994 Dr. Bedrettin AYTAC 150-4

19. Redhouse: Ingilizce - Turkce .Turkce Ingilizce.

محمود أحمد علي أبو كتة الدراويش

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذ مشارك

تاريخ الولادة: ١٩٤٨/١٢/١

المؤهلات العلمية

- الدكتوراه في اللغويات مع مرتبة الشرف من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر عام ١٩٨٥
- الماجستير في النحو والصرف من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر بالقاهرة عام ١٩٧٩
- الدبلوم في التربية من كلية التربية في الجامعة الأردنية عام ١٩٧٥
- الليسانس في اللغة العربية من جامعة بيروت العربية فرع الإسكندرية ١٩٧٢
- دبلوم تخصص اللغة العربية والتربية الإسلامية من معهد المعلمين في حواره/ إربد-الأردن عام ١٩٦٩

الدرجة العلمية

- أستاذ مشارك - أيلول ١٩٩٠م قسم اللغة العربية - جامعة بيت لحم.
- أستاذ مساعد - شباط ١٩٨٥م قسم اللغة العربية - جامعة بيت لحم.
- محاضر متفرغ - أيلول ١٩٨٠م قسم اللغة العربية - جامعة بيت لحم.

السيرة العملية

١. تدريس اللغة العربية وفروعها للطلبة في جميع المراحل المدرسية منذ عام ١٩٦٨- ١٩٨٠ في الأردن
٢. تدريس اللغة العربية وموضوعات أخرى في جامعة بيت لحم منذ عام ١٩٨٠ حتى الآن
٣. تدريس اللغة العربية وموضوعات أخرى في الجامعة الأردنية عام ١٩٩٢-١٩٩٣
٤. تدريس اللغة العربية لمرحلة الدراسات العليا الماجستير والدبلوم عام ١٩٩٨ في جامعة القدس
٥. أساليب التدريس لطلبة دبلوم التربية جامعة بيت لحم ١٩٦٥ - ٢٠٠٣

الخبرات الإدارية واللجان المحلية

١. عميد كلية الآداب بجامعة بيت لحم منذ عام ١٩٨٩ وحتى عام ١٩٩٢
٢. رئيس قسم اللغة العربية بجامعة بيت لحم منذ عام ١٩٨٦ وحتى عام ١٩٩٢
٣. عضو في مجلس الإداره بجامعة بيت لحم منذ ١٩٨٩ وحتى عام ١٩٩٢
٤. عضو في المجلس الأكاديمي بجامعة بيت لحم منذ عام ١٩٨٦- ١٩٩٢
٦. رئيس مجلس كلية الآداب بجامعة بيت لحم منذ عام ١٩٨٩- ١٩٩٢
٧. المحرر اللغوي لمجلة جامعة بيت لحم منذ عام ١٩٨٦- ١٩٩٢
٨. عضو اللجنة التحضيرية لمجمع اللغة العربية الفلسطيني ١٩٨٨
١٠. أمين سر مجمع اللغة العربية الفلسطيني ١٩٩٥
١١. منسق لجنة الإشراف التربوية في مدرسة الإخاء الإسلامية ببيت لحم من عام ١٩٩٢- ١٩٩٧.
١٢. عضو في رابطة الخريجين الجامعيين ومقرها الخليل منذ عام ١٩٨٠

الإنتاج العلمي

١. مدخل إلى علم النحو والقواعد العربية ١٩٩٠، وأعيد طباعته عام ١٩٩٦
٢. دراسات في النحو العربي عام ١٩٨٧، وأعيد طباعته عام ١٩٩٥.
٣. فن الكتابة العربية المقالة والبحث مشترك طبعه أولى عام ١٩٨٢، وأعيد طباعته عام ١٩٨٨.
٤. دراسات في اللغة والأدب ط١، ٢،٣ مشترك، عام ١٩٨٨
٥. فن تدريس مهارات اللغة العربية في المرحلة الأساسية عام ١٩٩٤، وأعيد طباعته عام ١٩٩٧
٦. الإقليد (شرح مفصل الزمخشري) للجندي دراسة وتحقيق، الإدارة العامة للثقافة والنشر جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، المملكة

د. محمود احمد أبو سمرة *
د. عماد احمد ألبرغوثي **

ملخص

لقد أكرمنا الله سبحانه وتعالى بكتابين اثنين، كتاب منظور وكتاب مسطور، كتاب الكون والقرآن الكريم، أما الكون فهو مسخر للإنسان، يسبر غوره، ويكتشف ظواهره، يفكر في أرجائه، ويتأمل عظمة الخالق من خلاله، فكان وسيبقى، إلى ما شاء الله، الشاهد الحي على قدرة الخالق وبديع صنعه. وأما القرآن الكريم فقد احتوى على مئات الآيات الكونية التي تتحدث عن هذا الكون ومخلوقاته، إضافة إلى العديد من الآيات الكريمة التي تحض على النظر في هذا الكون وما فيه من مخلوقات وظواهر، فالقرآن الكريم هو مفتاح (دليل) فهم كتاب الكون.

كما أوضحت مجموعة كبيرة من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة المكانة المرموقة التي كرم الله بها من يقوم بالتفكر ودراسة هذا الكون ومخلوقاته وظواهره

قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[1]

وقد أثبتت الدراسات الحديثة بان العديد من الاكتشافات العلمية لها أصل في القرآن الكريم، بشكل مباشر أو غير مباشر، ونهج العديد من العلماء المسلمين إلى الاستفادة من هذه الاكتشافات واعتبروها دليلا على أن هذا القران هو كلام الله. وبالرغم من أهمية هذا التوجه وخدمته للإسلام والمسلمين، واستخدام هذا التوجه للدعوة إلى الإسلام، ومحاولته بيان العلاقة بين الإسلام والعلم، إلا أننا نرغب في هذا البحث التأكيد على أن يكون الانطلاق لدراسة الكون ومخلوقاته وما فيه من ظواهر طبيعية من القران الكريم والحديث النبوي الشريف، ليكون المنطلق لعلمائنا دينيا وعلى أساس يقيني، وان يتم توجيه مشاريع البحث العلمي ووضعها على الطريق الصحيح خدمة للإنسانية جمعاء، فهناك العديد من المكتشفات العلمية، والتي بعد أن أصبحت يقينا لا يقبل الشك، وجدت جذورها في القران الكريم والسنة النبوية الشريفة. وعلى سبيل المثال، أجريت العديد من الدراسات حول أصل عنصر الحديد في باطن الأرض، وتبين بعد دراسات عديدة[2] وسنوات طويلة من البحث العلمي المضني أن الحديد لم يتكون في باطن الأرض، بل انزل إلى الأرض من السماء، كما أشارت الآية الكريمة (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)[3]، وبالتالي لو قرأنا القرآن الكريم قراءة متأنية ومعمقة لاستطعنا أن نقدم للبحث العلمي وللإنسانية خدمة كبيرة من خلال توجيه مشاريع البحث العلمي الوجهة الصحيحة والأكيدة، فهذا منطلق علماء المسلمين الأوائل الذين أجادوا وأبدعوا، ونجحوا وافلحوا من خلال إيمانهم بان علمهم كله ديني، فتعلمه وتعليمه عبادة.

وتأسيسا على ما سبق، ومن خلال التشريف القرآني والنبوي للعلم والعلماء، والذي تضمنته العديد من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، نرصد العلاقة الوطيدة بين الإسلام والعلم بأنها علاقة تكامل وتعاضد، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)[4]، فالعلم في الإسلام دين والدين الإسلامي علم.

وسوف تتناول هذه الدراسة التعريف بالعلم والعالم والهدف من العلم ومكانة العلماء عند المسلمين، وكذلك فلسفة العلم في الإسلام، والتعرض إلى بعض الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية للتأكيد على العلاقة الوطيدة بين العلم والإسلام. وتخلص إلى مناقشة تصنيفات العلماء لأنواع العلوم: دينية ودنيوية، كونية وإنسانية، ولكننا نرى بأنه لا يوجد في الإسلام فصل بين علوم دينية ودنيوية، وان كل العلوم هي علوم دينية، فالفيزيائي والطبيب والاجتماعي والتربوي والفقيه يتفكر ويدرس هذا الكون من اجل عبادة الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)[5].

---

* محاضر في الدراسات العليا- قسم التربية جامعة القدس - القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)
** محاضر في كلية العلوم - قسم الفيزياء جامعة القدس - القدس (انظر السيرة الذاتية في نهاية البحث)

[1] سورة آل عمران آية ١٨.

[2] لم يوثق المقال هذه الدراسات، ولا يعرف من هم العلماء الذين قاموا بها، ولا كيفية توصلهم إلى هذه النتيجة! (المحرر)

[3] سورة الحديد آية ٢٥

[4] سورة فاطر آية ٢٨

[5] سورة الذاريات آية ٥٦

المقدمة

كانت الرسالة السماوية الأولى التي استقبلها نبي هذه الأمة عليه الصلاة والسلام هي كلمة «اقرأ»، فكانت مفتاح رسالة الإسلام الخالدة، وبدايتها الأولى، وركيزة أساسية من ركائزها. ومن يقرأ كتاب الله عز وجل، ويطلع على أحاديث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، في محاولة للإلمام بطبيعة موقف الإسلام من العلم والعلماء، يجد نفسه أمام حشد من الآيات البينات، والأحاديث النبوية الشريفة، الذاكرة لفضل العلم والعلماء والآمرة بالتعلم، قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[٦] وقال عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء»[٧].

وقد أشتمل القرآن الكريم على آيات عديدة وردت فيها ألفاظ: «العلم» و «العلماء» و «وأولوا العلم» و «علّم» ومشتقاتها. لهذا جاء اهتمام المسلمين بالعلم، تعليماً وتعلماً، وكان شغفهم به جزء من شغفهم وحبهم لدينهم، يقول الماوردي: «إن العلم أشرف ما رغب فيه الراغب، وأفضل ما طلب وجّد فيه الطالب، وانفع ما كسبه واقتناه الكاسب»[٨]. واندفع المسلمون اتجاه العلم، تعلماً، وتعليماً، وكشفاً، وتنقيباً، ونشراً، حتى أحدثوا قفزة نوعية هائلة في شتى نواحي الحياة، ويشير محمود[٩] إلى أن هذه القفزة جاءت نتيجة للأفكار النيرة التي جاء بها الإسلام عن هذا الكون المسخر للإنسان، والتي كان لتأثيرها دور كبير في دفع عجلة العلم سريعاً إلى الأمام، بمعنى أنها جاءت نتيجة العلاقة العضوية بين الإسلام والعلم.

لقد بعث الإسلام نهضة علمية رائدة، أضاءت الطريق أمام البشرية، حيث أقبل المسلمون بداية على تعلم وتعليم القراءة والكتابة، وتدارس القرآن، ثم نشأ علم التفسير والحديث، والسيرة، وأبدعوا في علوم الحساب، والفلك، والطب، وتعلموا رمي السهام، وركوب الخيل، والصناعات الحربية وغيرها، بهدف إعداد أبناء المسلمين ليكونوا علماء مختصين في كل مجالات الحياة، ويحققوا مقاصد الشريعة الإسلامية من خلال تسخير هذا الكون للإنسان وإعماره له بكيفية فيها سعادة البشرية في الدارين.

وبلغ من اهتمام المسلمين بالعلم والمعرفة العلمية، أن أصبحت مدارسهم وجامعاتهم من أبرز مظاهر الحياة في بلادهم، وأصبح علماؤهم الفئة المرموقة التي تحظى باحترام الجميع، فقد ورد في الأثر أن خليفة المسلمين هارون الرشيد صب الماء على يدي أبي معاوية الضرير إجلالاً لعلمه[١٠]. ولم تكن عناية المسلمين بالعلم وتشجيعهم للعلماء مقتصرة على نوع معين من أنواع العلوم، بل كانت للعلوم جميعها، وإن كانت للعلوم الشرعية أفضلية على غيرها. والملاحظ أنه لم تعن أمة من الأمم ولا حضارة من الحضارات بالعلم والعلماء، كما عنيت الأمة الإسلامية، وذلك لأن العلم عند الأمم الأخرى إنما يكون لغايات معيشية دنيوية، وأما أمة الإسلام، فأهمية العلم لها تكمن في كون العلم باب إلى معرفة الله تعالى وحسن عبادته، وبه تصلح دنيا المرء وآخرته، وهو أساس العلاقات الإنسانية السليمة، وأساس التفكير السليم، وأساس العمل الصالح[١١].

معنى العلم

حاول العلماء والفلاسفة من عهد أفلاطون وأرسطو إلى الفارابي والغزالي، حتى علماء العصر الحديث أمثال كانط وهيوم أن يعطوا تعريفا جامعا مانعا لمفهوم العلم، فكلمة «العلم» من المصطلحات الواسعة الانتشار قديما وحديثا، وسنبدأ بالمعنى اللغوي لهذا المصطلح:

فالعلم لغة: من الفعل علِم، ولفظة «العلم» من الألفاظ المشتركة، فتأتي بعدة معاني: اليقين، والخبر من القران والسنة، وتأتي بمعنى المعرفة، فيقال علم الشيء عرفه، قال تعالى: (قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ)[١٢].

واستنادا إلى هذا المعنى (المعرفة) نقول: علم اللغة وعلم أصول الفقه، وعلم الأحياء....

العلم اصطلاحا: المعنى اللغوي هو الأصل في استعمال الألفاظ، إلا انه إذا اصطلح على وضعه لمعان أخرى لها علاقة بالمعنى اللغوي فجائز، ولما كان المعنى اللغوي هو السائد، كان القدماء يطلقون لفظ العلم على كل معرفة مهما كان نوعها، ولا يفرقون بين العلوم والمعارف ثم أصبح معنى العلم يتحدد بمعارف معينة دون غيرها، فصار له معنى اصطلاحيا، وارتبط هذا المعنى بالتقدم في مجال استكشاف الطبيعة: مكوناتها وظواهرها وقوانينها وخصائصها ولعل أقدم تعريف «للعلم»، وفق هذا التصور، يعود إلى القرن السابع عشر الميلادي عندما اقترح فرنسيس بيكون بأن العلم يعني السيطرة على الطبيعة[١٣].

وجاء في المعجم الوسيط أن العلم حديثا يطلق على العلوم الطبيعة التي تحتاج إلى تجربة ومشاهدة واختبار، سواء أكانت أساسية

---

[٦] سورة المجادلة آية ١١

[٧] أبو داود، سليمان بن الأشعث، (ت ٢٧٥ هـ). سنن أبي داود، بيروت: دار إحياء التراث.

[٨] الماوردي، أبو الحسن البصري، (ت ٤٥٠هـ). أدب الدين والدنيا، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

[٩] محمود، يوسف، (٢٠٠٠). سيسيولوجيا العلم والتكنلوجيا، عمان: دار وائل للطباعة والنشر.

(Science) وتعني عندها العلم المادي التجريبي.

الثاني: التصور الذي يطلق مفهوم العلم على كل معرفة، ويقابلها بالإنجليزية (Knowledge) بغض النظر عن موضوعها والمصدر الذي تستقي منه سواء أكانت الحواس أو العقل أو الوحي.

وفي بحثنا هذا يمكن الأخذ بالمعنى اللغوي لمفهوم العلم والذي لا يتعارض مع أي من المعاني الاصطلاحية، ويتفق والتصور الثاني، والقول بان المقصود بكلمة «العلم» هنا، المعرفة، سواء أكانت معرفة تجريبية أو غيرها، سواء أخذت بطريقة الملاحظة والتجربة والاستنتاج أو بطريقة التلقي والإخبار، فكلها معرفة، فنقول: علم الفيزياء أي المعرفة في مجال الفيزياء، وعلم الفقه، أي المعرفة في مجال الفقه، وعلم التاريخ أي المعرفة في مجال التاريخ، بغض النظر عن طريق الحصول على هذه المعارف. يقول السفاريني[15] أن العلم هو المعرفة.

العلم وفق التصور الإسلامي

إن مفهوم العلم وفق التصور الإسلامي مفهوم واسع وشامل وما العلم التجريبي إلا جزء يسير من هذا التصور، والعلم الإلهي هو الأصل في هذا التصور، قال تعالى: (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)[16] وقال تعالى: (وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً)[17]، ومفهوم العلم وفق هذا التصور هو معرفة قوانين الله في الكون وتطبيقاتها، وهو الإدراك الشامل الذي يحيط بحقائق الأشياء والوجود من حيث انه وجود، محسوسا شاهدا أم غائبا غير مشاهد للإنسان[18].

العلماء

لغة: العلماء جمع عالم من علم، والعالم لغة هو العارف بحقيقة الشيء أو الأمر، فكل من عرف حقيقة شيء أو أمر فهو به عالم.

اصطلاحاً: العالم اصطلاحاً هو كل من اشتغل بعلم وعرفه وصار به عالماً ومرجعا، وشهد له ذوو الاختصاص بالتميز والإبداع، كعالم اللغة، وعالم الذرة، وعالم الفضاء، سواء أكان مسلماً أم

«العلماء» وفق المفهوم الشرعي: العالم وفق المفهوم الشرعي هو كل من اشتغل بعلم فصار به عالماً ومرجعا، وتميز بالإبداع والابتكار، وكان مؤمناً بالله ودينه الذي انزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقاده علمه هذا إلى خشية الله تعالى. قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء)[19]، وقال عليه الصلاة والسلام: «العلماء ورثة الأنبياء»[20].

فالعلماء الذين استحقوا أن يكونوا ورثة الأنبياء، هم الذين يخشون الله في السر والعلن، وفي القول والفعل، والخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون على علم بما يخشى منه، لذلك خص به العلماء. يقول كلشني[21]: «من لا إيمان لهم لا تشملهم الآية الكريمة: (إنما يخش الله من عباده العلماء)، وإن كانوا مطلعين على بعض العلوم الطبيعية، فالعلم يجب أن يكون باسم الله (اقرأ باسم ربك الذي خلق).

فكل عالم، بأي فرع من فروع المعرفة، عرف الله وسخر علمه لخدمة الإنسانية، وفق أوامر الله ونواهيه، وخشي الله في السر والعلن، هو العالم الذي نطقت به الآية الكريمة (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، أما العالم الذي بحث واكتشف وألف، وأبدع وذاع صيته وحاز على جوائز الدنيا، ولكنه لم يخش الله، فأنى له أن يكون من ورثة الأنبياء أو ممن يشفعون يوم القيامة؟! فهذا العالم هو عالم وفق المعنى الاصطلاحي «للعلماء» فقط.

تصنيف العلوم (المعارف)

وردت تصنيفات عديدة للعلوم وفق اعتبارات مختلفة، فهناك من قسمها إلى:

- **علوم دينية:** وتختص بالعلوم الشرعية المتعلقة بالقرآن والسنة النبوية، كعلم التفسير، وعلم أصول الفقه، وعلم الحديث وغيرها.
- **علوم دنيوية:** وتختص بالعلوم ذات العلاقة بالحياة الدنيا وما يلزمها مثل: الرياضيات، والطب، والكيمياء، وغيرها. ومنهم من صنفها إلى:

---

[14] أنيس، إبراهيم، ومنتصر، عبد الحليم، والصوالي، عطية، وأحمد، محمد خلف الله (١٩٧٢). المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: القاهرة.
[15] السفاريني، محمد بن احمد (ت ١١٨٨هـ).لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، دار الخاني للنشر والتوزيع:الرياض.
[16] سورة يوسف، آية ٧٦
[17] سورة الإسراء، آية ٨٥
[18] امام، زكريا بشير (٢٠٠٢)، فلسفة العلم من منظور إسلامي، الخرطوم: دار السداد.
[19] سورة فاطر آية ٢٨
[20] أبو داود، سليمان بن الأشعث، (ت ٢٧٥ هـ). سنن أبي داود، بيروت: دار إحياء التراث.
[21] كلشني، مهدي، (١٩٨٩). القرآن ومعرفة الطبيعة، بيروت: دار الأضواء.

- **علوم فرض عين**: أي أن تعلمها فرض عين على جميع المسلمين، وهذه تشمل العلم اليقيني المتعلق بالعقائد والذي هو فرض على كل مؤمن، إضافة إلى العلوم التي تلزم المسلم للقيام بواجباته وممارسة حياته اليومية، كتعلم أحكام العبادات، والأخلاق، وما يتعلق بمطعوماته وملبوساته ومعاملاته، ولا يقبل منه الجهل حين القيام بالعمل، بل لا بد أن يعرف ويعلم الحكم الشرعي قبل القيام بالعمل.

- **علوم فرض كفاية**: أي أن تعلمها فرض كفاية على المسلمين، فإن تعلمها من أقامها في المسلمين، فقد تحقق الطلب، كعلوم الطب والهندسة، وأصول الفقه، ولكن بشرط تحقق الكفاية، بمعنى أن تكون الأمة الإسلامية في أي من هذه المجالات قد حققت كفايتها، والملاحظ من خلال التسابق والتنافس بين الدول في هذه المجالات، أن الأمر يستلزم المزيد من العلم والعلماء في هذه المجالات وباستمرار.

وهناك من صنف العلوم إلى:

- **علوم محمودة**: وهي العلوم التي يحمد الإنسان على تعلمها ويثاب عليها، وترتبط بها مصالح الدنيا وأمورها، كالطب والحساب وغيرها.

- **علوم مذمومة**: وهي العلوم التي لا يجوز للمسلم أن يمتهنها أو يتعلمها كصناعة التنجيم والسحر والشعوذة، والبحث في موعد يوم القيامة، وهذا التصنيف (عندهم) للعلوم غير الشرعية، أما العلوم الشرعية فهي محمودة كلها.

وهناك تصنيف آخر ومهم لأنواع العلوم، حيث تم تصنيفها إلى:

- **العلوم الطبيعية**: وهي العلوم التي تتعامل مع الظواهر الطبيعية، والبحث فيها من خلال التجربة والمشاهدة والاستنتاج مثل: علوم الفيزياء، والفلك، والأحياء، والجيولوجيا وغيرها.

- **العلوم الإنسانية والاجتماعية**: وهي العلوم التي تتناول الإنسان وما يتعلق بحاجاته العضوية وغرائزه، وعلاقته بالإنسان، كعلم النفس، والتربية والاجتماع والتاريخ، والدين واللغة وغيرها.

ونرغب هنا التعليق على التصنيف الأول (دينية ودنيوية) والتصنيف الأخير (طبيعية وإنسانية):

أما بخصوص التصنيف الأول بتقسيم العلوم أو المعارف إلى دينية ودنيوية، فنرى بأن هذا التقسيم بحق المسلم غير دقيق، فالعلوم بحقه لا بد وأن تكون كلها دينية، لأن غايته دينية، فلا بد إذن أن يكون قصده بتعلمه أي من العلوم هو قصد ديني، فتعلم الطب والفيزياء والفقه والتفسير وصناعة الأسلحة، كلها لا بد وأن يكون بقصد ديني، فالمسلم خلق للعبادة، وهذه العبادة لا بد وأن تتمثل في سلوكياته جميعها، المعاملات والأخلاق، الأقوال والأفعال، التعليم والتعلم، قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[٢٢].

فتقصير المسلم في تعلم علوم الذرة أو علوم الفضاء أو العلوم العسكرية، كونها علوم دنيوية كما يقولون، لا يعفيه من الإثم، وما دام سيحاسب على ذلك فهي علوم دينية. وكيف تتحقق الخيرية في الأمة الإسلامية إذا لم تبدع في علوم الدنيا هذه؟ وكيف لها أن تحمل الإسلام وتنشره إلى العالم وتدافع عن ثغورها إذا لم تكن مبدعة في كل العلوم والمعارف، سواء أكانت فرض عين أم فرض كفاية.

والملاحظ لحال الأمة الإسلامية يرى ما ترتب على هذا الفصل للعلوم (دينية ودنيوية)، فالإنتاجية العلمية من البحث والاختراع والابتكار شبه معدومة، ولا ترى الأمة الإسلامية أن هذا تقصيراً دينياً تسأل عنه يوم القيامة، فالباحث في مجال الكيمياء مثلاً لا ينظر إلى إنتاجه العلمي إلا بمقدار ما يحقق له هدفاً دنيوياً، لأنه علم دنيوي في نظره، ولا يربط ذلك بالثواب والعقاب إلا من رحم ربي.

ونرى أن هذا الفصل بين علوم الدين والدنيا، أدى إلى ما يمكن تسميته (علمانية العلوم)، وهي حالة أشبه «بعلمانية الدولة» المتمثلة بفصل الدين عن الدولة، فمن خلال علمانية الدولة تم فصل الدين عن واقع الحياة، وتم حصر الدين في جوانب محدودة من حياة الناس، مثل العبادات والأحوال الشخصية، ونودي بان لا علاقة للدين بحياة الناس العامة، ومن خلال علمانية العلوم تصور البعض أن علوم الدنيا لا علاقة لها بالدين، والعالم بعلوم الدنيا لا تلزمه قواعد الدين بشيء، سواء أهمل أو قصر أو كان علمه لغير الله، فلا يتمثل العالم بعلوم الدنيا، وفق هذا الفصل، خدمة الإسلام والمسلمين، بمقدار ما يبحث عن النتائج العلمية وإمكانية نشرها، وحصوله على ترقية، أو جائزة علمية، أو سمعة في مجال تخصصه. ونظن بان هذه العلمانية في العلوم كانت سببا من أسباب التخلف العلمي الذي تعيشه الأمة الإسلامية هذه الأيام[٢٣]، فالعلوم جميعها بحق المسلمين هي علوم دينية ما دامت نافعة للبشرية، وقصد المسلم بتعلمها وجه الله سبحانه وتعالى وخدمة عباده وتعمير أرضه، فقد كان تعلم وتعليم الحساب والفلك والطب والجغرافيا عند المسلمين، كما هو الحال في تعلم وتعليم السيرة واللغة والفقه وعلم الحديث كله لنيل رضوان الله، ولخدمة المقاصد العليا للدين، ورفعة شان الأمة الإسلامية بين الأمم حتى لا تكون ضعيفة ومقهورة.

يشير حامد[٢٤] إلى أن جميع أصناف العلوم مهما كان تشعبها تقع تحت عنوان «العلم الإسلامي» الذي يستوعب كل أصناف العلوم، هذه العلوم منساقة نحو غاية واضحة ومتجهة نحو

ولو تفحصنا آية (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، لوجدنا أنها تتحدث بداية عن علوم طبيعية وليست شرعية أو دينية، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)[٢٥]، فالعلماء هنا والذين يخشون الله يتفكرون في الظواهر الطبيعية وفي صنع الله ونعمه.

أما تصنيف العلوم إلى طبيعية وإنسانية، فالمعلوم أن العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والطب علوم محايدة لا يؤثر فيها اختلاف الأجناس والأوطان والأديان، فهي من المعارف العامة التي لا تختص بأمة من الأمم ولا بجنس من الأجناس ولا ترتبط بثقافة ولا بحضارة دون غيرها. فأخذها والاستفادة منها أمر جائز لا بل قد يكون واجباً في بعض الأحيان، فالقوانين التي تتحكم بالظواهر الطبيعية هي نفسها ولا تختص بأمة أو ملة.

أما العلوم الإنسانية والاجتماعية، فهي من العلوم أو المعارف المرتبطة بحياة الإنسان وسلوكه وعلاقاته مع أبناء جنسه، وتختلف هذه باختلاف وجهة نظر الشعوب عن الحياة وباختلاف عقائدهم وفلسفاتهم. لهذا ارتبطت هذه العلوم بثقافات الأمم والشعوب وأصبحت جزءا من كيانها وتعبيراً عن هويتها، وما دام للأمة الإسلامية هويتها الخاصة وثقافتها المميزة وحضارتها الأصيلة والفريدة أصبحت ملزمة في هذا المجال بعلومها ومعارفها الخاصة والتي جاء بها دينها الحنيف، فلغتها وتاريخها وعاداتها وتقاليدها ودينها وسلوك أفرادها وأخلاقهم ونهجهم في الحياة، كل هذا لا بد وأن يكون إسلاميا. وفي هذا المجال يشير القرضاوي في تقديمه لكتاب البدري إلى أن الذين يزعمون أن هذه العلوم (يعني الإنسانية) عالمية وإن نشأت في الغرب يكذبهم الواقع ويكذبهم مفكرو الغرب أنفسهم[٢٦].

أهداف العلم

يهدف العلم التجريبي إلى (وصف) المشاهدات والملاحظات عن الواقع المحسوس وما يقوم بينهما من علاقات، وكذلك الكشف عن علل الأشياء (التفسير) وأسباب وقوع الحوادث والتنبؤ بها مستقبلا، ثم السيطرة على الطبيعة وتسخيرها لمصلحة الإنسان ما أمكن.

وهذه الأهداف هي أهداف عامة ترنو إليها البشرية بجميع أجناسها، أما الأمة الإسلامية فلها أهدافها الخاصة الإضافية، والتي تضاف إلى الأهداف العامة هذه، فهدف العلم والمعرفة عند المسلمين هو تمكين الإنسان من عمارة الأرض وترقيتها وفق منهج الله واكتشاف أسرار هذا الكون والإطلاع عليها، ليتعرف على قدرة الخالق وبديع صنعه من خلال ملاحظة خلق الله، فكل ما هو حول الإنسان ويقع عليه حسه لا يخلو من أن يكون محل تفكير أو محل تسخير وكلاهما عبادة.

فالتفكير والتأمل: في مخلوقات الله تقود إلى الإيمان، فقد دعا الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى التفكر والتأمل في النفس البشرية، وما خلق الله فيها من أجهزة وأعضاء وحواس، قال تعالى: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[٢٧]، ثم دعاه للتأمل فيما حوله من مخلوقات ومن ظواهر كونية ليكون له فيها ما يدعوه إلى الإيمان بربه والإقرار له بالوحدانية. لقد أودع الله فينا العقل لنتفكر فيما خلق ونتعرف عليه بآثارة الدالة عليه من خلال مسلمات موجودة تحت حس الإنسان وفي مجال إدراكه، قال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا)[٢٨]، فدعا رب العزة بني الإنسان إلى التفكر في السماوات والأرض والليل والنهار والكواكب والنجوم والسهول والجبال والأنعام والبرق والرعد ونزول المطر والرياح والفلك التي تجري في البحر بأمره، ونمو المزروعات والأشجار والموت والحياة، فهو يبسط لهم الأمثلة من حياتهم ليتخذوا منها الدليل القاطع والحجة القوية على وجود الله ويعترفوا بعجزهم أمام خالقهم. قال تعالى:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ..... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)[٢٩]، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ)[٣٠]. فالتفكر في خلق السماوات والأرض وما بينهما، وما يقع عليهما من أحداث هو عبادة، لا بل من أعظم العبادات التي دعا إليها الإسلام، فهي سياحة وجدانية تحيي القلوب وتنير البصائر عندما يعبر الذهن من آيات الله في الكون إلى خالقها ومدبرها، وهذا هو المعنى

---

[٢٥] سورة فاطر الآيات ٢٧-٢٨

[٢٦] بدري، مالك (١٩٩٥) التفكر من المشاهدة إلى المشهود، الدار العالمية للكتاب الإسلامي: الرياض.

[٢٧] سورة فصلت آية ٥٣

[٢٨] سورة الحج آية ٤٦

[٢٩] سورة البقرة آية ١٦٤

[٣٠] سورة الزمر آية ٢١

الحقيقي للاعتبار. وهذا التفكر إن لم يؤد إلى معرفة علمية تنتفع بها البشرية، يظل عبادة ينتفع بها كل من فكر ولو بذرة من خلق الله، تفكير المؤمن العابد.

أما التسخير فهو ملمح أساسي من ملامح الرؤية الإسلامية للكون والإنسان والحياة ويحتم اعتماد العلم لتحويله إلى حقيقة واقعة. فبعد أن خلق الله الكون والإنسان والحياة وأودعها نظاماً تسير عليه، طلب من الإنسان أن يعمل عقله وعلمه للاستفادة من هذا الكون، ويتعامل معه تعاملاً ايجابياً فاعلاً. فالتسخير، وفق الرؤية الإسلامية، يهدف إلى تحقيق أكبر قدر ممكن من إمكانيات الطبيعة من أجل خدمة الإنسان في الأرض. فقد اشتمل القرآن الكريم على ما يقارب (٧٥٠) آية تحث على إعمال الفكر في هذا الكون وما فيه من مخلوقات مسخرة للإنسان، هذا الكون الذي هو ميدان العلوم الطبيعية. فتسخير الكون لا يعدو عن أن يكون عبادة لله سبحانه وتعالى، وهو ليس قهراً للطبيعة ولا عبادة لها، فصلة المؤمن بالكون ومخلوقاته تختلف عن تلك الصلة الجاحدة للعلماء الماديين، يقول سيد قطب في الظلال[٣١] عن علاقة الإنسان بالطبيعة: «إن المسلم الموصول القلب بربه الرحمن الرحيم يؤمن بأن هناك علاقة أخرى غير علاقة الجفوة والقهر، أنه يعتقد أن الله مبدع هذه القوى جميعاً وأنه سخرها للإنسان ابتداء، وعلى الإنسان أن يشكر الله كلما هيأ له أن يظفر المعونة من إحداها، فالله هو الذي يسخرها، (وسخر لكم ما في السماوات والأرض)[٣٢].

فالطبيعة، وفق المنظور الإسلامي، ليست قوة قاهرة لا حيلة للإنسان إزاءها، ولا هي خصم عنيد يتوجب غزوه وإذلاله، بل هي خلق من مخلوقات الله سخرت للإنسان من أجل أن يبني ويعمر وينشئ ويطور، لا أن يفتك ويتحدى ويدمر، فعلاقة المسلم مع الكون هي علاقة وفاق لخدمة الأهداف الإنسانية، وفق منهج رباني تحكمه أخلاق وقيم هي من عند خالق هذا الكون، وكثيرة هي آيات القرآن الكريم التي توضح هذه المعاني، وتلفت نظر الإنسان إلى نعم الله التي لا تعد ولا تحصى، وما على الإنسان إلا أن يستفيد منها وفق أحكام الله وشريعته، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً)[٣٣]، وقال تعالى: (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ)[٣٤]، وقال تعالى: (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ)[٣٥]، وقال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)[٣٦]، وقال تعالى: (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)[٣٧]، وقال تعالى: (وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ)[٣٨]. إن تأكيد القرآن الكريم هذا، وفي مواضع أخرى عديدة، على تسخير الكون والطبيعة للإنسان إنما يمثل دعوة ملحة إلى اعتماد التطبيق العلمي للإفادة من هذا التسخير في أوسع مجالاته، فليس غير العلم بقادر على فهم وإدراك السنن والقوانين التي يعمل العالم والطبيعة بموجبها[٣٩].

والتفكير والتسخير يقودان الأمة إلى الخيرية المنشودة في قوله تعالى: (كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ)[٤٠]، فالأمة الإسلامية مدعوة كل حين لتكون خير أمة أخرجت للناس، ولن تكون كذلك إلا إذا قادها تفكيرها المستنير إلى إيمان يقيني لا شك فيه، إيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، تتمثله في كل حركاتها وسكناتها ولا يغيب عنها طرفة عين، تقويه بالتفكير الدائم في ما حولها من آيات الله ومخلوقاته، فكلما علمت علماً أدركت به عظمة الخالق وبديع صنعه، وتتقوى نفسيات أبنائها بالتفكر في الموت والبعث والحساب والعقاب، وأن الإنسان مهما عظم شأنه ومهما علا، سيبقى صغيراً أمام عظمة الله وقدرته، وأن مصيره إلى تراب، تأكله دودة الأرض، والكل سواء، لا فرق بين رئيس ومرؤوس ولا بين غني وفقير.

فالتفكر في هذه الجوانب تتحقق من خلاله الجوانب المعنوية للخيرية المقصودة، أما التسخير فتتحقق من خلاله الجوانب المادية للخيرية، فالإسلام يدعو الجماعة المسلمة إلى الاكتشاف والاختراع والى المزيد من التطبيقات العلمية لبناء كيان قوي للأمة الإسلامية، تهابه الأمم الأخرى، قال تعالى: (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ)[٤١]. وهذه القوة لن تتحقق إلا من خلال

---

[٣١] سيد قطب (١٩٦٧) في ظلال القران، ط٥، جزء ١.
[٣٢] سورة الجاثية، آية ١٣
[٣٣] سورة البقرة آية ٢٩
[٣٤] سورة الأعراف آية ١٠
[٣٥] سورة الحج آية ٦٥
[٣٦] سورة الملك آية ١٥
[٣٧] النحل، آية ٥
[٣٨] سورة الحديد آية ٢٥

دين جاء بالرحمة للبشرية جمعاء.

مصادر الحصول على المعرفة (العلم)

حاول الإنسان منذ بداياته الأولى الاهتمام بظواهر الطبيعة التي يلمسها بحواسه المختلفة والبحث عن تفسيرات لهذه الظواهر وعن إجابات لأسئلة تواجهه، والبحث عن حلول لمشكلات قد تعترض طريق حياته وعيشه، فاتخذ الإنسان أساليب متعددة في محاولاته لتحقيق هذه الأهداف، وحاول العلماء تحديد هذه الأساليب، والتي سميت فيما بعد بمصادر الحصول على المعرفة (العلم)، بمعنى من أين للإنسان أن يحصل على المعرفة؟

يرى فان دالين[٤٢] أن من الأساليب التي استخدمها الإنسان قديماً، لفهم البيئة ومشكلاتها ومعالجاتها: المحاولة والخطأ، والتفكير بطريقتي: التفكير القياسي والاستقرائي، أما حديثاً فهناك الطريقة العلمية التي تقوم على المشاهدة والحس والتجربة، في حين يحدد كل من كوهين ومانيون[٤٣] أن الإنسان يمكن أن يحصل على معرفة من خلال الخبرة الشخصية، والتفكير المنطقي والبحث العلمي، واعتبرا الخبرة الشخصية الوسيلة الأولى التي استخدمها الإنسان كمصدر للمعلومات التي بحث فيها في موقف معين لحل مشكلة معينة.

ويمكن حصر مصادر المعرفة الواردة من خلال الأدب التربوي[٤٤] في مصدرين اثنين هما: العقل والنقل، أما المحاولة والخطأ، والتفكير بأنواعه، والطريقة العلمية، فتصنف كلها ضمن مصدر العقل، أما الاستعانة بخبرات السابقين وموروثهم والعرف والتقاليد فهي من النقل.

ومن خلال استقراء أنواع المعرفة، وفي ظل حديثنا عن المعرفة بشكل عام، في ظل المنهج الإسلامي الشامل، يمكن تصنيف مصادر الحصول على المعرفة، بمعنى المصادر التي نستقي منها المعرفة ونكتسب منها العلم، إلى ثلاثة مصادر هي: العقل والنقل والوحي.

فالعقل: مصدر من مصادر الحصول على المعرفة، من خلال التفكير في المدركات وباستخدام الحواس السليمة ومن خلال الأشياء والقيم والأفكار، ويعالج اللغة ويتفحص التاريخ ويتعامل مع الوقائع السياسية ويجتهد في النصوص الشرعية ليستنبط الأحكام الشرعية، كل ذلك من خلال العقل.

أما النقل: فهناك الكثير من المعارف تنقل من السلف إلى الخلف فتتوارث عن طريق الرواية الشفهية أو المكتوبة، وقد تكون روايات ظنية وقد تكون قطعية، فالنقل أسلوب من أساليب الحصول على معارف جديدة للإنسان، تأخذ منها الأمم والشعوب بمقدار ما يلزمها، فاللغة والتاريخ والعادات والقيم والدين كلها وصلت إلى الأجيال اللاحقة من الأجيال السابقة ولا مجال للبحث التجريبي في هذه الميادين.

أما الوحي: إن الوحي الإلهي مصدر هام من مصادر الحصول على المعرفة ولا يمكن إنكاره، فالقرآن الكريم والسنة النبوية هما المرجعان الأساسيان في حياة الأمة الإسلامية، فيهما من أنباء الغيب الذي لا تدركه الحواس ولا يمكن اختباره بالتجربة والمختبر، وفيهما أحكام شرعية لحياة المسلمين هي ممارسات حياتية لا يكتمل إسلامهم إلا بها، والكثير منها غير قابل للتعليل أو المناقشة العقلية، بل هو وحي يوحى نأخذه كما جاءنا بالقطع واليقين. وما فيهما من أخبار الأمم الماضية نصدقه كما جاء ولا نزيد، إضافة إلى إشارات ودلالات علمية تتعلق بالكون والإنسان والحياة للتفكر والتأمل من جهة، ولتحقيق قضاء الله بتسخير هذا الكون للإنسانية جمعاء رحمة من رب رحيم.

إن إغفال أي من هذه المصادر والإصرار على حصرها في عنصر المشاهدة والتجريب والعالم المحسوس يعني التنكر للجانب الأهم من حياة الإنسان ألا وهو الجانب الروحي، ويعني التنكر لعالم الغيب بأسره وهو عالم البقاء والخلود.

يقول عبد الماجد[٤٥]: «إن العلم الذي نتعامل به والذي يشيع الآن وله الغلبة والسيطرة علم مصاب بثلاث علل:

الأولى: علم ينطلق من الإنسان، ومصدره الإنسان وحده.

الثانية: يستبعد من مصادر المعرفة مصدر الغيب ويحصرها في جانب الحس والمشاهدة.

الثالثة: علم يرتبط بالدنيا ويهمل جانب الآخرة».

---

[٤٢] فان، دالن (١٩٩٦)، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد نبيل نوفل وزملاؤه، مكتبة الانجلو مصرية: القاهرة.

[٤٣] كوهين، لويس، ومانيون، لورنس (١٩٩٠)، مفاهيم البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ترجمة: كوثر كوجك ووليم عبيد، الدار العربية للنشر والتوزيع: القاهرة.

[٤٤] جابر، عبد الحميد جابر، وكاظم، احمد خيري (١٩٩٦). مناهج البحث في التربية وعلم النفس، دار النهضة العربية: القاهرة.

عبيدات، ذوقان، وعدس، عبد الرحمن، وعبد الحق، كايد (١٩٩٦): البحث العلمي مفهومه وأدواته وأساليبه، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: عمان.

ابوعلام، رجاء محمود (٢٠٠١). مناهج البحث العلمي في العلوم النفسية والاجتماعية، دار النشر للجامعات: القاهرة.

[٤٥] عبد الماجد، عبد الباسط (١٩٩٨)، مفهوم التأصيل في التربية، ورقة مقدمة إلى ندوة تأصيل الكتاب الجامعي وأسلمته، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، بتاريخ ٢٨ ديسمبر.

ويرى بأن هذه العلل تجعل بين هذا العلم وبين الإسلام منطقة تنازع وتخالف، لأن العلم في الإسلام مصدره الله ومصدره المشاهدة. ويشير ريان[٤٦] إلى أنه إذا التقى العقل والوحي أفرزت البشرية النافع والمفيد من المعرفة عن عالم الغيب وعالم الشهادة (الكون)، فالقرآن والعقل يأتلفان ولا يختلفان. والمعرفة التي يكتسبها الإنسان من خلال مصادرها قد تكون يقينية (قطعية) وقد تكون ظنية، فما يتلقاه الإنسان من الوحي فهو اليقين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ما دام قطعياً في دلالته، أما ما يتلقاه الإنسان من خلال حواسه ومشاهداته فهو عرضة للخطأ والصواب.

الطريقة العلمية

إن التعرف إلى مصادر المعرفة يستلزم التعرف إلى المنهج الذي يتبعه الإنسان للوصول إلى هذه المعرفة، والمنهج هو الطريقة التي تدرك بها المعلومة أو الحقيقة. ويختلف المنهج المتبع في الوصول إلى المعرفة باختلاف المصدر الخاص بتلك المعرفة، فالمنهج المتبع في مجال العلوم التي تأتي عن طريق الوحي، لا بد وأنه سيختلف عن المنهج المتبع في مجال العلوم التجريبية مثلا.

وإحدى طرق الوصول إلى المعرفة هي الطريقة العلمية والتي تحظى بالنصيب الأكبر من الاعتبار في إطار الحضارة الغربية السائدة. وهي منهج معين في البحث يسلك للوصول إلى معرفة حقيقة الشيء الذي يبحث عنه من خلال الملاحظة والتجربة والاستنباط القائم على المقدمات العلمية، ولا تكون إلا في المحسوسات ولا يتأتى وجودها في غيرها كالأفكار والغيبيات، فهي خاصة بالعلوم التجريبية.

وفي مقدمة من وضع دعائم هذا المنهج في أوروبا روجر بيكون (١٢١٤-١٢٩٤) والذي دعا إلى استخدام الملاحظة والتجربة للوصول إلى الحقائق العلمية، واكتملت صورة التفكير العلمي (الطريقة العلمية) في أوروبا من خلال تاريخها الحديث، ويرجع الفضل إلى جهود عدد كبير من المفكرين والباحثين أمثال: فرنسيس بيكون، وجون ستيوارت ميل، وكلود برنارد. وحدد فرنسيس بيكون قواعد هذا المنهج وخطواته من خلال كتابه الأرجانون الجديد[٤٧] (New Organon). والمنهجية في الطريقة العلمية تتم من خلال استخدام مجموعة من الخطوات المنظمة تتمثل في العناصر التالية: الملاحظة العلمية (الشعور بالمشكلة وتحديدها)، والفرض العلمي، واختبار الفرض، وتكوين المعرفة العلمية.

ولنا وقفة مع الطريقة العلمية تكمن في نقطتين:

الأولى: إن النجاح الذي حققه الغرب في العلوم التجريبية من خلال الطريقة العلمية والمنهج التجريبي دعاه لأن يتبنى هذه الطريقة في تفكيره وجعلها أساسا في كل شيء، وقلده فيها سائر أبناء العالم من جراء نفوذه وسيطرته، فطغت على الناس بشكل عام، وبلغت الثقة بهذه الطريقة إلى حد التقديس لا سيما في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فكان من جراء ذلك أن وجدت قداسة في العالم الإسلامي للأفكار العلمية والطريقة العلمية، وصار العديد من العلماء يبحثون أمورا لا علاقة للطريقة العلمية بها على نهج الطريقة العلمية وتقليداً لها كالتعريفات، والأفكار، والقيم، والتربية، وأبحاث التاريخ، أو وجهة النظر عن الحياة.

إن الطريقة العلمية هي طريقة صحيحة وليست خطأ، فهي أسلوب من أساليب التفكير للحصول على المعرفة، ولكنها تصلح في العلوم التجريبية وحدها، كونها تعتمد المشاهدة والتجربة، فأن تجعل هذه الطريقة أساساً للحصول على المعرفة يخرج الكثير من العلوم والمعارف عن البحث ويؤدي إلى الحكم على عدم وجود كثير من المعارف والعلوم التي تدرس والتي تتضمن حقائق مع أنها موجودة بالفعل وملموسة بالحس والواقع، كالتاريخ واللغة والسياسة والفقه والتشريع، وما العلوم التجريبية (الطبيعية) إلا فرع من فروع المعرفة، وباقي معارف الحياة كثيرة وهي لم تثبت بالطريقة العلمية. وهذا يستدعي ضرورة التعامل مع الطريقة العقلية والتي تصلح للحصول على المعرفة بشكل شامل وأعم، وتكون في بحث المواد المحسوسة المدركة بذاتها كالأشياء المحسوسة والظواهر الطبيعية المحسوسة، أو في المدرك أثرها دون إدراك ذاتها، كمخلوقات الله الدالة على الخالق، وأثر الإلكترون الدال على الإلكترون، وتصلح هذه الطريقة أيضاً في بحث الأفكار، والتشريع، والعقائد، والاجتهاد وغيرها.

أما الثانية: إننا لا نقرأ ونحن نقلب صفحات تاريخ تطور الطريقة العلمية والمنهج العلمي ومسيرة تقدمه أسماء وعلماء من المسلمين، كانت لهم اجتهادات محمودة في وضع البدايات وتحديد القواعد والأصول في هذا المجال، فليس من العدل أن لا يذكر شيء مما قدمه المسلمون، فالقول بأن الطريقة العلمية أو «المنهج العلمي» هي وليدة القرن التاسع عشر أو قبل ذلك بقليل، وأنها ما كانت لتكون لولا جهود روجر بيكون وفرنسيس بيكون وغيرهم من علماء الغرب، وأنها خالصة النسب لهؤلاء، ولا تمت بصلة لغيرهم، فهذا قول يجانب الصواب ويخالف الحقيقة.

فالمنهج التجريبي أو الطريقة العلمية القائمة على الملاحظة وصياغة الفروض واختبارها ومن ثم الوصول إلى نتائج هي معارف علمية، وهذا أمر عرفه المسلمون الأوائل، إن لم يكن عرفه من قبلهم، فقد اهتم المسلمون بالعلوم التي يلزمها المنهج الاستقرائي واتخذوا الملاحظة والتجربة أداة لتحصيل

والزهراوي، والبيروني، والبتاني، وغيرهم. ويشير طوقان[٤٨] إلى أن التجارب التي أجراها جابر بن حيان وابن الهيثم والرازي والبيروني وغيرهم في الطبيعة والكيمياء اثبت أن العلماء العرب والمسلمين قد عرفوا الطريقة العلمية الحديثة التي تعد من مبتكرات هذا العقد، كما أن كتاب (المناظر) لابن الهيثم يدل على انه وجد من بين علماء العرب والمسلمين من سار في بحوثه على الطريقة العلمية، كما وجد من سبق بيكون في إنشائها، بل ومن زاد على طريقته التي لا تتوافر فيها جميع العناصر اللازمة في البحوث العلمية. ويعتبر عناية[٤٩] أن المسلمين هم أول من أرسى قواعد المنهجية الاستقرائية في العلوم التجريبية والكونية، كما استخدم علماء المسلمون في كتاباتهم ومؤلفاتهم الألفاظ الدالة على اعتمادهم منهج الطريقة العلمية.

وليس من الغرابة أن يشهد مفكرون غربيون بأسبقية المسلمين في التعامل مع الطريقة العلمية في البحث في العلوم الطبيعية، يقول(Lunde) [٥٠] بأن دراسته التي أجراها بعنوان «العلم: التراث الإسلامي» (Science: The Islamic Legacy) أثبتت وبرهنت على أن ولادة وانبعاث البحث العلمي والتطور التكنولوجي كانت من العالم الإسلامي.

البحث العلمي

يقوم البحث العلمي أساساً على طلب المعرفة وتقصيها والوصول إليها، ويستند إلى مناهج محددة في تقصيه لحقائق المعرفة، ويهدف البحث العلمي إلى البحث عن حقائق لم تكن معروفة من قبل أو استكمال حقائق عرف بعضها، أو التأكد من معرفة علمية قائمة، ويعتبر عملية اكتشاف واختراع وتحقق واثبات.

والبحث العلمي قديم قدم الإنسان ولا بد أن يكون مدفوعاً بفكرة تحركه، ومن خلال الالتزام بقضية، وكلما كان الدافع كبيراً، كلما كان الإنجاز أكبر، فقد يكون الدافع مالاً أو جاهاً أو منصباً، وقد يكون رضا الله سبحانه وتعالى، وهو الدافع الأكبر والقضية الأهم في حياة المسلم والأمة الإسلامية[٥١].

ويدور البحث العلمي هنا حول وجود الاختلاف والتباين بين كل منها، سواء من ناحية الشكل والجسم والوظيفة والعمر وكيفية التكاثر أو غيرها.

المستوى الثاني: البحث في المكونات: وهنا يتم البحث في مكونات الشيء الواحد من حيث الكم والكيف، من خلال التعمق في مكونات الشيء الواحد، ويؤدي البحث في المكونات إلى اكتشاف مكونات جديدة لم تكن معروفة، كالبحث في مكونات الذرة ومن ثم في مكونات النواة.

المستوى الثالث: البحث في العلاقات: يقوم البحث العلمي، وفق هذا المستوى، بالكشف عن العلاقات الارتباطية والسببية بين المتغيرات المعلومة في ظواهر محسوسة، لصياغة علاقات رياضية، ما أمكن، وقوانين علمية تساعد على التنبؤ والتحكم والاستفادة من هذه القوانين في بناء تكنولوجيا جديدة يستفيد منها الإنسان، كالبحث في العلاقة بين ارتفاع درجة الحرارة وتمدد المعادن، والعلاقة بين الارتفاع عن سطح الأرض وانخفاض الوزن، والعلاقة بين حجم الغاز وضغطه وغيرها كثير.

المستوى الرابع: البحث في ما وراء العلاقات: وهذا المستوى هو الأرقى من بين مستويات البحث العلمي، لا يصل إليه إلا من رغب في التفكر في خلق الله واكتشاف بديع صنعه، ينطلق من منهج رباني، ويستلهم العلم من كتاب الله وسنة نبيه، فيفكر في العلاقات الدقيقة والقوانين المنضبطة، مرة تلو مرة، ويعيد البصر كرة بعد كرة، فيربط هذه الظواهر وهذه العلاقات بما حولها من حقائق أخرى، ليصل إلى منظم هذه العلاقات وواضعها، والمسيطر على قوانين الطبيعة، من أصغر ذرة حتى أكبر مجرة، يقول بدري: إن مشكلة العبور من الظواهر الكونية إلى خالقها تمثل الفرق الأساسي بين العالم التجريبي المسلم وغير المسلم[٥٢]، ويرى الباحث الخليفة[٥٣] أن كلمة علماء في القرآن تشمل علماء الطبيعة إذا فهموا دلالات علمهم وربطوا بين عالم الشهادة وعالم الغيب. فالعالم المسلم، ومن خلال بحثه عن المعلومة العلمية، لا بد وأن يلتزم بأمرين:

---

[٤٨] طوقان، قدري حافظ (١٩٨٧) العلم مع الحياة، مكتبة المعارف: بيروت.

[٤٩] عناية، غازي حسين (١٩٩٠). مفاهيم البحث العلمي في الإسلام، دار الجيل:بيروت.

[50] Lunde, Paul; and others (1986). Science: The Islamic Legacy(ERIC Document Reproduction Service No.289720)

[٥١] الفاروقي، إسماعيل (١٩٨٤)، أسلمة المعرفة، المبادئ العامة وخطة العمل، ترجمة عبد الوارث سعيد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار البحوث العلمية: الكويت.

[٥٢] بدري، مالك (١٩٩٥) التفكر من المشاهدة إلى المشهود، الدار العالمية للكتاب الإسلامي: الرياض.

[٥٣] الخليفة، كمال فضل السيد (١٩٩٥) العلم والدين، دار جامعة الخرطوم للنشر: الخرطوم.

الأول: ينطلق في بحثه العلمي أولا من خلال إشارات ودلالات علمية قد تكون واردة في كتاب الله وسنة نبيه، بشكل مباشر وغير مباشر، يتلمس منها المعلومة العلمية، لأنه يكون عندها انطلق من حق اليقين، إذا كانت دلالة النص قطعية، وانطلق من الظن الأقوى إذا كانت دلالة النص ظنية. ولا يجوز أن يحمل النصوص ما لا تحتمل، فقد أشار القران الكريم إلى العديد من الظواهر والإشارات والدلالات العلمية، مثل: وجود الجنين في بطن أمه في ظلمات ثلاث، وكروية الأرض، وإنزال الحديد، والحركة الدائمة للإجرام السماوية، وانشقاق القمر، والرياح لواقح، وعلاقة النسل بصلب الرجل، وان في الصيام صحة، وان الضغط يقل مع الارتفاع عن سطح الأرض، فهذه الإشارات العلمية وغيرها، لا بد وان تكون منطلقا لعلماء المسلمين في البحث والاكتشاف، لا أن ينتظروا حتى يكتشفها غيرهم ثم يقولوا: إنها في قرآننا قبل أن تكتشفوها، فلنا السبق في هذا، ويدونوها ضمن قائمة المعجزات العلمية في القران الكريم!

الثاني: العالم المسلم لا يكتفي بمعرفة العلاقات، كأن يعرف عدد دقات القلب وكيف يعمل وما علاقة عمله بعمل الرئتين، أو يعرف علاقة ضغط الغاز بحجمه، أو يكتشف ظاهرة طبيعية هنا وقانونا علميا هناك، ولكنه يتمثل عظمة خالق هذه الظواهر والقوانين، من خلال ما يكتشف من حقائق ودقائق، والعالم المسلم والعالم الراغب في الهداية والإيمان يسأل دائماً عن ما وراء العلاقات والظواهر، ولا يكتفي بالمشاهدة وتسجيل الملاحظة، فيسأل عن السر الكامن وراء هذه الظواهر وقوانينها المتناهية في الدقة والإحكام. فالعالم المسلم يبحث وفق مستويات البحث العلمي الأربعة، ويسخر علمه لعمارة الأرض من أجل الدنيا والآخرة. ويمثل البحث العلمي بجميع مستوياته ركناً أساسياً في حياة الأمم والشعوب، ونلاحظ أن الدول الصناعية والمتقدمة تكنولوجيا أخذت زمام المبادرة في مجال البحث العلمي، ورصدت له الإمكانيات المادية بلا حدود، وخلال فترة الثمانينات من القرن العشرين أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية أكثر من (٤٠) بليون دولار على البحث بالعلمي، في حين كان الإنفاق العربي (جميع الدول العربية) لنفس الفترة (٢٠٠) مليون دولار فقط، وأظهرت نتائج الدراسات الإحصائية[٥٥]، أن الجامعات العربية تخصص ١٪ من ميزانيتها للبحث العلمي، بينما تتجاوز هذه الحصة في الولايات المتحدة ٤٠٪، وبلغت ميزانية معهد وايزمان (في مدينة رحوبوت جنوبي تل أبيب) السنوية (١,٢)[٥٥] مليار دولار في حين بلغت ميزانيات كل الجامعات والمعاهد الأكاديمية العليا في كل الدول العربية هي (٨٠٠) مليون دولار فقط.

ولعل مشكلة البحث العلمي في عالمنا الإسلامي، إضافة إلى علمانية العلم، تكمن في واحدة أو أكثر من أركان البحث العلمي الثلاثة:

١. الإمكانيات المادية.
٢. العلماء الباحثين.
٣. السياسة الراعية الموجهة والداعمة للبحث العلمي.

فقد تتوفر الإمكانيات المادية، كما في بعض دول العالم الإسلامي، وقد يرغب العلماء في العودة إلى أوطانهم للبحث والاختراع، ولكن سياسة البحث العلمي في الوطن العربي والعالم الإسلامي أو غيابها أصلاً، أفرزت أبحاثاً هزيلةً لا تخدم المجتمع وقضاياه ولا تحقق أهدافه و لا ترقى به إلى مصاف الدول الصناعية والتكنولوجية.

فلسفة العلم في الإسلام

لكل أمة من الأمم حضارتها وفلسفتها (نظرتها أو حكمتها) الخاصة في الحياة، وكذلك اتجاه العلم والعلماء، ولها أهدافها الخاصة تسعى لتحقيقها من وراء ذلك، وكذلك الأمة الإسلامية، فلها حضارتها الخاصة، وفلسفتها الخاصة اتجاه العلم والعلماء، وهذه الفلسفة التي انبثقت من الإسلام، وصبغت العلم صبغة خاصة، وجعلت له سمات وملامح هي إسلامية بالدرجة الأولى، وجعلت من علماء المسلمين، مبدعين ومخترعين، وأصحاب نظريات علمية. هذه الفلسفة لا بد أن تكون مميزة، وهذا ما سنحاول تلمسه من خلال بعض ملامح وسمات العلم والعلماء عند المسلمين، والتي جاءت نتيجة حتمية لفلسفة العلم في الإسلام.

سمات وملامح العلم

المقصود بالعلم هنا، وكما أسلفنا سابقا، «المعرفة»، بجميع أنواعها وتصنيفاتها، سواء كانت في مجال العلوم الشرعية أم العلوم الطبيعية، وسواء كانت في علوم تجريبية أم غيرها، كون «المعرفة» من المعاني اللغوية «للعلم».

أما فلسفة العلم في الإسلام، أو فلسفة الإسلام اتجاه العلم، فيمكن القول أن هذه الفلسفة برزت من خلال مجموعة من الثوابت والقواعد، لازمت مفهوم العلم، وأصبحت في مجموعها سمات وملامح «للعلم الإسلامي» ومن هذه السمات:

---

[٥٥] غانم، محمد (٢٠٠٠). تكامل البحث العلمي في الجامعات العربية وأثره على التنمية الصناعية العربية، مجلة اتحاد الجامعات العربية، عدد ٣٧، ص١٨٢-ص٢٤٢.

حقه ودوره الطبيعي في الحياة كما قيّمة الإسلام، فقد جاء الإسلام، والتفكير والعقل موضع خطابه، وفضل الإنسان إنما في عقله فهو أغلى ما لدى الإنسان، وأغلى شيء في الحياة، وتتوقف عليه كيفية السير في الحياة. فنادى الإسلام بتحرير العقل من التبعية والاستكبار، ودعاه إلى ممارسة دوره في هداية البشرية وإصلاح حياتها. ونتاج العقل هو الفكر، وهو الذي يجعل للعقل قيمته من خلال ما ينتجه هذا العقل من معارف وعلوم تصلح بها الدنيا، ويصلح الإنسان، بل يصلح الكون بما فيه من جماد ونبات وحيوان.

وعندما نقول إن الإسلام أهتم بالعقل، فالمقصود هو استخدام العقل، بعد أن خلقه الله، وأودعه الإنسان، وجعله مناط التكليف، فالإنسان العاقل، هو من يستخدم عقله استخداماً سليماً لا يتنافى مع الواقع، ولا ينكر البديهيات، ولا يتعامى عن الحقائق، فحتى يكون الإنسان عاقلاً، لا يكفي أن يكون لديه دماغ سليم خال من الأمراض العضوية أو النفسية، بل لا بد من وجود حواس سليمة أيضا، ومعلومات تساعد على فهم الواقع الذي يتعامل معه الإنسان، ولا بد أن يستخدم هذا العقل استخداما «صحيحا»، وكما أراد له خالقه، وكون العقل مناط التكليف، ففيابه سبب لإسقاط التكليف عن الإنسان، وبهذا يسقط التكليف عن المجنون، والصبي، لانعدام أو نقص عقلهما، بمعنى أنهم لا يستطيعون استخدام عقولهم للحكم على الأشياء حكماً صحيحاً. يقول الماوردي عن العقل[٥٦]: «جعله الله تعالى للدين أصلاً، وللدنيا عماداً، فأوجب التكليف بكماله، وجعل الدنيا مدبرة بأحكامه، وأعلم أن بالعقل تعرف حقائق الأمور، وتفصل بين الحسنات والسيئات».

وقد حوى القرآن الكريم حشداً من الآيات الكريمة، تحث على إعمال العقل من خلال تفكير عميق ومستنير، بكل ما يحيط بالإنسان من ظواهر وشواهد وأشياء، وخاطب ذوي العقول والألباب، وذم أولئك الذين لم يستعملوا عقولهم، وفضلوا التبعية والاستكبار والعناد، ولم يتحروا الحقيقة من خلال التأمل والتفكر والاكتشاف في مجالات الطبيعة والحياة والإيمان، قال تعالى: (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ)[٥٧]. وقال تعالى: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)[٥٨].

إن جميع أنواع المعارف -ما عدا معارف الوحي- إنما هي من نتاج العقل، وبالتالي نتاج التفكير الإنساني، فعندما يوظف العقل بالشكل الصحيح، تنهض الأمة، بإنتاج العلماء من فقه وتفسير، وأراء سياسية، واختراعات علمية، وتخطيط عسكري، ورؤية اقتصادية، كلها في خدمة البشرية ووفق ما أراد الله سبحانه وتعالى.

وعندما فهم المسلمون هذا تحرروا من العجز والكسل والتبعية، وأطلقوا لعقولهم العنان، بحثاً وتأليفاً واختراعاً، فأنتجوا في جميع ميادين الحياة، وفي جميع أنواع العلوم، وتميز واقع الأمة العلمي عندها بميزتين، الأولى: كثرة ما ظهر فيها من العلماء والباحثين وفي شتى صنوف المعارف، والثانية: وحدة المعرفة، أي تداخل التخصصات، فمعظم العلماء والباحثين شمل نشاطهم العلمي حقولاً متعددة، مع تغلب حقل واحد على الحقول الأخرى[٦١]. ومع هذا كله يبقى العقل الإنساني محدوداً، كمحدودية العين في الرؤية، والتي لا تبصر إلا الضوء المرئي، ولا يمثل هذا إلا جزءا بسيطاً من الطيف الكهرومغناطيسي، وكمحدودية الأذن أيضا في سماعها لموجات صوتية هي أقل بكثير في ترددها من الموجات الموجودة في هذا الكون. وبهذا ليس من الضروري أن تكون كل الحقائق مما يدركها العقل.

٢- التشريف الإسلامي للعلم (فضل العلم)

ونقصد بذلك هذا الاهتمام المتميز من الإسلام بالعلم، من خلال أدلة متواترة حثت على العلم وامتدحت العلماء، ومن خلال مواقف إسلامية كثيرة بان فيها شغف المسلمين بالعلم، وانحنى فيها الأمراء إجلالا وإكبارا للعلماء البررة، لأهمية دورهم في حياة الأمة ورفعتها، واستجابتهم لدعوة النداء الرباني وتشريفه للعلم والعلماء العاملين وفق منهج الله. ويتمثل هذا التشريف من خلال الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة:

أ. التشريف القرآني

لو استعرضنا الآيات القرآنية التي تحث على العلم وترفع من شأنه، لوجدناها كثيرة ومستفيضة، ويكفي العلم شأناً أن أول ما نزل من القرآن الكريم أمر صريح بالقراءة والعلم،

---

[٥٦] الماوردي، أبو الحسن البصري، (ت ٤٥٠هـ). أدب الدين والدنيا، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
[٥٧] سورة الفرقان آية ٤٤
[٥٨] سورة الملك آية ١٠
[٥٩] سورة الزخرف آية ٢٣
[٦٠] سورة النمل آية ١٤
[٦١] باقر، طه، (١٩٨٠). موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، بغداد: جامعة بغداد.

قال تعالى: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[٦٢]. انه تشريف قراني مجيد للعلم ابتدأ به القران الكريم آياته، ثم جاء التشريف القرآني لأداة العلم «القلم»، مرة أخرى، من خلال قسم رباني في القران الكريم، تمجيدا وتشريفا، قال تعالى: (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ)[٦٣]، واستمر الأمر كذلك، فتتالت الآيات التي تحث على العلم، قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[٦٤] وقال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[٦٥].

وقد أشتمل القرآن الكريم على (٨٠) آية وردت فيها لفظة «**العلم**» و (١٤) آية وردت فيها لفظة «علما»، ووردت لفظة «**علماء**» في آيتين، ولفظة «**علّم**» ومشتقاتها: علّمني، وعلّمه، وعلّمك...) في (٤٣) آية من آيات القرآن الكريم. كما اشتمل القرآن الكريم على ما يقارب (٧٥٠) آية تحث على إعمال الفكر في هذا الكون، وما فيه من مخلوقات مسخرة للإنسان، هذا الكون الذي هو ميدان العلوم الطبيعية.

فظهر من خلال الآيات القرآنية أهمية العلم في حياة المسلمين وضرورته لحياتهم كضرورة الماء والهواء، فالأمة الإسلامية، أو البشرية جمعاء، دونما علم هي ميتة حكما، ولا قيمة لحياتها التي تحياها، فإذا عاشت دونما علم التفسير وعلم الفقه وعلم اللغة والطب والهندسة وعلوم الفضاء والعلوم العسكرية والاختراعات، من تكنولوجيا عسكرية وفضائية ومعلوماتية وغيرها، فأي حياة ستعيشها؟

ب. التشريف النبوي للعلم

انسجاما مع التشريف القرآني للعلم، جاءت الأحاديث النبوية الشريفة هي الأخرى لتبين أهمية العلم في حياة المسلمين، فالأحاديث النبوية الشريفة كثيرة في هذا المجال أيضا: قال عليه الصلاة والسلام: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[٦٦]، وقال صلى الله عليه وسلم: «وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم»[٦٧]، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال: اكتب، قال: يا رب وما اكتب؟ قال: اكتب القدر وما هو كائن إلى الأبد»[٦٨] [٦٩]، وقال عليه الصلاة والسلام: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[٧٠] [٧١].

إن هذه الأدلة، من قرآن وسنة، أوجدت الحافز القوي عند المسلمين للبحث والتأليف والإبداع والاجتهاد، وبشكل متواصل ومستمر، وانكب المسلمون على العلم بجميع فروعه ومعارفه، واعتبروا تعلم كل علم نافع من قبيل الفرض الواجب، وتنافسوا في ذلك بقيم مسلكية راقية تتمثل في الأمانة والصدق، والتعاون، والغيرة على الدين، وطلب العلم لنيل رضوان رب العزة، لا لجاه ولا لمنصب ولا لدنيا يلهثون وراء متاعها[٧٢]. بمعنى أنهم قاموا بتهذيب دراسة العلوم بشكل يتناسب مع النظرة (الفلسفة) الإسلامية للكون والإنسان والحياة.

وقد كان لاهتمام ولاة أمور المسلمين بالعلم حافزاً آخر للعلماء على الإبداع والنهوض، وذلك عندما أدرك هؤلاء الخلفاء بأن مسؤوليتهم عن دينهم وأمتهم تقتضي دعم العلم والاهتمام به، على نحو يتوافق والتوجيه الرباني، ورغبة منهم في الإقتداء بالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، والذي ما أن أقام دولته في المدينة، ورجع منتصراً من بدر، حتى بين للمسلمين أهمية العلم وفضله، من خلال قبوله افتداء أسرى بدر لأنفسهم بتعليم أبناء المسلمين القراءة والكتابة، مع حاجة المسلمين الملحة آنذاك إلى الفدية «المالية» للإعداد العسكري لدولة فتية ناشئة. كما شهد العصر العباسي والعصور التي تلت نشاطاً علمياً مميزاً في شتى المجالات، ومآثر المنصور وهارون الرشيد والمأمون لا تنسى، سواء في مجال الترجمة أو التأليف أو بناء المراصد الفلكية، أو الاعتناء والاهتمام بالعلماء، وتكريمهم والتقرب إليهم[٧٣].

---

[٦٢] سورة العلق الآيات: ١-٥

[٦٣] سورة القلم آية ١

[٦٤] سورة الزمر آية ٩

[٦٥] سورة المجادلة آية ١١

[٦٦] القزويني (ابن ماجه)، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ). سنن ابن ماجه، القاهرة: دار إحياء الكتب

[٦٧] ابن حنبل، أحمد، (ت ٢٤١ هـ) مسند الأمام أحمد، القاهرة: دار المعارف.

[٦٨] ابن حنبل، أحمد، (ت ٢٤١ هـ) مسند الأمام أحمد، القاهرة: دار المعارف.

[٦٩] ورد في صحيح الترمذي، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني، ولكن القرضاوي ذكر أن (المعروف أن الأحاديث التي جاءت تعلن أن أول ما خلق كذا أو كذا... إلخ لم يصح منها حديث واحد كما قرر علماء السنة... ولذلك نجد بعضها يناقض بعضا، فحديث يقول: إن أول ما خلق الله القلم... وحديث ثان: أول ما خلق الله العقل..)! فحديث «العقل» موضوع باتفاق، وأما حديث «القلم» ففي سنده عند الترمذي، عبد الواحد بن سليم وهو ضعيف. وهنالك سند آخر فيه الضحاك بن مزاحم وقد وثقه جماعة وضعفه جماعة أخرى. (المحرر)

[٧٠] القزويني (ابن ماجه)، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ). سنن ابن ماجه، القاهرة: دار إحياء الكتب

[٧١] روى ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان بإسناد ضعيف، تخريج العراقي لأحاديث إحياء علوم الدين (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار) انظر

للمسلمين، لا بد وان يؤخذ الدافع الإيماني قبل كل شيء، باعتباره الدافع الأكثر إلحاحا « وإلزاما » للنشاط العلمي الذي يجعل من سعي الإنسان في العالم ضرورة أو فريضة يتقرب بها إلى الله[٧٤].

قال صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علماً لغير الله أو أراد به غير الله فليتبوأ مقعده من النار»[٧٥] [٧٦]. وقال صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علماً مما يبتغي به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (يعني ريحها)»[٧٧]. وقال صلى الله عليه وسلم: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا تماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار»[٧٨]، فهذه الأدلة وغيرها تحذر من أن يكون طلب العلم هدفه أغراض دنيوية بحته، وتحذر من اتخاذ العلم مطية للجاه أو الكسب الحرام، أو استمالة قلوب الناس، وأن من فعل ذلك حرم رائحة الجنة.

فالعلم سواء أكان شرعياً أم طبيعياً، فإن تعلمه وتعليمه لا بد وأن يكون لغاية محددة وهي رضوان الله سبحانه وتعالى، بغض النظر عما يتحقق من أهداف أخرى سواء أكان للعالم نفسه أم للبشرية جمعاء، هكذا كانت وهكذا يجب أن تكون فلسفة الإسلام اتجاه «الغاية من العلم». فالعالم يجتهد ويسعى للوصول إلى الآراء الفقهية أو الحقائق العلمية، واضعاً نصب عينيه في كل ما يقوم به مرضاة الله سبحانه وتعالى، وكل ما يتحقق من عرض الدنيا كالمنصب أو المال أو الجاه، لا يجوز أن يثنيه عن همه الأول، وإن تعارضت، فمرضاة الله سبحانه وتعالى هي الأولى.

وعندما تكون الغاية من العلم نبيلة، كما هي فضيلة، ويكون العمل للوصول اليها خالصاً لوجه الله تعالى، يتميز الأداء بالجد والاجتهاد، والصدق والإتقان، عندها تتحقق النتيجة المرجوة من ذلك، علم نافع ينفع الأمة، ينبع من عقول أبنائها، فلا تكون رهينة لما يجود به الآخرون، بل رائدة وقائدة.

ضرب من هذه الأساطير قال تعالى: ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا﴾[٧٩] وعندما جاء الإسلام حارب الأسطورة والخرافة، وشرع في إقامة منهج التثبت المبني على الدليل والبرهان والمشاهدة الصحيحة الصادقة[٨٠].

وتعلم المسلمون من دينهم أسلوب المحاورة والمناقشة والتحقق، قال تعالى: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[٨١]. وقال تعالى: ﴿إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾[٨٢]. فكان هذا في حياتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وكذلك العلمية، فلم يقبلوا إلا ما قام عليه الدليل من المشاهدة أو البرهان، وقبله العقل بالمناقشة والحوار.

ففي مجال العلوم الطبيعية، ومن خلال تعاليم القران الكريم، استخدم المسلمون المنهج العلمي الصحيح في دراسة العلوم فلم يقبل العلماء المسلمون ما ورثوه من القدماء دون تمحيص أو نقد، واستطاع علماء المسلمين أن يضعوا حداً فاصلاً بين علم الفلك والتنجيم، وعرفوا أن علم الفلك يتعلق بمعرفة القوانين التي لها علاقة بالأجرام السماوية، وطبيعتها، وإجراء القياسات والحسابات المتعلقة بها من خلال الرصد والمسح السماوي، أما التنجيم فاعتبروه صناعة مزعومة وباطلة تتعلق بالإخبار عن أمور غيبية من خلال النظر في مواقع النجوم والأبراج لحظة ولادة الإنسان[٨٣].

أما في مجال العقائد، فاستطاع علماء المسلمين أن يميزوا بين ما هو حق وما هو باطل، من خلال التوجيه الرباني، فعرفوا أن عبادة الأوثان والنار والأجرام السماوية والصلبان والأرباب المتعددة، ما هي إلا احتقار للعقل البشري، حين يعبد أو يقدس وثناً أو حيواناً أو ربا مهزوما، فمن خلال تفكيرهم المستنير أدركوا ما يتفق مع العقل البشري وما يتناقض معه، فانتشروا في أرجاء المعمورة يصححون عقائد الشعوب الأخرى، ومفاهيمهم المغلوطة عن الكون والإنسان والحياة، بالحجة والبرهان، ويفرقون لهم بين العلم والخرافة، وبين ما يستحق العبادة وما لا يستحق.

---

[٧٤] خليل، عماد الدين، (١٩٩١). مدخل إلى إسلامية المعرفة، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

[٧٥] الترمذي، محمد بن عيسى، (ت ٢٧٩ هـ). الجامع الصحيح، بيروت: دار الفكر.

[٧٦] سند الحديث عند الترمذي (حدثنا علي بن نصر بن علي حدثنا محمد بن عباد الهنائي حدثنا علي بن المبارك عن أيوب السختياني عن خالد بن دريك عن ابن عمر) وفي تهذيب التهذيب أن خالد بن دريك روى عن ابن عمر ولم يدركه! (المحرر)

[٧٧] أبو داوود، سليمان بن الشعث، (ت٢٧٥هـ) سنن أبو داوود، بيروت: دار إحياء التراث

[٧٨] القزويني (ابن ماجه)، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ). سنن ابن ماجه، القاهرة: دار إحياء الكتب

[٧٩] سورة الفرقان آية ٥

[٨٠] الكيلاني، إبراهيم زيد، وسعيد، همام عبد الرحيم، وهندي، صالح ديب، (١٩٨٨) دراسات في الفكر العربي الإسلامي، عمان:دار الفكر للنشر.

[٨١] سورة النمل آية ٦٤

[٨٢] سورة الحجرات آية ٦

[٨٣] البرغوثي عماد احمد، وابوسمرة، محمود احمد، وعفانه، حسام الدين (٢٠٠٢) صناعة التنجيم بين الإسلام والعلم والواقع، المجلة الفلكية، عدد ٤، السنة الخامسة، الدار العالمية للطباعة والنشر، روما.

هذه بعض ملامح العلم الإسلامي والتي رسمتها الفلسفة الإسلامية اتجاه العلم، فجاء علما نافعا للبشرية جمعاء، ارتبط بالإسلام ارتباطا عضويا، فكان علما دينيا في جميع جوانبه وأصنافه.

سمات وملامح العلماء

إن العلماء من نعم الله تعالى على أهل الأرض، فهم أئمة الهدى وحجة الله في أرضه، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بهم في ظلمات الحياة، في البر والبحر[٨٤]. ولا يقبل الله تعالى من عباده أن يكونوا جاهلين، قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ)[٨٥]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العلماء ورثة الأنبياء»[٨٦].

لقد منح الله العلماء نعمة الحكمة والمعرفة، وأعطاهم منزلة أعلى من منزلة الشهداء، قال صلى الله عليه وسلم: يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء[٨٧]، ورفع الله من شأنهم، قال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ)[٨٨]

هذه أمثلة من كثير مما جاء في فضل العلماء وعلو منزلتهم، فكانت هذه فلسفة الإسلام المتميزة تجاه العلماء، فتح لهم باب الاجتهاد ومجال البحث العلمي على مصراعيه، ففتح العلماء المخلصون عقولهم للإبداع، فكانت مؤلفاتهم وإنجازاتهم مما يعجز الواصف عن وصفها، من حيث الكم والكيف، وبهذا تكون فلسفة الإسلام تجاه العلماء قد قامت على علاقة مميزة أركانها: إكرام من الله، ورعاية من الخلفاء، وإبداع من العلماء، فكانت نهضة الأمة الإسلامية متميزة في حينه.

إن السمات التي رسمتها فلسفة الإسلام اتجاه العلم، تجسدت في العلماء، فأعطتهم سمات إسلامية لها ملامحها الخاصة والخالصة، وأصبحت جزءا لا يتجزأ من العلماء، ولا يكون أحدهم عالماً ويحظى بمنزلة العلماء ومكانتهم الشرعية، إلا بهذه السمات، وقد انبثقت هذه السمات في مجملها من سمة أساسية لازمة للإنسان بشكل عام، وللعلماء بشكل خاص، جاءت من خلال آية كريمة ربطت بين العلماء وهذه الصفة، ألا وهي خشية الله تعالى، قال تعالى: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[٨٩]

إن العلماء الذين استحقوا أن يكونوا ورثة الأنبياء، ولهم حق الشفاعة يوم القيامة، هم الذين يخشون الله في قولهم وعملهم، وتتجسد هذه الخشية في كل صغيرة وكبيرة من أقوالهم وأعمالهم، لا يخافون في الحق لومة لائم، ولا تثنيهم الدنيا وبهجتها عن أن يصدعوا بالحق، حتى تظل الأحكام الشرعية بعيدة عن الهوى والزلل، نقية من كل شائبة، تطمئن لها الأمة، وتحترم أراء علمائها، ولا تتردد في العمل بنصائحهم وتوجيهاتهم.

لقد تحققت هذه السمة في علماء المسلمين الأوائل، فترفعوا عن كل ما يخدش ورعهم وخشيتهم الله، وزهدوا في الدنيا بكل ما فيها من مغريات، من مال، ورياسة، وجاه، وتفرغوا للعلم، كعبادة، فجاء علمهم نقياً طاهراً، لا تشوبه رائحة حب الدنيا والتمسك بأهدابها، فسادوا على الأمراء بعلمهم وتواضعهم، فكانوا نعم العلماء.

وتجلت هذه الخشية في حياة العلماء جميعها، وظهرت ملامحها في أفعالهم، ونأت بهم عن كل محرم، وخاصة محرمات أربع، كل واحدة منها تصيب من العالم مقتلا، ويصير علمه حينها نقمة عليه بدلا من أن يكون نعمة له وللبشرية جمعاء، وهذه المحرمات هي: التردد على أبواب السلاطين، وكتمان العلم، والجرأة على الفتيا، والتوقف عن طلب العلم.

فقد ورد عن السلف الصالح أن العلماء كانوا يفرون من مجالسة الخلفاء والأمراء، ويترفعون عن التردد على أبوابهم، مع علمهم بأن هؤلاء الأمراء مسلمون، يحكمون بشرع الله، ولكنهم أو بعضهم ظلموا، أو زلوا، فلم يغير هؤلاء الخلفاء شرع الله، ولم يضعوا لشعوبهم قوانين وضعية، ومع ذلك هجرهم العلماء، مخافة أن يصيبهم من ذنوب هؤلاء الحكام نصيب.

لقد فهم العلماء هذا الملحظ من خلال أدلة كثيرة وردت في هذا المجال، فقد أفرد المحدث المجتهد ابن عبد البر القرطبي في مؤلفه «جامع بيان العلم وفضله» باباً سماه «باب ذم العالم على مداخلة السلطان الظالم»[٩٠]. وللإمام جلال الدين السيوطي مؤلف في هذا المجال أيضا بعنوان «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين»، ذكر فيه الأدلة الشرعية، وآثار الصحابة ومذهب السلف الصالح، في عدم التردد على السلاطين الظلمة[٩١].

وقد عرف علماء السلف الجهر بالحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كونهم أدركوا أن ذلك أمانة، وأنهم راغبون في أن يكونوا ورثة الأنبياء، ولأنهم عرفوا كم هي عظيمة جريمة كتمان العلم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ

---

[٨٤] ألبدري، عبد العزيز، (١٩٦٦). الإسلام بين العلماء والحكام، المدينة المنورة: المكتبة العلمية.

[٨٥] سورة الزمر آية ٩

[٨٦] أبو داوود، سليمان بن الأشعث، (ت ٢٧٥) سنن أبو داوود بيروت: دار إحياء التراث.

[٨٧] القزويني (ابن ماجه)، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ). سنن ابن ماجه، القاهرة: دار إحياء الكتب

[٨٨] سورة المجادلة آية ١١

وكتمان العلم يعني عدم الأخبار بالأحكام الشرعية المستنبطة من كتاب الله وسنة رسوله والمتعلقة بالأحداث والوقائع، وجريمة العالم أكبر إذا خان الأمانة وكذب وحرف، ولي أعناق الآيات، طمعاً في دنيا يصيبها من جاه أو مال أو منصب.

هذا بخصوص علماء الشريعة، أما علماء العلوم الطبيعية، فلا يجوز لهم أيضا كتمان العلم عن أمتهم والاحتفاظ به لمناسبات الترقية أو غير ذلك، إذا كانت الأمة بحاجة إلى هذا العلم، ويمنع العلماء من نشر علمهم على الملأ إذا كان في ذلك ضرر للأمة من أعدائها.

ولا يعقل أن يفسر أحدهم كتاب الله، أو أن يقول فيه بالحرام والحلال (فتيا)، إلا إذا كان عارفاً باللغة، والناسخ والمنسوخ، وأسباب النزول، وغيرها، وكذلك أصول الفقه، والفقه، وعلم الحديث، كلها تحتاج إلى ثوابت شرعية لا بد منها، يقول الشافعي: «لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلا عارفا بكتاب بالله ناسخه ومنسوخه، بمحكمه ومتشابه، وتأويله وتنزيله، ومكيه ومدنيه، وما أريد به وفيما انزل، ثم يكون بعد ذلك بصيرا بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، بالناسخ والمنسوخ، ويعرف عن الحديث ما عرف عن القران، ويكون بصيرا باللغة وبصيرا بالشعر»[٩٤]. وقد هابها (الفتيا) أكابر العلماء العاملين، وأفاضل السلف الصالح، وكان أحدهم لا تمنعه شهرته بالأمانة، ومعرفته المعضلات، من أن يقول: لا أدري، أو يؤخر الجواب إلى حين يدري.

ويستنتج من الحديث الشريف: (من جاءه الموت وهو يطلب العلم ليحمي به الإسلام، فبينه وبين النبيين درجة واحدة)[٩٥]، أن وجوب طلب العلم لا يسقط عن المسلم، وغير منفك عنه في أي وقت من الأوقات. ولقد حرص الإسلام على توجيه المسلمين عامة والعلماء خاصة إلى أن حدود التعلم والتعليم والعمل النافع لا تتوقف عند عمر محدد، أو قدر معين من العلم، بل جاء التوجيه الرباني ليؤكد أن العالم المسلم عليه أن يتعلم، كما عليه أن يعلم، ما دامت حواسه سليمة، وعقله قادر على تلقي العلم وتقبله. لأنه يعرف ويعلم بان عمره هذا سيسأل عنه يوم القيامة، بأيامه ولياليه، وساعاته ودقائقه، أن يقولوا: تعلمنا ما فيه الكفاية، ونسلم الراية للأبناء والأحفاد، وهم على العطاء قادرون، لا يقبل هذا أبدا، ما دامت جوارحهم تنبض بالحياة، سليمة معافاة، والأمة بحاجة إلى علمهم.

الإنجازات العلمية عند المسلمين

إن الفلسفة الإسلامية اتجاه العلم أفرزت إنجازات علمية لا تخفى على منصف أبدا، فقد مثل الإسلام قفزة هائلة لدى العرب والشعوب الأخرى التي اعتنقته في شتى نواحي الحياة، ولعل هذه القفزة النوعية والكمية، هي نتيجة للأفكار النيرة التي جاء بها الإسلام عن الكون والإنسان والحياة، وترجمت إلى أنماط سلوكية مارسها المسلمون فأضحت جزء من حياتهم، فأصبحت حياتهم إسلامية متميزة، وأصبحت أمتهم خير أمة، تعلمت وأبدعت واخترعت واكتشفت فسادت بالعلم والدين سيادة رحمة لا سيادة قهر وجبروت[٩٧].

ولا يمكن إسهاب القول في ثورة الإسلام، ومنذ أواخر القرن السابع الميلادي، وكيف أنها غيرت سير تاريخ الأمم والشعوب، وأحدثت تغييرات جوهرية في مجالات الحياة المختلفة، وفجرت طاقات العلماء والباحثين في أرجاء العالم الإسلامي، ونما التعليم العالي والبحث العلمي، في ظل دولة الإسلام ونظامها، واتسعت مجالاته، وتعددت علومه. فقد كانت الدولة الإسلامية عوناً لكل عالم، فكان ما كان من ثورة علمية هائلة، جعلت من اختراعات المسلمين وكتبهم وأبحاثهم ونظرياتهم، أسساً وقواعد ارتكزت عليها الحضارة الأوروبية.

لقد كانت النظامية والمستنصرية وبيت الحكمة ببغداد، والغزالية بدمشق، والصلاحية بالقدس، والزيتونة بتونس، والأزهر الشريف بالقاهرة، وغيرها الكثير، معاهد وجامعات تقوم فعلاً بما تقوم به جامعات اليوم في الدول المتقدمة من دراسات متخصصة في شتى أنواع العلوم[٩٨]. ويعتبر شلبي[٩٩] بيت الحكمة أول جامعة إسلامية اجتمع فيها العلماء والباحثون، فترجموا وألفوا ودرسوا، وأجروا المناظرات، واستفاد من خدمات هذه الدار عدد من مشاهير العلماء والمؤرخين وعلى رأسهم العالم الرياضي الشهير محمد بن موسى الخوارزمي، مؤسس علم الجبر.

---

[٩٢] سورة البقرة آية ١٥٩

[٩٣] ابن حنبل، أحمد، (ت ٢٤١ هـ) مسند الأمام أحمد، القاهرة: دار المعارف.

[٩٤] البغدادي، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب، (ت ٤٦٣ هـ). الفقيه والمتفقه، تحقيق الشيخ إسماعيل ألأنصاري، بيروت:دار الكتب العلمية.

[٩٥] الدرامي، أبو محمد، (ت ٢٥٥هـ). سنن الدرامي، بيروت: دار الكتاب العربي.

[٩٦] الترمذي، محمد بن عيسى، (ت ٢٧٩هـ). الجامع الصحيح، بيروت: دار الفكر.

[٩٧] محمود، يوسف، (٢٠٠٠) سيسيولوجيا العلم و التكنولوجيا، عمان: دار وائل للطباعة والنشر

[٩٨] شبيب، محمود (١٩٨٤) المستنصرية أقدم جامعة في العالم الإسلامي، مجلة التربية، عدد ٦٧، ص١٠٢-ص١٠٤.

[٩٩] شلبي، احمد (١٩٩٤) موسوعة الحضارة الإسلامية، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ط ٥، القاهرة: مكتبة النهضة العربية.

ولا مجال هنا لحصر العلماء المسلمين، ومجالات إبداعاتهم، ولكن للإنصاف نقول أن منهم من ظلم عندما نسبت نظرياته واكتشافاته لغيره من علماء الغرب، فقد أورد عبد الرحمن[١٠٠] قائمة بأسماء بعض العلماء المسلمين الذين خدموا الإنسانية بنظرياتهم العلمية ومن ثم نسبت لغيرهم ومنهم:

- جابر بن حيان: صاحب النظرية الجزيئية والتي نسبت لدالتون.
- ابن النفيس: مكتشف الدورة الدموية والتي نسبت لهارفي.
- الخازني: مخترع البارومتر الزئبقي والذي نسب إلى تورشللي.
- ابن الهيثم: صاحب الطريقة العلمية في البحث والتي نسبت إلى بيكون.

إن علماء المسلمين لم يكونوا مجرد نقلة أو مقلدين، بل نقدوا نظريات وآراء علماء وفلاسفة سبقوهم، وعدلوا بعضها وصححوا بعضها الآخر، ولم يعبأوا بالمصدر أو القائل، فقد انتقد الطوسي والبتاني وابن الهيثم في بعض مؤلفاتهم كتاب المجسطي لبطليموس، وصحح ابن الهيثم بعض أغلاط فلاسفة اليونان وعلمائهم في تعليل الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار، وخالف ابن سينا نظرة العلماء الذين سبقوه إلى الكيمياء، فهو لم يصدق إمكانية تحويل الفلزات إلى الذهب والفضة، ودعا الفارابي إلى إبطال صناعة التنجيم، وخالف الغزالي رأي جالينوس من أن الشمس لا تقبل الانعدام، ورفض ابن النفيس قبول نظرية جالينوس الخاطئة في الدور الذي تلعبه الرئتان في نقل الدم من تجويفة القلب الواحدة إلى الأخرى، وغيرها كثير[١٠١]، وورد في موسوعة كولومبيا (Columbia Encyclopedia)[١٠٢] أن عالم الفلك البتاني، عرف من خلال التصحيحات التي أدخلها على كتاب بطليموس، الكتاب الذي عرف باسم «المجسطي» «Almagist» أي الأعظم والذي يعتبر من أهم الكتب في الرياضيات والفلك، وقد أشارت (Macron)[١٠٣] إلى أن الحضارة الإسلامية ساعدت في تطوير وتعزيز العلوم والآداب، وحافظت على كتب الأمم الأخرى من الاندثار، وأدخلت مصطلحات عديدة إلى أوروبا وساعدت اكتشافاتهم على تحسين طبيعة وظروف الحياة البشرية، وتؤكد أن الآلاف من إسهامات المسلمين أصبحت من أساسيات الحضارة الإنسانية، ويشير كوبرنيكس في كتابه[١٠٤] (De Revolutionibu Qrbium Clestium) إلى أنه لا يستطيع أن ينسى ما قدمه البتاني في مجال علم الفلك، وتكريماً لعلماء المسلمين في مجال علم الفلك، وإقرارا بفضلهم وإنجازاتهم الرائعة، فقد أعلن الاتحاد الفلكي الدولي (The International Astronomical Union (IAU)) الذي يضم علماء فلك وفضاء من مختلف دول العالم، عن اختياره (١٨) عالماً إسلاميا لوضع أسمائهم على تضاريس سطح القمر المخفي ومن هؤلاء: البيروني، والخوارزمي، وابن يونس، والبتاني وغيرهم[١٠٥]، ولا زالت أسماء العديد من النجوم تحمل أسماءها العربية وتعتبر الأسماء العلمية المعتمدة باللاتينية حتى يومنا الحاضر.

ولا يشكل ما وصل إلينا من إنجازات علماء المسلمين إلا نسبة قليلة من مجموع ما أنجزوه وما تحقق في تلك العصور، فقد اختفى الجزء الأكبر من إنجازاتهم بعد أن حرقت مدينة بغداد وتراثها على يد المغول، وبعد أن نهبت المكتبات الإسلامية خلال فترة الاستعمار للبلاد الإسلامية إضافة إلى ضياع جزء آخر من هذه الإنجازات.

إن الأمة الإسلامية تواقة لذلك اليوم الذي تكون فيه رائدة للعلم والتقدم التكنولوجي، ولا نظن أنها عاجزة عن إنجاب العلماء من جديد، إذا ما توفرت النية الصادقة والرعاية الموجهة لصالح الأمة الإسلامية والبشرية جمعاء.

الخاتمة

إن العلاقة الوطيدة بين الإسلام والعلم اكبر من أن ينكرها احد، هذه العلاقة التي جاءت في صميم الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة، علاقة تمثلت في سلوك المسلمين، التزاما وبحثا وتأليفا واختراعا، وشملت جميع نواحي الحياة الإسلامية، نظروا إلى الكون كما نظروا في القرآن، وألمح لهم القرآن بإشارات ودلالات علمية، فانطلقوا باحثين، وتفكروا في خلق الله، فزادوا هدى وإيمانا، فكانوا فقهاء عابدين، وعلماء عاملين. اخلصوا النية لله، عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١٠٦]، ففتح الله عليهم بركات كل شيء، فنجحوا وافلحوا، وخدموا بدينهم وعلمهم البشرية جمعاء، وكانت إنجازاتهم العلمية، وفق فلسفة الإسلام، مفخرة للقاصي والداني على مدى التاريخ.

---

[١٠٠] عبد الرحمن، محمد عمر (١٩٨٦) المسؤوليات الاجتماعية للمشتغلين بالبحث العلمي والتكنولوجي، ورقة مقدمة الى ندوة تقييم نمو العلاقات بين العلم والتكنولوجيا والمجتمع في الدول العربية بجامعة قطر في الفترة (١-٤) كانون أول

[١٠١] طوقان، قدري حافظ (١٩٨٧) العلم والحياة، مكتبة المعارف: بيروت.

[102] The Columbia Encyclopedia (2001), 6th ed. Columbia University press)

[103] Macron, Mary (1992), Arab Contributions to Civilization(Eric Document Reproduction Service No. 361972)

من قوة، بصدق وإخلاص، طالبا رضا الله سبحانه وتعالى.

الثاني: سياسة راعية للعلم والعلماء بهدف النهوض بالأمة، وتعطي للعلم الأهمية الشرعية كما أعطى الخلفاء الأوائل، راية العلم قوم آخرون.

إن الهمم التي أوجدت هذه العلوم في الماضي تطالبنا أن نستعيد الأمانة، ونقتفي آثار من سبقنا إيمانا وعلماً مخلصين لوجهه تعالى.

الأسئلة:

١. كيف يمكن أن تعتبر العلوم الفيزيائية والكيميائية علوما دينية؟
٢. قارن بين علمانية الدولة وعلمانية العلوم، وما تأثير علمانية العلوم على الإنتاجية العلمية عند علماء المسلمين؟
٣. هناك نظرة تكاملية بين الإسلام والعلم، ناقش هذه النظرة من خلال الرؤية الإسلامية للكون والإنسان والحياة.
٤. كيف يمكن للبحث العلمي أن ينطلق من القران الكريم والسنة النبوية الشريفة؟ وهل القران الكريم كتاب علمي، للفيزياء أو الأحياء أو غيرها من العلوم؟
٥. المنهج الإسلامي في البحث لا يعتمد بشكل كلي على المنهج التجريبي، بالرغم من أن هذا المنهج أدى إلى ثورة علمية وتكنولوجية متطورة في الغرب، هل يعني هذا أن تخلف الأمة الإسلامية سببه عدم الاعتماد الكلي على المنهج التجريبي في حياتهم؟
٦. من خلال دراستك لهذا الفصل، كيف يمكن أن تجمل أسباب تخلف المسلمين في المجال العلمي؟

المراجع

١. أبو داود، سليمان بن الأشعث، (ت ٢٧٥ هـ). سنن أبي داود، بيروت: دار إحياء التراث.
٢. الماوردي، أبو الحسن البصري، (ت ٤٥٠هـ). أدب الدين والدنيا، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.
٣. محمود، يوسف، (٢٠٠٠). سيسيولوجيا العلم والتكنلوجيا، عمان: دار وائل للطباعة والنشر.
٤. خنفر، خلقي، (١٩٩١). تاريخ الحضارة الإسلامية، جامعة الخليل: الخليل.
٥. لكيلاني، إبراهيم زيد، وسعيد، همام عبد الرحيم، وهندي، صالح ذياب، (١٩٨٨). دراسات في الفكر العربي الإسلامي، عمان: دار الفكر للنشر.
٦. عمر، إبراهيم احمد (١٩٩٢). العلم والإيمان، المعهد العالي للفكر الإسلامي، هيرندن، فرجينيا.
٧. أنيس، إبراهيم، ومنتصر، عبد الحليم، والصوالي، عطية، وأحمد، محمد خلف الله (١٩٧٢). المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية: القاهرة.
٨. السفاريني، محمد بن احمد (ت ١١٨٨هـ).لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، دار الخاني للنشر والتوزيع: الرياض.
٩. كوهين، لويس، ومانيون، لورنس (١٩٩٠)، مفاهيم البحث في العلوم الاجتماعية والتربوية، ترجمة: كوثر كوجك ووليم عبيد، الدار العربية للنشر والتوزيع: القاهرة.
١٠. امام، زكريا بشير (٢٠٠٢)، فلسفة العلم من منظور إسلامي، الخرطوم: دار السداد.
١١. كلشني، مهدي، (١٩٨٩). القرآن ومعرفة الطبيعة، بيروت: دار الأضواء.
١٢. حامد، التيجاني عبد القادر (١٩٩٥) علاقة علوم الشريعة بالعلوم الاجتماعية والإنسانية والمعاصرة، مجلة التأصيل، عدد مايو ٩٥، الخرطوم.
١٣. بدري، مالك (١٩٩٥) التفكر من المشاهدة إلى المشهود، الدار العالمية للكتاب الإسلامي: الرياض.
١٤. سيد قطب (١٩٦٧) في ظلال القران، ط٥،جزء ١.
١٥. خليل، عماد الدين (١٩٨٣). مدخل إلى موقف القران الكريم من العلم، مؤسسة الرسالة: بيروت.
١٦. فان، دالن (١٩٩٦)، مناهج البحث في التربية وعلم النفس، ترجمة محمد نبيل نوفل وزملاؤه، مكتبة الانجلو مصرية: القاهرة.
١٧. جابر، عبد الحميد جابر، وكاظم، احمد خيري (١٩٩٦). مناهج البحث في التربية وعلم النفس، دار النهضة العربية: القاهرة.
١٨. عبيدات، ذوقان، وعدس، عبد الرحمن، وعبد الحق، كايد (١٩٩٦):البحث العلمي مفهومه وأدواته وأساليبه، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: عمان.
١٩. ابوعلام، رجاء محمود (٢٠٠١). مناهج البحث العلمي في العلوم النفسية والاجتماعية، دار النشر للجامعات:القاهرة.
٢٠. عبد الماجد، عبد الباسط (١٩٩٨)، مفهوم التأصيل في التربية، ورقة مقدمة إلى ندوة تأصيل الكتاب الجامعي وأسلمته، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، بتاريخ ٢٨ ديسمبر.
٢١. ريان، محمد هاشم (٢٠٠٢). المنهاج التربوي من منظور إسلامي، دار اليقين للنشر
٢٢. يعقوب، مصطفى، (١٩٩٥)، سبق العلماء العرب في اكتشاف المنهج التجريبي، مجلة التربية، عدد ١١٤، سنة٢٤، ص٢٧٣ - ص٢٨٤.
٢٣. طوقان، قدري حافظ (١٩٨٧) العلم مع الحياة، مكتبة المعارف: بيروت.

٢٤. عنايه، غازي حسين (١٩٩٠). مفاهيم البحث العلمي في الإسلام، دار الجيل:بيروت.

25. Lunde¨ Paul; and others (1986). Science: The Islamic Legacy (ERIC Document Reproduction Service No.289720)

٢٦. الفاروقي، اسماعيل (١٩٨٤)، أسلمة المعرفة، المبادىء العامة وخطة العمل، ترجمة عبد الوارث سعيد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دار البحوث العلمية: الكويت.

٢٧. الخليفة، كمال فضل السيد (١٩٩٥) العلم والدين، دار جامعة الخرطوم للنشر: الخرطوم.

٢٨. غانم، محمد (٢٠٠٠). تكامل البحث العلمي في الجامعات العربية وأثره على التنمية الصناعية العربية، مجلة اتحاد الجامعات العربية، عدد ٣٧، ص١٨٢-ص٢٤٢.

٢٩. مرسي، محمد عبد العليم (١٩٩٦). متى يكون هناك شيء من الإنصاف لعضو هيئة التدريس في جامعتنا العربية، رسالة الخليج العربي، عدد ١٨، سنة٦، ص٢٣٣-ص٢٦٩.

٣٠. سلمان، رشيد سلمان (١٩٩٣). أزمة البحث العلمي في الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، عدد ٧٥، ص٧-ص٢٢.

٣١. باقر، طه، (١٩٨٠). موجز في تاريخ العلوم والمعارف في الحضارات القديمة والحضارة العربية الإسلامية، بغداد: جامعة بغداد.

٣٢. القزويني (ابن ماجه)، أبو عبد الله محمد بن يزيد (ت ٢٧٥هـ). سنن ابن ماجه، القاهرة: دار إحياء الكتب

٣٣. ابن حنبل، أحمد، (ت ٢٤١ هـ) مسند الأمام أحمد، القاهرة: دار المعارف.

٣٤. محمود، يوسف، (١٩٩٦). الإنجازات العلمية في الحضارة الإسلامية عمان: دار النشر.

٣٥. خليل، عماد الدين، (١٩٩١). مدخل إلى إسلامية المعرفة، هيرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

٣٦. الترمذي، محمد بن عيسى، (ت ٢٧٩ هـ). الجامع الصحيح، بيروت: دار الفكر.

٣٧. البرغوثي عماد احمد، وابوسمرة، محمود احمد، وعفانه، حسام الدين (٢٠٠٢) صناعة التنجيم بين الإسلام والعلم والواقع، المجلة الفلكية، عدد ٤، السنة الخامسة، الدار العالمية للطباعة والنشر، روما.

٣٨. ألبدري، عبد العزيز، (١٩٦٦). الإسلام بين العلماء والحكام، المدينة المنورة: المكتبة العلمية.

٣٩. ابن عبد البر (القرطبي الأندلسي)، أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ)، جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، مؤسسة الكتب الثقافية: بيروت.

٤٠. السيوطي، جلال الدين، (ت ٩١١ هـ).ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين. دراسة وتحقيق أبو علي طه أبو سريح، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر.

٤١. البغدادي، أبو بكر احمد بن علي بن ثابت الخطيب، (ت ٤٦٣ هـ). الفقيه والمتفقه، تحقيق الشيخ اسماعيل ألأنصاري، بيروت:دار الكتب العلمية.

٤٢. الدارمي، أبو محمد، (ت ٢٥٥هـ). سنن الدارمي، بيروت: دار الكتاب العربي.

٤٣. شبيب، محمود (١٩٨٤) المستنصرية أقدم جامعة في العالم الإسلامي، مجلة التربية، عدد ٦٧، ص١٠٢-ص١٠٤.

٤٤. شلبي، احمد (١٩٩٤) موسوعة الحضارة الإسلامية، التربية والتعليم في الفكر الإسلامي ط ٥، القاهرة: مكتبة النهضة العربية.

٤٥. عبد الرحمن، محمد عمر (١٩٨٦) المسؤوليات الاجتماعية للمشتغلين بالبحث العلمي والتكنولوجي، ورقة مقدمة الى ندوة تقييم نمو العلاقات بين العلم والتكنلوجيا والمجتمع في الدول العربية بجامعة قطر في الفترة (١-٤) كانون أول.

46. The Columbia Encyclopedia (2001), 6th ed. Columbia University press)

47. Mocron, Mary (1992). Arab Contributions to Civilization.
(Eric Document Reproduction Service No.361273)

٤٨. غيث، عبد السلام (٢٠٠٠). علم الفلك، إربد، جامعة اليرموك: منشورات عمادة البحث العلمي.

٤٩. العسقلاني، احمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ). فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مجلد١،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت.

المؤهلات العلمية

- حصل على شهادة الدكتوراه في فيزياء الفضاء من جامعة ولاية يوتا الرسمية في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٩٤م.
- حصل على شهادة الماجستير في الفيزياء من الجامعة الأردنية
- حصل على شهادة البكالوريوس في الفيزياء الجامعة الأردنية

السيرة العملية

١. أستاذ مساعد في جامعة ال البيت في عمان ١٩٩٤-١٩٩٩

٢. أستاذ مساعد في كلية التربية في الرياض ١٩٩٩-٢٠٠٠

٣. أستاذ مشارك في جامعة القدس - ابو ديس من ٢٠٠٠-٢٠٠٦

٤. رئيس قسم الفيزياء في جامعة القدس ٢٠٠٥-٢٠٠٦

الانتاج العلمي

- دراسة فيزياء بلازما الفضاء، حيث تم نشر (٣٠) بحثاً في مجلات علمية عالمية
- العديد من الدراسات في مجالات: الإسلام والعلم، والثقافة العلمية، والتربية، حيث تم نشر (١٠) أبحاث في هذه المجالات.

محمود أحمد أبو سمرة

المؤهل العلمي: دكتوراه

الرتبة العلمية: أستاذ المساعد

تاريخ ومكان الميلاد: ١٩٥٧

المؤهلات العلمية

- حصل على شهادة الدكتوراه في الإدارة التربوية من جامعة الخرطوم عام ٢٠٠٣
- حصل على شهادتي ماجستير، إحداها في الإدارة التربوية من جامعة القدس عام ١٩٩٩، والثانية في الفيزياء من الجامعة الأردنية عام ١٩٨٣
- حصل على شهادة البكالوريوس في الفيزياء من جامعة اليرموك عام١٩٨٠

السيرة العملية

١. عضو هيئة تدريس في جامعة القدس منذ عام ١٩٨٣

٢. محاضراً في دائرة الفيزياء حتى عام ٢٠٠٣

٣. وأستاذاً مساعداً في قسم التربية، الدراسات العليا ٢٠٠٣- وحتى الآن.

الانتاج العلمي

للدكتور اهتمامات بحثية في مجالات:

التربية وخاصة الإدارة التربوية، الثقافة العلمية، الإسلام والعلم، الفيزياء والفلك، حيث قام بنشر (٢٥) بحثاً في مجلات علمية محكمة.